الحقيقة الصعبة في الميزان

مناقشة وردود

تأليف

الأستاذ أحمد عمران

نقيب المحامين في اللاذقية سابقاً

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠


الحقيقة الصعبة
في الميزان

الطبعـة الثانية

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات :
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة .
ملك الاعلمي - ص.ب : ٧١٢٠
الهاتف : ٨٣٣٤٤٧ - ٨٣٣٤٥٣

PUBLISHED BY
Al Alami Library
BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120

اسم الكتاب : الحقيقة الصعبة في الميزان .

المؤلف : المحامي أحمد عمران .

مراجعة الآيات : الشيخ أحمد حمزة عبد الباقي

والدكتورة أمينة أحمد يحيى .

المراجعة اللغوية والتدقيق :الدكتور فائز يوسف محمّد.

قدم له السادة :

البحاثة الكبير حامد حسن .

والعلامة المجاهد الشيخ سعيد شعبان .

والشيخ أحمد حمزة والدكتورة أمينة يحيى .

والأستاذ محمد عبد الستار السيد .

وعلق عليه : الدكتور فتحي يكن ، والدكتور عبد اللطيف اليونس .

كلمة قيمة :

بقلم : العلامة المجاهد
الشيخ سعيد شعبان

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد قيّض الله تعالى للإسلام جنوداً يستمدون من الله تعالى قدرتهم وقوتهم من أجل أن يكونوا الصادعين بالحق والمدافعين عن الإسلام في وجه الهجمة البربرية الشرسة وفي وجه الهجمة الثقافية التي تلبس لبوس العلم وما هي من العلم في شيء. لقد كتب كثيرٌ من أعداء الإسلام كتباً ومجلدات من أجل إطفاء نور الله بأفواههم أو بأقلامهم وما علموا أن نور الله لا تطفئه الأباطيل أو الأكاذيب فالإسلام نور الله الذي سطع في العالم فآمنت به أممٌ من كل الجنسيات على اختلاف الألوان والألسن والقوميات وقام حجةً على الدارسين أكثر مما هو حجة على الجاهلين حاولوا تصوير الإسلام على أنّه بدعة نصرانية أو أنّه ترجمة للإنجيل باللغة العربية والواقع أن القرآن فيه الكثير من أقوال الأنبياء لأنه الكتاب الذي يؤمن بكل النبيين ولا يفرق بين أحد من رسل الله أنزله الله تعالى ليكون مصححاً لما حرفته اليهود والنصارى وهداية للضالين من الناس عن خالقهم وربهم ولكن حسد اليهود والنصارى للمسلمين على هذه النعمة السابقة جعلهم يشنون حرباً على الإسلام والمسلمين من أجل المحافظة على مكانتهم الكهنوتية التي كانوا بها يدخلون على المجتمعات الإنسانية بلبوس التقوى ومسوح الرهبان وراحوا يحرفون الكلم الطيّب عن مواضعه ويتقولون على الله ما لم يقل فانبرى لهم أفذاذ من العلماء يكشفون زيف مغالاتهم ويفندون مزاعمهم ويثبتون أنّ القرآن الكريم لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً وأنه جاء ليدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى

إلى عبادة الله بدلاً من عبادة المسيح عليه السلام فما دعا المسيح ولا موسى إلا لما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن هؤلاء الأفذاذ الذين تصدوا لفتنة هؤلاء المفترين على الله وعلى رسول الله فضيلة الأستاذ أحمد عمران حفظه الله ورعاه الذي انبرى في مؤلفه.

الذي رد فيه على افتراء أبي موسى الذي اختار لنفسه أن يكون أحد أعداء الإسلام وأحد أولياء الشيطان وهو يختبيء وراء هذا الاسم المستعار وأظن أن وراءه مؤسسات تبشيرية وإلحادية تحاول أن تطفيء نور الله ولكن الأستاذ عمران في كتابه قد رد على ذلك الزيف المزور بأسلوب علمي حقيقي لا بأسلوب علمي مزور كالذي انتهجه مؤلف كتاب قس ونبي.

إننا إذ نبارك لهؤلاء العلماء المتصدين للمتقولين والذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الحق ندعو أن يحفظهم الله تعالى ثابتين عليه مظهرينه في حياتهم وإنني لأبشرهم بأن ما يخافون عليه محفوظ بحفظ الله فقد أتعبوا أنفسهم جزاهم الله خيراً في الرد على هؤلاء وعليهم أن يكونوا على ثقة ويقين بأن حجة الله تعالى قائمة وبالغة وأن كلام الناس لا يمكن أن يلغي كلام الله مهما بلغ كلام الناس من الدقة والأساليب التي ما كانت في يوم من الأيام علمية لدى هؤلاء بل كانت إفرازات للتعصب ضد الحق الذي يواجه به المسيح عليه السلام حينما حاولوا قتله وصلبه لولا أن نجاه الله فكيف لا يواجهون المسلمين بكتب التشكيك في دينهم وكان الأولى بهم وقد عرفوا الحقيقة أن يتبعوها لا أن يحرفوها فورقة بن نوفل أسلم ولم يكن صاحب كنيسة ولم تكن الكعبة كنيسة للنصارى من يوم أن بناها إبراهيم خليل الرحمن ومحمد لم يكن مبلغاً عن ورقة بن نوفل بل كان مبلغاً عن ربه كما كان المسيح ومن سبقه مبلغين عن الله تعالى ونذكر بقول الله تعالى بالرد على هؤلاء ﴿**قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور**﴾ فمحمد هو خاتم النبيين باعتبار كبار النصارى الذين أسلموا لله بعد أن رأوا الحق المبين وكانوا حجة على كل الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله فمرحباً للمدافعين بأنفسهم حينما يدافعون عن الإسلام وعن أمتهم حين يدافعون عن القرآن لأن القرآن هو هداية الله تعالى لهذه الأمة ولجميع الأمم اسأل الله تعالى أن يكتب

الأجر لكاتبنا وأن يكثر من أمثاله وأن يجعل علمه نافعاً يجري الله تعالى به الأجر له في حياته وبعد مماته ما انتفع بمؤلفه مسلم أو اهتدى به ضال وأن ينير قلوب المسلمين بالهداية القرآنية كما استنار به قلب مؤلفنا العزيز حتى يردوا ضلالات الضالين عن أمتهم وأنفسهم والشعوب المتعطشة إلى معرفة الحقيقة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

طرابلس حرر في ١٦ ذو القعدة ١٤١٣ هـ
الموافق ٧/ ٥/ ١٩٩٣ م.

التوقيع

الشيخ سعيد شعبان



تقـديم :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمـد لله ربِّ العالمين والصـلاة والسلام على أفضل الخلق صاحب الرسالة الخالدة والمنهج القويم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى جميع إخـوانه من الأنبياء والمرسلين. وعلى الآل والأصحـاب والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وأشهـد أن محمـداً عبده ورسوله أرسله ربه إلى العالمين بشيراً ونذيراً. فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانـة وحض على اتباع الحق والابتعاد عن الزيغ وعلَّم أمته هذا الدعاء القرآني «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب». فجزاه الله عن العالمين خير الجزاء وأفاض عليه من الكمالات ما لا يعلم كنهه إلا الله.

أما بعد. . .

فقد اطلعنا على كتاب «الحقيقة الصعبـة» لمؤلفه الأستـاذ المحامي أحمـد عمران فراقنا مطلعُه وشغفنا به إلى آخره وامتلأت قلوبنا وعقولنا إعجاباً وهو يرد على كتاب «قس ونبي» المملوء بالمهاترات والمتناقضات والتزييف وتحريف الكلم عن مواضعه بأسلوب عقلي ومنطقي يدمغ الباطل ويدحضه وصدق الله العظيم القائل: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون﴾**. مع متانة الأسلوب وسلاسة العبارة وصحة النقل ودقة وبراعة الاستنتاج، ولا عجب فالمؤلف من خِيرة رجال المحاماة.

إن من أفضل أعمال البر. وأحسن خصال الخير في هذا العصر إظهار الحق وإزهاق الباطل بالحكمة والموعظة الحسنة لتتكسر أقلام الباطل أمام أقلام الحق. إننا لفي أشد الحاجة إلى مثل كتاب «الحقيقة الصعبة». نعم الحقيقة صعبة على نفوس أصحاب الباطل والهوى ولكنها نسمة رقيقة على نفوس أصحاب الحق.

لقد تصفحنا هذا الكتاب فوجدنا فيه الغاية المطلوبة، والضالة المنشودة، فجزاه الله عن أصحاب الحقيقة خير الجزاء وهدانا وهداه إلى ما يحب ويرضى - والحمد لله رب العالمين.

الشيخ
أحمد حمزة عبد الباقي
مدرس
مادة التربية الإسلامية في ثانويات
مدينة طرطوس

الدكتورة
أمينة أحمد يحيى
مدرسة
مادة التربية الإسلامية في ثانويات
مدينة طرطوس

الكتاب والمؤلف

بسم الله الرحمٰن الرحيم

.. الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

لئن كان لكل أمة ما تفخر به وتعتز وما تحرص عليه وتفديه بكل غال ونفيس فلأمة العرب ما ليس لغيرها من أمم الأرض جميعاً من مقومات الحضارة الإنسانية:

تملك هدية الله وهدايته، اختارها لحمل خير الرسالات لا ينازعها في ذلك منازع، اصطفى فيها رسوله وبعثه إليها وإلى البشر كافة بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة وندبها لتلقى الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض. وما كان للهادي المصطفىٰ ﷺ بعد أن أكمل الله دينه وأتم نعمته إلا أن يلحق بالرفيق الأعلىٰ فلكل أجل كتاب، والأسس والمبادىء والقواعد وأصول الشريعة هي الباقية ما بقي الزمان ولكنها لا تنهض بنفسها وإنما يحملها رجالٌ أمناء يؤدونها لرجالٍ مخلصين وعلى قدر عظمة الدعوة وقوتها تكون قوة ومكانة القائمين عليها. كما يتصدىٰ الأعداء والمعاندون والحاقدون وما أكثرهم في كل زمان ومكان للنيل منها ومحاولة هدمها يظهرون حين تختفي أجسادها ويختفون حين تفضحهم شموسها وإذا كنا نفهم ذلك الحقد الأبدي لليهود على الأمة العربية وروحها الإسلام منذ تلك الساعة التي شهد فيها العالم أكبر تحول في التاريخ وفي جدود الأمم ساعة مرت في منتصف القرن السادس المسيحي حيث تحولت فيها الإمامة وتحول فيها منصب الهداية من بني إسرائيل هذا الشعب الخبيث إلى بني إسماعيل العرب **﴿وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾** وتسلمت الأمة العربية زمام القيادة المباركة وتربعت على منصة العالم تضطلع بالإمامة وبهداية العالم قال تعالى **﴿وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمرِنَا لمَّا صَبَروا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾** وما قام به اليهود منذ فجر الإسلام الأول وحتى يومنا هذا من

الكيد للإسلام بكل الوسائل. وإذا كنا نفهم أيضاً أن معظم المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام الغالب عليهم هو الهوىٰ والقصد والجهل فمن عرف منهم الحق وعرف الإسلام كما هو لم يسلم من الهوىٰ وسوء النية ومن سلم منهم من سوء النية أوقعه جهله بمعاني الإسلام واللغة العربية بأباطيل وافتراءات والقليل جداً منهم من سلمت كتابته من الهوى وأقل من هذا القليل من سلمت كتابته من سوء النية والجهل فإن مثل ما كتبه المستشرقون عن الإسلام مثل الغابة الكثيفة الملتفة الأغصان يدخلها الإنسان في ظلمة الليل ولا مصباح معه فهو إنْ أمن لسع العقارب والحيات لا يأمن غز الأشواك.

. . . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الحملات الصليبية كان لها الدور الفعّال في تشويه دور الإسلام الحقيقي وإبراز صورة عنه ممسوخة ناقصة، مختلفة حملتها إلىٰ أوروبا وبثتها في العقل الأوروبي كما يقول ـ ليوبولد جايس «محمد أسد» ـ: [إن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ولكن كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً، لقد نشأ تسميم العقل الأوروبي كما شوهه قادة الأروبيين على الإسلام].

وليس غريباً أن يدفَعَهم هذا إلى تصور نظريات فاسدة عن النبي العربي الكريم ﷺ وعن القرآن الكريم بوحي من الله إضافة لعدم تمييزهم المصادر الموثوق بها من غيرها في نقولهم. إذ يعتبر المستشرقون أن دراسة الإسلام تؤخذ من القرآن والسنة وتفكير المسلمين في مدارسهم المتنوعة ومذاهبهم المختلفة، فالفقه الإسلامي وآراء المتكلمين ودواوين الأدب كالأغاني وكتب التاريخ كالطبري وأقوال العلماء وأرباب المذاهب كغلاة الصوفية ومتطرفي السلفية وغيرهم. كل هذه مصادر ومراجع تؤخذ منها الدراسات الإسلامية ويعتمد عليها في نقل النصوص والأخبار. فمنطق اعتبارهم أن تفكير المسلمين ومذاهبهم تساوي في الحجّية القرآن والسنة الصحيحة. وهذا التقدير لمصادر الإسلام جناية وجريمة في حق هذه المصادر. إضافة إلى أن الغرب يميل دائماً إلىٰ رد أخطاء ومواطن الضعف عند المسلمين إلى تعاليم ونفوذ الإسلام بدلاً من ردها إلى جهل المسلمين بالقيم الإسلامية وإهمالهم لها.

. . . ومهما يكن من أمر فإن ما أشار إليه ـ ليوبولد جايس ـ في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» إذ قال: «لا تجد موقف الأوروبي موقف كرهٍ في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات عدا الإسلام بل هو كرهٌ عميق الجذور يقوم في الأكثر على جذور من التعصب الشديد وهذا الكره ليس عقلياً فقط ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية».

أما ما لا يمكن أن نفهمه ولا حتى أن نقبله أن يوجد إنسان عربي واحد مسلماً كان أم مسيحياً يعتدي بكتاباته على أقدس الأقداس بالنسبة لأمة العرب والإسلام وأن يزرع في نفوس الأمة الواحدة الفرقة والشقاق والحقد والخلاف، ونحن نتمسك بقول الله تعالى ﴿لَتجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوةً للذينَ آمَنُوا اليَهود والذينَ أَشْرَكوا ولَتجِدَنَّ أَقرَبَهُم مَودّة للذين آمَنُوا الذينَ قالوا إنَّا نَصَارَىٰ ذَلكَ بأَنَّ مِنهمْ قِسّيسِينَ ورهباناً وأَنَّهم لا يَسْتكبرون﴾.

. . لذلك فاننا نخبركم بأن أبا موسى الحريري هذا الأفاك المشاق الذي دأب على اللبس والغش وقلب الحقائق وتصويرها بغير صورها من خلال سلسلته المعروفة «الحقيقة الصعبة» التي تطاول كل شيء إلا الحقيقة، ليس عربياً ولا مسيحياً وإنما مأجوراً صهيونياً يحاول الإفساد ولبس الحق بالباطل وأيقاظ الفتنة من رقادها.

. . ولكن ما من ضلالة تطل علينا بوجهها الأسود إلا ـ وسهم من سهام الله يقذف بها. وأن أهل الحق متتابعون يرث بعضهم بعضاً ينفون عن هذا الدين الحنيف تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وهذا ما قام به الأخ الكريم والمحامي المرموق الأستاذ أحمد عمران في كتابه هذا وإن لنا به الثقة المطلقة من حيث الذكاء العميق والتحقيق الدقيق والأمانة العلميّة والسيرة المرضية.

. . . وقياماً بواجب ديني ووفاءً بوعد استوعبت الكتاب قراءةً فاستعنت كثيراً ووجدت فيه كل ما نبتغيه رداً لكيد الكائدين وتفقيهاً لشبابنا الجاهلين وتقوية ليقين المؤمنين من خلال الأدلة المنطقية التي ساقها الأستاذ أحمد عمران في هذا الكتاب والوعي الرشيد الذي تخلل ردوده على الحريري. وتلك ميزة الفكر الملتزم بالحقيقة. . الملتزم بالتعبير عنها: ﴿كَذَلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جَفَاء وأَمَّا ما يَنفَعُ النَّاسَ فَيمكثُ في الأَرْضِ كَذَلكَ يَضربُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾
صدق الله العظيم.

. . . نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا التوفيق في سائر الشؤون إنه سميع مجيب.

محمد عبد الستار السيد

مدير

الأوقاف الإسلامية في محافظة طرطوس

المقدمـة

بقلم : الباحث الكبير والشاعر الملهم
الأستاذ حامد حسن

أبو موسىٰ الحريري رجل المواراة والمماراة

القرن العشرون لميلاد «الناصري» ابن مريم يكاد يلفظ أنفاسه ويرتحل محتقباً الكثير الكثير من المآسي والأوجاع التي أنزلها ببني الإنسان. والقليل القليل من الأفراح والمسرات!! والعقد الثاني من القرن الخامس عشر لمولد «المكي» ابن عبدالله، يُطل ولا ندرك بوسائلنا الخاصة. وطاقتنا البشرية ما يخبئه في بياض أيامه، وسواد لياليه لساكني هذا الكوكب!!

الناصري والمكي، وعلى امتداد هذه المسافة من الزمن حفَظَا للحياةِ قِيماً ضَمنت بدورها للإنسانية وفيراً من السعادة، وكثيراً من الطمأنينة المادية والروحية، وزرعت في مشاعر الإنسان آمالاً وراء حياته ودنياه كانت ـ وما زالت ـ عاملاً فعالاً في تنظيم سلوكه وعلاقته بالمجتمع.. لقد أترع: الناصري: عواطف الإنسان ومشاعره بما أفاضه عليهما من سكيب الرحمة وعذوبة المحبة وراحة الاطمئنان، وهدوء الروح.

وأشبع «المكي» هذه المشاعر، وأمرع هذه النفوس والقلوب بتلك «الثنائية» المتوازنة من فيض الروح ونعميات المادة، فاستقامت بعطائيهما الحياة وتواشجتِ العلائق في المجتمعات وتحدد دور الفرد، والأسرة والجماعة.

ولكن... جنوح النفوس ـ أو بعض النفوس ـ جنوحاً مادياً مفرطاً، ونزوعها نزوعاً أنانياً مقيتاً، ألحق بالمجتمع اضطراباً وفي مسيرة الحياة قلقاً وتشويشاً،

وبالتوازن المادي والروحي خللاً لم يلبث أن تجسّد خصاماً، ثم استحال عداءً، وامتهاناً للقيم المقدسة، وانتهى إلى الخروج على نظام الحياة العام، وتمرداً على تعاليم «الناصري» و«المكي» اللذين حملا رسالة السماء إلى أبناء الأرض فكانت الآلام والأوجاع.

لِنطوِ صفحات التاريخ السوداء التي تذخر بما تركته المادية والأنانية في سلوك الفرد والجماعة وما ترتب على ذلك من شقاءٍ وعذابات، وهزيمةٍ للقيم الأخلاقية والروحية!! ونقف في عصرنا الحاضر مستعرضين بعض مظاهر التفكك الاجتماعي والانفلات من ضوابط القيم والأخلاق. هناك مجموعة من الناس تتوارى وراء أسماء مستعارة تصدر كتباً تحت شعار «الحقيقة الصعبة». والحقيقة الصعبة ـ كما قلنا ـ كتب تتوالى تباعاً وسراعاً، ترمي إلى زرع الأحقاد، وإيقاظ الفتن، ونشر القطيعة، والتحريض على الوقيعة، بين المسيحية والإسلام، بين أبناء الوطن الواحد والأُمّة الواحدة، واللغة الواحدة، والآمال الواحدة... والمصير الواحد.

لقد أوغلت هذه المجموعة في الغرابة والتغريب، والعمالة والتخريب، باسم الدين، وتعمل جاهدة لخلق وبعث كل مثير في التاريخ، وخاصة ما خلفته عهود الظلام وعصور الجهالة.

إنها تستخدم الدين، أنبل المشاعر في الإنسان، وسيلة لغاية يتنكرها الوجدان والإنسان بلغ الاستهتار ـ عند هذه الجماعة، بالقيم والأعراف، والابتعاد عن الاعتدال والإنصاف أن رئيسها المتكلم باسمها، والحامل وزرها وإثمها، المتنكر باسم أبي موسى الحريري ـ أن ينكر على محمد (ص) رسول العرب والإسلام والإنسانية كافة، ما جاء به من ربه وحياً من المبادىء العامة والتعاليم، ويجأر بهذا النكران، ويمعن في هذا البهتان، ويحاول أن يقنع الناس بأن محمداً أخذ كل ذلك من قس مسيحي هو ورقة بن نوفل، وأن القرآن الكريم هو ترجمة «الإنجيل الأبيونيين» قام بها القس المذكور، وقام محمد بتبليغه إلى الناس، وغير ذلك من الأضاليل الأباطيل... لم يحترم أبو موسى الحريري عقيدة مليار من المسلمين أو يزيدون، منتشرين في كل القارات وضاربين في كل صقع، وموزعين تحت كل كوكب، ويتكلمون أكثر لغات العالم ويعيشون في ظل كل نظام.

اليهودية المسيحية:

لا نوغل في التاريخ لنَبش جذور هذه الفئة المعروفة تاريخياً باسم «اليهودية المسيحية» التي تتنكر وتنكر المسيحية ـ كما تتنكر وتنكر الإسلام، بل نكتفي بالإشارة ـ وبالإشارة فقط ـ إلى أن بولس الرسول أنكر هذه الفئة وأنكر عقيدتها التي تقوم على تقديس السبت وديانة المعبد، ودعاهم إلى التحرر من الانتماء السياسي والديني إلى اليهودية، فاعتبرته اليهودية ـ المسيحية خائناً، وتصفه بعض الوثائق اليهودية المسيحية بالعدو، وكانت أحداث أنطاكية سنة ٤٩م من أوائل شرورها ضد المسيحية.

وهنا يجب أن نلفت الأنظار إلى أن اليهودية ـ المسيحية والشهودية اليهوهية هما اسمان مختلفان في اللفظ متفقان في الغاية والعمل ضد المسيحية والإسلام لصالح الصهيونية العالمية.

المركزية الأوربية:

المركزية الأوربية تأسست مبدئياً عقب الحروب الصليبية التي استمرت زهاء مئتي عام بين الشرق والغرب سياسياً واقتصادياً، وبين المسيحية والإسلام دينياً ولعبت اليهودية المسيحية الدور الأكبر والأهم في تلك الحروب، والعمل على إبقائها واستمرارها، وضد مسيحيي بيزنطة خاصة. فالتاريخ يصف كيف كان الأوربيون الزاحفون إلى الشرق يجتاحون المسيحيين في البلقان وآسيا الصغرى ويقتلونهم ويدمرون ديارهم وينهبون أقواتهم، وبعد أن عدلت مخططاتها من الحرب المباشرة الدامية التي تقوم على القوة والسلاح إلى الحرب الخفية، التي تقوم على غزو العقل وتشويه الفكر وتهجير الثقافة والتاريخ والعمل على فصل المسلمين عن ماضيهم المجيد، والانحراف بهم عن أصالتهم لغةً وتاريخاً وثقافةً وحضارةً وفي هذه المرحلة وضمن هذا التخطيط تحولت اليهودية المسيحية إلى مستشرقين ومبشِّرين. وكل ثقيف حصيف في البلاد العربية والإسلامية يعلم من هم المستشرقون الذين يؤمون هذا الشرق ويقطنون العواصم العربية والبلاد الإسلامية باسم البحث عن الآثار والحج إلى الأماكن المقدسة وترجمة الآثار العربية

والإسلامية، كما يدرك الجميع دور الرديف الثاني للمستشرقين وهم المبشرون الذين يتخذون من المظاهر الإنسانية وسيلة لغاياتهم مثل تقديم بعض الخدمات الإنسانية كبناء المدارس والمستشفيات والمطابع ودور النشر وأمثالها. وقد كان أبرزهم في هذا القرن وفي هذه المنطقة من العالم الإسلامي الأب «لامنس» البلجيكي و«بولس شيخو اليسوعي ـ الحلبي» و«ماسينيون ـ الفرنسي» و«ريموند مارتيني الإيطالي».

وها هم اليوم يتابعون طريقهم، وينفذون مخططاتهم، وينشرون، تحت شعار «الحقيقة الصعبة» أفكارهم المسمومة، ويوالون مكائدهم ودسائسهم على العروبة والإسلام. وقد خندقوا في لبنان، البلد العربي الذي عانى ويعاني من تعاونهم مع الصهيونية عدوة المسيحية والإسلام، لبنان الذي حوَّلوه إلى مقرّ وممرّ للدسائس والعمالة وأشاعوا بين أبنائه عنصرية الدين، والقومية، والاقتتال، فدمَّروا بنيانيه، وسجروا سكانه. فهم، بالحقيقة المسئولون عن كل قطرة دمٍ أُريقت وتراق في لبنان وعن كلِ جدار تهدم، ومصير كل مهجَّر معذب محطم.

يقوم منهج أبي موسى الحريري على:

١ ـ تجريد محمد من الوحي والنبوة وأنه مجرد تلميذ لورقة بن نوفل.

٢ ـ تجريد القرآن من الوحي الإلهي وأنه ترجمة للإنجيل «الأبيوني».

وبهذا يقرر أن الإسلام بمفهومه العام ـ ليس شيئاً، وأن المسلمين ليسوا على شيء!! ويجرِّدهم من شرف الانتساب إلى دين سماوي ظلماً وعدواناً، وقصداً عمداً، وتجاهلاً لا جهلاً. لقد أساء أبو موسى الحريري إلى نفسه، وهذا غير مهم، وأساء إلى ورقة بن نوفل الذي اتخذ منه تكئته، ومنطلقاً إلى غرضه.

أبو موسى يفهم التاريخ المسيحي ويعلم أن الكنائس المسيحية في القرن السادس الميلادي كنَّ ثلاثاً فقط، الأولى في روما وهي الكنيسة المركزية، والثانية في أنطاكية وقد انشقت عن كنيسة روما على إثر خلاف ديني لاهوتي، وعقب مجمع مسكوني في القرن الرابع للميلاد، والثالثة كنيسة الإسكندرية. أما الجزيرة العربية على اتساعها، فلم يكن فيها كنيسة إلاَّ رهبانية في نجران، فما على أبي موسى إلاَّ أن يفتعل تاريخاً، ويستخدم أشخاصاً، ويقيم كنيسة في هذا الجزء من العالم تمتاز

بالأبيونية (الفقر والفقراء) وهذا أقرب إلى حياة العرب في ذلك الزمن، فكان ـ كما أراد أبو موسى ـ ورقة بن نوفل المتحنف هو المفكر وصاحب المشروع، والمنفذ. وكان محمد هو المنتقى المختار للتنفيذ، والمهيأ المعد لوراثة ورقة بن نوفل وكنيسته.

ولكن محمداً. . .

جاء بقرآن عربي ـ لا عبراني ـ ونزل به الروح الأمين مباشرة، لا بالترجمة التي يزعمها أبو موسى الحريري. وقد انطبقت كلياته العامة على ما في الرسالتين السابقتين عليه في الزمن أي الموسوية والعيساوية.

وأقصد بالرسالتين الموسوية والعيساوية قبل أن تمتد إليهما أيدي أتباعهما فتكتب أسفار التوراة اللاحقة على مدى ألف عام من موت موسى. وقبل أن تحكم الكنيسة على عشرين إنجيلاً بالإعدام باعتبارها مزورة، ومنها إنجيل أبي موسى «الأبيوني».

هذه الحقائق أجمع عليها الباحثون المؤرخون، ولا يستطيع أبو موسى وشركته لها دفعاً، وإن حاولوا الإنكار.

قلنا: إن محمداً جاء بقرآن مصدقاً لما بين يديه من صحيح الرسالتين، ومضيفاً ما اقتضاه تطور الحياة، والإنسان والمجتمعات، كما جاء إله محمد مفرداً غير متعدد ومجرداً غير متجسد. أما ما ورد في القرآن من وصف الفقراء والمساكين، والمهاجرين، وفي الرقاب «الفقراء» والمستضعفين في الأرض، فلا يصلح دليلاً على ما ذهب إليه أبو موسى، بأنها «الأبيونية» التي قام عليها إنجيله المزعوم.

كل حملة الرسالات السماوية كانوا «أبيونيين» فقراء، فموسى عمل أجيراً في مدين عند شعيب وتزوج ابنته بما استحق له من الأجرة.

وعيسى لم «يطوِّب» في إنجيله إلا الفقراء، وحارب الأغنياء. . . إن دخول جملٍ في سُمِّ إبرةٍ أسهل من دخول غني ملكوت السماء.

ومحمد اليتيم الذي يعيش في كنف عمه أبي طالب عمل في تجارة قريش مأجوراً.

وكـل الـرسـالات، ودعـوات المصلحين جـاءت لإنصـاف «الأبيـونيين» المسحوقين، ولنشر العدالة والمساواة، وإلغاء التفاوت الاجتماعي.

فلاسفة الغرب والإسلام:

لا نحاول أن نقنع أبا موسى الحريري وشركته المسـاهمة المغفلة بمكـانة الإسلام بين الأديان وتشريعه الذي تفتقر إليه وتقصرّ عنه الشرائع الموضعية، ولكن نسوق إليه ما لا يجهله ولكن يتجاهله من آراء علماء الغرب وفلاسفته ومؤرخيه وسيـاسييه ومفكـريه وهؤلاء ـ بـالطبـع ـ ليسـوا من اليهـوديـة المسيحيـة، ولا من المستشرقين المبشرين أبناء خلته ورفقاء رحلته.

١ ـ موريس بوكاي طبيب فرنسي معاصر أصدر كتاباً بعنوان «الكتب المقدسة» بطريقة المقارنة ومدى انطباق محتوياتها على العلم المعاصر ولا نتعرض لأحكامه، ولا نقف عند آرائه في التوراة والأناجيل في تاريخهما، ومدى انطباق ما جاء فيها عن الكون والإنسان ومظاهر الطبيعة على معطيات العلم المعاصر، احتراماً لمشاعر المؤمنين بهما إيماناً تقليدياً، ولكن نرى لزاماً علينا وإلزاماً لنا، والتزاماً بحوارنا هذا مع أبي موسى الحريري أن نورد غيضاً من فيض وجزءاً من كل ممـا أورده هذا الباحث النزيه عن محمد والقرآن، تاريخاً، وصحة نزول. ومدى إعجابه بما جاء في القرآن من آيات دالة ومنطبقة على مكتشفات العلم الحديث في الفلك والطبيعة والإنسان والكون، ومما قاله: «إن صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة، لا العهد القديم، ولا العهد الجديد، وقد عرضنا لتعـديلات العهـد القديم والعهـد الجديد قبل أن تصل إلينا بالحالة التي هي عليها اليوم، وليس الأمر كذلك بالنسبة للقرآن لأمرٍ بسيط وهو أن القرآن تثبت في عصـر محمد، ثم يـورد أسباب هـذا التثبيت، وقد تجاوزناها اختصاراً». ثم يقول:

«لو أن كاتب القرآن إنساناً فكيف استطاع في القرن السـادس المسيحي أن يكتب ما اتضح أن يوافق ويتحقق مع الحقائق العلمية في العصر الحاضـر؟؟».
ويقول:

«في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام، وقد طرحت دراسة هذه النصوص ـ أي الكتب المقدسة ـ بروح متحررة من كل حكم سابق، وبموضوعية تامة، وإذا كان هنالك من تأثير فهو من التعاليم التي تلقيتها في شبابي حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين بل عن المحمديين، لتأكيد الإشارة إلى أنَّ المعنى به دين رجل، وبالتالي هو دين عديم الفائدة تماماً إزاء الله. وأخيراً توصلت إلى إدراك زيف الأحكام الصادرة في الغرب عن الإسلام.

٢ ـ قال «غوته» الفيلسوف الألماني الأشهر: إن أية شريعة لن تتمكن من أن تعلو على شريعة محمد، وإن التشريع في الغرب ناقص، بالرغم من تقدمه، ناقص بالنسبة للتعاليم الإسلامية، وإننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا لم نصل إلى ما وصل إليه محمد وسوف لن يتقدم عليه أحد.

٣ ـ ويقول أرنولد توينبي الفيلسوف المؤرخ: إن الإسلام استنكر الشرك واعتمد عقيدة الإله الواحد، ولم يدخل في معركة مع رسالة عيسى، ولكن مع الكنيسة المسيحية التي استولت على عقول الروم، واستسلمت إلى ما دعت إليه الوثنية الإغريقية من الشرك، وإن عقيدة التوحيد في الإسلام هي أروع الأمثلة في توحيد العالم وفي بقاء الإسلام أملاً للعالم كله.

٤ ـ ويقول كارليل في كتابه «الأبطال» من العار على أي فرد متمدن أن يصغي إلى ما يُقال عن الإسلام، وآن لنا أن نحارب هذه الأقوال السخيفة المخجلة!.. وأسفاه ما أسوأ هذه المزاعم، وأضعف أهلها، وأحقهم بالرثاء، والرحمة، وعلى من أراد أن يبلغ منزلة في علوم الكائنات أن لا يصدق البتة شيئاً من أقوال أولئك السفهاء فإنها نتائج جيلٍ كفرٍ، وعصرِ جحود، وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح في حياة الأبدان ولعل العالم لم يرَ قط رأياً أكفر من هذا وألأم؟! ماذا؟! أقوال مخجلة، سخيفة، مزاعم سيئة، أهلها جديرون بالرثاء والرحمة، أقوال سفهاء.

نتائج جيل كفر، وعصر جحود، وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر، وموت الأرواح، والعالم لم يرَ قط رأياً أكفر من هذا وألأم؟!!

وعنا لأمر أبي موسى الحريري، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه، ومن فمك أدينك يا إسرائيل.

٥ ـ ويقول اللورد هولي: لو ندبت لجنة إنكليزية لفحص الدين الصالح ليتدين به العالم كله لأجمعت على الإسلام. وهكذا: يرى غاندي. وهوكنج أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة، والمؤرخ المعاصر، ستيفن رنسيمان مؤرخ الحروب الصليبية عام ١٩٥٠م.

الإتجاه الإنساني الجديد:

في هذه المرحلة المأزومة من التاريخ تلوح بوادر اتجاه إنساني جديد، يتنامى وجدانياً وتتسّع مساحته حضارياً، فيتجدد أمل الإنسان على هذا الكوكب المكدود، والذي يرتجف فزعاً وينتفض هلعاً وجزعاً كلما تصور الكوارث النووية، وما ينتظر الإنسانية من ويلات!! كل شعوب المسوكنة تتطلع إلى النظام الجديد، إلى المدينة الفاضلة حيث يتحقق حلم الأنبياء والفلاسفة والمصلحين بنشر الحب والإخاء والمساواة، ويعم الرخاء ويسود السلام، ويقضى على النزعات الشريرة.

في هذه المرحلة ـ مرحلة الأمل والتطلع، والترقب والتوقع ـ يأتي هذا «الأبو موسى» ولفيفه من بقايا اليهودية المسيحية، فيشرعون الأقلام ليغتالوا دعوة ودعاة الإسلام ويتخذوا من الدين، ومن رسالات السماء، ومما يوحى إلى الأنبياء وسيلة لنشر الفتن على الأرض!!

كل ما يكتبه الحريري وينشره عن محمد ورسالته، والإسلام وتعاليمه وتاريخه. ليس بذي بال، ولا يأخذ سبيله إلا إلى نفوس الجهلة وأهل الغفلة، ولا يجني من وراء كل ذلك إلا المقت والاستهجان والازدراء والشفقة أحياناً، وقد تكون الشفقة أمرّ وأقسى وأبلغ وأوجع من العقوبة!!

من بوادر هذا الاتجاه الجديد ومن دلائل هذا الأمل وذلك الانفتاح، واللقاءات على المستويات العليا والتي نشطت في عام ١٩٦٨م حيث دعت الجمعية الأمريكية «هيكل التفاهم» إلى عقد اجتماع ومؤتمر عام في جامعة جورج تاون في

مدينة واشنطن حضره ممثلون عن الإسلام واليهودية والمسيحية والبوذية، والهندوكية والكونفوشيوسية، لبحث القضايا الروحية الأساسية التي تؤدي إلى التفاهم بين الأديان للعمل في سبيل السلام في العالم. وبعد مدة استأنف هذا المؤتمر أعماله وانعقد في كلكوتا في الهند وحضره اثنان وثلاثون عالماً وممثلاً دينياً يمثلون أحد عشر ديناً من أديان العالم. وتمّ بحث الدور الذي يجب أن تقوم به الأديان السماوية في القرن العشرين في إحلال السلام في عالم تسوده الحروب والمجاعات والمذابح.

ثم عقد المؤتمر مرة ثالثة على نطاق أوسع في مدينة جنيف في سويسرا حضره سبعون عضواً يمثلون أديان العالم على اختلافها، وتكلم المؤتمرون حول الموضوع ومنهم:

١ ـ راعي الكنيسة الإنكليزية في جنيف.

٢ ـ مدير تشريفات ولاية جنيف.

٣ ـ السيدة بيرن «الهند» ممثلة جمعية «هيكل التفاهم».

٤ ـ السيدة فتلي دان المدير التنفيذي للمؤسسة.

٥ ـ السيدة ديكرمان هولستنر رئيسة المؤسسة.

٦ ـ أوجيه بليك الأمين العام لمجلس الكنائس العالمي الذي حمل بشدة على الاعتداءات والمظالم والمذابح التي اقترفت ـ وما زالت تقترف باسم الدين.

٧ ـ السيد ظفرالله خان رئيس محكمة العدل الدولية في لاهاي.

٢ ـ الوثيقة البابوية:

وهناك تغير جذري، ونشاط صاعد، يتحققان اليوم وعلى أعلى المستويات أيضاً في العالم المسيحي باتجاه العالم الإسلامي. فالوثيقة التي طبعتها سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين عقب اجتماع مجمع الفاتيكان الثاني ـ بعنوان «توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين» والتي طبعت ووزعت للمرة الثالثة عام ١٩٧٠م. هذه الوثيقة دعت إلى استبعاد الصورة التي يصوِّر المسيحيون المسلمين عليها، وتنتقد مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن الحتمية الإسلامية وحرفية الإسلام وتعصبه، وتؤكد وحدة الله عند الجماعتين.

٣ ـ ومحاضرة الكاردينال كونيج في الجامع الأزهر في القاهرة لا يزال يتردد صداها ويستجاب نداها في كل العالم.

٤ ـ وفي عام ١٩٦٧م دعت سكرتارية الڤاتيكان العالم المسيحي إلى تقديم التهاني للمسلمين في عيد الفطر، وهذه ظاهرة لها دلالتها.

٥ ـ على أعلى مستوى قامت زيارات، وتمت اجتماعات بين الإسلام والمسيحية، ففي إبريل (نيسان) من عام ١٩٧٤م قام الكاردينال بنيو دولي رئيس سكرتارية الڤاتيكان لشؤون غير المسيحيين بزيارة رسمية لجلالة الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية وسلمه رسالة من قداسة البابا مدفوعاً لذلك بإيمانه العميق بوحدة العالمين المسيحي والإسلامي اللذين يعبّدان إلهاً واحداً.

٦ ـ في أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٧٤م استقبل قداسة البابا رسمياً بالڤاتيكان علماء المملكة العربية السعودية، ودارت ندوة مسيحية مسلمة حول حقوق الإنسان الثقافية في الإسلام، وكرست جريدة الڤاتيكان في عددها الصادر في ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٤م مكاناً كبيراً وبارزاً لهذا الحدث، أكثر مما كرسته لليوم الثاني لمجمع الأساقفة المنعقد في روما.

٧ ـ واستقبل المجمع المسكوني الأعلى للكنائس بجنيف وغبطة البطريرك ألشنجر أسقف استراسبورغ كبار علماء المملكة العربية السعودية بكاتدرائيته ودعاهم لأداء فريضة الظهر أمامه.

٨ ـ صرح قداسة البابا بولس السادس بإيمانه العميق بوحدة العالمين المسيحي والإسلامي.

٩ ـ وصفت وثيقة الڤاتيكان المسيحيين ـ من أمثال أبي موسى الحريري ـ بأنهم أعداء لكل تأمُّل في الإسلام، ويظلون في جهالة لحقيقة الإسلام لأن مفاهيمهم عنه هي مفاهيم مغلوطة!!

وبعد كل هذا:

نسأل أبا موسى الحريري وشركته اليهودية ـ المسيحية ـ اليهوهية ـ التي تمتهن العمالة للصهيونية، وتذيع البغضاء، وتكرس الكراهية بين الأديان وخاصة المسيحية

والإسلام، هل هو ولفيفه مسيحيـون؟؟ مرتبـطون بقيادة دينيـة وفكريـة اجتماعيـة إنسانية؟ أم هم المسيحية ـ اليهودية ـ اليهوهية التي تشوه وجه المسيحية الجميل، وطهارة قلبها الرحيم؟؟.

هذه الاتصالات، وهذا الانفتاح، وهذا التقارب بين الرسالتين السمـاويتين المسيحية والإسلام تبشر العالم ـ كل العالم ـ بفجر جديد ينير طريق الإنسانية وينشر في الناس ـ كل الناس ـ الطمأنينة وروح الحب والإخاء والسعادة والعيش المشترك.

ومما لا شك فيه؛ ولا ريب يعتريه، أن هذا التقارب، وهذا التفـاهم، قد أقَضَّ مضجع دُعَاة التفرقة وأوجع أرواحهم، وفي طليعتهم أبو مـوسى الحريـري وشركته اليهودية ـ المسيحية اليهوهية فأرهفوا أقلامهم وأحـدوا أظفارهم، وانقضـوا على الإسلام هدماً وتحطيماً وتدميراً، وطلع الحريري بهذه الفترة ـ فترة الانفتاح ـ والدعوة الخيرة والفكرة النيرة، بسلسلة كتب «الحقيقة الصعبـة» ومنها كتـابه قس ونبي، ومجتمع مكة، وأعـربي هو؟، والنصيـريون العلويـون، ومحنة العقـل في الإسلام لزميله مصطفى جحا الذي لقي جزاءه عاجلاً في الشارع العام، وفي وضح النهار.

لسنا مع التصفيات الجسدية ونشجب اغتيال الأشخـاص، ولكننا لسنـا مع اغتيال الدين والحب والإخاء والسلام والمثل العليا المقـدسة. في كتـابي «وجهاً لوجه أمام التاريخ» الذي صدر مؤخراً تعرضت لأبي موسى الحـريري و«كتَبَـة» «الحقيقـة الصعبة». مستنكـراً أشد الاستنكـار ما قـامت وتقوم بـه من «التخريب الاجتماعي»، والتشويه الفكري، والتضليل التاريخي باسم الدين، والعمل الدائب المتهالك على زرع الأحقـاد وبث الفرقـة والتقاطـع بيد المسلمين والمسيحيين. أشرت إلى ذلك، ولكن بصورة عاجلة، ووعدت القرّاء بـالعودة إلى دراسـة هذه المنشورات، وإظهار زيفها، وإعلان غايتها في فترة لاحقة آجلة وأبقيت الباب بيني وبينها مفتوحاً والحساب جارياً.

وشاء القدر، وللقدر مشيئته، أن يتصدَّى لهذه الشركة ولرئيسها أبي موسى الحريري، الناطق باسمها، الحامل وزرها، وإثمها كما سبق وقلنا.

يسَّر الله للحقيقة داعماً وناصراً، وللضلالة راغماً وداحراً، هو الأستاذ الأديب

الباحث المحامي أحمد عمران، المعروف على مستوى العالم العربي ومؤتمراته الحقوقية، باجتهاداته القانونية، ومؤلف هذا الكتاب قَلَمٌ نبيل لا تنقصه الحجة، وباحث لا تتوارى عن ناظريه المحجة، يتعقب أبا موسى الحريري، فيظهر دفينه، ويكشف كمينه، لا يغطي عليه خبيئه ولا يغفر له كفران نسيئه.

قَلَمٌ يترفع عن المهاترة، وسقط القول، وارتجال الأحكام.

يوقف خصمه عارياً أمام صباح الحقيقة، مدلّلًا على بهلوانياته وتهالك أسلوبه وتهافت آرائه، وعقم أفكاره.

أقام الأستاذ عمران منهجه على:

١ ـ حجج النقل ومحكمه، بعيداً عن الظنّيّ والمتشابه.

٢ ـ على حجة العقل البالغة، لا على الاحتجاج الصوري.

وهل تولد الحقيقة وتدرج إلّا في ظلال النقل صحيحاً؟ وعلى العقل صريحاً؟

وجاء كتابه هذا، محكم العبارة، دقيق الإشارة، بعيداً عن الإثارة، يحاور هادئاً، ويناقش متزناً، لا يميل إلى المماحكة، ولا تتحكم فيه العاطفة، ولا تثيره التحديات والأحكام المفتراة، كتجاوز الحريري على المقدسات وعدم احترام المعتقدات، والذي بلغت حتى تحوير الآيات المحكمات.

لقد استطاع الأستاذ عمران أن يضرب على الحريري وأفكاره جداراً من التحقيق الدقيق وحصاراً محكماً من التوثيق الذي استخرجه من بطون الكتب والمصادر والمظان، فظهر أبو موسى الحريري على حقيقته: «رجل المماراة والمواراة».

لقد وفى الأستاذ عمران بما عاهد الله عليه من الدفاع عن «الحق» والانتصار له منذ امتهن المحاماة، ورفع الظُّلامات، وبرأ ذمتي لدى القراء مما وعدت وواعدت، وأنجز عني ما ارتبطت به من وثيق العهد وصحة العقد، وهو في هذا المجال أكفأ مني وأدرى، وقلمه أجرأ وأجرى وضرع أدبه أدرُّ وأمرى، وكنزه العلمي والأدبي والفكري أغنى وأثرى. ولكن...

لي عودة لدراسة كتابه هذا دراسة موسعة إن سمح وأراد وعملاً بقول الشاعر:

«وهل يملُّ الرياضَ الفيح مرتادُ؟»

الدريكيش ٢١/ ١/ ١٩٩٣ م — حامد حسن

الحقيقة الصّعبة في الميزان[1]

لمؤلفه الأُستاذ أحمد عمران

بقلم الدكتور : عبد اللطيف اليونس

هذا الكتاب . . من أنفس ما قرأت في الآونة الأخيرة ـ إن لم يكن أنفسها جميعاً .

إنه كتاب جامع شامل ، ومن الصعب الإحاطة بمواضيعه في مقال واحد ـ وهيهات . .

ومؤلفه الكاتب الكبير، والمحامي القدير الشهير ، الأُستاذ أحمد عمران .

وقد تناول مواضيعه وعالجها، بمنتهى الدقة والعمق والرؤية والسعة والشمول .

وزاد في غنى هذا المؤلف الضخم كثرة الاستشهادات والعودة إلى ينابيعها الأصيلة، واستشفافي معانيها الرحبة ـ التي تدور في تيارات من الفكر ، وبحار من الثقافة لا حد لها .

والكاتب الكاتب . . هو الذي يستنبط أفكاره من مخزونه الثقافي . . ومن الينبوع الذي أغنته كثرة مراجعاته ومطالعاته .

فمهما كان الفكر رحب الأفق ، واسع الشطآن . . فلا بد له من الاطلاع على أفكار الغير ، وسبرها، والإحاطة بها، والغوص في أجوائها . .

وغنى الثقافة لا يكون إلاّ بكثرة المطالعة، وأن ينصرف الكاتب إليها، وينكب عليها .

---

(١) نشر هذا المقال في جريدة حمص ـ عدد ٢٠٧٧ الجمعة ١٦ ـ أيلول سنة ١٩٩٤ ، وتأسست الجريدة عام ١٩٠٩ تصدرها طائفة الروم الأرثوذكس .

فالمطالعة . . هي الزاد الحقيقي للفكر ـ وهي التي تغنيه ، وتوسع آفاقه ، وتفسخ أمامه مجال التأمل الواسع العميق .

وكل شيء . . يمكن أن يحده شيء ـ إلاّ الفكر . . فإنه لا حدود له ، ولا شيء يحول بينه وبين الانطلاق، وارتياد المجهول . .

وكثيرون من العلماء ، لا يعنون بالأسلوب ، ولا يأبهون له .

فهم يسعون وراء الفكر واقتناصها ، غير مهتمين بكيفية إيرادها ، والتعبير عنها ، وعرضها بأسلوب شيق أخاذ .

ولذلك تأتي كتابة بعضهم جافة ـ ليس فيها حلاوة ورقّة ونعومة .

فمن يقرؤها . . إنما يلذه المعنى ، وتستهويه الفكرة ـ وليس جمال الأسلوب، وحلاوة اللفظ وأناقة التعبير . .

وأما الكتاب المثقفون . . فإنما يأبهون للأسلوب ، ويعنون به، ويؤثرونه .

ولذلك . . تجد في كتابتهم نعومة اللفظ ، وحسنه ، وحلاوته، ورشاقته .

ويؤخذ القارىء بأسلوبهم ، وينساق في تيار تفكيرهم، ورقّة تعبيرهم ، وأناقة تصويرهم .

وفي يقيني ، أن أية فكرة لا يكون التعبير عنها شيقاً ورقيقاً وأنيقاً لا يمكن أن تستهويك ـ كما تستهويك الكتابة الأنيقة الرقيقة الحلوة .

وأنا بهذا القول . . لا أحط من قيمة ما يكتبه العلماء . . ذوو الفضل الذي لا ينكر ، والأيادي التي لا تجحد ، وأعوذ بالله من هذا .

وإنما أحب أن أميز في الكتابة . . بين أسلوب العالم ، وأسلوب الأديب .

وكتابة الأستاذ أحمد عمران تمتاز بأنها تجمع الأمرين معاً :

فكرة العالم ، وأسلوب الأديب .

وهي ميزة . . قلّ من تحلى بها إلاّ نادرون . .

في كتابته العمق والسلاسة ، والدقة والرقّة ، والسعة والشمول ، وأكثر ما يؤخذ به القارىء في هذا الكتاب، ويبعث على تقديره وإعجابه . . كثرة الاستشهادات ، والعودة إلى ينابيعها الأصيلة ـ المتعددة الجوانب والأشكال .

ثم القدرة على عرض الموضوع وسرده ، ومعالجته والإحاطة به . . وهو ما لا يتسنى إلاّ لذوي الثقافة الواسعة والإطلاع العميق .

والأستاذ أحمد ع.ران ، مثلما هو محام كبير ،فهو كاتب كبير ، ومفكر واسع الأفق ، رحب الشطآن . .

ولا شك أن مؤلفه هذا . . قد أغنى المكتبة العربية ، وسد نقصاً واسعاً فيها .

وإنه لغنى للأدب والعلم ، أن ينصرف إليها هذا الكاتب الأنيق الكلمة ، العميق الفكرة ، المشرق الديباجة .

فتحية له . . وليراعته الخلاّقة المبدعة .

ومزيداً من العطاء الفكري والأدبي . . حتى تثري المكتبة العربية ، ويزداد امتلاؤها .

ومرحى . . ثم مرحى .



ـ تمهيد ـ

«الحقيقة الصعبة» سلسلة من الكتب بدأت في الظهور منذ أواخر سبعينات هذا القرن وركزت اهتماماتها على القضايا الإسلامية فطرحت أبحاثاً وقدمت دراسات حول القرآن وصلته بالإنجيل وحول النبي محمد وعلاقته «بورقة بن نوفل». وكانت فيما طرحت وقدمت جادَّةً في إيجاد قناعة لدى المسلمين ـ على الأخص ـ أنهم يعتنقون الخطأ فيما يدينون ويعتقدون منذ أربعة عشر قرناً. وأن ما بين أيديهم من كتاب وما يمارسونه من طقوس، وما يدخرونه من معتقدات ليس ديناً مستقلاً، بل هو تجديد وترجمة للإنجيل، ونسخة كاملة عن الدين المسيحي. وأن نبيَّهم محمداً ليس غير التلميذ الذكي الذي تلقى علمه وتدريبه عند ورقة بن نوفل ـ قس الجزيرة العربية وعظيم العرب.

ثم تصل هذه الكتب إلى الهدف الذي ترمي إليه، وهو خلخلة القناعات والعقائد الإسلامية، عن طريق الادعاء «بالحياد والعلمانية» ودعوة محبي الحقيقة وطلابها إلى تعاون ميداني لإزاحة التراب الذي أهيل على جسدها ومنع عنها الهواء والضياء.

كتاب «قس ونبي» وكتاب «أعربيٌّ هو» و«كتاب عالم المعجزات» و«كتاب نبي الرحمة وقرآن المسلمين» وغيرها من هذه السلسلة، صدرت باسم شخصية غامضة، عرَّفت عن نفسها بكنيةٍ ونسبة، زادتاها إبهاماً وغموضاً. أما الكنية فهي «أبو موسى» وأما النسبة فهي «الحريري»... وكنا من قبل نظن أن فؤاد أم موسى وحده هو الفارغ ولكننا بعدما قرأنا سلسلة الحقيقة الصعبة، ووضعناها موضع النقد والتدقيق، وجدنا أن فؤاد أبي موسى هو أشد وحشة وأكثر غربة[1]. ففي القرآن إن

---

(١) في القرآن: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ (٢٨/١٠).

الله ربط على قلب أم موسى بعد أن كادت لتبدي به فتحكمت بعواطفها وملكت زمامها، أما أبو موسى فقد جفته عناية الله، فلم تربط على قلبه. لذلك ظل محكوماً في كتبه بالعواطف اللدودة الموروثة منذ الزمن البعيد، وظلت هذه العواطف مخزنَهُ ومرجِعَهُ فيما حلل وفسر واستنتج واستدل.

من هو أبو موسى؟ من أين هذه الكنية وما هو وجه الصحة فيها؟ ما هو اسمه المجرد؟ أين موطنه وعنوانه؟ ما هو انتماؤه في الدين والسياسة؟

هل هو شخص مفرد عادي؟ أم هو مظلة وجدار لمؤسسة فكرية سياسية من تلك المؤسسات التي ما فتئت تغزو قيم العالم العربي ـ الإسلامي وعقائده وتاريخه منذ أن طردت جحافلها من بلادنا؟

كتلةٌ من الوهم والتنكر، هو أبو موسى ومؤسسته.

وحرص هذه الشخصية على الانزواء، يبدد كل افتراض بحسن نيتها، فالصدق لا يخاف الضوء، وفي الظلام يختبىء الخُطاة.

هذا «التواري عن الأنظار» مع هذا العدد من الكتب، ذات الحساسية المفرطة مع هذا الأسلوب التلفيقي اللزج، يعيد إلى الذهن جماعة النورانيين[1] التي تُعَدُّ المصدرَ التاريخي لما يدعى «بروتوكولات حكماء صهيون»، فقد أصدرت توصية في عام ١٩٧٥م حذَّرت فيها أتباعها وأشياعها وشبكاتها المبثوثة في العالم بشكل عام، وفي البلدان الإسلامية بشكل خاص من مجابهة الأديان وجهاً لوجه وبالأخص الدين الإسلامي وحظَّرت الحرب الفكرية المباشرة ودعت إلى إبدالها بحملات فكرية (كتب ـ مجلات ـ أبحاث) تفرغ النصوص الدينية من محتواها ومعانيها الثابتة وتربطها بمعانٍ وأفكارٍ أخرى من شانها أن تتعارض مع رسالة الدين وأهدافه وأن تبدد الرؤية إليه ثم تيسر سبيل الإعراض عنه والانفلات منه[2].

وقد وضعت هذه الجماعة، تفسيراً للقرآن، يقوم على مقولاتها ويدعم أهدافها وغاياتها[3].

---

(١) هيأة يهودية مقرها في ڤيينا تصدر الوثائق والتوصيات والدراسات الهادفة لخدمة الصهيونية.

(٢) نهج الإسلام عدد ٤٢.

(٣) نهج الإسلام ذات العدد.

فاحرص أيها القارىء:

وأنت تقرأ في كتب «الحقيقة الصعبة» وكن على حذر شديد، فقد اعتمدت أسلوباً يسلك من بين يديك ومن خلفك، ويحيط بقناعاتك وقيمك، ينفث عليها من لعابه الزعاف.

تمهل في القراءة، تمعن وأعد ما قرأت، وتتبع المصادر التاريخية واللغوية واستعن بما لديك وبما تستطيع الحصول عليه من سيَرٍ وأخبارٍ وشروحٍ وتفاسير، لآيات القرآن، أحكاماً، ومناسبات، وإعراباً وتحليلاً، فإنما أنت هدفٌ لحربٍ فكريةٍ ضروس، تقف فيها أفكارك ومعتقداتك وتاريخك وقيمك، وجهاً لوجه أمام غازٍ شديدٍ انتضى أمضى الأسلحة وأكثرها تطوراً وتنوعاً وتقنية.

لو لم يتنكَّرْ أبو موسى لما استنكرناه، بل كنا قابلنا فكره بما ينبغي من تقدير واهتمام. وكنا ـ فوق هذا ـ احترمنا لديه صراحة الفكر وجرأة الكلمة، ولكنه يا للأسف.

بدلاً من ذلك، اختار أن ينزوي في الظلام.

لقد استقطبت هذه الكتُبَ، شخصيتان. واستقلَّت بها فكرتان.

الشخصيتان هما: ورقة بن نوفل والنبي محمد.

والفكرتان هما: إن الوحي والموحي هو ورقة بن نوفل، وإن المتلقي والمبلِّغ هو محمد.

تقول هذه الكتب:

إن ورقة بن نوفل، كان «قسّاً» على كنيسة مكة النصرانية، وكانت أبرشيته تغطي بلاد الحجاز في الإشراف على انتشار النصرانية والتبشير بها وممارسة طقوسها وفروضها. وإن هذا الكاهن الجليل رأى إلى المستقبل البعيد فصمم على إبقاء كنيسة مكة منارة دائمة الإشعاع، فتعهد محمداً منذ طفولته وطوال أربع وأربعين سنة بالتدريب والتعليم، والإعداد والتثقيف، لكي يكون خليفةً له بعد موته على قسوسية مكة وقيادة الحركة النصرانية في الجزيرة العربية. لقد عكف ـ كما تقول هذه الكتب ـ على ترجمة الإنجيل من العبرانية إلى العربية لكي يقدمه محمد إلى العرب

«الأميين» ويصبحوا بذلك من أهل «الكتاب» شأنهم شأن اليهود مع توراتهم، والمسيحيين مع إنجيلهم.

فكان من ذلك كله: القرآن.

وفي كل مرة، يورد أبو موسى، بحثاً، أو وصفاً، أو تحليلاً، أو تقييماً، لشخصية النبي محمد، يعتذر عن جفاف أسلوبه، متذرعاً بأنه يكتب في العلم، ونهج العالم في البيان، يكون ـ على الدوام ـ بعيداً عن الشعر والخيال. فهو يتبع الأسلوب التدريسي، مثلما يفعل الأستاذ حينما يشرح قانوناً علمياً أو نظرية إجتماعية. وهذا الإعتذار صحيح ومقبول من حيث المبدأ، أي، حينما يكون في الموضوع جفاف العلم وصلابته وحدِّيَّتهُ ومحدُوديِّته، ولكن الأمر على النقيض عندما يكون موضوع الدراسة شخصية إنسان وآثاره، شخصية فذة صنعت الأحداث ولم تصنعها الأحداث واتحدت بها اتحاد حياة وموت وارتبطت بما صنعت ارتباط قول وعمل، فجاء كل من الشخصية الصانعة والأحداث المصنوعة معبِّراً عن الآخر تعبير نهج ووجود. فإن من واجب الأسلوب آنذاك أن يهجر الجفاف ويلقي على الموضوع ما يستحقه من الحيوية والتكريم.

على أننا في هذه الدراسة، لن يهمنا أسلوب أبي موسى، ولن يستوقفنا خلوُّ كتبه من العبارات الخضراء التي يستريح عندها المسافر.

بل سوف نهتم، بالمعاني القريبة، والغايات البعيدة. في هذه الكتب، سوف نتتبَّعهُ، فصلاً فصلاً، وفاصلةً فاصلةً، وموضوعاً موضوعاً وسوف نقف وإياه جنباً إلى جنب عند عتبات النصوص والآيات فندخل سوية إلى حرمها، ونقرأ سوية سطورها وكلماتها وحروفها ونتقصَّى ـ مشتركين ـ أبعادها وغاياتها، وسوف تكون على مرامي أعيننا كتب المعاجم اللغوية والمراجع التاريخية وكتب التفسير والحديث. وإذ ذاك سوف نكتشف معاً حقيقة «الحقيقة الصعبة» وسوف نلمس لمس اليد وندرك إدراك اليقين أهدافها وغاياتها.

وثمة أمر، لا بد من التأكيد عليه:

هو أن هاجس اهتمامي لم يكن محصوراً، بالمسلمين، بل تجاوزهم ليكون

في كتابي جواب على كل مقولات أبي موسى، وإزالة لعناصر التيه والتضليل التي قامت عليها تلك المقولات.

إن أهل الفكر كافةً، مسلمين وغير مسلمين، ممن قرأوا سلسلة كتب أبي موسى، فحدثت خلخلة في جدران قناعاتهم العلمية والتاريخية. هؤلاء جميعاً هم هاجسي الذين أتوجه إليهم بهذا الكتاب.

هؤلاء أطلب منهم ـ وهم يقرأون هذه الدراسة ونقيضها في سلسلة «الحقيقة الصعبة» أن يستحضروا «القرآن» و«تفاسيره» و«شروحه اللغوية» ومراجع التاريخ التي حددت زمان الآيات ومناسباتها وغاياتها، وأن يتريثوا وهم يقرأون ويقارنون.

وإذ ذاك... سوف يكتشفون أن الصعوبة التي وَصَفَتْ هذه الكتبُ نفسها بها تكمن فيما بذلته من جهود وهي تدور حول الآيات دوران الرحى لتقتنص منها ما يؤذي مشاعر المسلمين في كتابهم وقيمهم.

وبعد هذا:

سوف يكتشفون مقدار الجرأة واللامسئولية العلمية والأدبية التي سادت في فصول هذه الكتب والتي سارت عليها طوال الطريق.

لقد قدم أبو موسى نفسه باحثاً حيادياً، وعالماً من علماء التاريخ، وناقداً متفحصاً في بطون الزمن وأمهات المراجع، مجاهداً في سبيل الحق. وقال إنه استنطق الأرض سهلاً وجبلاً وحدق طويلاً في الفضاء والسماء وتتبع حتى شذرات الأقوال ونُتَفَ الأنباء وما زال جاهداً لا يمل ولا يكل حتى استطاع أن يمسح عن شخصية «ورقة بن نوفل» المميزة الفاتنة ركام الإغفال والإبعاد، ويبعثها من غيبها، في إهابها الحقيقي، إهاب المعلم الحكيم، مؤلف القرآن وواضع سورِهِ وآياتِهِ، والصانع المبدع لشخصية محمد بن عبدالله.

وأنت: أيُّها القارىء للكتب «الصعبة» سوف ترى أن خيال أبي موسى لا حدود له.

إنه ـ على زعمه ـ يقدم إلى الناس، وإلى المسلمين منهم بخاصة قراءة جديدة لقرآنهم وتحليلاً علمياً لرسالة نبيهم، وفهماً معمقاً لمنشأ هذه الرسالات والأحداث والأحكام التي نشأت عنها وبسببها وترافقت معها واستمرت بعدها،

دراسةً جديدةً، يقول عنها «أبو موسى» إن العالم لم يعرف لها مثيلًا من قبل. فهو يأخذ بيد هذه الكتلة البشرية الضخمة (العالم الإسلامي) التي تسير على غير هدى وبيان منذ أربعة عشر قرناً ليضعها على الطريق الصحيح ويغسل من رأسها تلك المسلّمات التي شهد لها العلماء المسلمون «شهادة زور وشهد لها الباحثون شهادة خطأ من بدء الإسلام» (هذه عبارته).

فأبو موسى وحده من بين تلك الخلائق التي قرأت القرآن، فاعتنقته وتلك التي قرأته فدرسته وألّفت عنه، والمؤرخون عرباً وغير عرب وعلماء الاجتماع. وحده أبو موسى أدرك دون سواه، أن القرآن ليس وحياً أُوحي إلى محمد، بل هو ترجمة عن الإنجيل العبراني إلى اللغة العربية، قام بها ورقة بن نوفل. وأن محمداً ليس في حقيقة دعوته ولا في غاياته وأهدافه، أكثر من مشروع خليفة على قسوسية مكة بعد موت ورقة بن نوفل.

أما الكثرة الكاثرة، من العلماء والفقهاء، والدارسين والمحللين والمؤرخين والمحدثين فهم: إما شاهد زور وإما شاهد خطأ.

ومع هذا:

فإن أبا موسى، مضطر إلى إقرار ما اتفق عليه جميع من كتبوا في تأريخ تلك الفترة من التحرك الاجتماعي في تلك البقعة من العالم. فهم أجمعوا على أن ورقة بن نوفل عند مجيء الدعوة الإسلامية كان شبه «رِمَّةٍ» تترنح تحت وطأة المئة عام وقد أصيب بالعمى والصمم والتهدم الشيخي وأن هذه «الورقة» لم تعش بعد ظهور الإسلام غير مدة اختلفوا في تحديدها بين أن تكون ثلاث سنوات أو أربع.

غير أن الثابت، الذي يعلو على كل جدل. هو أن ما نزل من القرآن بعد ورقة، وما وضع من تشريع، وما ارتفع من قواعد اجتماعية وما استقرَّ مِنْ مبادىء الأحكام القرآنية، عشرين عاماً بعد موت ورقة بن نوفل، آيات بينات، علوماً وتشريعاً، قصصاً وأنباءً. ظلت حتى هذا الوقت طليعة الإعجاز الذي لم يقم له مثيل.

ومحمد بن عبدالله الذي قدمه إلينا أبو موسى تلميذاً لورقة بن نوفل، تحدثت عنه كتب الدارسين في الشرق والغرب وبجميع اللغات فقالت:

كان الأول بين الأفذاذ من أبناء آدم منذ أن وجد آدم، وهبته عناية الله صفاء البصيرة وصدق الإيمان، والتعبد إلى الحق... وقد شق طريق الدعوة المحفوفة بالمخاطر معتمداً على الصدق مع الله والذات فانتشرت تعاليمه على أيدي تلامذته الذين جبلهم من عجينة الفضائل والخلق العظيم فكانوا مثال الكفاءة في الحكم والعلم ومكارم الأخلاق.

ومكة... التي قال عنها أبو موسى بأنها كانت خلية مكتظة بالنصارى، لم تكن كذلك بل هي محجُّ العرب ومؤتمن أصنامهم.

والمكيون الذين قال عنهم أبو موسى، أنهم هم المقصودون بقول القرآن «تفيض عيونهم من الدمع مما عرفوا من الحق» لم يكونوا هم المقصودين بها بل هم في حقيقة الأمر، تجارٌ سيطرت عليهم شهوة المال والجنس فتغلبت على ما سواها من القيم.

أبو موسى، يتقدم ويتأخر، يتردد، ثم يصمم.

فهو يعرف، أن محمداً لم تَعِدْلهُ في الموازين شخصية من خلق الله. ورسالته كانت على مستواه، عظمةً تستمد من عظمة، ورسوخاً يقوم على أصله رسوخ. فإذا هي تنداح ما بين مشرق الدنيا ومغربها، تنشرها رسله فوق بقاع الأرض محبةً وإخاءً وعلماً ووفاءً وإيماناً وعرفاناً.

فالإنسانية، هي الأصل والأرومة ولو كره الطاغوت، والإنسان فيها أخو الإنسان. والشعب هو مصدر الحق والواجب والقضاء والنفاذ. أما الحاكمون من أصغر الجباة إلى أكبر الولاة فهم خدم الشعب ومنفذو قوانينه، وهم في مواقعهم ما دامت ثقة الشعب بهم قائمة.

والمرأة، مؤمنةً أم كافرة، تقيَّةً أم شقية، هي خدِين الرجل وصِنْوهُ وهي نصفُ الحياة ما دامت الحياة. لا فضل في الإسلام لأحد على أحد إلا في السبق إلى الجهاد والتقوى.

تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ الرسالات والنبوات، النبي والقرآن والدعوة، كان قلم أبي موسى يقف عندها بين الحين والحين، فاغر العين والفم، فَتَتَفَلَّت منه

ـ على غير تدبير ـ حشرجات فكرية، تعبرُ من فوق حاجز التعصّب، وتأخذ موقعها بين جمهور المفكرين والكتّاب، منحنيةً بإجلال إلى تلك المعاني العجيبة التي غمرت تلك الظاهرة وعصمتها من الفشل. ولكن التعصب لا يلبث أن يزحف من جديد ليحتل مواقع العدل والخير والحياد عند أبي موسى فيصادر جميع عناصر الوجدان في قلمه ويحجب عن عينيه رؤية الحق.

والتعصب منذ أن كان والإيمان عدوان ونقيضان.
فالإيمان مثل العلم، صلة رحمٍ ورحمةٍ بين الناس.
أما التعصب فهو الغربة والاغتراب والبلاء الذي لا يماثله بلاء.

ومهمته، عسيرة مجهدة، شاقة.

لقد تكلَّف جاهداً أن يَقدم الإسلام للمسلمين على طبق من النصرانية، وأن يرسم إشارة الصليب على جبين محمد فكانت عناصر مهمته تقوم بالخطة الآتية:
ـ أوجد بدون دليل لورقة بن نوفل شخصية كهنوتية نصرانية رسمية فصوره قسّاً على مكة وألحق بلاد الحجاز بأبرشيته.

ونظراً إلى خطورة هذا المنصب وما يتطلبه من مواهب، أفرط أبو موسى في تعداد أوصاف القس ورقة، علماً وحكمةً ورؤيةً للغيوب، فنَسَبَ إليه الإحاطة بعلوم الأديان والتاريخ والرسالات والطبيعة ولغات الأمم، فإليه، انتهت جميع العلوم.

ـ وتلك القسوسية المميزة، لا بد لها من كنيسة مميزة، تنتشر منها أنوار النصرانية وتستمد حركة الإرشاد والتبشير والتعليم قوَّتَها، من الجَرَس، الذي يردد مجد الله على الدوام، فكانت الكعبة، بيت إبراهيم وإسماعيل هي الكنيسة التي كان ورقة بن نوفل رأسها ورئيسها.

ـ ثم انتقل أبو موسى إلى صياغة شخصياته، فكانت محمداً وأهل بيته، والذؤابات من قريش كلهم في عرف المؤلف، نصارى، تتلمذوا على يدي ورقة بن نوفل واهتدوا بهديه وإرشاده. حتى الحُمس، منهم، من آل هاشم وسواهم، وحتى الاختلاء في غار حراء للتفكير والتعبد، تلك كلها أغراس، نصرانية غرسها ورقة في مكة ونجد والحجاز.

ولم يَفُتْ على هؤلاء «أبو موسى، مفرداً أم جمعاً» أن قرَّاءهم سوف يتساءلون ولماذا يقوم ورقة بن نوفل بهذا الدور الصعب؟ ويرصد عمره المديد لهذه المهمة الشديدة؟ فقالوا:

لما كان «ورقة» ملتزماً بنصرانيته حتى الامحاء، فقد خشي من بَعْدِهِ، أن تجتاحها اليهودية أو الوثنية، لذلك عكف نصف قرن على الأساس الذي يضمن بقاءها واستمرارها، فوقع اختياره على محمد، ذلك الطفل العجيب المواهب، فتبنَّى تربيته وتعليمه وتدريبه وصياغته وتهيئته لكي يكون خليفته على كنيسة مكة وتفرغ إلى ترجمة الإنجيل من العبرانية إلى العربية لكي يكون حجَّة محمد على العرب الرافضين، فكانت النبوة وكان القرآن.

فالقس، هو الذي علَّم ومحمد هو الذي تعلم، القس هو الذي أوحى ومحمد هو الذي تلقى، القس هو الذي نَظَم الآيات ونظَّمها، أما محمد فلم يكن لولاه شيئاً مذكوراً، ولم يكن في ذلك الرأس أي طموحٍ إلى موقعٍ مميز. لذلك استسلم إلى مشيئة القس ووقع بين يديه وقعة إلهية، وصدَعَ بالأمرِ الذي ألقاه عليه.

تلك كانت مهمة أبي موسى، تعبيراً وإرضاءً لقناعاتٍ، بعيدةٍ عن ثوابت التاريخ والجغرافيا وجميع العلوم، وغريبةٍ عما استقرت عليه دراساتُ المجتمعات والأديان.

لذلك: وبعد أن عجز عن إيجاد ما يدعم آراءه من تلك المراجع، عمد إلى أقدس الكتب عند المسلمين، وأعمقها تأثيراً في نفوسهم، ملتمساً من آياته أدلة ومؤيدات، فعاث فيها تفسيراً وتجزيئاً وتجريداً وتغييراً في المباني والمناسبات والمعاني.

والقارىء الذي يطالع كتب أبي موسى، مجتمعة أو متفرقة، يدركه الارتباك والمفاجأة وهو يرى لأول وهلة هذا الحشد الكبير من آيات القرآن يتراكم فيها. والمؤلف الذي يعرف الكثير من طبائع الناس، يدرك أن القليلين من القراء يسارعون إلى إحضار القرآن وتفاسيره عندما يقرأون كتبه لكي يتتبَّعوا صحة الاستدلال والتفسير. بل سوف يقرأه الكثيرون، منفرداً، دون تحقيق فيفعل في نفوسهم فعله،

فلا يتركون إلا وقد سعت في دمائهم سموم الشكوك. وهذا هو ما يسعى إليه أبو موسى ومؤسسته، لأنه يصنع بداية الانتصار.

يكفي هؤلاء، سواء أكانوا جماعة النورانيين اليهود، أم كانوا جماعة أبي موسى المستقلين أن يتشقق الجدار الإسلامي في قلب المسلم ويتصدع فذلك هو الإنذار بالانهيار.

أيُّها القارىء الكريم..

ليس في مخطط هذا الكتاب، أن يتناول جميع مغالطات كتب «سلسلة الحقيقة الصعبة» لأنها ـ مع تنوع أبحاثها ـ تحتاج إلى مخطوطات عدة. ولقد أفردتُ هذا الجهد على كتاب «قس ونبي» لأنه أول السلسلة ولأنه أكثرها ذيوعاً وتحدياً وإثارة.

عمدت إلى قراءته، أولاً، ثم عدت إلى تحليله ثانياً، ثم استجرت بالقرآن متوناً وشروحاً، مستهدفاً قبل كل شيء تقييم قناعاتي واختبار صحة وصدق ما ورثته عن آبائي وأجدادي، والتي جاء هذا المؤلف في هذا الزمن، يمعن فيها تحطيماً وتخريباً وتقويضاً.

ولقد هالني هذا العدد الضخم من آيات القرآن التي حشدها المؤلف، متتابعة متلاحقة، ليدعم بها آراءه، وأدركتني عناصر الرهبة والمهابة، وقلت في نفسي: هل الأمر كذلك؟ وهل يُعقل أن يكون كذلك؟ وهل يمكن أن تظل الأمّة الإسلامية وجميع المفكرين والمؤرخين منذ أربعة عشر قرناً وطيلة هذه المدة، لا يعرفون قراءة القرآن ولا يفهمون معانيه ولا يدركون غاياته ولا مناسباته؟ حتى جاء أبو موسى الحريري يفك عن العقول غفلة الجهالة ويضعها أمام الحقائق وجهاً لوجه؟.

بعد هذه التساؤلات، التي اكتسحت عقلي وعاطفتي.

قلت: لا بد من الوقوف مع هذا المؤلف وقفة التأني، والتحقق والتحقيق ولا بد من العودة إلى:

ـ الآيات التي اعتمدها.

ـ والمراجع التي لجأ إليها.

ـ والمقارنات التي وضعها.

فالحق لا يكشفه غير التحقيق.
وهو الأولى بالاتباع، ولو جاء من الصين.
وتسهيلاً على نفسي:
تتبعت الكتاب بفصوله ومواضيعه، تاركاً إياه في قبضة يدي لا تنفك عنه حتى لا تفوتني منه شاردة ولا واردة.

ولقد استعنت على مهمتي، بما أكسبتني إياه مهنة المحاماة طيلة أربعين عاماً من الصبر على المعاناة، والتعمق في الأمور والترافق مع المنطق والسرد المبوب، الذي يظل، مهما طال وامتد، يعود إلى الموضوع ويذكر به القارىء.

وكان التقسيم كالآتي:
- كلمة عامة هي هذا التمهيد الذي قرأته.
- التعريف بالكتاب «قس ونبي» تقسيماته وعناوين أبحاثه.
- ثم الانتقال إليه:
- مقدمة. - وفصولاً.
- ومواضيع.

«كان صديقي يتاجر بالرمل فأفلس عندما هبَّت الرياح»
مثل صيني

التعريف بالكتاب

صدر الكتاب تحت اسم «قس ونبي» وقد جاء تلخيص موضوعه في أوَّل صحيفة بعد الغلاف بأنه:

«بحث في نشأة الإسلام لمؤلفه أبو موسى الحريري»

مكتفياً بالكنية والنسبة للتعريف، بالمؤلف، دون بيان عن جنس أو موطن أو وطن. وقد صدر عن دار الفرح التي لم تعطِ أي إيضاح عن عنوانها، هي الأخرى، بل اكتفت بالإشارة إلى أن الكتاب صدر عنها في عام ١٩٧٩م.

وهو يقع في مثتين واثنتين وعشرين صحيفة من القطع الصغير ، منها خمس صحائف خصصت للمراجع العربية والأجنبية. ولا يزيد متوسط عدد الكلمات في الصحيفة الواحدة عن مثتي كلمة.

أما تقسيمات الكتاب فهي الآتية:

١ ـ **المقدمة** : من ٥ ـ ٩.

٢ ـ **الفصل الأول** : من ١٣ ـ ٣٤ ، ويتألف من المواضيع الآتية:

أ ـ نسب القس.
ب ـ نصرانية القس.
جـ ـ أبيونية القس.
د ـ علم القس.
هـ ـ مهمة القس.
و ـ القس رئيس النصارى.
ز ـ موت القس.

٣ ـ الفصل الثاني : من ٣٧ ـ ٦٦ ، ويتألف من المواضيع الآتية :
أ ـ القس يزوج النبي.
ب ـ القس يدرّب النبي.
جـ ـ القس يعلّم النبي.
د ـ القس يعلن النبي خليفة.
هـ ـ القس النبي والنبي القس.

٤ ـ الفصل الثالث: من ٦٩ ـ ٩٢ ، ويتألف من المواضيع الآتية :
أ ـ إنجيل القس ورقة.
ب ـ القرآن العربي.
جـ ـ استمرارية الوحي والتنزيل.
د ـ محمد يعلّم ما تعلّم.

٥ ـ الفصل الرابع : من ٩٥ ـ ١١٧، ويتألف من المواضيع الآتية :
أ ـ النصرانية في بيت محمد.
ب ـ الإسلام قبل الإسلام.
جـ ـ النصرانية والحنيفية في الإسلام.
د ـ الدين القيم.

٦ ـ الفصل الخامس من ١٢١ ـ ١٨٧، ويتألف من المواضيع الآتية :
أ ـ المسيح وأمه الروح القدس.
ب ـ الفروض والعبادات والشرائع.
جـ ـ الحسنات والصدقات.
د ـ الجنّة والنار والمعاد.
هـ ـ أمثال الإنجيل القرآنية.

٧ ـ الخاتمة : من ١٩١ ـ ٢١٦، ويتألف من :
أ ـ خاتمة من ١٨٦ ـ ١٨٧.
ب ـ نجاح القس والنبي.
جـ ـ فشل القرآن.
د ـ محمديون أم قرآنيون.
هـ ـ اسألوا أهل الذكر.

المقدمـة

لخص المؤلف مضمون كتابه في المقدمة فقال ما معناه:

إن أسباب وضع الكتاب هي الكشف عن الهوية الحقيقية لورقة بن نوفل، التي دفنت ظلماً وعدواناً تحت جلاميد التاريخ حفاظاً على رسالة محمد وصوناً لها من أن يتسرب إليها الشك، فاختفت صلة ورقة بن نوفل بمحمد بن عبدالله وضاعت من بين أيدينا حقيقة العلاقة والارتباط بين الإسلام والنصرانية كما اختلطت الأدوار فذاب الدور الرئيسي الأساس الذي لعبه ورقة في الدور التي قام به محمد فيما بعد خير قيام. وبذلك استقل التلميذ النجيب الذكي عن أستاذه الشيخ العالم المحنّك.

وقد ساعد على استمرار هذا الاختفاء طيلة الأربعة عشر قرناً الماضية أن المذهولين من المتدينين صَعُب عليهم أن يروا وراء النبي غير الله كما استحال عليهم الاقتناع بأن الله قد يستعمل البشر واسطة، بعضهم لبعض للوصول إليه، فأهالوا تراب النسيان على ورقة لكي تمّحي من الذاكرة تلك الأدوار البارزة التي قام بها بشر دون وحي من الله ودون تدخل منه وذلك بغية تجديد ثوب النصرانية الذي كان قد أدركه البلى، وهمّ الزمان بتجاوزه والقفز من فوقه...

وقال أبو موسى أيضاً ما معناه...:

إن التاريخ غالباً، ما يخفي البطل الحقيقي. ولكن سوف يتأكد وجود هذه البطولة، وسوف تبرز أبعادها وآثارها وتأثيراتها بوضوح شديد في الفصول القادمة حينما تقابل بين إنجيل ورقة وقرآن محمد، إذ سوف يتضح أن القرآن الموجود ليس قرآن محمد، بل هو مصحف عثمان وبينهما يقوم اختلاف جوهري في «النصوص والأحكام» و«تحديد العلاقة مع النصارى» و«حول المسيح وأمه».

تلك الأفكار طرحتها المقدمة، مثلما طرحت غيرها.

وبالرغم من أن مهمة المقدمة ـ في المفهوم المتعارف عليه ـ هي التعريف المقتضب بالكتاب والكاتب، وبيان الأفكار التي يتمحور من حولها المؤلِّف. فإن هذه المقدمة اختلفت عن سواها،

فطرحت مبادىء، وعرضت مواضيع، اعتبرتها من المسلَّمات والثوابت التي بنت عليها فصول الكتاب، فكان لا بد من تقديم بعض الملاحظات عليها:

١ ـ إن هوية ورقة بن نوفل لم تغيب تحت جلاميد التاريخ ولم تدفن تحت التراب بل هي معروفة عند كل من اهتم أو بحث أو فتش عن شخصية وتاريخ «قصي بن كلاب» وأبنائه «عبد العزى» و«عبد مناف» و«عبد الدار» و«عبد قصي».

ـ فعبد العزى هو والِدُ أسد. وأسد هو والد نوفل ونوفل هو والد ورقة.

ـ نوفل هو أخو خويلد، وخويلد هو والد خديجة، وأخو الحويرث والد عثمان.

ـ وعبد مناف هو والد هاشم وهاشم والد عبد المطلب وعبد المطلب والد عبدالله وعبدالله والد محمد (ص).

وهكذا:

في جميع كتب الأخبار والسيرة نجد هوية ورقة بن نوفل واضحة ومفصّلة بذات مستوى الوضوح والتفصيل الذي حظيت به هوية محمد وخديجة حتى إن المؤلف أبا موسى نفسه وضع في بداية كتابه بالصحيفة ١٣ ـ شجرة للعائلة التي تفرعت عن قصي.. حيث بدا فيها قصيٌّ جذر العائلة وقد أفرعت عنه فروعُه الأربعة (أبناء قصي) كما أفرع عن هذه الفروع فروعها حتى «ورقة» و«محمد» و«خديجة» و«عثمان بن الحويرث».

٢ ـ الشيء الذي بحث عنه أبو موسى في شخصية ورقة، فلم يجده في المراجع والأحافير، هو ما زعمه من تأثيره الحاسم على تكوين شخصية محمد وتكوين الدعوة الإسلامية وتكوين القرآن.

وسوف يظل أبو موسى، باحثاً طوال الحياة، مثلما بحث سواه فقضوا نحبهم بلا طائل، ومثلما يفد آخرون في مقبل الأيام.

فالقرآن برسوخه وثبات نصه، وإعجاز مبناه ومعناه، ومنطق التاريخ بأحداثه وغيرِهِ. وذُيُوعُ رسالة الإسلام في أصقاع الأرض كافة، بذات الطقوس والممارسات منذ وطيلة أربعة عشر قرناً، أدلةٌ لا تدحضها أدلة، على أن الرسالة هي من عمل السماء، وأن القرآن وحي من الله، وأن محمداً واحد من الرسل التي ما فتئت عناية الله ترسلهم متتابعين لهداية البشر وتعليمهم منذ أن خلق الله البشر.

٣ ـ وإذ يقول المؤلف: إن كتمان الصلة بين ورقة ومحمد، وبين النصرانية والإسلام في كتب السيرة والأخبار لن يحول بينه وبين إبراز هذه الصلة وكشفها على واقعها وحقيقتها، وإظهار فاعليتها في نشوء الدعوة الإسلامية وانتشارها وانتصارها.

وهذه المهمة الشاقة، التي التزم بها المؤلف، سوف لن تلقى ضالتها في المراجع التاريخية والعلمية ـ كما يقول ـ لأنها قفراء.

لذلك: سوف يركز على القرآن، سوف يستعيد قراءته ويتمعّن في تحليل معانيها وتتبع مناسباتها، ليستخرج منها الجواب الكافي عما يبحث عنه.

فقد آن الأوان ـ على زعمه ـ أن ينقذ الحقيقة من براثن المظالم التي شهد لها المتدينون المذهولون شهادة زور وشهد لها الباحثون والمؤرخون شهادة خطأ. وكلاهما الزور والخطأ قائمان ومترافقان منذ أربعة عشر قرناً حتى الآن.

إذ يقول المؤلف ذلك: وإذ يوجهنا إلى الآيات التي دعَّم بها فصول كتابه فإننا نرجىء مناقشته في كل ذلك إلى حينه في مواقع إيراده.

أما هنا:

فسوف ندحض مقولته «بأن مصحف عثمان» هو «غير قرآن محمد» وأن قرآن محمد غُيِّب عن الحضور الإسلامي، منذ أيام الخليفة الرابع وبقرار سلطوي منه تماماً مثلما صار تغييب ورقة بن نوفل وإنجيله العبراني. وسوف نثبت حتى من الكتب الصعبة إياها أن القرآن الذي يتداوله المسلمون هو ذاته مصحف عثمان، الذي تلقاه النبي محمد من الوحي ثم استقر في صدور الناس وفي مدوَّناتهم إلى أن صار جمعه في مجموع واحد سميَ المصحف. . . نسبةً إلى الصحف التي دوّن عليها بإملاءٍ من النبي على كتبة الوحي.

أ ـ لقد ثبت أن القرآن كان يدوّن وترتب آياته في حياة النبي وبأمره[1]. وأن النبي اتخذ كتّاباً للوحي كان يأمرهم بكتابة كل ما ينـزل من القرآن حتى تُـظَاهِرَ الكتابةُ جمْعَ القرآن في الصدور. وكان يأمرهم بترتيب السور بعضهـا إلى بعض وبوضع الآيات في مكانها من السور وبذلك يكون ترتيب القرآن «توقيفيّاً» أي «وقفاً على النبي» لا «توفيقيّاً» أي بتوفيق الصحابة[2]. وهناك روايات لا حصر لها في أن ترتيب السور والآيات كما هي اليوم هو توقيف من النبي لا شُبهة في ذلك[3]. وقد روى الزركشي: أما الآيات في كل سورة ووضع البسملة في أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه[4]. وقال الزنجاني والسيوطي «كتب القرآن في عهد النبي وبحضرته بكل ضبطٍ وإتقان وترتيب السور ووضع الآيات في مواضعها كان بالوحي وكان الرسول يقول ضعوا آية كذا في موضـع كذا وقـد حصل اليقين من النقـل المتواتر بهذا الترتيب فالصحابة جمعوا القرآن من المصاحف وصدور الرجال ولم يكتبوه أو يرتبوه[5].

ب ـ بعد حرب اليمامة التي استحرَّ فيها القتل «بقُرَّاء القرآن» جاء عمر إلى الخليفة أبي بكر ونصح، بجمع القرآن خوفاً من أن يستحرَّ القتل في سائر البلاد[6] فطلب أبو بكر من زيد بن حارثة أن يتتبَّع القرآن وأن يجمعه، ويقول زيد: والله لو كلفوني بنقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي من جمع القرآن، فكانت الصحف التي جمعها زيد عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حال حياتـه، ثم عند حفصة بنت عمر بعد موته[7].

جـ ـ كان عدد من الصحابة قد جمع القرآن لديه جمعاً خاصّاً ومنهم:

---

(١) محمد عزّت دروزة ـ القرآن المجيد ص ـ ٦٤.
(٢) السيوطي ـ الاتقان. في علوم القرآن ١/٦٠.
(٣) الشيخ صبحي الصالح ـ مباحث في علوم القرآن.
(٤) البرهان في علوم القرآن ص ١/٢٥٦.
(٥) السيوطي ١/٥٧ ـ ٦٢ والزنجاني ٤٣.
(٦) السيوطي ١/٥٩.
(٧) الإتقان ١/٥٧، والبرهان ١/٢٣٤، وتهذيب التهذيب ٣/١٤٠.

«سالم بن معقل مولى أبي حذيفة» و«عبدالله بن عباس» و«عقبة بن عامر» و«المقداد بن عمرو» و«أبو موسى الأشعري» و«أبي بن كعب» و«عبدالله بن مسعود» و«عائشة» و«حفصة» و«علي بن أبي طالب».

وقد ذكر السيوطي في الإتقان: ١/٥٧ـ٥٨ أن ابن أبي داوود قال: سمعت علياً يقول: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحْمَةُ الله على أبي بكر وهو أول من جمع كتاب الله».

د ـ في عهد عثمان، قَدِمَ حذيفةُ بن اليمان قبل الذهاب إلى فتح أرمينيا وأذربيجان سنة ٣٠هـ/٦٥٠م وقال له: أدرك هذه الأمة يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا.

هذه الوقائع المستقاة من تلك المراجع التاريخية العديدة[١]. والموجودة في غيرها من المراجع كان أبو موسى قد اعتمد عليها في واحد من كتبه. هو: «عالم المعجزات» بالصحائف من ١٨٢ ـ وما بعدها.

وهي تدحض بقلمه ولسانه ما يقول هنا في «قس ونبي» من أن قرآن محمد هو غير هذا المصحف الذي اعتمده المسلمون وما يزالون. والذي اتخذوه دستوراً روحياً واجتماعياً لهم منذ يومه حتى هذا اليوم.

فأسماء السور وترتيبها وابتداؤها بالبسملة والأحرف المقطعة ووضع كل آية في موضعها، ذلك جميعه تم في حياة النبي وبأمره وإرشاده لذلك أطلق على هذه العملية اسم «توقيفي» لأنها كانت وقفاً وحكراً على النبي.

٤ ـ والحنيفية هي نهج تعبدي مستقل، ليس تابعاً لليهودية وليس نابعاً منها ولا من النصرانية. بل هو نهج إبراهيم الخليل، فإذا كان قد انتهجه محمد، ففي ذلك

---

(١) البخاري ـ فضائل القرآن، والإتقان ١/٥٩، والطبري ١/٢٠ ـ ٢١.

الدلالة على النهج الإبراهيمي لديه، ولا يمكن الاستدلال منه، على نصرانيةٍ أو يهوديةٍ لدى محمد.

وإذا كان بعض المتدينين من اليهود والنصارى، قد مارسوا التحنث في غار حراء أو في سواه وقاموا بالخلوة التعبدية التفكرية، فالأصل في هذه الطقوس يعود إلى قواعده الأولى عند إبراهيم الخليل، وليس لدى موسى أو عيسى عليهما السلام ولا ورقة بن نوفل من بعدهما.

وما ندري لماذا فات هذا الأمر على أبي موسى وكيف أُغفل الفارق الجوهري بين الحنيفية والنصرانية:

فهو يقول معنا: إن الأساس الحنيفي وضعه نبي الله إبراهيم.

وهو يقول، إن مميِّز الحنيفية، هو أنها دعوة إلى توحيد الله فإبراهيم أول الموحدين في تاريخ الأديان.

والتوحيد، لغةً وفقهاً ونهجاً، يتعارض مع التثليث مثلما يتعارض مع الشرك. كما يتعارض مع التوحيد الضيق الذي يؤمن به اليهود الذين يقولون بأن الله الواحد اختصهم لوحدهم برضاه واعتبرهم شعبه الخاص الوحيد. فالوحدة في الله عندهم لا تنفصل عن وحدة اختصاصه بهم دون سائر خلقه.

وهكذا تبين من المقدمة..

أن مؤلف «قس ونبي» سوف يسير في كتابه، محكوماً بحالةٍ من عمى الألوان في البصر، والبصيرة، بحيث تختلط عنده المفاهيم فلا يستطيع التفريق والتمييز بينهما.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾

قرآن كريم

«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاءٍ لا يُسمع»

حديث شريف

الفصل الأول
هوية القس ورقة وحياته

أولاً ـ نسب القس ورقة.
ثانياً ـ نصرانية القس ورقة.
ثالثاً ـ أبيونية القس ورقة.
رابعاً ـ علم القس ورقة.
خامساً ـ مهمة القس ورقة.
سادساً ـ القس ورقة رئيس النصارى.
سابعاً ـ موت القس ورقة.

أولاً ـ نسب القس ورقة

بعد أن وضع المؤلف شجرة لعائلة «قصي بن كلاب» مُجَدِّد بناء الكعبة، وبيَّن فيها الفروع الأربعة التي تفرعت عن الجذر «قصي» وهم أبناؤه.

عبد العزى، وعبد مناف، وعبد الدار، وعبد قصي. وظهر فيها بوضوح أن «ورقة» يلتقي مع «محمد» بالجذر الجامع.

فهو ـ أي الجذر ـ الجد الثالث لورقة، والجد الرابع لمحمد.

بعد ذلك: تحدث عن الأصالة العائلية والموقع الاجتماعي الذي كانت تحتله هذه العائلة بين قبائل العرب وأحيائها.

ثم، بدأ يأخذ على المؤرخين والكتّاب الذين درسوا أو ألّفوا في ظاهرة الإسلام، انحيازهم ضد ورقة والتعامل معه دون عدل ولقد أوغلوا ـ كما قال ـ في التاريخ استقصاءً عن أجداد محمد حتى وصلوا به إلى إبراهيم وإسماعيل، وأطنبوا في عراقة شرفه ورسوخ أصالته في سلم الأنبياء، حتى وصلوا به إلى آدم، اصطفاءً وانتقاءً وانتقالاً من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى كان موعد الظهور الذي قرأه المذهولون منقوشاً بأحرف من النور على سدرة المنتهى.

أما ورقة بن نوفل فقد أُغفل، إغفالاً مقصوداً، شمله وشمل أباه نوفل وجديه أسد وعبد العزى، فأقفر التاريخ منه تماماً، أباً وجداً وما ذلك إلا ليبقى جلالُ التفرد بجليل المزايا محصوراً في محمد، لا يشاركه سواه، وكيلا يظل في الأذهان غيرُ رسالته.

على أن المؤلف، لا يلبث أن يعود إلى قارئيه، معزياً عن ذلك كله بقوله: إن الذي لم يكن من الممكن إنكاره، هو ذلك الوجود الكثيف للنصرانية في الجزيرة العربية، وفي مكة على وجه خاص.

فهذا الوجود كان العامل الحاسم في تمكين قصي من طرد الخزاعيين والاستيلاء على مكة. إذ لولا العلاقة الوثيقة التي قامت بينه وبين «بني عذرة» و«بني غسان»، القبيلتين النصرانيتين اللتين كانتا تخيمان تحت حماية الرومان لما تمكن قصي من السيطرة على مكة وطرد عمرو بن لحي الخزاعي وقبيلته.

وبحلول قصي لبست مكة وبطَاحَها ثوباً عقائدياً واجتماعياً جديداً، فقد حطم الأصنام التي جلبها الخزاعيون إلى الكعبة، وحلت النصرانية في مكة محل الوثنية. وقام قصي بجمع القبائل المنتشرة في البطاح من خلال عملية تجمُّع «تقرش» سمي فيما بعد قريشاً.

كما نقض الخيام وأقام البيوت، وأوْكل مهمات الكعبة إلى أبنائه الأربعة وهي الرفادة، والسدانة، والسقاية، والحجابة، واللواء والندوة.

تلك الأقوال، أصدرها المؤلف، محكوماً بعاطفة الانفعال.

والاستنتاجات التي بنيت عليها، تجافي وقائع التاريخ، فهي ضرب من الإنشاء اللفظي.

١ ـ المؤرخون لم يفرقوا في الاهتمام بين تأريخ عبد مناف وتأريخ عبد العزى ولم يدخل مثل ذلك في أهدافهم.

ذلك أن الرجلين، كليهما، ينتميان إلى العصر الجاهلي، وهما أخوان، ليس لأحد منهما حق التقدم على الثاني.

لقد تركز الاهتمام التاريخي على شخصية النبي محمد، لأنها وحدها من بين العرب، قديمهم وحديثهم كان لها ذلك الحضور العظيم. فقد قلبت تلك الشخصية مقاييس القيم، وعكفت تصنع أحداث التاريخ من جديد، فيما غيرها من الناس كانوا يقتربون من الأحداث القائمة فيؤثرون حيناً ويتأثرون أحياناً، وكانت صحائف التاريخ حصيلة نشاط الجميع، فكراً وحرباً وقيادةً؛ أما محمد فقد أعاد صياغة كل شيء بنفسه دون شريك.

صاغ القبائل المتنافرة المحكومة بالثأر والثأر المضاد، والغزو والغزو المعاكس

في وحدة، دينية وسياسية واحدة، كانت الأساس القومي للأمّة العربية، وكانت الأساس الأخلاقي والوجداني والتنظيمي لعدد كبير من الأمم.

صاغ الطاقات الروحية لدى العرب، التي كانت ممزقة موزّعة بين الوثنية والمجوسية، واليهودية والنصرانية والطوباوية واللاشيئية، في رسالة سماوية، هي رسالة الإسلام التي ورث بها العرب مجد أعظم إمبراطوريتين في ذلك الزمن، وامتدت آفاقهم بها، فكانت لهم رجل في الهند ورجل في الأندلس، وتفجرت مشاعل الحضارة، متوهجة، لا تخبو طيلة سبعة قرون تضيء أرجاء العالم المظلم.

هذا الاهتمام ليس تحزُّباً ولا انحيازاً لمحمد، وليس ظلماً أو نكراناً لورقة. بل هو حق العظيم على التاريخ.

والمؤلف نفسه الذي تأفف من ظاهرة التحزب والانحياز نسي ـ وهو في غمرة التأفف ـ أن يذكر فرعي قصي وهما: «عبد الدار، وعبد قصي». فقد وضع شجرة قصي مغفلاً منها هذين الفرعين.

أما نحن فلم يدهشنا هذا الإغفال والتمسنا فيه العذر للمؤلف. لأن اهتمامه انصرف إلى شخصيتين تمحور حولهما فكره فأغفل غيرهما..

٢ ـ والإيغال والإغفال، كلمتان، لم يكن من الصحيح إيرادهما هنا. فالمؤرخون الذين تعمقوا في تتبع أجداد النبي، انطلقوا من الجد الجامع، قصي، الذي يجتمع عنده ورقة، ومحمد، وسواهما.

فكل أب أو جد لقصي، مهما بَعُد وعلا في بطون التاريخ هو أب وجد لكليهما بالضرورة الجامعة.

وبذلك:

كان يجب ألا يجزع أبو موسى على «ورقته». فهذه الورقة ترافق المسيرة التاريخية للنبي من قصي حتى آدم.

أما إذا كان يأخذ على المؤرخين أنّهم لم يسجلوا في مدوناتهم، من مواقف

الكرم والنبل والشهامة والتقدم «لنوفل، ولأسد» مثلما سجلوا لعبد المطلب وهاشم، فهو ظلم منه.

لأن واقع الحال هو الذي فرض نفسه، وما كان كتّاب التاريخ ورواتُـهُ غير محدثين عن وقائع، لا مخترعين لها، ولا غافلين عنها.

فالتاريخ تحدث عن هاشم، الذي يهشم اللحم ويطعم الفقراء. وعن عبد المطلب «الفياض» و«مطعم الوحش والطير»، ولم يتحدث التاريخ بمثل ذلك عن والد ورقة ولا عن جده.

٣ ـ أما حلول قصي محل الخزاعيين في مكة وتحطيمه الأصنام. فليس دليلاً على انتمائه النصراني ولا على أنه أحل النصرانية في مكة، خاصة. والتاريخ لا يسعف هذا المنطق بكلمة واحدة.

ـ والأصنام التي هدمها قصي، هي التي كان عمرو بن لحي الخزاعي جلبها معه من بلاد الشام. وحدها دون سواها، هي التي هدمها قصي، لأنها من أثر الخزاعيين ومن علامات وجودهم وسيطرتهم.

ولم يبق غير «هُبل» الذي تحطم يوم فتح مكة مع مئات الأصنام التي كانت في الكعبة وبجوارها.

ـ إن قصياً جلب الحجر الأسود الذي كانت قبيلة إياد قد خطفته ودفنته في أحد جبال مكة، وأعاده إلى مكانه، وهذا العمل، وما يرمز إليه، يقطع في الدلالة على أن قصياً لم يكن نصرانياً. وأن الالتفاف حول الكعبة لم يكن إحدى الشعائر التي تمارسها النصرانية في إحدى كنائسها.

ـ إن الكعبة كانت حتى الفتح الإسلامي مؤتمناً لأصنام القبائل، وكانت هذه الأصنام من مبررات التجمع في الأشهر الحرم، من خلال رحلة سميت «الحج». وهذه الكلمة مأخوذة من فعل «حَجَ» أي قصد واعتمد ورجل محجوج أي مقصود، وبعد الإسلام أصبح ركناً من أركانه، كما ظلت الأشهر على اسمها

وطبيعتها «حُرُماً» وهي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة» وسمي ذو الحجة لأنه «شهر الحج»[1].

فالقبائل كانت تقصد أصنامها في حج سنوي، تقيم لها الشعائر، وتقرِّبُ القرابين. وكانت قريش توفر لهذا الحجيج ما يتطلبه:

- من مياه تؤمنُها السقاية.
- ومن طعام تؤمنه الرفادة.
- ومن حماية للأصنام ورعاية لأصحابها، تؤمنها الحجابة والسدانة.

(١) لسان العرب لابن منظور.

ثانياً ـ نصرانية القس ورقة

قال المؤلف: إن كتب السيرة والأخبار تحدثت عن وجود نصراني واسع النطاق في مكة والحجاز وسائر أنحاء الجزيرة وهذا ما يبرر وجود قس عليها يدير شئونها الروحية ويرعى أمورها الزمنية والاجتماعية.

فاليعقوبي يقول في تاريخه: كانت قريش كلها متدينة، حيث كان العرب في أديانهم على صنفين «الحمس» و«الحلة». فالحمس هم قريش كلها، وأَوْضَحَ معنى تديُّنِ الحمس قائلاً:

«كانت قريش وعامة ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم يحجُّون البيت ويقيمون المناسك ويُقرون الضَّيف ويعظمون الأشهر الحرم وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم».

ويقول المؤلف معلقاً ومستنتجاً:

«أما نصرانية القس فإنها تقوم على ما كانت عليه النصرانية في تاريخ الكنيسة ففي الأغاني يقول أبو الفرج: كان ورقة أحد من اعتزلوا الأوثان في الجاهلية وطلبوا الدين وقرأوا الكتب وامتنعوا عن أكل ذبائح الأوثان وهم: عبيدالله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطلب، وقد مات في بلاد الحبشة نصرانياً. وعثمان بن الحويرث، تنصر في بلاد الشام ـ الروم. وزيد بن عمرو بن نفيل». ويتابع المؤلف قوله:

«هؤلاء اشتهروا بتنصرهم وفق الواجبات والفروض النصرانية المتَّبعة في الكنيسة المعروفة بمقررات أورشليم في المجمع المنعقد بعام ٤٩م. وهي تقوم على الامتناع عن نجاسات الأصنام والفحشاء والمخنوق والدم والختان والمعمودية وعلى الأخذ بناموس موسى» وإنجيل عيسى على السواء ـ ص ١٩ ـ.

ولكن يعود فيقول:

«إلا أن نصرانية ورقة وزملائه الثلاثة الآخرين تختلف ـ على ما يبدو ـ عن نصرانية مقررات أورشليم المنسوبة إلى يعقوب الرسول. فنصرانية يعقوب تؤمن بألوهية المسيح وببنوّته الطبيعية من الله وتحتكم بأحكام الإنجيل وتعاليمه وتعتقد بالصلب، والقيامة من بين الأموات. في حين أن نصرانية ورقة وزملائه تنكر ألوهية المسيح وبنوته إنكاراً مباشراً وترفض قيامته وصلبه رفضاً قاطعاً تبعاً لتعاليم الشيعة الأبيونية التي انتمى إليها القس ومعظم قريش واعتنقوها وأقاموا فرائضها وموجباتها» ص ١٩ ـ.

تحت هذا العنوان «نصرانية القس ورقة». ولدى التمعّن في هذه الأفكار وبعد العودة بها إلى مراجعها وجدنا عليها الاعتراضات الآتية:

١ ـ اعتبر المؤلف أن «الحمس» الذي يشكلون كل قريش، هم جماعة النصارى وعلى هذا الأساس اقتطف عبارة «اليعقوبي» التي تحدثت عن تدين قريش قاطبة، بدين النصرانية، الذي كان تابعوه يسمون «بالحمس».

ولكن كلمة «الحمس» التي شاعت كثيراً، تعني غير ما عناه المؤلف تماماً. فبالمدلول اللغوي:

«الحمس» هو جمع الأحمس. والأحمس هو المتشدد في شجاعته ودينه فلا يطاق. وكان الحمس لا يستظلُّون أيام «منى» ولا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون. «والحلة» لها معانٍ عديدة ومن معانيها ما هو عكس الحمس، أي التحقيق والتحليل. وقد تكون «الحرم» تطويراً لمعنى الحمس وعلى هذا تقابل كلمة «الحرم» كلمة «الحل».

ولقد أوضح اليعقوبي ذاته الذي اعتمده المؤلف، معاني تدين الحمس في قريش، وعدد مظاهره فقال:

«يحجون البيت، ويقرون الضَّيف، ويقيمون المناسك، ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش، والتقاطع، والتظالم، ويعاقبون على الجرائم»[1] هذا

---

(١) اليعقوبي في تاريخه ١/٢٥٤.

التدين، هو عادات وممارسات، كان يقوم بها ويسير عليها الحمس. وهي غير مقتبسة من كتاب سماوي متداول، كما إنها غير مرتبطة بتابعية دينية معينة، وعلى الأخص لا يمكن اعتبارها «الدين النصراني» وإن كانت تلتقي في المطلق مع الأديان في المحافظة على مكارم الأخلاق.

وهي ـ كما قال اليعقوبي في تاريخه ـ إنها تعود إلى جذورها الأُولى، دين إبراهيم، فهي في الأصل «بعض منه».

بعد هذا الذي أورده اليعقوبي يمكن طرح الفكرة الآتية:

إذا كانت اليهودية تبنّت وأقامت دين إبراهيم كلًّا أو بعضاً بالإضافة إلى التوراة التي تضمنت النبوة والتشريع، وإذا كانت المسيحية فعلت مثل ذلك فإن الحمس، الذي مارسوا بعض ذلك الدين، يكونون ممارسين لبعض دين إبراهيم ووصاياه، فلا ينسب إليهم ولا يوصفون ـ بالاستناد إلى ذلك ـ باليهودية ولا نصرانية.

٢ ـ أورد المؤلف ما كان أبو الفرج الأصفهاني ذكره في الأغاني من أن بين الذين اعتزلوا الأوثان في الجاهلية أربعة أشخاص هم: ورقة بن نوفل وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل.

وإن اثنين منهم فقط كانا نصرانيين، ويستدل مما رواه عن نصرانيتهما أنها لم تكن من النوع الذي أراده أبو موسى. بل كانت مسيحية رسمية ـ كما وصفها المؤلف ـ.

ـ فعبيدالله بن جحش مات في الحبشة نصرانياً.

ـ وعثمان بن الحويرث، مات في بلاد الروم، وكانت له رتبة البطريق ـ بترك.

فليس من المعقول أن تكون مسيحية هذين هي «الأبيونية، أو الكيرنثية» التي لا تؤمن ببنوة المسيح، ولا بصلبه، ولا بسر الفداء والقيامة.

ولو كان هذان، على المبدأ الأبيوني، الذي ذكره المؤلف، لما تسنى لأحدهما العيش في الحبشة ممارساً طقوساً نصرانية مختلفة ومتعارضة مع طقوسها. ولا للآخر الذي مُنِحَ لقب بطريق في بلاد الروم لو كان كذلك. أما ورقة وزيد بن عمرو بن نفيل، فلَم يذكر المؤلف شيئاً عن المرجع الذي اعتمد عليه في وصف ممارستهما النصرانية ومرجعيتها العقائدية.

فقد يكون هذان، من الحمس، الذين كانوا على بعض دين إبراهيم، هذا ولا بد من التأكيد:

على أن ما ورد في اليعقوبي والأغاني ورد له مثيل، في:

طبقات ابن سعد حيث قال:

«كان ورقة بن نوفل رابع أربعة تركوا الأوثان والميتة وما يذبح على الأوثان وهم: عبيدالله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطلب وقد مات نصرانياً في بلاد الحبشة تاركاً امرأته أم حبيبة التي تزوجها الرسول من بعده. وعثمان بن الحويرث بن عم ورقة وابن عم خديجة، تزوج بأرض الروم وحسنت منزلته عند القيصر ويقال له البطريق لا عقب له، مات بالشام مسموماً. وزيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن أخي الخطاب، اشتهر عنه أنه نهى عن قتل الموؤدة وقال عند النبي، إنه يبعث أُمَّةً وحده»[1].

هذه الأقوال التي تكررت في سيرة ابن هشام وفي السيرة المكية: كلها لا تتحدث عن نصرانية معروفة معلنة لورقة، بل تخص بالنصرانية عبيدالله وعثمان.

أما ورقة وزيد، فلم تتفق كتب التاريخ بشأنهما، إلا من حيث إدراجهما في جملة المتدينين الحمس من قريش، الذين كان منهم عبد المطلب وأبو طالب وأبو بكر وعثمان بن عفان وعبدالله بن جدعان وسواهم الذين كان يطلق عليهم اسم الحمس لشدة تمسكهم بفضائل وأخلاق إبراهيم عليه السلام.

كما لم تذكر الكتب أيضاً أن هؤلاء (ورقة وزيد) مع الحمس كانوا يقومون بالفروض والواجبات التي وضعَها مؤتمر أورشليم بعام ٤٩م وبخاصة «الختان والمعمودية والأخذ بناموس موسى» ولم يثبت أنهم سمعوا بهذا المؤتمر على الإطلاق.

وإن كانت مقررات المؤتمر قد اعتمدت بعض فضائل إبراهيم وتعاليمه، والتقت بذلك مع الحمس الذين كانوا يمارسون ويحافظون على هذه الفضائل بقوة الانتساب السلالي إلى إبراهيم. فذلك لا يقوم دليلاً على أن ورقة أو زيداً أو أياً من الحمس كان ينتمي إلى النصرانية بعقيدتها وطقوسها وأسرارها.

---

(١) طبقات بن سعد ١٦٢/١ والسيرة المكية ١١٠/١ وسيرة ابن هشام ٢٠٨/١.

٣ ـ من مقررات مؤتمر أورشليم: «الإقرار بألوهية المسيح» و«بنوته في الله» و«الإعتقاد بصلبه الجسدي» و«بسر الفداء عن الجنس البشري» و«بسر قيامته بعد الموت بجسده المصلوب».

ولم يثبت عن ورقة وغيره من «حُمس قريش» تمسكهم بشيء من هذه المقررات فالحمس، كانوا على «الحنيفية».

والحنيفية ليست يهودية ولا نصرانية، بل هي مذهب إبراهيم الخليل السابق لوجودها بزمنٍ بعيدٍ، لذلك كان إلصاق الأحناف بالنصرانية، تجاوزاً على الأحناف، وتجاوزاً على الواقع والحقيقة[1].

وكذلك أيضاً:

يعتبر تجاوزاً للحقيقة اعتبار ممارسة «الحنيفية» من قبل ورقة دليلاً على نصرانيته، إذ ليس في كتب التاريخ ولا فيما صحَّ عن «المحدثين بالأحاديث النبوية» من الأوصاف التي وصف بها تدين ورقة غير الأوصاف والممارسات الحنيفية.

٤ ـ ويبدو أبو موسى مؤلفاً مستهيناً بعقول قرائه وثقافتهم. لذلك لم يكلف نفسه عناء تقديم أي دليل، ولا الدلالة على أي مرجع، يفيد بأن مكة كانت نصرانية وأن الكعبة كانت الكنيسة التي تقام فيها الطقوس النصرانية بشكل منتظم وأن ورقة بن نوفل كان قساً على رأس تلك الكنيسة وكانت سلطته الكنسية تغطي بلاد الحجاز بكاملها.

فأبو موسى هو الوحيد من بين الخلائق العديدة التي درست وكتبت وألفت في تاريخ العرب والإسلام. توصل إلى هذه الاستنتاجات الغريبة، المعلَّقة في الهواء دون أي سند او دليل.

فلا أبرشية في مكة، ولا كنيسة في الكعبة، ولا نصرانية مسيطرة على قريش كلها والقسوسية التي ألصقت بورقة بن نوفل، ليست في عرف التاريخ، ولغة الوقائع غير فرضية تشبث بها أبو موسى من باب الجدل اللفظي.

٥ ـ ولقد عدت إلى تاريخ الكنيسة ـ وكان أبو موسى هو الأجدر بذلك.

---

(١) سوف نتحدث بالتفصيل عند دراستنا للعنوان الثالث من الفصل الرابع.

فوجدت أن في الكنيسة درجات دائمة تمركزت في خدمة الرسل الخارقة منذ ظهور الكنيسة. فالرسل الذين انحصرت فيهم سلطة الرئاسة بتمامها، مَنَحُوا، هذه السلطات بمقادير معينة إلى أشخاص منتخبين من بين المؤمنين حسب الأحوال واحتياج الكنيسة. وقد ظهرت هذه الدرجات الرئاسية في كنيسة المسيح ابتداءً من الدرجات الدنيا أي من «الشمامسة» الذين تنتخبهم جماعة المؤمنين، ثم تليها الدرجة الرئاسية الثانية وهي «القسوسية» فالقسس ينتخبون من قبل أعضاء الإكليروس والمؤمنين من الشعب (العلمانيين) وذلك من أجل إدارة جميع أعمال الجمعية المسيحية ولإتمام الخدمة الإلهية.. وينتخبون من بين الأشخاص اللائقين كما تدل تسميتهم (قسس أي شيوخ) ومتقدمون في السن. وهكذا فعل بولس الرسول في رحلته الأولى فأقام قسوساً في بعض الكنائس التي أسسها[1] وكان الرسل هم الذين يكرسون القسس والشمامسة للخدمة المعينة لهم وذلك «بوضع اليد على رؤوسهم، ومنحهم حقوقاً رئاسية عظيمة وتفويضاً رسمياً» أما الدرجة الرئاسية العليا فهي «الأسقفية» وهي لسيامة القسس والشمامسة والرقابة على كل الكنيسة»[2].

وقد وضعت قوانين وأنظمة للانتخاب، لا يصح تجاوزها. فالكاهن المنتخب يجب أن يكون منتسباً إلى الجمعية التي ينتخب للقيام بإحدى درجات الخدمة فيها... وبعد انتشار المسيحية صارت الجمعيات الوطنية في القرى والدساكر تخضع إلى جمعيات المدينة، فتشكلت في هذه مناطق مركزية تجمعت فيها وتبعتها القرى وسمي المجتمع في المدينة «باريكية» ثم أطلق عليه فيما بعد اسم «أبرشية» ومع تعاظم عدد المؤمنين ومن أجل إتمام الخدمة قام الأسقف بتقسيم الرعية التابعة له إلى جماعات وعين لها قسوساً وشُمامسة وأطلق على كل كنيسة فيها قس اسم «كاتدرا». وبدونها لا يمكن أن تكون كنيسة»[3].

هذه الإجراءات، مبنية على القانون الديني الكنسي، وهو مجموعة «قوانين الرسل الخمسة والثمانين» التي اعتبرت أساساً للقوانين الكنسية في المسكونة منذ بدء القرن الثالث[4].

---

(١) أعمال الرسل ١٤/٢٣.

(٢) ص ١٣٠ ـ ١٣١ ـ ١٣٢ من تاريخ الكنيسة المسيحية مترجم عن الروسية بعام ١٩٦٤م.

(٣) نفس المرجع ص ١٣٤ ـ ١٣٩.

(٤) نفس المرجع ص ١٤٦.

هذه القوانين، تمتعت بصفة الثبات والديمومة والقداسة والرسمية، وهي التي كانت تسود الكنائس المسيحية في جميع مناطق وجودها، أي إنها كانت سائدة في القرن السابع الميلادي وما قبله على أتباع عيسى عليه السلام.

فلو كان ورقة نصرانيا ـ مسيحياً، كما قال أبو موسى، لكان مقيداً بها وملتزماً بتعاليمها، ولو كان قساً بالفعل، لكانت قسوسيته بموجب أحكامها وبالاستناد إليها. إذ بدون هذه الإجراءات، لا يمكن أن تكون نصرانية ولا قسوسية ولا كنيسة في مكان ما. (كما ذكر تاريخ الكنيسة ص ١٣٤ ـ ١٣٩).

بالاستناد إلى ذلك نسأل أبا موسى ولا نأمل منه جواباً:

من انتخب ورقة بن نوفل قساً على كاتدرائية مكة؟ ومن رسمه أسقفاً على أبرشيتها المركزية؟ أين هم جماعة أو جمعية المؤمنين؟ (الإكليروس والشعب)؟ الذي لا يكون الشخص قساً إلا بانتخابهم إياه؟ من باركه ووضع يده على رأسه؟ من هو الأسقف الأكبر الذي منحه الحقوق الرئاسية؟ على العرب وفوضه بالخدمة الدينية الرسمية بينهم؟ ما هي الخدمة الإلهية التي كان يؤديها؟ هل كان يقوم بالوعظ والقربان والصلاة في الكعبة؟ أيام الآحاد وفي مواعيد ومياقيت الواجبات والفروض الدينية الأخرى؟ لمن كانت كنيسته تابعة؟

تلك الأسئلة وسواها، ليس لها أي جواب في كتب التاريخ وعلم الاجتماع لدى العرب وغير العرب. فكيف وجدت نفسها عند أبي موسى؟

وهل يكفي أن يجترح أبو موسى أو سواه ادعاءَ ما لا وُجُودَ لـه ليُصِبحَ لـه وجود؟ هل يقبل بأي منطق علمي أو ديني أن نتعامل مع «ورقة بن نوفل» على أساس كونه نصرانياً، ثم قساً، ثم رئيساً لكنيسة، ثم سيداً لأبرشية، ثم أن تكون الأبرشية مكة المكرمة والكنيسة الكعبة المقدسة وهي أقدم وأكرم بيت في تاريخ الإنسان؟

هكذا دون مستند أو دليل من تاريخ مكتوب أو شعر منظوم أو رقيم مرقوم أو خبر معلوم؟

لا أظن أنني في حاجة إلى تأكيد النفي.
فلقد نفى أبو موسى نفسه بنفسه.

ثالثاً ـ أبيونية القس ورقة

الفقرة «ثالثاً» استغرقت في كتاب «قس ونبي» الصحائف ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ وقد ناقشت الأفكار التالية ودافعت عنها وهي:

١ ـ الأحزاب، كلمة وردت في القرآن مرات عديدة، أشار المؤلف إلى ستة عشر آية ذكر فيها الأحزاب. وقال:

إن القرآن والتاريخ الكنسي متفقان على أن هذا المفهوم يدل بالتعيين على شيع النصارى الضاربين في مكة والحجاز عند ظهور الدعوة الإسلامية. وأينما وجدت في القرآن، فإنها تنصرف صراحة أو ضمناً إلى تلك الشيع.

٢ ـ ومحمد الذي عرف هذه الأحزاب، تعَايَشَ معها دون أن ينتمي إلى أحدها، خشيةً مِنْ أن يزيدَ ذلك في التفرقة بينها. وقد عبر القرآن عن هذه الخشية في خمس آيات محذراً من الاشتراك في تعميق الخلافات القائمة.

٣ ـ من تلك الأحزاب، شيعة الأبيونيين، التي زعم المؤلف أن ورقة كان ينتمي إليها ومنها أيضاً الشيعة «القيرنثية» و«الكسائية» وهي الشيع الثلاثة التي بنى أبو موسى نظريته بناءً كاملاً عليها.

فهي ذات عقائد، تمثل الحقيقة المسيحية، وهي لا تختلف مع القرآن وبخاصة فيما يتعلق بالمسيح وأمه، ومحمد ورسالته.

وهي العقائد التي كان يعتنقها ورقة، والتي كان يمارس رياضته الروحية وتعبده في غار حراء على أساسها. وهي نفسها التي كان يعتنقها الحمس ويمارسون خلواتهم بالاستناد إليها، مثلما لقنهم ورقة بن نوفل.

وما كان محمد غير واحد من هؤلاء، درّبه ورقة على الاختلاء في غار حراء،

ولقّنه أثناء ذلك ترجمة الإنجيل من العبرانية إلى العربية وسمى ذلك التلقين قرآناً، لأنه كان يتلوه عليه تلاوة.

قبل أن أناقش الأفكار الثلاثة، لا بد من شد الانتباه إلى أن جميع من كتبوا وألّفوا في التحنث وضعوا له التعريف الآتي:

«إنه الامتناع عن عبادة الأوثان وعدم أكل ذبائحها والانقطاع عن الناس أياماً بلياليها للتفكر في الله وإطعام الجياع، وعدم الطواف عارياً بالبيت. . . ومن هؤلاء المؤلفين الثقات: لسان العرب، تفسير الطبرسي، تفسير الرازي، تفسير الطبري، تاج العروس، ابن خلدون، القاموس، صحيح البخاري، صحيح مسلم.

فالتحنث هو رياضة روحية مجردة عن الانتماءات والطقوس الدينية، وجذورها التاريخية المتوارثة، المتواترة، تبدأ من مؤسسها النبي إبراهيم الخليل، الذي وصفه القرآن، بقوله:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

(آل عمران: ٣/٦٧) وأفلج حجة القائلين بأنه أبو اليهودية والنصرانية بقوله:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: ٣/٦٥).

أعود بعدها إلى أفكار أبي موسى، متتبعاً محللاً مناقشاً، لأرى إن كانت آيات القرآن التي اعتمد عليها تتفق مع أفكاره وتدعمها وتؤيدها:

أولاً: وأول هذه الأفكار وأكثرها غرابة، تلك التي اعتبرت الأبيونية مصدر القرآن والدين الإسلامي جملةً: فقد أوحى ـ كما قال المؤلف ـ ورقة إلى محمد من تعاليمها وترجم من كتابها كل ما عند المسلمين ونبيهم من عقائد وديانةً وفروض وحدود.

ويقول: لقد كانت تنتشر الشيع النصرانية، في مكة وبطاحها، وبلاد الحجاز وكانت الشيعة الأبيونية في طليعتها. وقد أطلق القرآن على هذه الشيع اسم الأحزاب، وحذر محمداً من الانتماء إلى إحداها أو الانحياز إليها أو التسبب في زيادة الفرقة وتعميق الاختلافات بينها.

وفي هذا التحذير، والتحزيب جاء أكثر من عشرين اية في القران منها ست عشرة آية وردت في الأحزاب وخمس آيات وردت في التحذير من التفريق بينها.

وحتى أكون مع القارىء على بينة من استدلال أبي موسى وتفسيره لتلك الآيات قمت بقراءتها متوناً وشروحاً في مختلف المصادر فوجدت تجاوزاً وجرأة من المؤلف لا مثيل لهما. وهما تجاوزٌ وجرأةٌ مقصودان لتحقيق غاية يسعى إليها المؤلف سوف تبدو جلية وسوف يزداد جلاؤها كلما وضعنا بين أيدينا شرحاً أو تفسيراً لآية من آيات القرآن أو استدلالاً لغوياً أو فقهياً منها.

وهذه هي الآيات:

١ - ٣٠/٣٢ - الروم: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. هذه الآية مرتبطة بسابقتها: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ • مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ٣٠/٣١.

ومضمون الآيتين، تحذير من أن يكون المسلمون من المشركين الذي فرقوا دينهم إلى شيع، وكلمة المشركين تشمل «اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر الأديان عدا الإسلام التي تفرقت إلى شيع، والخطاب موجه إلى المسلمين جمعاً وليس إلى النبي.

٢ - ٤/١٥٠ - النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ تعني اليهود والنصارى.

فاليهود كفروا بعيسى والنصارى كفروا بمحمد. فهؤلاء يُعتبرون كافرين بالرسل لأنه من كفر برسول فكأنه كفر بجميع الرسل.

هذه الآية: ليس لها علاقة بموضوع الأحزاب.

٣ - ٤/١٥٣ - النساء: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾.

هذه الآية تتحدثُ عن اليهود، وليس فيها شيء عن النصارى ولا عن الأحزاب.

٤ - ٣/١٠٣ - آل عمران: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

نزلت هذه الآية:

في الأوس والخزرج الذين كانت بينهم في الجاهلية حروبٌ وثارات فألَّف الإسلام بينهم وجعلهم إخواناً متحابين بنعمة الله.

٥ - ٣/١٠٥ - آل عمران: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ ﴾... هذه الآية نهت المسلمين أن يكونوا مثل الأمم الماضية الذين اختلفوا وتفرقوا بعد أن جاءتهم الرسل بالبينات.

٦ - ٤٢/١٣ - الشورى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾. لا علاقة لهذه الآية بموضوع النصارى والأحزاب.

٧ - ٩/١٢٢ - التوبة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

نزلت في جماعة من أصحاب النبي نزلوا في البوادي فأصابوا من الناس

معروفاً فدعوهم إلى الهدى فقال الناس لهم ما تركتم أصحابكم وجئتمونا إلا لسبب فوجدوا في أنفسهم حرجاً. . .

٨ ـ ٢/٧٥ ـ البقرة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

نزلت في اليهود الذين حرفوا التوراة بحرامها وحلالها.

٩ ـ ٢/١٠٠ ـ البقرة: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

نزلت في اليهود حينما ذكرهم النبي بما أخذ عليهم من الميثاق فنبذوا ذلك.

١٠ ـ ٢/١٤٦ ـ البقرة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

نزلت عندما سأل عمر بن الخطاب عبدالله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك قال نعم وأكثر: نزل الأمين من السماء على الأمين من الأرض بنعته فعرفته وابني لا أدري ما كان من أمه.

١١ ـ ٢/١٠١ ـ البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هي تتمة للآية ٢/١٠٠ وقد نزلت في اليهود.

١٢ ـ ٣/٧٨ ـ آل عمران: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

نزلت في اليهود الذين حرفوا مقلدين ما في الكتاب، ويزعمون أن ما أتوا به هو من عند الله تضليلاً للناس وسخرية بالأنبياء.

١٣ ـ ١٩/٣٧ ـ مريم: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. ورد في تفسيرها:

اختلف قول أهل الكتاب في عيسى فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود على أنه ولد من الزنا وقالوا كلامه سحر. وقالت طائفة أخرى إنما تكلم الله، وقال آخرون بل هو ابن الله، وقال آخرون ثالث ثلاثة، وقال آخرون هو عبدالله ورسوله.

هذه الآية تضمنت الإخبار عن اختلاف مفكري النصارى في رؤيتهم إلى السيد المسيح وهي أخبار تاريخية تتضمن أن مجاهرتهم بالاختلاف كانت في المحفل الكبير الذي جمعهم به قسطنطين الذي كان فيلسوفاً فمال إلى رأيٍ اتفق عليه ثلاثماية وثمانية أساقفة من بين المجتمعين الذين كان عددهم ألفين وماية وسبعين أسقفاً. فقدم الرأي الذي مال إليه ونصر أصحابه وطرد من عداهم ثم قام بنشر ذلك الرأي في مملكته وابتنى له الكنائس والبيع حتى بلغ عدد الكنائس في أيامه اثني عشر ألفاً.

والآية كما يتبين منها، غير موجّهة بتكليف إلى النبي والمسلمين، بل هي إخبار عن حادثة تاريخية ثابتة.

١٤ ـ ٤٣/٦٥ ـ الزخرف: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾.

هذه الآية تتحدث عن الاجتماع التاريخي نفسه الذي أوردنا ذكره في شرح الآية ٣/٣٧ السابقة، حيث تبنى الملك قسطنطين الرأي الذي قال به ثلاثماية وثمانية أساقفة وهو الثبات على «بنوة المسيح من الله، وألوهيته، وصلبه، وقيامته، وفدائه...».

١٥ ـ ٢٣/٥٣ ـ المؤمنون: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

هذه الآية تحدثت عن الأمم التي بعثت إليها الأنبياء، «يفرحون بما لديهم من الضلالة لأنهم يحسبون أنهم مهتدون».

١٦ - ٢٢/٣٣ - الأحزاب: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

نزلت لوصف حالة المسلمين حينما تزلزلوا وتضجروا في يوم الأحزاب بقيادة أبي سفيان فقالوا: متى نصر الله؟ فلما رأوا الأحزاب قالوا هذا ما وعد الله ورسوله من البلاء والاختبار ثم النصر، لذلك قالوا:

وصدق الله ورسوله وما زادهم البلاء إلا إيماناً وتسليماً.

والأحزاب هنا:

هم: أشراف بني النضير من اليهود الذين أجلاهم النبي عن المدينة إلى خيبر ومنهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا وخرجت قريش مع أحابيشها ومَنْ تَابَعَها وقائِدُهُم أبو سفيان (صخر بن حرب) وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر والجميع قريب من عشرة الآف، فاحتفر المسْلمون الخندق حول المدينة فنزل قسم من المشركين شرقي المدينة قرب أحد ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة. وقد جاء وصف ذلك كله في سورة الأحزاب:

﴿ ﴾.

فأين معنى كلمة الأحزاب في هذه الآيات؟ من المعنى الذي افتعله أبو موسى وأطلقه على شيع النصارى؟.

تلك هي الآيات الست عشرة ليس في أيّةٍ منها تخصيص بشيع النصرانية كما زعم أبو موسى، وليس فيها كلمة تَحُضُّ النبي على أن يحافظ عليها من التفرقة التي هي فيها.

بعد ذلك، استعرض الآيات الخمسة التي اعتمد عليها أبو موسى لإثبات مدّعاه من أن النبي كان مكلفاً من الله بالعناية بالشيع النصرانية، والامتناع عن الدخول في منازعاتها وخلافاتها العقائدية.

١ - ٩٤/٢٠ - طه: ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ عجيب أمر الجرأة عند المؤلف.

فهذه الآية نزلت في موسى وهٰرون واليهود:

وذلك عندما عاد موسى إلى قومه غضبان، حين وجدهم يعبدون العجل منقادين إلى ضلال السامري فأمسك في يمينه برأس هٰرون وقبض في يساره على لحيته مؤنباً له على إهماله فكانت هذه الآية جواباً من هرون إلى موسى وقد جاء سرد هذه الحادثة في سورة طه:

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ • قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ • قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ • فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى • قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ • فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ • وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى • قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ • قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ • أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى • قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

هذه هي مناسبة الآية ٩٤ ـ من سورة طه.

وهي لا تلتقي في حرف من حروفها، ولا في معنى من معانيها بما أراده منها أبو موسى الحريري.

٢ ـ ٢/١٣٦ ـ البقرة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾.

نزلت هذه الآية في الحض على وجوب عدم التفريق بين الأنبياء.

٣ ـ ٣/٨٤ ـ آل عمران: هي بذات ألفاظ الآية ٢/١٣٦ ولها ذات التفسير.

٤ ـ ٤/١٥٢ ـ النساء: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

نزلت في أتباع محمد الذين يجب عليهم دينياً ألا يفرقوا بين الرسل.

٥ ـ ٢/٢٨٥ ـ البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

نزلت أيضاً في الرسول محمد وأتباعه الذين لا يفرقون في الإيمان بالرسل.

هذه هي الآيات التي قال أبو موسى إنها نزلت بمثابة أوامر إلى النبي محمد لكي يحافظ على الشيع والأحزاب النصرانية وأن يحمي عقائدها ويعمل على توحيدها ضمن عقيدة وطقوس نصرانية موحدة تجمع بينها.

فهل يمكن لأي قارىء أن يرى في هذه الآيات شيئاً مما رآه أبو موسى؟

لقد أثبتُّ هذه الآيات الخمسة.

وأثبتُّ الآيات السابقة، وعرضتُ كلماتها حرفياً، وما جاء في المراجع

التاريخية والتفسيرية عن مناسباتها وتفسير مضامينها. لكي يلمس القـارىء بيده، مقدار استهتار كاتب «قس ونبي» بالحقيقة، واستغفاله للقرّاء واستخفافه بثقـافتهم وتتبُّعهم.

ثانياً: بعد هذا سوف نقف مع أبي موسى لنستعرض كيف أثبت بالاستناد إلى تاريخ الكنيسة أن ثمة توافقاً بين القرآن وهذا التاريخ على انتشار النصرانية في مكة والحجاز وأن الأحزاب الذين ورد ذكرهم في القرآن هم شيع النصارى التي هي الجذر الأساسي للدين الإسلامي وقرآن المسلمين.

فقد تحدث في الصحيفتين ٢١ ـ ٢٢ من كتابه عن الفرق الثلاثة الأهمّ بين النصرانية وهي الأبيونية والقيرنثية والكسائية. وقال: كان ورقة بن نوفل ينتمي إلى الأبيونية منها، وأنه ترجم إنجيلها العبراني إلى اللغة العربية، وعلّمَـهُ إلى محمد بطريق التلاوة وسمى ذلك كله قرآناً.

ولقد عدت إلى التاريخ الكنسي، كما كنت استعرضت آيات القرآن وبعد أن تبين لي أن القرآن خالٍ تماماً مما زعمه أبو موسى (كما مرَّ معنا) قلت:

عسى أن يكون في تاريخ الكنيسة ما يسعف حجته.

ولشد ما كانت دهشتي واستغرابي، حين وجدت تاريخ الكنيسة ليس فقط غير مُسعفٍ لأبي موسى، بل هو متعارض مع أقواله.

إن دهشتي، لم تكن بسبب خيبة ظني في المؤلف، بل من مقدار جرأته على التحريف والاقتناص، لا فرق لديه بين تاريخٍ، أو قرآنٍ أو إنجيل. ولكي يكون القارىء على بيِّنة ويقين اقتطفت له فقرات من تاريخ الكنيسة هي الآتية:

الأبيونية: أخذت اسمها من الكلمة العبرانية «أفيون ـ يفيون»، ومعناها الفقير. ثم صار اسمها «الشيعة اليفيونية» أو «الظاهرة اليفيونية».

أوجب أبناؤها على أنفسهم إتمام ناموس موسى على جُميع المسيحيين معتبرين ـ لهذا السبب ـ أن بولس الرسول الذي ناهض الناموس مرتداً عن الإيمان، والديانة اليهودية بموجب تعاليمهم لها أهمية عظيمة في أمر خلاص البشر حتى بعد مجيء عيسى.

فالأفيونيون، لا يعتبرون المسيحية ديانة جديدة، بل هي امتداد لليهودية ومن هنا كان تعليمهم عن المسيح غير ما تمسكت به ونشرته الكنيسة المسيحية لقد جاء عيسى ليكرز بمجيء مملكة الله التي لا يمكن أن يدخلها إلا اليهود وانحصرت مهمته في تفسير الناموس بالوصايا والشروح.

تلك كانت خلاصة آراء هذه الشيعة وعقيدتها الدينية.

وفي الحياة العملية، كان اختلافهم عن الكنيسة اختلافاً بيّناً.

وقد ظلت هذه الشيعة قائمة حتى انتهت نهائياً في القرن الخامس الميلادي فزال أثرها وامّحى تأثيرها ولم يبقَ لها وجود.

الكسائية: هي حزب من المتهودين الهراطقة. تكوَّنَ من المزج بين اليهودية السِّيَّة وبين المسيحية. وقد تجمعت في آرائها عناصر من الديانات الشرقية والفلسفة اليونانية، فشكلت انتقالاً إلى الغنوصيين الوثنيين وتقوم فلسفتهم العقائدية على أن الإنسان الأول آدم كانت ديانته حقيقية لأنَّ الروح الإلهي سكن فيه لكن الجنس البشري أضاع هذه الديانة تحت تأثير المبدأ الشرير ـ المادة ـ أعني بواسطة المرأة علة الخطيئة والضعف والضلال والشهوة. ومن أجل تخليص العالم من الشر ولحفظ الديانة الحقيقية فيهم أرسل الله كأب للجنس البشري إلى العالم روحه الإلهي الذي ظهر في شخص هابيل وأخنوخ وإبراهيم وإسحٰق ويعقوب وموسى ثم سلم موسى تعاليمه إلى سبعين رجلاً لكي يسلموه إلى الأجيال القادمة لحفظه بالتقليد وبعد موسى بزمنٍ طويلٍ دوِّن في الكتب ولكنه تشوه في معظمه حتى لا يجد الحقيقة فيه إلا القليلون.

أما الشعب اليهودي فلم يفهم الديانة الحقيقية وغرق بالمحسوس لدرجةٍ حَوَّلَ معها كلَّ الديانةِ إلى طقوس واحتفالات طقسية ومن بينها تقديم الذبائح التي تمثل المحسوس بنوع خاص. فلكي يُطَهِّرَ الله ناموس موسى من الاختلاط بالمحسوس ويعيد الديانة الحقيقية أرسل يسوع مقتصرة مهمته على التعليم ولكن بدون جديد بل بما عرفه الحكماء بالتقليد فتعليمهم نفي «لفداء البشرية من الخطيئة والموت»، حتى إن مجيء المسيح المخلص لا معنى له لأن ديانة آدم معروفة ويمكن أن يتم الخلاص بها من دون المسيح.

هذه الشيعة:

لم ترَ لدى المسيح أي تكليف أو تعاليم أو رسالة جديدة، بل نظرت إليه داعياً من دعاة اليهودية، ومعلماً من معلمي الناموس اليهودي.

الكيرنثية: سميت باسم مؤسسها «كيرنث» وهو يهودي هرطوقي عاصر الرسل، إسكندراني، تربَّى على نظرية «فيلون اليهودي الإسكندري» اللاهوتي وعلى فلسفة «بلاطون». اعترف بالمسيح إنساناً عادياً بولادة عادية من مريم ويوسف وقد دامت جمعيته حتى القرن الرابع.

أنظر فيما تقدم:

«الصحائف ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ وما بعدها من تاريخ الكنيسة المسيحية: مترجمة عن الروسية بعام ١٩٦٤م للمؤلف: انغراف سمير نوف الذي منحه المجمع المقدس الروسي جائزة واعتمد كتابه هذا في الجامعة لطلبة الصفوف العالية».

- فمما تقدم يتبين أن الفِرَقَ الثلاثة (الأبيونية والكسائية والقيرنثية) لم تكن ذات معتقدات نصرانية وفقاً للعقيدة المسيحية. ووفقاً لما نصت عليه الأناجيل الأربعة المعتمدة. وكانت تتهم بولس الرسول بالكفر والارتداد عن اليهودية لأنه ناهض ناموس موسى. ولم يكن لتلك الفرق تعاليم موحدة كما لم تكن تعتمد على مصدر فلسفي أو فكري واحد بل كانت مختلفة المصادر والآراء. وبالتالي يكون قول «أبي موسى» بوجود إنجيل خاص بها هو «الإنجيل العبراني» وإن ورقة بن نوفل قضى عمره وهو عاكف على ترجمته، هو من قبيل المزاعم التي تتعارض مع التاريخ الكنسي ولا تجد لها دعماً أو مؤيداً ثابتاً.

ثم إنها - حتى بإقرار أبي موسى - انتهت أثراً وتأثيراً وعقيدةً خلال القرن الخامس الميلادي، أي قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرن.

- وفوق هذا فإن ما نسبه المؤلف إليها من آراء هي آراء يهودية وبخاصة ما تراه في المسيح، من حيث جوهر شخصه، وكيفية ولادته، وقيامته وسر الفداء والصلب. وكذلك ما تراه في عذرية مريم، وعلاقة هذه المواضيع كلها بالناموس.

فهي جميعها اراء يهودية ليست من النصرانية في شيء..

ـ والتاريخ لم يُثْبِتْ وجودَ إنجيل لمتى، غير الإنجيل الحالي، وهذه نقطة مهمة جداً، لأن أبا موسى اعتبر القرآن ترجمة من إنجيل متى العبراني. أي:

إن متى كان له إنجيلان، إنجيل باللغة العبرانية، ثم هذا الإنجيل الذي كتب لأول مرة بالآرامية، ثم باليونانية، ثم باللاتينية. ولم يُذكر أبداً، أن هذا الإنجيل الحالي كتب بالعبرانية. هنا:

لا بد من استباق المناسبة لنطلب من القارىء أن ينتقل إلى الصحائف من ١٧٧ ـ ١٨٥ من كتاب قس ونبي التي جاءت فيها مقارنات نصوصية بين آيات من القرآن وآيات مما سماه المؤلف إنجيلاً عبرانياً ليجد أن الأمثلة والآيات الإنجيلية مأخوذة كلها من الإنجيل الحالي برواياته الأربعة، وليس من بينها آية واحدة من هذا الإنجيل العبراني المزعوم.

كما سوف يجد القارىء أيضاً أن المقارنة المذكورة لم تقدم أي وجه للاقتباس أو الترجمة أو النقل.

بعد ذلك يصبح من الواجب القول:

بأنه لا يوجد بين القرآن وتعاليم هذه الفرق الثلاثة أي تقارب أو تلاق أو اقتباس، علماً أم عملاً أم أحكاماً أم فروضاً أم عبادات.

ثالثاً: وفي تحنث ورقة بن نوفل من المعاني والأبعاد فوق ما في تحنث سواه؛ فأبو موسى الحريري يود ألا ينتهي من امتداح مواهب ورقة ومزاياه، حتَّى ليَصِلَ به الغلو إلى التناقض فيقول قولاً، لا يلبث أن ينساه، فيأتي بما يناقضه بعد وقت قصير.

قال في الصحيفة ٢٣ ـ

«إن ما يثبت انتماء القس ورقة إلى الأبيونية هي ممارساته الروحية وتحنثه في غار حراء مع محمد حيث كانا يمارسان الواجبات سوية».

وقال في الصحيفة ٢٦ ـ

«في هذا الإطار من العلم والمعرفة يدخل القس ورقة كأحد الغنوصيين الكسائيين المتبحرين في الكتب».

تارةً يصف انتماءه إلى الأبيونية ويثبّتُهُ فيها حتّى الكتفين.

ثم بعد صحيفتين فقط يؤكد أنه واحد من الغنوصيين الكسائيين.

على أية حال:

إن ما قاله في الصحيفة ٢٣ ـ وفي غيرها من أنه كان يمارس الواجبات مع محمد في غار حراء، وأنهما كانا يختليان سوية للتحنث، هي أقوال يدحضُها هو نفسه في الصحيفة ٤١ ـ وما يليها وهي الآتية:

ـ ففي الصحيفة ٤١ ـ نقل عن السيرة الحلبية رواية حليمة السعدية مرضعة النبي ومربيته الأولى وصفُها لكيفية تحنث النبي:

«لما ترعرع النبي كان يخرج إلى الصبيان فيتجنبهم وهم يلعبون. ولما قرب الزمن الذي أراد الله أن يرسله فيه ازداد محبة في الخلوة، لأن الخلوة يكون فيها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق، فيه تفرغ القلب من أشغال الدنيا لدوام ذكر الله فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده وكان يخلو بغار حراء فكان يتحنث فيه: أي يتعبد فيه الليالي ذوات العدد مع أيامها: لاحظ (لم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده).

وشهدت عائشة فقالت:

«ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء ويتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ـ ص ٤٢ ـ نقلاً عن صحيح مسلم وصحيح البخاري.

ـ وأكدت خديجة ذلك بقولها:

«حبب الله إليه الخلوة التي يكون فيها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق» ص ـ ٤٢. تلك الأقوال اعتمدها أبو موسى، وأتى بها من مراجعها:

تفيد كلها، ما يتناقض منطقياً وواقعياً مع مزاعمه من أن خلوة النبي كانت مترافقة دوماً مع ورقة بن نوفل.

وهي كلها تفيد بأن خلوته كانت لوحده، لأنه في الوحدة يتحقق الانقطاع عن الخلق وفراغ القلب. ولأن اشتراك الآخرين بها، سواء أكانوا جماعةً أم واحداً، يفقد الخلوة معناها اللغوي ومضمونها التعبدي وغايتها التأملية. فكيف؟ ومن أين استقى معلوماته فجعل خلوة النبي محمد نصف خلوة؟ وجرَّدها من معانيها السامية ومن غاياتها الكبيرة؟

ولا يقف التناقض عند واحدة، في أقوال أبي موسى، بل هو موجود في أغلب أحكامه.

ـ ففي تحليله للحنيفية وممارساتها وشعائرها، يورد شهادات من مراجع كثيرة تؤكد على أن الحنيفية هي الجذر والأساس لملة التوحيد وأن مؤسسها هو نبي الله إبراهيم الخليل. وأن التحنث في العرب كان ممارسة الحنيفية وتطبيق شعائرها، فكل من تحنث كان ـ في عرفهم ـ حنيفياً متبعاً ملة إبراهيم.

وهي ملة، ليست يهودية، وليست نصرانية، بل هي إبراهيمية حنيفية وكفى ـ ولكنه بعد هذا القول الواضح، لا يلبث أن يقول:

إن التحنث، والحنيفية، هما عبارة عن ممارسة الطقوس النصرانية التي كانت سائدة. وإن الحمس ـ أي قريش كلها ـ كانت نصرانية وكان الدليل على نصرانيتها ـ هو التحنث وممارسة الطقوس الحنيفية.

رابعاً ـ علم القس ورقة

خصص المؤلف هذه الفقرة من «قس ونبي» للتعريف بأهل العلم، الراسخين فيه، الذين ورد ذكرهم في أكثر من ثلاثين آية من آيات القرآن، وفي العديد منها تأكيد على النبي والمسلمين كافة وحضٌّ لهم في العودة إلى هؤلاء العلماء لاستجلاء ما يعترض مسيرة العقيدة الإسلامية من غموض وعقبات وما يقوم من شكوك أو تردد في أنباء الغيوب التي طواها التاريخ وأنباء ما لا يزال مستبطناً في عوالم المستقبل.

وأهل الكتاب، الراسخون في العلم، ليسوا ـ برأي أبي موسى ـ جماعة من

الناس بل هم شخص واحد تجمعت فيه المواهب الربانية، والإنسانية، هو ورقة بن نوفل. فهو الذي أشارت إليه الآيات. وهو مرجع التفسير القرآني وتيسيره وتفصيله.

إن الأبيونيين الذين توسع أبو موسى في تعداد شيعهم ومعتقداتهم، وأعاد إليهم القرآن، وإعداد النبي وتثقيفه قبل الرسالة، والإشراف عليه بعدها لم يذكر أبو موسى منهم شخصاً واحداً. بل اكتفى بالحديث عنهم من خلال شخص ورقة بن نوفل، لأن ورقة. شخصيَّة مفردة في ذاتها، مجموع في حقيقتها وإمكانياتها وأهدافها. لأنه مترجم القرآن من العبرانية إلى العربية وهو الذي طافت من حوله الآيات:

﴿شهود مع الله والملائكة على صحة الرسالة﴾، ﴿الراسخون في العلم الذي استقر في صدورهم بينات﴾، ﴿وقد رفعهم الله إليه درجات﴾، ﴿الذين تفيض عيونهم من الدمع مما عرفوا من الحق﴾.

هذه الصيغ القرآنية، موجّهة بحسب مدلولها اللغوي ومناسباتها التاريخية، إلى مجموعة من الناس ولكن أبا موسى صادرها لصالح الأبيونيين ثم صَهَرَ الأبيونيين جميعاً بشخص ورقة بن نوفل.

لقد بدأ الحديث عن «علم القس ورقة» بقوله:

«كان ورقة مستحكماً في النصرانية، فقد تتبَّع درس الكتاب بشكل متواصل وظل يأخذ من أهل الكتاب (التوراة والإنجيل) ومن علماء اليهود والنصارى ما لديهم من مختلف العلوم الإلهية والإنسانية. لأنهم الموصوفون في القرآن بـ «أهل العلم» و «أولي العلم» و «الذين جاءهم العلم» و «من عنده علم بالكتاب» و «الذين أوتوا العلم».

وفي صحيفة واحدة من كتابه دلَّ على أكثر من عشرين آية في الثناء على أهل العلم وتعظيمهم مضيفاً هذا التعظيم والتكريم إلى ورقة وجماعته الأبيونيين. (ص ٢٤ ـ من كتابه).

ومع أن العلماء من جميع الاختصاصات، الذين تعمقوا في دراسة القرآن توصلوا إلى أن العلوم التي حض القرآن عليها، والتي أعطى بعض مفاتيحها هي فوق ما في التوراة والإنجيل، وفوق ما لدى الفكر الإنساني في ذلك العصر، وهي عدا عن ذلك جديدة ليس لها سابقة في أي مرجع.

لذلك:

ومن أجل كشف عملية التزييف في ادعاء المؤلف، عدت إلى تلك الآيات، متتبعاً، تفاسيرها ومناسباتها واحدة واحدة، واضعاً بين يدي القرّاء عناصر الحكم السليم على أبي موسى الحريري، دون عاطفة أو انفعال أو غرض وانحياز.

١ ـ ٤/١٦٢ ـ النساء: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾.

قال ابن عباس: أنزلت هذه الآية في عبدالله بن سلام وثعلبة بن شعبة، وأسد بن شعبة، وأسد بن عبيدالله، الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمداً (ص). أما المؤمنون (في الآية) فهم المهاجرون والأنصار.

٢ ـ ٣/٧ ـ آل عمران: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

قال ابن أبي حاتم بسنده: حدثنا عبيدالله بن يزيد وكان قد أدرك أصحاب رسول الله (ص) أنساً، وأبا أمامة، وأبا الدرداء، أن رسول الله سئل عن الراسخين في العلم فقال: «من برّت يمينه، وصدَق لِسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم».

أي:

إن الرسول لم يقل: هم علماء اليهود والأبيونيين، ولم يشر إلى ورقة بن نوفل أو سواه.

٣ ـ ٣/١٨ ـ ١٩ ـ آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾.

جاء في «الجلالين» و«ابن كثير»: أن أولي العلم هم من الأنبياء والمؤمنين

اعتقاداً ولفظاً، والذين جاءهم العلم أي العلم بالتوحيد من جماعة اليهود والنصارى ﴿الذين أوتوا العلم﴾ فاختلفوا في الدين فكفر بعض وآمن بعض من بعدما أوتوا الكتاب (التوراة والإنجيل).

٤ ـ ١٠/٩٣ ـ يونس: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾.

قيلت في اليهود الذين اختلفوا إلى ٧١ ـ فرقة والنصارى إلى ٧٢ ـ فرقة، لذلك قال النبي وستفترق هذه الأمة إلى ٧٣ ـ فرقة. ولهذا جاءت خاتمة الآية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٩٣ ـ يونس).

٥ ـ ١٣/٤٣ ـ الرعد: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾.

نزلت في عبدالله بن سلام. ويقال: إنها نزلت فيمن شهد بصدق الرسالة من اليهود والنصارى.

٦ ـ ٢٧/٤٠ ـ النحل: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾.

قال ابن عباس: المقصود بالذي عنده علم في الكتاب هو: آصف كاتب سليمان.

٧ ـ ٥٨/١١ ـ المجادلة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

روي عن عمر قوله: إن نبيكم محمد (ص) قال إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين.

أي: إن الذين أوتوا العلم، هم العلماء بكتاب الله.

٨ ـ ٤٧/١٦ ـ محمدَ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

نزلت في المنافقين مخبرة عن نفاقهم وقلة فهمهم. حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله (ص) ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم من الصحابة ماذا قال آنفاً؟ أي الساعة؟ لا يعقلون ولا يكترثون بما قال.

٩ ـ ٣٤/٦ ـ سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾. هي:

إن المؤمنين إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار رأوه حينئذٍ عين اليقين ويقولون: لقد جاءت رسلنا بالحق.

١٠ ـ ٥٦/٣٠ ـ الروم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

الذين أوتوا العلم: هم المؤمنون بالكتاب والرسالة.

١١ ـ ٤٩/٢٩ ـ العنكبوت: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

هو: أي القرآن، آيات بينات ـ أقامها الله في صدور المؤمنين فيسَّرَهُ لهم حفظاً وتلاوةً، وما ينكره غير الذين ظلموا.

١٢ ـ ٢٠/٢٨ ـ القصص:

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

هذه الآية، مرتبطة في المعنى والمناسبة مع الآية السابقة لها، وهما تخبران

عن قارون وصحبه:

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ... ﴾.

١٣ ـ ٢٧/٤٢ ـ النحل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾.

قال مجاهد: إن سليمان هو الذي قال: وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين.

١٤ ـ ٢٢/٥٤ ـ الحج: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾.

أي: ليعلم الذين أوتوا من العلم ما يفرقون به بين الحق والباطل فيقوم إيمانهم على اليقين بالله ورسوله وما أوحي إليه.

١٥ ـ ١٧/١٠٧ ـ الإسراء: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾.

أولئك: هم الصالحون من أهل الكتاب الذين تمسكوا بحقائق كتابهم دون تحريف فوجدوا في القرآن ما كان كتابهم قد أنبأهم عنه ووجههم إليه أولئك، يؤمنون بالقرآن ويخرون سجداً عندما يستمعون إلى تلاوته.

١٦ ـ ١٦/٢٧ ـ النحل: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ﴾. الذين أوتوا العلم هنا:

هم السادة الذين يرون إلى خزي الكفار يوم القيامة فيقولون إن الخزي والسوء اليوم من نصيب الكافرين.

١٧ ـ ٦/٢٠ ـ الأنعام: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

نزلت فيمن عرف حقيقة القرآن والرسالة من أهل الكتاب ولكنه كابر وأنكر فخسر نفسه وباء بالخذلان.

١٨ ـ ٨٣/٥ ـ المائدة: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

قال ابن عباس:

نزلت في النجاشي وأصحابه الذين بكوا عندما سمعوا القرآن وأسلموا. وقال سعيد بن جبير: نزلت في وفد أرسله النجاشي بكى وأسلم عندما سمعه. وقال قتادة: نزلت في قوم كانوا على دين عيسى فبكوا وأسلموا ولم يتلعثموا عندما سمعوا القرآن.

١٩ ـ ٤٦/٧ ـ الأعراف: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾.

سئل الرسول عن أصحاب الأعراف فقال:

«هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا على الأعراف (وهو جمع عرف، سور في الجنة، بينها وبين النار وقد جاء اللفظ من عرف الديك للدلالة على الارتفاع وموقع الاطلال، وهم في مواقعهم حتى يقضي الله فيهم.

٢٠ ـ ١٤٦/٢ ـ البقرة: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

يروى عن عمر أنه سأل عبدالله بن سلام أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ إلى آخر الحديث...

٢١ ـ ٨٣/٤٠ ـ غافر: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

أنزلت في الكفار الذين اغتروا بما عندهم من العلم فصاروا يستهزئون بالنبي وبالقرآن. فانقلب عليهم الاستهزاء وبالاً وحاق بهم هزؤهم ونالوا خسارة في الدنيا والآخرة.

تلك الآيات، قدَّمها المؤلف أدلَّة قرآنية استعان بها لإثبات أن القرآن أوجب

على المسلمين أن يلجأوا إلى أهل العلم لتفسير وتوضيح ما يشكل عليهم من أمور العقيدة والدين. وأن أهل العلم الذين أحلَّهم القرآن في هذه المكانة الرفيعة هم الأبيونيون.

ولقد تبين من نصوصها، ومعانيها ومناسباتها أنها لا تشير إلى الأبيونيين ولا إلى ورقة. بل جاءت للحض على احترام العلم والعلماء دون تفريق أو تمييز، بغير الإيمان بكتاب الله ونبوة رسوله محمد والرسل السابقين.

ولم يكتف المؤلف بهذه الآيات التي تربو على العشرين.

بل استعان بإحدى عشرة آية في الصحيفة ٢٥ من كتابه لكي يدعم بها هذه الفكرة نفسها. وهي مثل الآيات التي استعرضناها ليس فيها شيء يفيد غايته، أو يلتقي مع فكرته.

فهو، ما فتىء في كل فصل يزداد وضوحاً في أهدافه القائمة على عواطف حزبية تعصبية، وعلى موروثات سلفية، لم تزدها الحضارة وعَلمانية القرون السابقة، والتطور العلمي العظيم، إلا ضُراماً وتأججاً فهو عاكف بدون كلل على خرق جدار القناعة والاعتقاد لدى المسلمين بأي ثمن، حتى لو اقتضى ذلك منه، وضع الأمور في غير مواضعها وإيراد النصوص في غير مناسباتها، وفهم المعاني بغير حقائقها. وهذا هو بالذات:

ما أوجب علينا ـ من باب الأمانة العلمية ـ أن نتعقب أفكاره مثلما يُطاردُ الهارب من العدالة.

خامساً ـ مهمة القس ورقة

قال أبو موسى: لقد ألزم القس نفسه في مهمةٍ مقدسةٍ جليلةٍ، هي الاطمئنان على بقاء النصرانية سائدة في مكة والحجاز من بعد موته، فرصد من أجل هذه المهمة جهود عمره، وعلومه، ويقينه، وظلت هاجس حياته لا يعيش إلا بها ومن أجلها.

ـ تبنى يتيم أبي طالب، منذ أول طفولته، تبنّياً روحياً تعليمياً، مكوِّناً إياه ما

يريده أن يكون، ملقناً إياه من العلوم والحكمة والمعارف والأنباء والتنبؤ ما يريده أن يواجه به العالم والتاريخ والدهر.

ـ وعكف على إنجيل الأبيونيين، الذي كان منتشراً لوحده في تلك الأصقاع يترجمه من العبرانية إلى العربية بأسلوب ميسرَ سهل قابل للحفظ والتلاوة وأفرغ في هذه الترجمة جميع ما فيَ الإنجيل من العقائد والفروضْ والعبادات والأخلاق الاجتماعية وأحوال المعاد الأخير.

ـ وطفق يصب في قلب متبنَّاه محمد جميع ما احتواه عقله وقلبه وما وصلت إليه يداه من علوم، وفلسفات، يهودية ونصرانية وتاريخية وسواها. ويقول أبو موسى:

فأنت عندما تقرأ القرآن يذهلك هذا التطابق الكامل وهذه الترجمة الأمينة وهذا التوافق بين الأصل العبراني والمُسْتَنْسَخِ العربي، حتى لَيَبْدُوَا بمثابة (الشبح والظل).

هذه هي أفكار «أبي موسى» في هذا الفصل الذي سماه «مهمة القس ورقة» وهي ـ من حيث المبدأ ـ ليست مهمة جليلة فحسب، بل هي مهمة مستحيلة استحالة مطلقة وهل ثمة أكثر استحالة من أن تقوم أنت أو أي مخلوق بصناعة شخصية نبي فتشرف على هذه الشخصية منذ طفولتها وتتعهدها تربيةً وتعليماً وتثقيفاً وإعداداً لهذه المسئولية التي تتجاوز قدرات البشر؟.

وبخاصة: إذا كانت هذه الشخصية محمداً بن عبدالله، ذلك العجيب الفريد على العصور؟؟.. ومع ذلك سوف ندخل الحوار مع هذا المؤلف، وسوف نَضَعُ ولو ـ مؤقتاً ـ أسلوب النقاش المنطقي خارج الحوار. ونركز تفرغنا في هذه المرحلة على تحليل النصوص وتعقب المؤلف في مقولاته، لغة، ومضامين، آخذين بالعناية والاهتمام جميع المراجع المعتمدة من قبله، معتمدين عليها في ذات الوقت لكي لا تبقى بين يديه حجة أو نصفُها أو شبيهٌ بها.

أولاً ـ وقفة مع أبيونية ورقة: أورد المؤلف آراء المؤرخين ووصْفَهم لنصرانية

ورقة. وانطلق من تلك الآراء في تحديد أبعاد وأعماق ومدى تلك النصرانية في ذلك القلب الكبير. فقال:

١ ـ قيل عن ورقة إنه كان على دين موسى ثم صار على دين عيسى، أي كان يهودياً ثم نصرانياً[1].

٢ ـ إن ورقة كان امرءاً تنصّر في الجاهلية. وكان يكتب العبراني، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب[2].

٣ ـ إن ورقة كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب[3]..

تلك الأقوال التي أتى بها المؤلف من مصادرها، لتكون معتمده ودليله لا يحق له أن يتنصل منها فيما لو أفاد مضمونُها بعكس ما أراده المؤلف. فهي إذن حجة عليه أيضاً..

وبعد فلنقف عندها بعض الوقت:

١ ـ قال أبو الفرج: كان ورقة يكتب بالعبرانية من الإنجيل. أي إذ كان وضع الكتابة هو وضع ترجمة، فإن ورقة كانَ ينقل من الإنجيل ويكتب ما ينقله بالعبرانية.

نود هنا أن نعيد التذكير بأن الإنجيل لم يكتب «بالعبرانية لأول مرة» بل كتبت نسخته الأُولى بالآرامية ثم انتقل إلى اليونانية ثُم إلى اللاتينية. أي إن ورقة كان ينقل الإنجيل من الآرامية إلى العبرانية. ولو كان الإنجيل مكتوباً بالعبرانية لما احتاج أن يكتب منه بالعبرانية: انظر:

في هذا المعنى وقريب منه شرح الكرماني لصحيح البخاري ١ /٣٩ ـ ٧٨.

٢ ـ إن ورقة كان يهودياً ثم تنصر، أي إنه لم يتنصر إلا بعد أن قضى شطراً غير قليل من عمره في اعتناق اليهودية. والاعتقاد اليهودي بمعناه الديني هو إنكار

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٠٣.
(٢) الأغاني ٣/١١٤.
(٣) صحيح مسلم ١/٧٨ ـ ٧٩.

المسيحية والكفر بالمسيح، وهذا يعني أن ورقة كان في المرحلة العقائدية الأولى من حياته ـ لم يحددها المؤرخون ـ كافراً بالدين المسيحي كفراناً طقوسياً وعبادياً.

وهذا يعني من جانب آخر، أن امرءاً ذكيَّ الفؤاد متقد التفكير مثل ورقة لا ينتقل من اليهودية إلى النصرانية طفرة واحدة، ولا يهجرها وهو جاهل بها، ليستقر في عقيدة جديدة دون درس وتمحيص. بل لا بد من مرور وقت طويل مُثْقَلٍ بالدراسة والمقارنة بين الاتجاهين والمفاضلة بين الفلسفتين الروحيتين والأسس اللاهوتية التي تقوم عليها كل منهما، بعد ذلك كله ـ وما ندري كم استغرقه من الوقت ـ قام تفضيل النصرانية على اليهودية عند ورقة فهجر الثانية وانضوى تحت الأولى.

٣ ـ ولقد استنتج أبو موسى، خطأً، مما ذكره أبو الفرج الأصفهاني، ما يلي:

«يتبين من شهادات الأغاني، وابن هشام والصحيحين أن القس ورقة كان ينقل الإنجيل من العبرانية إلى العربية، ولم تكن له من مهمة سوى هذه المهمة كما لم يعرف في عهد النبي من كان يعمل بالنقل والترجمة غير القس ورقة».

تجاه هذا الاستنتاج يواجِهنا الاضطرار إلى إعادة تثبيت عبارة أبي الفرج في كتاب الأغاني وهي الآتية:

«إن ورقة كان امرءاً تنصر في الجاهلية وكان يكتب العبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب».

إن التمعن في هذه العبارة لا يفيد أن الإنجيل كان بالعبرانية وأن ورقة كان يترجمه من العبرانية إلى العربية.

بل يفيد أن ورقة كان يكتب من الإنجيل، أي كان ينقل عنه، وهذا النقل لا بد من أن يكون إلى لغةٍ أخرى، وأن الكتابة التي كان يستخدمها هي العبرانية أي إن العبرانية كانت اللغة التي يترجم إليها من الإنجيل الذي كان في لغةٍ أخرى. ومثلما لم تفد عبارة أبي الفرج ما أراده المؤلف.

كذلك لا يفيده شيئاً ما جاء في الصحيحين وسيرة ابن هشام كما مرَّ معنا. . .

بالإضافة إلى ما سبق فإن لنا على استنتاجات أبي موسى وعلى المسلَّمات التي قدمها في بداية هذا البحث الملاحظات الآتية:

أ - إن الشهادات المعتمدة لا تشير هي ولا غيرها بأية إشارة إلى (قسوسية ورقة) بل تحدثت عنه باسمه المجرد عن اللقب والمنصب اللاهوتي «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي» فمن أين جاءت هذه القسوسية؟

ب - ليس في هذه الشهادات أو سواها ما يفيد أن ورقة كان يضع كتاباً خاصاً أو يؤلف قرآناً. وإذا صحت المراجع التاريخية، بل إذا أخذنا بها دون اعتراض فإن ورقة كان يترجم. والترجمة لم تكن تعني أبداً - قديماً وحديثاً - هجران الأصل وتغييره، إن في الموضوع أو الأسلوب أو الهدف.

أي: كانت الترجمة للإنجيل بما فيه، ولم تتحول إلى وضع قرآن، اقتباساً أو ترجمة عن الإنجيل.

جـ - من الثابت في التاريخ أن اللغة الآرامية حلت محل اللغة الكنعانية في فلسطين وبلاد الشام وسائر مناطق الشرق أوسطية منذ القرن الثامن قبل الميلاد. فكانت اللغة الرسمية السائدة. وقد تكلم بها المسيح وتلامذته وكانت لغة أهل البلاد، وفي فترة الغزو الإغريقي تحصنت الآرامية في الدول القائمة على تخوم الصحراء مثل «البتراء» و«تدمر». وبعد انتشار المسيحية صارت اللغة الرسمية للكنيسة وظلت اللغة السيدة حتى القرن السابع الميلادي حين خلفتها اللغة العربية وحلت محلها في سوريا[1].

د - وضع الرسول متَّى، إنجيله بالآرامية في نهاية القرن الأول الميلادي ثم أعاد كتابته باللسان العبراني (قصة الحضارة - وول ديورانت ص ٢٠٢ - وما بعدها من المجلد ١١ - ١٢).

وكيلا نتهم بالتناقض: نبادر إلى القول:

بأننا لم ننف وجود إنجيل باللغة العبرانية، ولكننا قلنا: إن المصادر التاريخية تفيد بأن:

---

(١) تـوينبي هامش ٨ - وجورجي كنعان في مؤلفه تاريخ الله ص ٩٢.

- الكتابة الأولى لإنجيل متى كانت باللغة الآراميَّة في أواخر القرن الأول.

- إن العبارة الواردة في كتاب الأغاني تفيد بأن ورقة كان يكتب باللغة العبرانية من الإنجيل. وهذا يعني أن الإنجيل كان بلغة ثانية غير العبرانية.

وهكذا يكون إيراد أبي موسى، لنصوص الأغاني وسيرة ابن هشام والصحيحين واعتماده عليها كأدلة على «قسوسية ورقة بن نوفل» و «ترجمته الإنجيل من العبرانية إلى العربية» وتحويل هذه الترجمة إلى القرآن، ذلك كله خطأ في قراءة النصوص، وخطأ في دراسة الوقائع التاريخية.

ثانياً - نظرة تاريخية في الإنجيل العبراني: قال أبو موسى: «هذا الإنجيل كان واسع الانتشار في الأوساط النصرانية، فقد نقله القديس جيروم من الآرامية إلى اللاتينية، واستشهد به أغناطيوس الأنطاكي في أنطاكية وقرأه أوريجينوس في الإسكندرية ونقله القس ورقة إلى العربية[1].

ولكن أبا موسى لا ينتظر طويلاً ليقول شيئاً آخر:

«والجدير بالذكر أنه لم يبق لنا من نصوص هذا الإنجيل إلا الشيء القليل في بعض كتابات الآباء الروحيين»[2].

ويقول:

«هذا الإنجيل وضع في الأصل بالآرامية ثم نقل إلى اليونانية ثم إلى اللاتينية وربما إلى العربية وجال في عصور متتالية منذ أوائل القرن الثاني حتى أواخر القرن الخامس»[3].

عجيب جداً ومتناقض جداً:

كيف يكون واسع الانتشار في الأوساط النصرانية بكل مكان وبين أيدي آباء الكنيسة في الإسكندرية وأنطاكيا والجزيرة العربية، ثم يزول فجأة ويختفي من

---

(١) ص ٢٨ - من قس ونبي.

(٢) ص ٧١ - من قس ونبي.

(٣) ص ٧٢ - من قس ونبي.

التداول ليس في بلاد الإسلام فقط بل في كل مكان حتى البلدان النصرانية التي لم يكن للإسلام عليها سلطان؟

ثم: فلنلاحظ هذا القول عند المؤلف:

«هذا الإنجيل وُضع لأول مرة بالآرامية ثم نقل منها إلى اليونانية ثم إلى اللاتينية وربما إلى العربية...» «وربما إلى العربية».

أي: إن نقله إلى العربية ليس مؤكداً، لأن كلمة ربما، تعني الشك أكثر مما تفيد اليقين.

وبذلك يتحصل معنا:

- إن المؤلف يتفق مع (وول ديورانت - صاحب قصة الحضارة) في أن الأبيونية وإنجيلها زالاّ نهائياً في أواخر القرن الخامس الميلادي.

- إن إنجيل متى بالآرامية ثم بالعبرانية، لم يعرفه الناس في القرن السابع الميلادي، إذ لم يعرفوا غير الإنجيل باليونانية واللاتينية. ويميل النقاد إلى أنه من تأليف أحد أتباع متى فيما بين ٨٥ - ٩٠ ميلادية[1].

- إن الإنجيل الذي كان يكتب منه ورقة، هو الإنجيل الحالي المعروف، لأن الإنجيل العبراني الأبيوني - إن كان له وجود - فقد زال بزوال الأبيونية منذ القرن الخامس الميلادي[2]..

ثالثاً - رؤية التاريخ إلى الإنجيل: وجدت من المفيد أن أقتبس بعضاً من معاني بعض الفقرات من قصة الحضارة للمؤرخ وول ديورانت، أوضح فيها المؤلف كيف كانت رؤية المؤرخين إلى الإنجيل وأعمال الرسل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكيف كانوا يقيِّمون شخصية المسيح على وجه الخصوص: «في عام ١٧٦٨م مات ريماروس أستاذ اللغات الشرقية في جامعة همبرج تاركاً وراءه مخطوطاً من ١٤٠٠ صحيفة عن حياة المسيح وشخصيته.

وبعد ست سنوات من موته نشرت من المخطوطة أجزاء تضمنت: «أن يسوع

---

(١) قصة الحضارة ص ٢٠٨ - مجلد ١١ - ١٢.

(٢) تاريخ الكنيسة ص ٨٦ - ٨٣ - ٨٨ و ٨٩ و ٩٠.

لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم على هذا الأساس، بل على أنه الشخصية النهائية في جماعة المتصوفين اليهود، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر في إيجاد دين جديد بل كان يفكر في تهيئة الناس لإستقبال دمار العالم المرتقب وليوم الحشر والحساب».

ويتابع ديورانت:

«وفي عام ١٨٣٥م - ١٨٣٦م نشر داڤيد ستراوس كتابه عن حياة المسيح وهو كتاب عظيم الأثر في التاريخ فرفض ما حاوله بولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية وقال:

إن ما في الأناجيل من الخوارق يجب أن يعد من الأساطير الخرافية وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر». وقد أحدث هذا الكتاب عاصفة قوية في التفكير الألماني دامت جيلاً من الزمن. وفي نفس العام الذي ظهر فيه كتاب ستراوس ظهر كتاب «فرديناند كريستيان بور» هاجم فيه رسائل بولس وقال إنها مدسوسة عليه ما عدا رسائله إلى غلاطية وكورنثة ورومية.

وكان هردل في عام ١٧٩٦م قد وصف أن ما بين إنجيل يوحنا والأناجيل الثلاثة الأخرى من الفوارق ومن وصف شخصية المسيح ما لا يمكن التوفيق بينها حتى كأنها تتحدث عن مسيحَيْن لاَ عَنْ مسيح واحد».

«وفي عام ١٨٤٠م بدأ برونو سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية حاول فيها إثبات أن يسوع المسيح لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير أو تجسيداً لطقس من الطقوس نشأ في القرن الثاني من مزيج الأديان اليهودية واليونانية والرومانية.

«وفي هذه الأثناء دخلت المدرسة الهولندية مدرسة «بيرسن» و «متشاس» و «تاير» ببحوث مضنية حول إنكار حقيقة المسيح التاريخية.

«وفي إنجلترا أدلى (و. ب. سميث) و (ج. م. برتسن) بحجج أنكرا فيها وجود المسيح.

وهكذا:

بعد جدال دام مئتي عاماً انتهى إلى إفناء شخصية المسيح إفناءً تاماً[1]. ويقول ذات المصدر:

«إن أقدم إشارة غير مسيحية إلى المسيح وردت لدى المؤرخ اليهودي يوسفوس في كتابه «قِدَم اليهود» الذي نشره في عام ٩٣م وجاء فيه:

«وفي ذلك الوقت كان يعيش يسوع وهو رجل من رجال الدين إذا جاز أن اتسميه رجلاً لأنه كان يأتي بأعمال عجائبية ويعلم الناس ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط وقد تبعه كثير من اليهود واليونان لقد كان هو المسيح»[2]. تلك كانت رؤية المؤرخين إلى شخصية المسيح في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولكن كيف سرد المؤرخون قصة الأناجيل؟

نعود إلى الاقتباس عن «قصة الحضارة».

«انتشرت الأناجيل منذ أواخر القرن الأول وأطلق عليها كلمة (gospel). وهي في الإنكليزية القديمة (gopsel). وكلتاهما ترجمة للفظ اليوناني (Euangelion) وترجمتها في اللغة العربية هي أنباء سارة، (بشائر).

وترجع أقدم نسخ الإنجيل الموجودة إلى القرن الثالث، أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت ما بين ٦٠ ـ ١٢٠م ميلادية ثم تعرضت خلال قرنين من الزمن لأخطاء النقل والتحريف المقصود الذي أريد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ ومسايرة أغراضها.

والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول لا ينقلون شيئاً من العهد الجديد بل كل ما كانوا ينقلونه ويكتبونه مأخوذ من العهد القديم. ولا نجد إشارة لأي إنجيل مسيحي قبل عام ١٥٠م إلا في كتاب پاپياس الذي نشره في عام ١٣٥م إذ يقول فيه: «إن يوحنا الأكبر قال: إن مرقس ألّف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس وأضاف أما إنجيل لوقا فقد ظهر في عام ٩٠م وفيه يعلن لوقا عن رغبته في تنسيق

---

(١) هذه الفقرات مقتبسة من قصة الحضارة ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ مجلد ١١ ـ ١٢.
(٢) ذات المرجع.

الروايات السابقة عن المسيح والتوفيق بينها ويعتقد پاپياس أن لوقا صديق بولس هو مؤلف أعمال الرسل.

فهو يقتبس من مرقس، كما يقتبس أيضاً منه متى. ففي إنجيل متى ستماية آية تتفق مع إنجيل مرقس الذي يتألف من ستماية وأربع وستين آية. وفي إنجيل لوقا ثلاثماية وخمسون آية تكاد أن تكون بنصِّها في إنجيل مرقس، ولا يدعي الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع بل هو عرض للمسيح بوصفه كلمة الله وخالق العالم، ومنقذ البشرية، وهو يناقض الأناجيل الأخرى في التفاصيل وفي الصورة التي رسمها للمسيح وأن ما فيه من تأكيد على الأراء الميتافيزيكية واعتماده على المعرفة للخلاص وليس على الإيمان مما جعل الباحثين يشكُّون في أن واضعه يوحنا[1].

وكان ديورانت تساءل:

هل وجد المسيح حقاً؟ أم أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات «كرشنا» و«أوزريس» و«أتيس» و«أدونيس» و«ديونيشس» و«مثراس»؟ (ذات المرجع ـ قصة الحضارة: ص ٢٠٢ ـ مجلد ١١ ـ ١٢)

لقد كان بولنجبروك والملتفون من حوله، وهم جماعةٌ ارتاع فولتير لأفكارهم، يقولون في مجالسهم الخاصة: إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق...

وجهر فَلْنِّي بهذا الشك في كتابه «خرائب الإمبراطورية» الذي نشره في عام ١٧٩١م. ولما التقى نابليون «بفيلاند» العالم الالماني لم يسأله القائد الفاتح عن الحرب والسياسة بل سأله سؤالاً مختصراً محدداً «هل تؤمن بتاريخية المسيح؟».

وفي العصور الحديثة كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني وأبعدها أثراً في ميدان النقد الأعلى للكتاب المقدس هو التهجم الشديد على صحته وصدق روايته تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للمسيحية.

رابعاً ـ تلخيص استنتاج أبي موسى: بعد أن فرغ أبو موسى من عرض حججه

---

(١) ذات المرجع ص ٢٠٣ ـ ٢١١.

وأدلته على مهمة ورقة بن نوفل قال في خاتمة الفقرة ذاتها بالصحيفة ٢٩ ـ:

«بالإضافة إلى الأدلة الخطيرة التي مرت معنا في الصحائف السابقة هناك دليلان داعمان يؤكدان أن القرآن العربي هو النسخة المترجمة عن الإنجيل العبراني الذي كان يعمل بها ورقة بن نوفل والذي يأخذ به الأبيونيون، تعاليماً، وفروضاً وأحكاماً».

«هذان الدليلان هما:

١ ـ إن القرآن لم يورد كلمة إنجيل إلا بصيغة المفرد المعرف «بأل» ولم يذكره بصيغة الجمع مع أنه من المتفق عليه تاريخياً وجود أناجيل عديدة منذ أوائل القرن الثاني الميلادي. وأنه منذ ذلك التاريخ اتفقت السلطات الكنسية على اعتماد الأناجيل الأربعة ورفض ما عداها.

٢ ـ القرآن اعتبر الإنجيل منزلاً من عند الله على عيسى بن مريم واستشهد ببعض أمثاله، كما استشهد به على صحة دعوة النبي.

ذلك الاستنتاج والتعقيب يقابل بالمناقشة النقدية التالية:

أ ـ ناقشنا فيما سبق تلك الأدلة التي يقول: إنها خطيرة فتبين أنها خطيرة فعلاً ولكن خطرها ليس ناجماً عن حقائق جاءت بها أو دلت عليها، بل عن اجتراحها مزاعم ليست حقيقية، سواء على المستوى اللغوي أم على مستوى قراءة القرآن وتفسيره أم على استدعاء الاستشهادات من مراجعها استدعاءً ملتوياً، مبتوراً، مقطوعاً عن الأواصر المعنوية التي تربط ما تقدم من الدليل بما تأخّر.

ففي جميع ما قدمه أبو موسى، جرأةٌ على ارتكاب الغلط، وعدم أمانةٍ في الاقتباس، وسوء استنتاج، وحرف وتحريف بالآيات والأحاديث وشتى المراجع، بشكل لا مثيل له عند المؤلفين.

ولا يفسر ذلك منه إلا بأحد اثنين:

ـ إما إنه يستغفل القراء، ويستهين بمتابعتهم، وبما يملكونه من فهم للنصوص وثقافة عامة. فهو لا يخشى من هذه النماذج شيئاً.

ـ وإما إنه يكتب لنفسه، متوهماً أن هذا الأثر لن يطلع عليه سواه، وإلا فما هو عذره؟

وكل ما جاء به، من أخطاء، هي من النوع الذي لا يحتاج كَشْفُهُ إلى مواهب خاصة أو ثقافة واسعة، وفي مقدور العادي من القراء أن يفتح القرآن والإنجيل ويتتبع أبا موسى، ليمسك به من تلابيبه في كل فصل عشرات المرات.

ب ـ أما إيراد لفظ الإنجيل بالمفرد المعرف، فهو ليس دليلاً على أن القصد منه ينصرف حصراً إلى الإنجيل الأبيوني، كما أن اعتماد المسيحية على الأناجيل الأربعة وهجر غيرها من الأناجيل، هو أيضاً ليس دليلاً على أن القرآن قصد الإنجيل الأبيوني، لأنه لم يعرف سواه.

واعتراضنا على المؤلف يقوم على دعامتين منطقية وتاريخية نوجزهما بالآتي:

ظلت الأناجيل الأربعة وغيرها من الأناجيل التي كان يربو عددها على العشرين حتى أواسط القرن الثاني الميلادي، متداوَلةً في شتى الأقطار التي انتشرت فيها النصرانية.

والأناجيل جميعها، المعتمدة وسواها، هي روايات تتحدث عن السيد المسيح، بدءاً من تاريخ حلوله جنيناً في بطن أمه حتى نشر رسالته وصلبه وقيامته بعد الصلب.

كلها تشكل موضوعاً واحداً، مهما تعدد الرواة والمخبرون لذلك سميت «الإنجيل» ومعناها في اليونانية «أنباء سارة» وقبل اليونانية لم تكن تحمل إسماً معيناً غير هذا الإسم «أنباء سارة» فهي، سواءٌ تحدث بها ونشرها واحد من الحواريين أم تحدث بها ونشرها الجميع كل في منطقة معينة، فهي كلها «أنباء سارة» تدور حول عملية سرد تاريخي لحياة المسيح ورسالته وتعاليمه، وهي بهذه الصفة تتحد بوحدة الموضوع الجامعة فلا يجوز النظر إليها على أنها عدة أناجيل لأننا إذ ذاك نكون أمام أمرين لا ثالث لهما:

ـ إما أن إحدى الروايات تتعارض مع غيرها وإذ ذاك لا بد من أن يكون الحق والحقيقة إلى جانبٍ منهما، دون الجانب الآخر.

ـ وإما أن تكون كل رواية تتحدث عن مسيح معين، وبالتالي نكون في مواجهة عدد من المسحاء بعدد الروايات.

وكلا الأمرين مرفوض منطقاً وتاريخاً وسلوكاً دينياً.

والجميع يعلم أن الصراع الديني الفلسفي الذي نشب في القرن السادس عشر بين الكنيسة وحركة الإصلاح اللوثرية والكالفينية، تمخض عن منحىً جديد اتحدت فيه التوراة بالإنجيل برواياته الأربعة والرسائل وأعمال الرسل والرؤيا، وسمي هذا اللقاء التاريخي «بالكتاب المقدس» الذي يتضمن التوراة، وهي تشكّل العهد القديم والإنجيل وملحقاته العهد الجديد. فلو كان الإنجيل، من الناحية الدينية والرسمية ينظر إليه متعدداً، ويجري التعامل معه متعدداً ومستقلاً، لسمي في الكتاب المقدس «العهود الجديدة» بدلاً من عهد جديد واحد والأناجيل المتعددة بدلاً من إنجيل واحد.

لذلك:

وبما أننا حتى بعد مرور ألفي عام على صاحب الإنجيل، فإننا لا نتعامل مع الأناجيل الأربعة إلا بصيغة المفرد المعرف بألـ «الإنجيل» ولا يمكن لأي كاهن، أو أي مواطن، ينصرف ذهنه غير هذا المنحى. وبما أن هذا الحكم يمكن أن يفسِّر السبَب الذي جعل الإنجيل يرد في القرآن، وفي التاريخ، بصيغة المفرد المعرف وليس بصيغة الجمع.

جـ ـ ومن الخطأ العلمي الشديد الذي وقع فيه أبو موسى قوله: إن النبي محمداً لم يكن يعرف من الأناجيل غير الإنجيل الأبيوني، أما الأناجيل الأربعة التي تشكل العقيدة المسيحية الرسمية فإنه لم يحاور أصحابها ولم يعرف عنهم شيئاً.

ووجه الخطأ عند المؤلف هو في الآتي:

ـ لقد ذكر المؤلف أكثر من مرة، متفقاً في ذلك مع قصة الحضارة لديورانت، أن الإنجيل الأبيوني زال وزالت آثاره وتأثيراته وانتهت شيعته في القرن الخامس الميلادي. أي قبل مجيء الإسلام بما يزيد على قرن وربع القرن لذلك لا يعقل أن يكون النبي محمد الذي حمل رسالة حملت على عاتقها تطوير عقائد الناس وتحويلهم من القديم اليهودي والنصراني إلى الجديد الإسلامي أن يكون غير عالم

بمعتقدات الناس، وأن يكون علمه محصوراً في شيعة وكتاب اندثرا وتغيبا نهائياً قبل أن يخلق بثمانين عاماً.

ـ إن الأركان الرئيسية الكبرى في عالم ذلك الزمان لأتباع الدين المسيحي كانت في بلاد الشام (أمبراطور الروم) وفي الحبشة (النجاشي) وفي مصر (المقوقس). وقد وجه النبي رسائل إلى هؤلاء الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

فهل يمكن التصور أنه كان جاهلاً بما يعتقدون، وبأي كتاب يتمسكون؟

ـ كما أن عثمان بن الحويرث هو ابن عم ورقة، مات نصرانياً في بلاد الروم ونال لقب بطريق، وعبيدالله بن جحش، أيضاً هو الآخر مات نصرانياً عند النجاشي.

وهذه الواقعة ذكرها المؤلف مرّات عديدة وفي أكثر من كتاب. وهي تقطع في الدلالة على أن النصرانية، التي تتعلق بالإنجيل (الرباعي) كانت منتشرة وذائعة في بقاع شتى، وأن العرب كانوا يعرفون عنها الكثير مثلما كانوا يعرفون عن اليهودية.

د ـ أما إقرار القرآن بأن الإنجيل منزّل من عند الله، فهذا لا علاقة له في مواضيع أبي موسى، لأنه ليس موضوع اعتراض، كلا فالإقرار بنبوة ورسالة موسى وعيسى ومن سبقهما من الأنبياء دون تفريق هو من صلب العقيدة الإسلامية وتعاليمها. فالمسلمون يؤمنون بما جاء في القرآن، وهو أن كلمة الله واحدة في جميع الرسالات وكانت تلقى على الأنبياء مراعية ظروف الزمان والمكان ودرجة الاستطاعة والقبول عند البشر. فنبي المسلمين «جاء إلى الناس كافة» وقال: جئت لأتمم مكارم الأخلاق. ومن قبله قال المسيح: ما جئت لأنقض، جئت لأتمم. وهكذا يفهم المسلمون الديانات والكتب السماوية وينظرون إلى الأنبياء والرسل وفقاً لما وجههم القرآن... كلهم... الديانات كلها في نظر المسلم، تلتقي في الجذور التوحيدية والأخلاقية، فتدعو إلى توحيد الله والإيمان به وبيوم المعاد والثواب والعقاب والأخلاق والقيم الكريمة.

ولا تختلف إلا بالشرائع التي تفرض وفقاً للتطور.

بهذا المبدأ:

ـ يرى المسلم مظاهر الاختلاف في بعض مظاهر الديانات.
ـ ويفهم لماذا تطورت الأوامر والنواهي من شريعة إلى أخرى.
ـ ولماذا كانت العناية الإلهية تفرج عن المعارف والعلوم في الرسالات المتأخرة أكثر مما أفرجت عنه فيما تقدمها وسبقها.

وبهذا المبدأ يجب أن نرى تقديس القرآن للرسالات واعترافه بالكتب السماوية والنبوات.

سادساً ـ القس ورقة رئيس النصارى

إن الأفكار التي طرحها أبو موسى في هذه الفقرة تتضمن الكثير مما كان قد طرحه سابقاً إلى جانب القليل الجديد وهي بالإجمال تتلخص بالآتي:

١ ـ قيل عن ورقة أنه كان قساً. والقس هو رئيس النصارى.

٢ ـ وأهل مكة عرفوا مقام القس فولوه أمور دينهم وأمور دنياهم. فكان رئيساً على كنيسة مكة في زمن عبد المطلب وفي فترة من حياة محمد. وكانت مهمته تعليم الناس وإرشادهم وتفسير الكتاب وتأويله والإشراف على الهيكل وخدمته، كما كان من مهماته تفقيه الرعية معاني الوحي والتنزيل وتفصيل آيات الكتاب الإلهي بعد نقله إلى اللسان العربي لزوال عجمته. فهو أول العرب وسيدهم وقائدهم المسئول عنهم.

٣ ـ ولقد التف من حوله الحُمس من قريش، عبد المطلب زعيم مكة. وأبو طالب وأبو بكر، وعثمان بن الحويرث، وعبيدالله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم.

مثلما دار من حوله ولازمه النبي أربعةً وأربعين سنة من حياته. (أي منذ اليوم الأول لولادة محمد حتى السنة الربعة للرسالة).

فورقة، هو الذي زوّج محمداً من خديجة.

وهو، الذي دربه على التأمل والصلاة في غار حراء.

وهو، الذي تولى إعلان نبوته على العرب، كما سنرى.

هذا الدور: صلاحيته وسلطته من أجل تعريب الإنجيل من العبرانية إلى العربية وفرض الترجمة على العرب ككتاب سماوي خاص بهم، ومكانته العالية في مكة، وتوليه أمور الكعبة، بيت الله، ذلك كله وسواه يشكل المهمات الجليلة تناط بالقائد والكاهن الجليل.

تلك هي جملة الأفكار التي طرحها أبو موسى تحت عنوان «القس رئيس النصارى» وهي ـ كما سوف يتضح فيما بعد ـ مبنية على الخيال الإنشائي، وبعيدة كل البعد عن العلم والمنطق، ومتعارضة مع ثوابت التاريخ.

لذلك نقدم في مواجهتها المناقشة التالية:

١ ـ «قيل عن ورقة إنه كان قساً والقس هو رئيس النصارى». ولكن من هو القائل بالقسوسية والرئاسة؟

لقد نسب المؤلف تلك العبارة إلى مؤلف السيرة الحلبية: غير أن صاحب السيرة لم يعاصر ورقة بل ولد بعده بأكثر من قرن ونصف القرن ثم:

إن كلمة «قيل» تترجح فيها الجهالة أكثر مما يترجح التعريف. فصاحبُ السيرة لم ينسب هذا القول إلى قائل.

وصاحب قس ونبي، لم يجد قائلاً آخر. والعبارة «قيل....» جاءت بصيغة المجهول.

ومع هذا انقض عليها «أبو موسى» وخطفها وطفق يكدس عليها ومن حولها أكداساً من الواجبات والصلاحيات والسلطات الكهنوتية والدنيوية. فصار ورقة بن نوفل بمقتضى هذه العبارة سيد العرب وقائدهم ومعلمهم ومربيهم، ومهذب أرواحهم العقائدية.

وقد كان جديراً بأبي موسى ألا يستخِفَّهُ الخفيف، فيتريث إلى أن تثبت لديه القسوسية بدليل ما، ويقدم إلى القراء عبارة «قال فلان...» بدلاً من عبارة «قيل...».

وإذا فرضنا، جدلاً أن بعض الناس، كانوا ينادونه بهذه الصفة فهذا ليس دليلاً

قاطعاً على قيام قسوسية حقيقية في شخصه. لأن القسوسية تعبِّرُ بالطقس الكنسي، عن درجة متقدمة من درجات الرئاسة الكنسية ولا تتم إلا تحت إجراءات وطقوس شكلية لا معدى عنها (أنظر الفقرة ثانياً ـ من نصرانية القس ص: ٦٢و٦٣ من هذا المؤلف).

وبذلك: يمكن أن يندرج النداء عليه من البعض «بالقس» تحت مفهوم المجاملة الاجتماعية مع رجل متقدم في السن عرف عنه الانكباب على قراءة الكتب والامتناع عن نجاسات الأصنام في مجتمع سيطرت عليه عبادة الأصنام وقلَّت فيه قراءة الكتب.

والقول:

«بأن القس هو رئيس النصارى من الناحية الروحية». هو قول صحيح في المطلق، ولكن توظيفه لصالح الادعاء بقسوسية ورقة هو الجانب غير الصحيح منه.

فلم يرد في أي مرجع ديني أو تاريخي، عربياً أم غير عربي، مسلماً أم غير مسلم أن مكة كانت تقوم فيها كنيسة نصرانية أو كنيس يهودي. والكنيسة ـ كما هو معلوم ـ هي المكان الديني الذي تقام فيه الخدمة الدينية فلا يعقل أن يكون فيها قسيس رسمي، دون أن يكون فيها كنيسة. وبانتفاء وجود كل من الكنيسة والقسوسية في مكة انتفاءً تاريخياً ينحدر ادعاء أبي موسى إلى الحضيض من حيث مصداقيته. ولكي يتضح الجزاف واللامسئولية العلمية في أقوال أبي موسى أضع أمام القارىء خلاصة مختصرة جداً عن المفاهيم الكنسية النصرانية لكلمات «هيكل» و«كنيسة» و«خدمة دينية».

فالهيكل: هو كلمة ذات مدلول ديني طقوسي عند النصارى قاطبة وقد قامت منذ أول كنيسة أنشأها بولس الرسول ثم تطور مفهومها من الناحية العملية في القرنين الثاني والثالث فصارت تشكل القسم الثالث من المعبد وهو القسم المفصول عن قسم الوسط بحاجز يسمى «إيقونبسطاسيا» أي المكان الذي توضع فيه وعليه الأيقونات.

والخدمة الإلهية: ليست استحباباً من الكاهن، وليست كلاماً مرسلاً، ولا

تمارس في الهواء الطلق وفي الأوقات التي يحددها الكاهن من عنده بل هي صلوات وممارسات روحية بأوقاتها، ومواعيدها. مثل الاجتماع الأسبوعي في كل يوم أحد، والصلاة والقداس الواجبين في كل اجتماع وصلوات الأعياد وقراءة الكتاب وتفسيره والمواعظ الأسبوعية والترتيل الذي يشترك فيه الشعب وراء الكاهن، وهو طقس كنسي ظل قائماً ومعمولاً به إلى أن استبدل بجوقة المرتلين في القرن الرابع.

فكيف كانت قسوسية ورقة؟ وكيف ومتى وأين؟ كان يقومْ بالخدمة الدينية؟

وهل كان الهيكل ضمن الكعبة، «بيت إبراهيم»؟

لقد قال المؤلف: إن الكعبة كانت الكنيسة التي تمارس فيها طقوس النصرانية بواسطة القس ورقة بن نوفل.. ولكن؟!

هل قام دليل تاريخي أو ديني، أو شبه دليل على أن الكعبة كانت كذلك؟ طبعاً، لو كان أبو موسى يعرف بوجود دليل على ذلك، لسعى إليه حثيثاً مهما كان بعيداً ولو كان وراء سور الصين، ولكن التحدي العلمي والتاريخي ظل وسوف يظل قائماً في وجهه وفي وجه من يقول مثل قوله إلى أن يبرز دليل في التاريخ أو الأحافير أو سواها.

أما الكنيسة: فقد كنا في الصحائف السابقة، تحدثنا عن تطور الكنيسة منذ نشوئها وحتى المراحل الأخيرة التي استقرت عليه (ص ٦٢ و ٦٣).

٢ ـ أما الوجود النصراني الواسع في مكة فلم يثبت في أي مرجع.

والنصارى على زمن ورقة، هم المسيحيون، فيما بعد، لأن تسمية أتباع عيسى «بالمسيحيين» هي تسمية حديثة، لم تكن قائمة في صدر الإسلام. وبالرغم من كثافة الجهود التي بذلها المؤلف، لم يجد من ينتمي إلى النصرانية في مكة ببداية زمن الدعوة غير شخصين هما عبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث الذين تركا مكة لكي يمارسا عقيدتهما النصرانية، في بلاد الروم والحبشة. ترى؟ لماذا لم يتساءل أبو موسى عن السبب الذي دفع بهذين الرجلين وهما من قريش إلى مغادرة الموطن والأهل والأصدقاء، لكي يعيشا عقيدتهما في بلدين أجنبيين؟

ألا يعتبر تفضيلهما العيش بعيداً عن مكة، دليلاً على عدم طغيان النصرانية في ربوعها؟ هذا إن لم نقل إنهما فرّا منها محافظة على سلامة معتقدهما؟

والحمش من قريش هل كانوا ليسلموا قيادة دينهم ودنياهم ورئاستهم إلى ورقة بن نوفل وهو دون الكثيرين منهم شرفاً وجاهاً؟ وهم الأعزة ومنهم ـ كما قال أبو موسى ـ أبو طالب ووالده عبد المطلب، وكلاهما عُقدت له السيادة على قريش وبطون مكة والكعبة؟.

٣ ـ وإن كان ورقة عكف على ترجمة الإنجيل، كما ذكرت بعض المراجع، فإنه قول يحتمل التكذيب مثلما يحتمل التصديق.

وهو ـ على فرض صحتَه ـ لا يتضمن أن الترجمة قد تمت. أو أن الترجمة كانت إلى العربية، أو أن الترجمة أخذت فيما بعد اسم القرآن وشكله ومضمونه الحاليين.

ففي القرآن من التميز النوعي والإعجاز البياني والمعرفة ما يجعله غير قابل إلى مقارنته بأي كتاب سبقه أو لحقه.

كما ينفي، فكرة استنساخه عن كتاب آخر، لاستحالة أن يكون أرقى من الأصل الذي نسخ عنه، وبخاصة إذا كانت عملية النسخ ترجمة من لغة إلى لغة. وإن كان ورقة بن نوفل، صاحب الترجمة.

وإن كان لديه هذا الإعجاز الخارق، في المباني والمعاني، وإن كان يترجم منذ ما قبل ولادة محمد فلماذا لم يتسرب شيء من هذا البيان؟ ولماذا لم يعرف أحد شيئاً عن مواهبه الأسطورية؟

ولماذا ظلت هذه المواهب وتلك الإنجازات، مطوية تحت الظلمات أربعة عشر قرناً، حتى تقيَّض لها أبو موسى، ينيرها من جديد ويبرزها إلى الناس بكامل زينتها؟؟

٤ ـ والنصرانية انتشرت ـ كما يقول أبو موسى ـ في مكة على يد «قصي بن كلاب» جد قريش وسيدهم، بعد أن طرد الخزاعيين وحطم الأصنام وأقام النصرانية. غير أن كتب التاريخ لا تؤيد منطق المؤلف.

والمؤلف نفسه لا يقدم مرجعاً يدعم به أقواله وخاصة نشر النصرانية في مكة وإنهاء الوثنية نهائياً.

ففيما تتحدث كتب التاريخ فتقول:

ـ أن عمرو بن لحي الخزاعي جلب صنم هُبل من بلاد الشام.

ـ وأن النبي (ص) عندما فتح مكة أمر وأشرف بنفسه على تحطيم الأصنام التي كانت في الكعبة ومن حولها.

ـ وأنه كان يتلو وهو يحطم «هُبَل» قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

نقول:

إذْ تتفق مصادر التاريخ على هذه الوقائع. فكيف يطلب أبو موسى أن يكتسب قناعتنا بأن مكة، والكعبة كانت خاليتين من الأصنام عند مجيء الإسلام وأنهما كانتا نصرانيتين باعتقاد لا يخالطه شيء.

ـ ثم: ألم يتحدث القرآن عن الذين اعتذروا عن الشرك بعبادة الله، وكانوا يقولون: إن عبادتهم للأصنام كانت للتقرب بها إلى الله؟؟

﴿وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ﴾ هذا القول كان ترديداً وتنديداً بما كان يقوله مشركو مكة. وما كان يمكن أن يتم لو كانوا أهل كتاب.

ـ ثم أيضاً: اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ويغوث ويعوق ونسرا: أليست هي أصنام، كانت في مكة، وقد صار تحطيمها عند الفتح الإسلامي...

٥ ـ والحمس من قريش: لماذا قال أبو موسى، إنهم كانوا يدورون من حول ورقة ويلتقون عند توجيهاته وأوامره؟

ومنهم: عبد المطلب، سيد مكة وسيد ورقة؟

ومنهم: عبدالله بن جدعان زعيم حلف الفضول؟

ومنهم: عثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل وعبيدالله بن جحش؟

ومنهم: أبو طالب وأبو بكر وعثمان.

هؤلاء: أولوا مجدٍ ونخوة، ووجاهة، تفيض وتربو على ما كان لورقة فليس له، ولا عليهم، أن يتحلقوا من حوله ويسلموه مقاليد دينهم ودنياهم.

٦ ـ وإذا كان ورقة بن نوفل، دون عبد المطلب وابنه أبي طالب، مجداً وكرماً ووجاهةً فلماذا يتنازلان له عن تربية محمد. وهو فلذة كبدهما، ولماذا يجعلانه عليه وصياً ووليّاً ومعلماً ومرشداً؟ وهو الطفل الذي وهبه الله الكمال في كل شيء؟

٧ ـ والخلوة لا تكون على حقيقتها، ولا تنال غاياتها ومعانيها، ما لم يتحقق فيها صفاء الفكر والروح والانقطاع عن الدنيا والتفكر في الله، وذلك كله لا يمكن أن يتم إلا إذا كان صاحبها لوحده.

فإذا شاركه في حضوره وتحنثه أحد من الناس يكون الوضع ـ إذ ذاك ـ اجتماعاً لا خلوة، حسبما اتفقت الروايات والمراجع.

٨ ـ أما الزعم بأن ورقة. تولى أمور الكعبة فهو قول غير صحيح أبداً. لا أمورُها جملة، ولا واحدٌ من أُمورها كان تحت ولاية ورقة. فأمور الكعبة هي المآثر الستة التي أحدثها قصي ونال بها الملكية وهي: السقاية والرفادة والحجابة والوصاية واللواء والندوة.

ولعل أجرأ ما في الكتاب وأشدَّه تطاولاً على الحقيقة، هو ما جاء في هذه الفقرة من الكتاب وبخاصة قوله:

إن أمور الكعبة كانت في يد ورقة، وإن الكعبة كانت كنيسة يمارس فيها ورقة، طقوس النصرانية وواجباتها الروحية وينشر الدين من خلالها.

هنا:

ونظراً إلى أن أبا موسى هو من نسبت إليه سلسلة الحقيقة الصعبة، نرى.. تدوين فقرة أخذناها من أحد كتبه وهو: «نبي الرحمة وقرآن المسلمين» من الصحيفة ٥٣ ـ بالحرف:

«مكة سمحة متساهلة تترفع عن كل تعصب، مكة تقبل في كعبتها آلهة متنوعة وتمارس عبادات وتقاليد متلونة».

لنقول:

كيف يقبل من صاحب هذا القول الادعاء بأن الكعبة كانت كنيسة إذ كيف تقبل الكنيسة أن تقوم فيها آلهة متنوعة وأن تمارس فيها عبادات وتقاليد مُتعددة؟.

سابعاً ـ موت ورقة

«مات ورقة عن عمر يتجاوز المئة سنة، وكان في أواخر سنواته أصم أعمى»[1].

«إن ورقة مات في السنة الرابعة من البعث»[2].

«إن ورقة كان آخر من مات في الفترة ودفن بالحجون»[3].

والفترة هي المدة الممتدة بين وفاة عيسى وظهور محمد.

والحجون هو مدفن الحنفاء وهو جبل يقوم بأعلى مكة وقد دفن فيه قصي ملك العرب.

هذه المعلومات أوردها أبو موسى في الصحيفتين ٣٢ ـ ٣٣ ـ من كتابه نقلاً عن مراجعها الملمح إليها في الهامش.

على هذه المعلومات تترتب نتائج منها:

ـ لو كان للنصارى ذلك الوجود الواسع في مكة والحجاز، لكانت لهم مقبرة خاصة بهم، ولما كانوا قبلوا دفن رئيسهم الروحي والاجتماعي في الحجون.

ـ إن عبارة «وكان في أواخر سنواته أصم أعمى» تفيد أن فترة حياته في زمن الرسالة كانت محكومة بالعمى والصمم، لأن كلمة «سنوات» تفيد جمعاً لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد على سبعة. وهي الفترة التي عاشها بعد المبعث[4].

---

(١) السيرة الحلبية ١/٢٧٤.

(٢) ذات المرجع ١/٢٧٣.

(٣) ابن الجوزي ـ الامتاع ١/٢٧٣.

(٤) كان المؤلف في كتابه «نبي الرحمة وقرآن المسلمين» أفرد الصحائف ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ حتى ٥٠ لشرح ضخامة وتأثير النصرانية على مكة وشعبها في جميع مناحي الحياة حتى الأحباش شكلوا لأنفسهم حلفاً عسكرياً وتنظيماً خاصاً بهم.

ـ إن شخصاً تجاوز المئة عام وجثمت عليه مع هذه الشيخوخة عوامل المرض والصمم والعمى «لن يستطيع للرسالة الإسلامية الناهضة نفعاً ولا ضرراً». ولكن أبا موسى ـ على ما يبدو ـ لم يرض في قرارة نفسه مما قالته السيرة الحلبية وابن الجوزي، فلجأ إلى أحاديث النبي يتسقَّطُ منها شيئاً من الثناء على ورقة بن نوفل. وإذ وجد بعضها ـ قال قبل إيرادها ـ مهيِّئاً القارىء تهيئة نفسية إلى الاستعداد لقبول ما يقول: ففي الصحيفة ٣٣ ـ قال: «غير أن أحاديث النبي عن ورقة تفوق كل تصور» وهذه الأحاديث هي: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين لأنه صدقني».

«رأيت ورقة في الجنة وعليه ثياب من حرير».

هذه الأحاديث: لو صح صدورها عن النبي، لا تنفي أن ورقة في السنوات الأخيرة أنه كان أصم أعمى، وقد تجاوز المئة عام عندما مات.

ولا تصفه بالحيوية والنشاط وإمكانية التأثير على الدعوة الجديدة فكراً أو تخطيطاً أو جهاداً.

لو التزم أبو موسى جادة الحياد العلمي، وحلل الحديثين النبويين تحليلاً صحيحاً لما أفرط في حجم ورقة وفرط في حجم النبي.

لماذا لم يتساءل؟ عن الموانع التي منعت ورقة بن نوفل من الإسلام وإعلان الشهادتين ما دام أنه هو صانع الدين الجديد وواضع القرآن والموحي به إلى محمد؟

وهل قام لديه تصور، بأن ورقة صنع هذا الدين لغيره، ووجه الناس إلى الإيمان بما لا يؤمن به هو نفسه؟

ولماذا لم يأت الحديث الشريف؟ «لا تسبوا ورقة لأنه آمن وأسلم وأعلن الشهادتين؟».

إن امتداح النبي لورقة لا يحمل من المعاني ما يتجاوز الثناء العادي فلا ينصرف إلى الإقرار الضمني بأن هذا الممدوح هو الذي كتب القرآن وصنع الإسلام. ثم:

إن النبي كان قد امتدح المزايا الفاضلة عند أهل المزايا، ولو كانوا من العصر الجاهلي.

ـ فقد قال عن عنترة بن شداد العبسي: «ما وصف لي رجل من الجاهلية فأحببت أن أراه مثل عنترة، لأنه القائل:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

وأثر عنه الثناء على قس بن ساعدة الأبادي عندما ـ سمعه يتكلم في عكاظ بقوله: «إن لحديثه لطلاوة وإن له لحلاوة». وقال فيما بعد عنه: «ذاك رجل من إياد تحنث»[1].

كما أثر عنه امتداحه «لعبدالله بن جدعان فقال عن حلف الفضول الذي عقد في بيت ابن جدعان. «لو دعيت اليوم إلى مثله لفعلت».

فالأحناف، الذين لا يزيد ورقة عن أن يكون واحداً منهم، تجاوزوا أطر التفكير الضيق، وطفقوا يتفكرون في خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. وكيف بدأ الخلق؟ ومن هو الخالق؟ وإلى أين المصير؟ فتوصلوا بالحدث والفطرة السليمة إلى ما عبر عنه أبو طالب بقوله: «ما بعد هذه الدار من دار غير الجنة والنار».

وتكونت على هذا الأساس، قناعات بينهم، وضعوها ضمن مناهج حياتهم، فامتنعوا عن ذبائح الأصنام ونجاساتها، وعن وأد البنات، والاستقسام بالأزلام. وعن الطواف عراةً حول الكعبة، وعمموا الصدقات للفقراء... لهذا كله:

لم يكن مقبولاً من المؤلف أن يستخرج من ثناء الرسول على ورقة بن نوفل معاني وغايات كبيرة لا يعنيها ذلك الثناء ولم يهدف إليها والنبي (ص) كان قد أثنى بأكثر من ذلك على زيد بن عمر بن نفيل التواب الأواب الجاهلي الذي كان على سفر دائم في البراري يتفكر في خلق السموات والأرض. فقال النبي عنه «إنه يبعث أمة وحده»[1].

---

(١) الأغاني ١٤/٤١.

(١) سيرة ابن هشام ١/٢١٨.

والذي أُثر عنه هذا التضرع الدائم:

إنــي لــك الـلهــم عــانٍ راغــم مهمــا تجشمني فــإني جــاشـم

وفي الصحيفة ٣٤ ـ من كتابه، تحت عنوان «خاتمة الفصل» يحاول المؤلف، أن يسير بنا مترنحاً، ملتوياً في مواقفه محاولاً أن يجذبنا إليه فيقول:

ـ لولا الإنجيل العبراني ما عرفنا شيئاً عن قصص الأنبياء وبخاصة قصة عيسى من ولادته حتى دعوته ومعاجزه وصلبه وقيامته من الأموات

ـ ولولا أن يكون ورقة هو الوسيط بين الوحي السابق والوحي اللاحق لما عرفنا استمرارية الوحي واستمرارية انتقال التعاليم من نبي إلى نبي.

ولكن!!

إذا كان ثمة وحيان (سابق ولاحق) يعبران عن استمرار الوحي واستمرارية انتقال التعاليم من نبي إلى نبي، فإن الوحيين كلاهما من مصدر واحد لأنهما على خط واحد ويتجهان إلى غاية واحدة.

وإذا كان الوحي السابق على موسى هو من الله ـ كما يؤمن أبو موسى ـ فإن الوحي الذي نزل على محمد فيما بعد هو من الله أيضاً.

وإذا كان الوحي السابق أنبأنا بالقصص والأخبار القديمة التي لم يكن لها مدونات كتابية، فهو لن يعجزه أن يطلع محمداً عليها، وأن يسردها بحذافيرها على مسامعه.

والوحي ـ على ما هو متفق عليه في الديانات ـ هو الواسطة التي تصل بها كلمة الله إلى النبي ليبلغها إلى الناس، فهو لا يحتاج إلى ورقة لكي يكون وسيطاً لأن البشر، لا يكونون وسطاء بين الله والأنبياء.

وإذا كان ورقة وسيطاً ـ كما زعم أبو موسى ـ فقد كان يتوجب عليه أن يبين جوهر هذا الوسيط وطبيعته.

هل هو جبريل بذاته؟ أم هو نسخة عنه؟

هل أرسل نفسه؟ أم أرسله الله؟ وما هي مضامين هذه الرسالة؟ ولمَ لَمْ يكن هو الرسول بدلاً من محمد؟

وإذا كانت رسالة محمد ـ بمنطق أبي موسى ـ وحياً لاحقاً للوحي السابق الذي نزل على عيسى. وإذا كان ورقة هو الوسيط بين الوحي ومحمد فمن هو الوسيط بين الوحي وعيسى؟ وبين الوحي وموسى؟

إن خاتمة هذا الفصل، كان ينبغي أن تصاغ بغير تلك الصيغة أو لا تكون. لأن صاحبها لم يراع فيها حرمة لمنطقٍ أو تاريخٍ أو عقيدةٍ أو رأي. بل كانت طاقاته عاملةً جاهدةً على زرع المتفجرات عند كل استراحة تاريخية أو فكرية أو عقائدية عند المسلمين. وكان همه أن يحول الأرض الفكرية عند المسلمين إلى أرض محروقة تضطرم بالأوهام والأباطيل.

«كلمات فم الحكيم نعمة، وشفتا الجاهل تبتلعانه»

«من سفر الجامعة»

«ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه؟»

المسيح

الفصل الثاني
القس والنبي في معترك الحياة

أولاً - القس يزوّج النبي.
ثانياً - القس يدرّب النبي.
ثالثاً - القس يعلّم النبي.
رابعاً - القس يعلن النبي خليفة.
خامساً - القس النبي والنبي القس.

أولاً ـ القس ورقة يزوِّج النبي

تسمَّر اهتمام المؤلف وتركز تفكيره طويلاً على زواج محمد من خديجة فقال:

ـ كان هذا الزواج هو الركن العملي الأول من أركان المخطط الذي كان يرسمه ورقة ويُعِدُّ محمداً له. فالزواج ـ في رأيه ـ هو رغبة ورقة أولاً قبل أن يكون رغبة عند محمد وخديجة.

والزواج ـ في رأيه ـ كان وقعة إلهية وقع بها محمد بين أيدي القس وخديجة وأبي طالب.

ـ وقدم من الأدلة على صحة استنتاجه، ما هو ـ في ظنه ـ جدير بأن يقنع الناس. منها:

ـ إن الذي احتفل بالعقد وقام بطقوس الإكليل كان ورقة.

ـ وقد وقف آنذاك خطيباً، فوصف نفسه بأنه سيد العرب وقائدهم.

ـ وإن الفرح غمر أبا طالب فلم يستطع أن يخفي ما في نفسه لنجاح الخطة فأعلن نبوءته، بأن سوف يكون لابن أخيه بعد هذا الزواج نبأ خطير وشأن كبير.

ـ وإن العقد، عقده قس نصراني، بين زوجين من أقربائه له عليهما الولاية في الروح فلا يمكن أن يكون إلا بالطقوس النصرانية بل لا يمكن أن يكون إلا بين زوجين نصرانيين وإلا لم يكن ليقوم به كاهن نصراني، ولم يكن ليقبل به الزوجان.

ثم يختتم الأدلة بقوله:

ما كان يمكن لمحمد وهو الخادم الأمين أن يتزوج من سيدته الثرية الجميلة الفاضلة لولا الأيادي الستة التي تضافرت على صياغة هذا الزواج.

مقدمات ونتائج. بمقدار ما هي خيالية وغريبة، هي بعيدة عن الواقع وفقيرة إلى المؤيدات التاريخية والمنطقية.

قبل أن أعود بالمؤلف إلى المراجع التي تنقض مقدماته، وترفض استنتاجاته سوف أستعيد معه ما كان قاله في بداية هذا العنوان في الصحيفة ٣٧ ـ نقلاً عن «طبقات ابن سعد» و«السيرة الحلبية» و«السيرة المكية».

(إن دخول محمد في العمل لدى خديجة كان بإلحاح من عمه أبي طالب).

(إن خديجة بعد أن لمست أمانته وصدق عمله أرسلت إليه خادمتها نفيسة ففاوضته على الزواج وبعدما قبل أرسلت إلى أعمامها، وأرسل هو إلى أعمامه وتمت الخطبة والزواج).

هذه الأقوال التي أوردها المؤلف من مصادرها، معتمداً عليها اعتماداً علمياً، تقود إلى النتائج المنطقية الآتية:

ـ إن ورقة بن نوفل لم يكن له يد في تدبير الزواج.

ـ الزواج تم برغبة مبتدئة من خديجة دون اتفاق مسبق.

ـ حضر الزواج، الأعمام من كلا الطرفين، وليس أبناء الأعمام (ورقة هو ابن عم).

ـ عندما أتى المؤلف على ذكر أسباب الزواج وظروفه ذكر المراجع التاريخية ودل عليها في مصادرها، ولكنه حينما ذكر عن حضور ورقة حفل الزواج وادعى أنه هو الذي عقده بحق الولاية الدينية على الجميع، وأنه خطب بين القوم على أنه سيدهم وقائدهم، لم يقدم أي مرجع على كل ذلك. ويمكن للقارىء، أن يفتح على الصحيفة ٣٧ ـ من الكتاب لتبين له هذه الوقائع، وبخاصة إرسال خديجة إلى أعمامها، وليس إلى أي واحد من أبناء أعمامها. وفي هذا ما فيه من الدلالة على التمسك بالولاية العصبية، التي هي للأب، ثم للعم في حالة غياب الأب.

وقد أبقت الشريعة الإسلامية على هذا العرف وأدخلته في قانون الأحوال الشخصية.

بعد ذلك سوف أضع في مواجهة أقوال المؤلف، المناقشة التالية:

أ ـ لقد اتفقت مصادر التاريخ، على سرد وقائع الزواج الذي تم بين محمد وخديجة. ففي الصحيفتين ٢٠٠ ـ ٢٠١ من الجزء الأول والصحيفة ١٩٣ ـ من الجزء الرابع من سيرة ابن هشام. وفي الصحيفة ٤٣ ـ من كتاب نساء النبي

للدكتورة بنت الشاطىء، سرد كامل لتلك الوقائع ألخصه بما يلي:

«عاد ميسرة خادم خديجة من الشام حيث كان محمد «الشاب» في تجارة لخديجة. دخل عليها بلهفة، ومتع أذنيها بحديث مثير عن التجارة الموفقة التي قام بها محمد، فأنصتت إليه، حتى إذا ودعها، فكرت بهذه الشخصية المثالية وهي التي خبرت الحياة وتزوجت مرتين من سادات العرب وأشرافهم (أبي هالة بن زرارة التميمي، وعتيق بن عائد المخزومي) وهي التي استأجرت غير واحد من الكهول والشباب فما رأت فيمن عرفتهم ذلك النمط المتفرد من الرجال. أخبرت خادمتها نفيسة فذهبت نفيسة على الفور إلى محمد تسأله: لم لا تتزوج يا محمد؟ فقال لها: ما بيدي ما أتزوج به، فقالت نفيسة على الفور: فإذا دعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ فما مسَّ سؤالُهَا سَمْعَهُ حتى أدرك المعنى وقال: تلك خديجة ورب الكعبة ومن تدانيها شرفاً وجمالاً؟

وفعلاً دعته إلى دارها حيث اجتمع القوم: أبو طالب والحمزة عمَّا النبي. وعنها عمها عمر بن أسد بن عبد العزى بن قصي.

وتزوجها محمد ودام الزواج ربع قرن ورزقا بالبنين والبنات، القاسم وعبدالله ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة...

وفي الصحيفة ٤١ ـ تقول بنت الشاطىء:

«بقيت خديجة ماثلة بين ناظريه بعد موتها، وستدخل حياته نساء وذوات عدد، لكن مكانها سيظل أبداً خالصاً لهذه الزوجة الأولى، حتى إن عائشة ستشغلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها فتقول للرسول:

«كأن لم يكن في الدنيا امرأة غير خديجة» فيرد عليها: «إنها كانت... وكانت... وكانت... وكان لي منها ولد».

وكان إذا ذبح شاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة» فحدثته عائشة في ذلك ذات مرة فقال: «إني لأحب حبيبها» فتقول: «مَا غِرت من امرأة إلا من خديجة مما كنت أسمع من ذكره لها».

«لقد سمى عام موتها عام الحزن وعندما تزوج من سودة بنت زمعة قال:

«والله ما أبدلني الله خيراً من خديجة آمنت بي عندما كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالِها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

تلك هي قصة الزواج، وتلك ظروفه.

ـ حضره الأعمام ولم يحضره أبناء الأعمام، ولكل من الطرفين أبناء عم.

ـ حضور عمي محمد، بسبب وفاة أبيه. وحضور عم خديجة يرجح رواية البعض من أن أباها كان ميتاً.

ـ إن الذي وقف بين القوم خطيباً، هو أبو طالب وليس ورقة، وقد بقي بين أيدي المؤرخين بعض من تلك الخطبة نورد بعضه هنا:

«أما بعد فإن محمداً لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً وفضلاً ونبلاً وعقلاً. وإن كان في المال قِل. فإنما المال زائل وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك».

(كتاب من صور الحياة لدويدر).

وإن كان ورقة قد حضر حفل الزواج، فليس كوليٍّ لخديجة ولا كرئيسٍ على القوم فالولاية للأعصاب (الأب ـ الجد ـ العم) في حالتي الغياب أو الفقدان وإن صحَّ أنه قام خطيباً، فإن صيغة الجمع التي أتى بها الخطاب، لا تنصرف إلى شخصه المفرد بل إلى قريش عامةً أو إلى فرع عبد العزى بن قصي. وليس في ظروف الزواج ما يقنع بأن ورقة انصرف في التفاخر إلى نفسه، لما في ذلك من تعالٍ وتجاوزٍ على من هم أكبر منه سناً، ولا يقلون عنه شرفاً ومقاماً. ولما في ذلك من معيبات الخطاب.

ـ وزواج المصلحة، الذي تحدث عنه أبو موسى، أو زواج الصفقة، ليس مما يمكن أن يوصف به ذلك الحب السامي بين محمد وخديجة، والذي تمثل في الوفاء العظيم، حتى بعد موتها، واستحضار ذكراها والحنين إليها في كل مناسبة مما أغار أجمل نسائه وأحبهن إليه، فعاتبته في ذلك مراراً فكان يقول: «والله ما أبدلني الله خيراً منها... والله إني لأحب حبيبها»...

ب ـ أما قصة الزواج النصراني الذي يعقده كاهن نصراني بين زوجين

نصرانيين. فهي تاليف إنشائي عودّنا عليه الخيال الجامح عند مؤلف سلسلة «الحقيقة الصعبة». ولكن؟؟

أليس الزواج في المسيحية بطوائفها كافة سراً عظيماً من أسرارها العقائدية تمارس طقوسه وإجراءاته وفقاً لمقررات الكنيسة منذ عهودها الأولى؟ ألا يشترط فيه أن يتم ـ قبل القداس الإلهي لكي يتمكن الزوجان من مناولة جسد ودم المسيح. وأثناء ذلك يصار إلى إتمام السر وتستعمل الخواتم والأكاليل التي لا تنزع إلا بعد سبعة أيام؟ (تاريخ الكنيسة ص ١٦٦ ـ)

وإذ نقول: إن الزواج هو عند المسيحيين سر عظيم فذلك أخذاً من رسالة الرسول بولس إلى أهل أفسس بالإصحاح ٥ ـ الآيات ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣:

«كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم. من يحب امرأته يحب نفسه. فإنه لم يبغض أحد جسده قط بل يقويه ويربيه كما الرب أيضاً للكنيسة لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه، ومن أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. هذا السر عظيم، ولكني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة، وأما أنتم الأفراد فليحب كل واحد امرأته هكذا كنفسه وأما المرأة فلتَهَبْ رجُلَها».

هذه هي طقوس وفرائض الزواج النصراني التي كانت سائدة في ذلك الوقت ولا يمكن أن ينسب إلى النصرانية زواجٌ ما، إذا لم يتقيد بهذه الطقوس لأنها قائمة ومفروضة منذ أن وجدت الكنيسة في منتصف القرن الأول الميلادي فهل تم شيء من تلك الفرائض في زواج محمد من خديجة؟ أين القسوسية؟ والإكليل؟ وتناول القربان الإلهي؟ والخواتم؟ لا شيء من ذلك.

وكل ما تم من إجراءات ليس أكثر ولا يغاير المألوف العربي في ذلك الزمن. أما بقاء محمد على خديجة، دون الإضرار بها بضرة طيلة حياتها، فذلك لا يثبت نصرانيته أو نصرانية الزواج. بل يفسر على أنه تصرف تقتضيه طبيعة الأمور ومنطقها، مع شخصية متكاملة الصفات كمحمد، تمتعت بأعظم المزايا، فليس من الغريب أن يحافظ على كرامة وعواطف زوجته التي سبقت كل خلق الله إلى الإيمان

به، ووقفت إلى جانبه عندما هجره الناس وأنكروه، ثم هي أم أولاده، ولا أولاد له من سواها (غير مارية).

أما استغراب المؤلف أن يتزوج الخادم من سيدته، ثم توظيف هذا الزواج في مخطط الإعداد إلى الرسالة، ووصفه بأنه صفقة، عقدها ورقة بن نوفل لخدمة الهدف الذي يسعى إليه، متجاوزاً به المستويات الاجتماعية المتبعة.. نقول:

تلك قياسات خاطئة. وطروح غير صحيحة.

ـ فالعلاقة بين محمد وخديجة، كانت قبل الزواج علاقة عمل، ولم تكن علاقة استخدام. وكان قد سبق لها أن تعاقدت مع سواه على مرافقة بعثتها التجارية. فلم يسبق أن وصف واحد منهم بأنه كان خادماً، في حين أن التاريخ وصف «ميسرة» بأنه كان خادماً لخديجة.

ـ ثم إنهما أبنا عم فلا يمكن أن ينظر الواحد منهما إلى الثاني بهذا المنظار.
ـ وفوق ذلك. فإن المواهب التي سكنت في شخصية محمد، جعلت شخصيته فائتة في جميع مزاياها مما ينزهها عن هذا المستوى.
ـ ولو كان الفارق بهذا المعيار، لما قبلت سيدة قريش أن تتزوج منه، ولما سعت إليه، وكلفت غيرها بضمان قبوله.

موضوع الزواج، يقدمه أبو موسى، كأول ركن من الأركان التي قامت نظريته عليها. فهو ـ أي الزواج ـ صفقةٌ دبرها ورقة وأبو طالب لكي يوجد في نفس محمدٍ استقراراً وطمأنينة مادية، تجعله قادراً على أن يتفرغ لأداء مهمته والإعداد لها، ويكون جاهزاً إلى تلقي باقي أركان الخطة. وهذا الركن ـ في رأي المؤلف ـ هو الأساس الأول الذي سمح بالاستمرار في الخطة، ولولاه لما نجحت، وباءت الجهود بالفشل.

ثانياً ـ القس يدرب النبي

موضوع تدريب ورقة بن نوفل للنبي محمد عرضه المؤلف في الصحائف من ٤١ ـ ٤٥ مبيناً فيها عناصر ومراحل التدريب وخطة العمل الدؤوب الذي عكف

عليها المدرب دون كلل طيلة أربع وأربعين سنة. وإني أوجز الأفكار الرئيسية في تلك الصحائف واضعاً ما تطلبته كل فكرة من نقاش وتمحيص إلى جانبها:

١ ـ قال: «إن زواج محمد من خديجة هو أول خطوة في المخطط الذي رسمه القس من أجل السيطرة على النبي محمد هذا المخطط الذي استهدف تدريبه وتهيئته الباطنية للضلوع بالرسالة التي يعده لها. وفي غار حراء ظل معه ينقطعان عن الناس شهراً واحداً من كل عام طيلة خمس عشرة سنة يمارسان الصلاة والتفكر في الله وقراءة كلمة الله المكتوبة بالأعجمية:

هذا الكلام المأخوذ بحرفيته عن كتاب المؤلف. يفرز النتائج التالية:

أ ـ ارتباط ورقة بالنبي ابتدأ بعد الزواج ولمدة خمسة عشر عاماً، وليس قبل ذلك التاريخ وليس أطول من هذه المدة. وهذا القول ـ مهما كان نصيبه من الصحة، يسقط الادعاء الذي كرره المؤلف في السابق، والذي سوف يظل يكرره فيما سيأتي، من أن عناية ورقة بمحمد ابتدأت منذ ولادته واستمرت دون انقطاع أربعةً وأربعين عاماً.

على أية حال، سواء أبقي على هذه المدة الأخيرة، أم عاد وتمسك بالأولى فإن فترة الشهر من كل عام، مهما بلغت الأعوام، لا تكفي ولا تمكّن أي مفكر أو فيلسوف أو شاعر أن يضع القرآن بما فيه من الروائع البلاغية والأنباء الغيبية والقوانين الاجتماعية. والبناء الاجتماعي للدولة والذي ظل يغطي المجتمعات الإنسانية مساحة من الزمن دامت عدة قرون ولا يزال ـ فيما لو عاد المهتمون من علماء الاجتماع وتعمقوا في الاستنباط من معانيه ـ قادراً على مسايرة التطور في الحاجات الإنسانية والفكر الجديد المتحرك على الدوام.

إن التعصب وحده، والسذاجة العلمية، هما اللذان يقتنعان بأن الرسالة الإسلامية والقرآن بشموله العبقري ومرونة معانية وثبات صيغته على الزمن. هما من إنتاج تلك الخلوة الشهرية. وإن ذلك المثل العظيم في الدين والعلم والفن والحكم الذي ظل منارة للعالم، هو كله من وضع ذلك العجوز الأصم الأعمى.

٥ ـ ومع هذا:

فالمؤلف الذي يعرف أنه مطالب بالأدلة على ما يقول، عمد إلى المراجع فعمل فيها سلباً ونهباً وقطعاً ووصلاً، ثم قفز من فوق مضامينها حتى أتى بما يريد كما يريد، قاطعاً من الطويل ما زاد وموصلاً بالقصير ما نقص، فكان ذلك النسيج من ذلك الغزل.

لذلك تتبعت الشهادات في مضامينها، واستدعيت المراجع بلحمها ودمها، وآثرت أن أضع الحقيقة أمام القارىء، آملاً منه أن لا ينام لحظة واحدة على شك فيما قدمه إليه، لأن هذه المراجع، التي حرف فيها أبو موسى وبدل، متوفرة في مكتبة أكثر القراء، وإن لم يكن، ففي أية مكتبة عامة.

تلك الشهادات التي -كانت معتمد المؤلف وحجته هي عن شخصيات ثلاثة عاشت مع النبي، وعرفت ظروف خلواته، وكانت أقرب الناس إليه. وقد دُوِّنت في «الصحيحين» و«السيرة الحلبية» و«سيرة ابن هشام» و«طبقات ابن سعد». . . أما تلك الشخصيات فهي: «حليمة السعدية، وخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر» هنَّ: (مربية النبي ـ وزوجتاه) وقد ورد فيها الآتي:

«على أنه لما قرب الزمن الذي أراد فيه الله أن يرسل نبيه ازداد محبة في الخلوة لأن الخلوة يكون فيها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق فهي تفرغ القلب من أشغال الدنيا لدوام ذكر الله فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده، وكان يخلو بغار حراء فكان يتحنث فيه أي يتعبد الليالي أولات العدد مع أيامها». . .

هذه الأقوال وردت بالتفصيل في المراجع السابقة. فلا هي ـ ولا رواتها الأصليون ـ ذكروا شيئاً عن ورقة بن نوفل، كما لم يأت فيها ولا في سواها أن النبي كان يشارك أو يرافق أحداً في خلوته. «فقد حبب الله إليه أن يخلو لوحده لأنه في الخلوة فراغ القلب من أشغال الدنيا والانقطاع عن الخلق وفيها صفاء النفس وإشراق أنوار اليقين في الروح» (حليمة السعدية).

فأين تلك الخلوة مما وصفته الصحيفتان ٤١ ـ ٤٢ من كتاب المؤلف؟ والتي أشرك فيها ورقة بن نوفل.

ولم يكتف أبو موسى بجعل تلك الخلوة اجتماعاً للمطالعة والقراءة والدراسة بل جردها من التأمل الذي لا يكون إلا حيث يكون الصمت وانقطاع الحركة وهذا لم يكن ممكناً في الخلوة التي اختارها المؤلف للنبي، لأن وجود ورقة فيها على الدوام وقيامه بمهمته التعليمية، حوَّلها إلى مكان لإلقاءِ وتلقيٍّ الدروس الخاصة في قراءة الكلمة المكتوبة بالأعجمية.

إن هذه الجرأة على الحقيقة، لا يوفيها حسابها إلا قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. ٦/١٤٤ ـ الأنعام.

﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ طه/٦١.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ١٦/١٠٥ ـ النحل.

٢ ـ وقال المؤلف:

«وما كان لمحمد أن يعرف الخلوة لو لم يتعرف عليها ممن سبقه إليها أمثال جده وندماء جده، كورقة بن نوفل»، أي: إن محمداً تعلم الخلوة تعليماً وتوصل إلى معرفتها من ورقة.

ولكن؟؟

ـ الخلوة ليست علماً، يتلقاه تلميذ من أستاذه، بل هي استجابة روحية تنبثق عن رغبة الذات، ولا تروى إلا بممارستها ذاتياً، ووفقاً لما يختطه الممارس لنفسه، غيرَ مقيد بقواعد وشروط أو نظم ثابتة متعارف عليها بين الأحناف الممارسين.

ـ وكتَّاب السيرة ورواة الأحاديث، والمؤرخون كافة، اتفقوا على أنهم لم يقفوا يقيناً على كيفية تعبد النبي ولم يعرفوا مقومات خلوته، كل ما عرفوه أن النبي كان يختلي في غار حراء وحده منقطعاً عن الخلق، لذلك ظلت مقوِّمات خلوته وأوصافُها وصورُ ممارساتها مما يسرده المتأخرون عن المتقدمين «فَرْضاً» وتقديراً شخصياً دون مستند أو دليل.

ـ ولم يفت هذا الأمر عن المؤلف، فأشار إلى جهالة الناس بكيفية الخلوة، وطبيعتها، وذلك نقلاً عما أثبته ابن هشام في سيرته، ومسلم والبخاري في صحيحيهما وشرح البخاري للبلقيني والسيرة الحلبية.

فإذا كان الأمر، كما أورده المؤلف عن الرواة الثقات، وإذا كان السلف، الذين عاصروا النبي وعاشروه وصحابته والتابعون لم يتوصلوا إلى معرفة ما كان يتم في خلوة النبي، وفيما إذا كانت صلاةً، أم سكوتاً تاماً، أم تفكراً أم غير ذلك من المقومات. فكيف تسنى لهذا المؤلف بعد أربعة عشر قرناً أن يصف خلوة النبي ويحددها، ويصف من كان يشاركه فيها ويتحدث عما كان يتم خلالها، ويؤكد على أنها كانت المدرسة الحقيقية التي تلقى فيها محمد دروس الرسالة المقبلة من المدرس الملهم، عالم الغيب وعالم الشهادة الحكيم الخبير ورقة بن توفل.

كيف استطاع أن يقف على ممارسات محمد في خلوته وأن يقارن بينها وبين مقومات الرياضة الروحية والخلوة النصرانية وهو لا يملك بين يديه دليلاً يمكن الركون إليه؟

ثم كيف استطاع أن يرد أصول «خلوة الأحناف في قريش» إلى جذور نصرانية وهم الذين ثبت تفاخرهم واعتزازهم بالانتماء إلى مؤسس الحنيفية، جد الأحناف وجد قريش النَسَبيِّ، نبي الله إبراهيم؟

مما تقدم يتبين:

إن المؤلف الذي تعبَّأ بفكرة ثابتة، اندفع يبحث لها عن الأدلة، لأنها ـ في الأصل ـ قائمة لديه بالتقليد الإرثي، ولما لم يجد دليلاً، عمد إلى قلمه، يكتب به ما يشاء، وَضْعاً إنشائياً خيالياً، يعبِّر فيه عما يريده أن يكون لا عما هو كائن وواقع. ونسي المؤلف ـ وهو في غمرة الاندفاع العاطفي ـ أن الذي يكتب في التاريخ أو العلم يجب أن يتقيد بالثوابت وأن لا يحيد عن قواعد المنطق، وأن يبتعد عن الوضع والتحريف والتزييف، ونقل النصوص من أمكنتها ومناسباتها إلى أمكنة ومناسبات ليست لها. فتلك كلها من جرائم العلم والأدب، التي يلازمُها واجب العقاب فلا يشملها تقادُم، ولا عفو.

٣ ـ ومن الآية ١٨٣ ـ من سورة البقرة:

انطلق يقطع، ويفصل، ويستنتج، ليصل بعد ذلك إلى أن شهر الخلوة، الذي هو شهر رمضان من كل عام، هو ـ في الأصل ـ شهر الصيام النصراني،

وحجته في ذلك، طبعاً، من القرآن، من هذه الآية بالضبط: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ٢/١٨٣

ـ فالنصارى هم قبل الذين آمنوا والذين توجه إليهم الخطاب القرآني.

ـ والدعوة الإسلامية هي دعوة نصرانية، فلا جناح عليها، بل لها ملء الحق أن تمدَّ يدها لتأخذ من المستودع النصراني، ما يروق لها من الأحكام والفرائض.

ـ وهذا الشهر هو شهر الصيام النصراني، منذ ما قبل محمد بستماية عام.

ـ وخلوة الأحناف عموماً، بما فيها، خلوة محمد، أخذت جميع مقوماتها من خلوة النصارى وهي «الزهد والتعبد، والصيام والطواف» وكان لهذه الخلوة قبل الإسلام أنصار وتابعون في مكة والحجاز.

وما كان في مقدور محمد أن يمارس طقوس ومقومات خلوة أخرى لأنها خلوة الرئيس الروحي الكاهن الجليل ورقة بن نوفل.

من جهتنا:

سوف نقتصر على محاورة المؤلف في شهر رمضان. أما الخلوة فلن نقول فيها غير ما قلناه سابقاً، خاصة وإن المؤلف لم يأت هنا بجديد في خصوص الخلوة.

ـ أما إن شهر رمضان هو شهر الصيام المسيحي، فهو قول ينقضه عدم تمسك المسيحيين به. إذ لو كان فريضة من فرائضهم أو شعيرة من شعائرهم لكانوا يصومونه. وما نعرف أن مسيحياً يعتبر شهر رمضان هو شهر صومه في كل عام.

ـ وأما إن الصيام الإسلامي فُرِضَ فيه، لأنه فريضة نصرانية. فذلك قول يدل على أن صاحبه لم يتابع مراحل الصيام الإسلامي منذ بدئها حتى استقرارها. وتتلخص قصة الصوم الإسلامي في المراحل الآتية:

أ ـ نزلت فيه لأول مرة الآيتان ١٨٣ ـ ١٨٤ من سورة البقرة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن

تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

فقد كان الصيام قبل هاتين الآيتين مثلما كانت عليه الأمم من قبل الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر ولم يزل قائماً ومشروعاً منذ نوح. وروي أن النبي لما قدم إلى المدينة جعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام. وصام يوم عاشوراء إلى أن نزلت الآيتان.

وبموجبهما رُخِّص بعدم الصيام لمن لا يطيق على أن يقوم بإطعام مسكين فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً.

إلى أن نزلت آية الصيام فأمر النبي أن توضع بعد الآيتين السابقتين وهي التي أخذت الرقم (١٨٥) من سورة البقرة:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

فنسخت هذه الآية:

الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين. وانحصر الترخيص بالإفطار للمريض والمسافر بشرط القضاء وإكمال عدة الإيام في الشهر الآخر.

ب ـ نعم هذا الشهر له قدسية خاصة.
ـ لأن الله اختار إنزال القرآن فيه.
ـ ولأن صحف إبراهيم نزلت في أول ليلة منه
ـ ولأن التوراة نزلت لست مضين منه.
ـ ولأن الإنجيل نزل لثلاث عشرة خلت منه.
(تفسير ابن كثير ـ وتفسير الجلالين للآيات ١٨٣ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥).

٤ ـ ولم يكتف المؤلف بما تقدم من الإيغال العشوائي، في تحليل صيام رمضان وتصور مغلوط لمقومات خلوة النبي بل أضاف زعماً، هو أبعد ما يكون عن

طبيعة التأليف العلمي. فقال في الصحيفة ٤٥ ـ:

«كانت ممارساته الروحية صعبة ولشدتها عليه كانت تحدث له إرهاصات كان منها جزعاً وتنتابه نوبات عصبية خشي أن يكون الشيطان سبباً لها فكانت بوادره ترتجف ووجهه يتربد ويصاب بالعرق والإغماء ويسمع له دوي كدوي النحل وغطيط كغطيط البكر فيطلب من زوجته أن تلفه بثياب دافئة ليذهب عنه الروع». لقد ثبت تاريخياً:

ـ أن هذه الحالات لم تأت النبي طيلة ممارساته الروحية في غار حراء، أي إنها لم تأته إلا بعد نزول الوحي.

ـ هذه الحالات نزلت عليه عندما كان يأتيه الوحي:

انظر: سيرة ابن هشام ١/٢٢٠، وصحيح البخاري ١/٢٢٣، وصحيح مسلم ١/٩٨، وطبقات ابن سعد ١/١٩٨، والسيرة الحلبية ١/٢٦٧، والسيرة المكية ١/٢٨٢.

ـ لقد اتفقت هذه المراجع وسواها على أن هذه الأعراض لم تصب أحداً سواه ممن كانوا يمارسون الخلوة.

فكيف لم ينتبه المؤلف إلى أن تفرد النبي بهذه الأعراض فيه تمييز له عن سواه وأن العليم الحكيم ورقة لم يكن يأتيه شيء منها.

كيف لم يسأل المؤلف نفسه: ترى لو كانت النبوة ادعاءً من النبي وتمثيلاً لدور كتبه ورتبه ورقة بن نوفل، أي إنه دورٌ مُعَدٌّ من قبل وبتأنٍّ وتفكيرٍ وعلى مدى بعيد.

نقول:

لو كان ذلك تمثيلاً من النبي، فلماذا كانت تأتيه تلك البوادر؟ وهل يعقل أن يكون قد اصطنعها اصطناعاً وهي التي كانت تترافق بعوارض مرضية لا يد لأحد فيها؟

وتلك الأعراض، ظلت تأتيه بعد موت ورقة، وطيلة نزول القرآن.

ثالثاً ـ القس يعلم النبي

نسي المؤلف، وما أكثر ما ينسى، ما كان قاله في فصل سابق من أن بداية الالتقاء والخلوة والإعداد والتدريب كانت بعد زواج محمد من خديجة. وأن ذلك الالتقاء استمر متقطعاً على مدى خمسة عشر عاماً بواقع شَهر واحد من كل عام. فبدأ هذه الفترة من كتابه بقوله:

«طيلة أربع وأربعين سنة والنبي يلازم القس ويتدرب على يديه»...

أنظر ص ٤٦ ـ منه:

ـ حليمة السعدية التي حضنته وأرضعته وربته في بني سعد بضع سنوات. شطبها المؤلف من اهتمامه.

ـ أيام فتوة النبي في كنف جده وعمه.

ـ سنوات التجارة التي قضاها بين اليمن والشام.

كلها طواها المؤلف ووضعها في جيب ورقة، وهنيئاً لهذه الورقة بما يتساقط من المعجزات فوق قبرها. حتى ليظن القارىء عندما يقع بين يديه فكر «أبو موسى» أنه لا يتحدث عن ورقة بن نوفل المخلوق البشري بل أسطورة خارقة تبدو أساطير الأمم تجاهها من الأقزام.

لكن؟! صبراً.

فبعد قليل، ولن ينتهي هذا البحث، حتى تسقط ورق التين التي تستر العري في أخطاء المؤلف ومقاصده.

١ ـ وقف عند «النبي الأمي» طويلاً، وبذل جهوداً مضنية لكي يقنع الناس عامة والمسلمين بخاصة، أنهم يعيشون منذ أربعة عشر قرناً أُكذوبة «أمية محمد» التي لفقت تلفيقاً لإبراز الإعجاز في شخصية محمد وتفردها بالمواهب السماوية دون اكتساب بشري ـ فهو على جهله بالقراءة والكتاب، أتى بالبيان القرآني الخارق.

وظل هم المؤلف، مسمَّراً على من سماهم «المذهولين» ليؤكد لهم من

كتابهم آيات تردُّهم إلى حالة الوعي. إذا ما قرأوها وتدبروها بتعمق وإمعان وسوف يتبينون ـ إذ ذاك ـ يقيناً لا يُدّحض، أن الأمي والأميَّة هما مفهومان لا يعبران عن القراءة والكتابة، ولا علاقة لهما بهما.

قال المؤلف:

إن الأمية والأميين لفظتان وردتا في القرآن، للدلالة على التفريق بين الأمم التي نزلت بلغتها كتب سماوية (اليهودية ـ النصرانية) وبين العرب الذين لم ينزل كتاب بلغتهم فهؤلاء هم الأميون الذين لا يعرفون الكتاب إلا أماني. والنبي محمد هو النبي الأمي لأنه ينتمي إلى هذه الأمة التي لم ينزل بلغتها كتاب سماوي.

ودل على الآيات ٣/٢٠ و٣/٧٥ و٧/١٥٧ و٧/١٥٨ لتأييد هذا المفهوم وحلل القسم الأول من سورة العلق وقال: اتفق المفسرون على أن جبريل دفع في حينها إلى محمد كتاباً ليقرأه.

وأضاف:

إن وجود محمد في كنف عمه أبي طالب، الذي تعلق به وأحبه أكثر مما أحب أبناءه دليل على أنه لم يتركه دون أن يعلمه القراءة والكتابة. أسوة بابنه علي الذي ثبت أنه كان يتقنهما.

وأنهى أقواله:

بالتأكيد على أنه مهما تعددت تأويلات كلمة قرأ في القرآن فإن المقصود منها جميعاً هو القراءة الكتابية وهي بكثرتها، تدل على أن محمداً كان عارفاً بالقراءة والكتابة. ثم أشار إلى الآيات ١٦/٩٨ و١٧/٤٥ و١٧/١٠٦ و١٧/١٤.

حجج ساقها أبو موسى، دراكاً، دون تحليل، لأنها لم تحتل ـ على ما يبدو ـ موقعها بين قناعاته، فهو يبدأ في الأمية ويعيد، كأنها هاجس الزمخشري في «حتى» عندما قال: أموت وفي نفسي شيء من حتى.

سوف نتتبع مقالة المؤلف، فقرة فقرة، ونخضعها إلى التحليل كالآتي:

أ ـ اتفقت المراجع اللغوية على أن الأمي هو الذي لا يكتب. قال الزجَّاج «الأميّ هو الذي على خِلْقَةِ الأُمَّة لم يتعلم».

وقال أبو إسحٰق: «معنى الأُمي هو المنسوب إلى ما عليه جلبته أمُّهُ» أي لا يكتب فهو في أنه لا يكتب أميّ، لأن الكتابة مكتسبة فكأنه نُسب إلى ما ولدته عليه أمه. وفي الحديث: بعثت إلى أمة أُمِّيَّة».

وقيل للعرب أميون: «لأن الكتابة فيهم عزيزة أو عديمة، وقد كان القلائل منهم من أهل الحيرة الذين تعلموها من الأنباط».

ومنه قوله تعالى: ﴿بعث في الأميين رسولاً منهم﴾. قيل عن محمد إنه الأُمي لأنه من أمة العرب لم يكن يقرأ المكتوب ولم يكن يكتب وقد أنزل الله فيه قوله

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ العنكبوت ٢٩/٤٩.

ب ـ إن كلًّا من التوراة والإنجيل لم يخصص بقوم أو شعب أو لغة. لقد نزلا باللغة التي كان يتكلم بها كل من موسى وعيسى. ثم توجها إلى الناس كافة. فالإنجيل نُطق به في الآرامية، التي كان يتكلم بها المسيح ثم انتقل إلى لغاتٍ شتى، وأمم لا حصر لها، وانتشرت آياته وتعاليمه في أصقاع من الأرض، ليست من الأمة التي أنجبت عيسى ولا تتكلم بلغتها. فهل يمكن الأخذ بنظرية المؤلف لنعتبر أن الأُمم التي اعتنقت الإنجيل وهي لا تتكلم اللغة التي نزل فيها هي أمم أمية، لأن الأنجيل لم ينزل بلغتها، هل يُطلق مفهوم الأمية على الأمم، الإنكليزية والإفرنسية والألمانية، والإيطالية والأُمم الأخرى؟.

إن هذا المبدأ، يُجَافِي المنطق، والمعقول.

جـ ـ وفي البقعة الجغرافية نفسها التي نزل فيها القرآن ـ كانت كما قال المؤلف ـ كثير من القبائل تعتنق النصرانية وإنجيلها واليهودية وتوراتها فهل كانت تلك القبائل أمية. لا يستثنى منها حتى «ورقة بن نوفل» الذي يتقن القراءة والكتابة بلغاتٍ شتى.؟

فقط لأن الإنجيل والتوراة، وغيرهما لم ينزلا بلغة الأمة العربية التي ينتسبون إليها.

إن ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيدالله بن جحش، قرأوا التوراة

والإنجيل، ولكنهم عرب. ولم ينزل كتاب بلغتهم، فهل يطلق على هؤلاء مفهوم الأمية؟

والقرآن الذي نزل باللغة العربية، لم يتخصص بالعرب دون سواهم. ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾. الأعراف ١٥٨/٧.

فمجيء القرآن باللغة العربية، ما كان ليزيل صفة الأمية عن العربي الذي ظل جاهلاً بالقراءة والكتابة، وما كانت لتزول إذا صار ملمّاً بها.

د ـ بعد ذلك سوف نتلو الآيات التي اعتمدها المؤلف عن الأمية، للاستقصاء عن رأيه، وتحديد صحته من خطأه، ثم ننتقل إلى كلمات «قرأ، قراءة، قرآن» لنتعرف إلى مدلولها ومضمونها اللغوي والقرآني:

ـ ٧٥/٣ ـ آل عمران: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ـ ١٥٧/٧ ـ الأعراف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

ـ ١٥٨/٧ ـ الأعراف: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

إن كلمة «الأمي» في هذه الآيات، لا تفيد تخصيص العرب بها بسبب عدم نزول كتاب بلغتهم. هذا في المدلول المباشر للكلمة. أما في كتب التفسير فهي كلها مجمعة على ما كنا قد أوردناه سابقاً من أن الأمية تعني الجهل بالقراءة والكتابة.

هـ ـ أما تأكيد المؤلف بأن كلمة «قراءة» أينما وجدت تدل على القراءة الكتابية وأن الآيات العديدة التي تضمنت هذه الكلمة تفيد هذا المعنى.

ثم أضاف:

قال المفسرون: إن جبريل عندما نزل لأول مرة على محمد. وكرر على مسامعه كلمة «إقرأ» دفع إليه كتاباً ليقرأه.

وقبل استعادة الآيات التي نوّه عنها المؤلف لا بدَّ من عرض جو الحوار الذي دار بين جبريل ومحمد، لعلنا نستنبط منه معنى كلمة «اقرأ». .

ها هو جبريل يقول له اقرأ: فيقول محمد ما أنا بقارىء، فيكرر جبريل اقرأ فيعيد محمد ما أنا بقارىء فيقول جبريل اقرأ باسم ربك الذي خلق. . .

هل يفهم من جواب النبي أنه يتمرد ويشاكس جبريل؟

أم يفهم منه إعلان عدم معرفته بالقراءة؟.

وإن كان جبريل يحمل قرطاساً مكتوباً. فلماذا لم يلقِ القرطاس بين يديه أو يشير إليه؟ ولماذا اضطر إلى التلاوة الشفوية ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ[1]﴾؟ إن تكرار رفض القراءة من محمد، لا يُحمل، على مَحْمَلَ المعارضة لجبريل. . بل على نفي معرفته بالقراءة.

ذلك أن محمداً الذي أخذته روعة الوحي لأول مرة، لم يكن في حالةٍ نفسيةٍ تدفعه إلى أية مجابهة كلامية.

ولو كان الوحي يريد أن يلقنه القراءة، لما كان ذلك مستحيلاً. ففي تاريخ النصرانية أن الوحي نفسه (الروح القدس) حلَّ على التلامذة بعد العشاء السري، لكي يكرسوا بين الأمم التي علمهم ألسنتها فصاروا يتكلمون بها ويقرأون كتاباتها.

ولكن الأمية في النبي، ظاهرة، أرادها الله أن تبقى، لغاية يعرفها هو، ولا يملك الآخرون تجاهها غير الظن والتخمين.

على أننا هنا: لا نبحث في المعاجز والكرامات، بل نستقر حول معنى هذه الكلمة التي اتفق عليها لغوياً وتفسيرياً وتاريخياً أنها تعني نفي العلم بالقراءة بعد ذلك أعود إلى الآيات:

---

(١) سورة العلق الآية: ١.

ـ ١٦/ ٩٨ ـ النحل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.
ـ ١٧/ ٤٥ ـ الإسراء: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾.
ـ ١٧/ ١٤ ـ الإسراء: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.
ـ ١٧/ ١٠٦ ـ الإسراء: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾.

لمعرفة معنى كلمة «قراءة» الواردة في هذه الآيات، ثمة مرجعان.
أولهما: هو كتب التفسير.
الثاني: معاجم اللغة العربية.

ـ ففي التفسير لا يوجد واحد ممن فسروا القرآن حتى الآن، فهم كلمة القراءة هنا على أنها تنصب على تلاوة شيء مكتوب على قرطاس. وأبو موسى لم يشر إلى أي مرجع تفسير يؤيد رأيه.

ـ أما في اللغة:
«معنى القراءة هو الجمع، وسمي كتاب الله قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها وقرأت القرآن يعني لفظته مجموعاً أي ألقيته إلقاءً. وكل شيء جمعته فقد قرأته. وفي الحديث الشريف: أكثر منافقي أمتي قراؤها: أي يحفظون القرآن نفياً للتهمة عنهم. وفي حديث عن ابن عباس أنه كان لا يقرأ الظهر والعصر ثم قال في آخره وما كان ربك نسياً، أي إنه لا يجهر بالقراءة فيهما أو لا يسمع نفسه قراءته. ومعنى قوله: وما كان ربك نسياً: يريد أن القراءة التي تجهر بها أو تسمعها نفسك يكتبها الملكان وإذا قرأتها في نفسك لم يكتباها والله يحفظها لك ولا ينساها». (لسان العرب ـ والمقاييس).

ـ ومع ذلك أغفل المؤلف من القرآن دليلاً قاطعاً كان كفيلاً ـ لو تدبره ـ أن يغير رأيه وهو في الآية ٤٨ ـ من سورة العنكبوت التي أوضحت بصراحة ماهية الأمية عند محمد (ص):

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

٢٩/ ٤٨ فلو كان محمد خلال السنين الأربعين قبل البعثة تعلم القراءة والكتابة لما

ظلت مكتومة عن الناس، ولما كان القرآن نفاها فيما بعد نفياً قاطعاً بهذه العلنية لكل الناس. ومنهم من عايشوه وعرفوه منذ طفولته. بل، كان يمكن لذلك أن يدفع الناس إلى الانفضاض عنه واتهامه بشتى الاتهامات.

وقد أجمع الذين تحدثوا عن النبي وتتبعوا مراحل حياته منذ الولادة حتى الموت وتابعوا تفاصيلها، حتى أدقها، على أنه لم يكن يحسن القراءة، قبل الدعوة ولم يسعَ إلى اكتسابها بعد الدعوة. وأن الأمية التي وصف فيها تعني جهله بالقراءة والكتابة.

و ـ أما تربية أبي طالب للنبي. واعتبارها دليلاً على تعلمه القراءة وأسوة بأبناء أبي طالب وعلى الأخص علي، فهو افتراض، يقوم على الظن دون دليل... ودراية علي بالكتابة، ليست حجة على هذا الافتراض.

فجعفر وعقيل، لم يثبت اكتسابهما للقراءة والكتابة.

ـ وفارق السن بين علي ومحمد هو نيف وثلاثون عاماً، يجعل ظرف كل منهما مختلفاً عن الآخر. مما يسقط القياس.

٢ ـ أيضاً وعلى ذات الأسس الخاطئة التي قرأ بها آيات القرآن في السابق، اندفع يقرأ ويفسر ثلاث عشرة آية مستدلاً بها على أن محمداً ـ مع علمه بالقراءة ـ كان يتلقى ترجمة الإنجيل مكتوبة باللغة العربية على قراطيس، وقد سمى هذه القراطيس قرآناً، وكان يزوده بها ورقة بن نوفل.

فورقة والأبيونيون هم أهل العلم، الراسخون فيه، الذين تلقى منهم وعنهم قرآن الرسالة وعلومها.

غير أن الأساس الخاطىء ـ كما اتفق أهل العلم والمنطق ـ لا يقوم عليه إلا بناء خاطىء والعواطف، إذا تحكمت بصاحبها، تحجبه دوماً عن وضع الأمور في مواضعها وإعطاء الأحكام على حقيقتها.

وإننا في الأسطر القادمة، نقف مع المؤلف عند هذه الآيات، لنستعرض بين يدي القارىء كيفية استخراجه للمعاني التي أطلقها. ونتبين سوية أوجه الخطأ التي أقام عليها تفسيره واستنتاجه.

ـ ١٦/ ١٠٣ ـ النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ وفي تفسيرها ومناسبتها:

أخبر القرآن عن المشركين الذين كانوا يشككون فيما كان يأتي به النبي مما يوحى إليه فيقولون: إن الذي يعلمه ما يتلوه علينا من القرآن هو بشر ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم وهو غلام لبعض بطون قريش كان بياعاً عند الصفا وربما كان الرسول يجلس إليه ويكلمه بعض الشي وذاك أعجمي لا يتقن اللغة العربية فلهذا رد القرآن افتراءهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي القرآن.

ولكن أبا موسى أورد الآية، بعد أن حذف منها، ما غير معناها تماماً. فقد أوردها: ﴿**ولقد نعلم إنما يعلمه بشر**﴾. فحذف كلمة «يقولون» ثم أغفل تتمة الآية، وتغاضى عن مناسبتها لكي يستنتج هو من ذلك أن القرآن هو تعليم من بشر، كان يتلقاه محمد، وذلك بإثبات وشهادة صريحة من القرآن ذاته.

ونحن الذي خبرنا طريقة أبي موسى في فهمه للقرآن، وتقديمه نتائج هذا الفهم إلى القراء، نكتشف فيه هنا شيئاً جديداً هو قلة تبصره. إذ لم يَدُرْ في ذهنه أن واحداً من خلق الله، قد يَفتح القرآن على هذه الآية فيكتشف عملية السطو الخالية من الذكاء تماماً مضافاً إليها تناقضُ المواقف والأحكام.

ذلك أنه ما دام أن القرآن حتى هذا المكان من كتابه، هو ـ في نظره ـ «كلمة الله الأعجمية المترجمة» فكيف يعود بنا إلى مصدر آخر غير الله فينسبه إلى بشر؟

وما دام أن ورقة بن نوفل هو المترجم والمعلم والمدبِّر والمربي لشخصية النبي. فكيف يحيل المؤلف هذه المهمة إلى غلام «مولى» و«أعجمي اللسان»؟

ـ ٦/ ٥٠ ـ الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال أبو موسى:

اعترف محمد في هذه الآية بأنه لا يعلم الغيب ولا عنده خزائن علم الله. نعم ـ وهذا في عمق العقيدة الإسلامية ـ.

فالمسلمون تعلموا من القرآن أن محمداً بشر كرمه الله بالنبوة ومنحه مواصفاتها وعصمه من الناس. وتعلموا أيضاً أن علم الغيب عند الله وحده. وأن بشرية محمد توقفه عند الحدود التي أرادها الله لا يخرج عنها قيد شبر ولا أدنى منه.

ولكن؟!

ما علاقة هذه الآية بمزاعم تَلَقِّي القرآن مكتوباً على قراطيس؟

ـ ١٨٨/٧ ـ الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

مرة ثانية يتحدث القرآن عن «علم الغيب» فيقول النبي منفذا بلاغ الوحي إنه لا يعرف الغيب إلا ما شاء الله أن ينبئه، ولو كان يعرفه لاستكثر من الخير واجتنب السوء ولكنه بشر اصطفاه الله لينذر ويبشر. أما الغيب فالله يقول فيه: ﴿**عالم الغيب لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾.

ـ ٤٣/١٣ ـ الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

لقد اتفق المفسرون على أن المقصود بـ ﴿**من عنده علم بالكتاب**﴾ هم على وجه العموم علماء اليهود والنصارى الذين وجدوا في كتبهم دلائل وعلامات نبوة النبي محمد فشهدوا بها وآمنوا وأسلموا. لذلك وضع القرآن شهادتهم دليلاً على الرسالة.

أما على وجه الخصوص فقد مال بعض المفسرين إلى أنها نزلت مخصصة في عبدالله بن سلام وأصحابه.

ـ ١٨/٣ ـ آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

تحدثت هذه الآية عن شهادة الله وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم المتفرد بالإلهية على جميع الخلائق، فالجميع خلقه وعبيده وهو الغني عما سواه، ثم قرن

شهادته بشهادة الملائكة وأولي العلم. وهذه خصوصية عظيمة للعلماء كافة الذين تبحروا في علوم الكون واكتشفوا كم هو عظيم ومتفرد هذا الخالق الذي أقام الوجود على نظام بالغ الإعجاز. وبذلك ينطوي تحت مفهوم أهل العلم، كل الأخصائيين العلماء من أي جنس وفي أي اختصاص، ولم يشرك في الشهادة مقتصراً، على المصلين والمفسرين والمحدثين. فهؤلاء ـ على جلال مقامهم ـ ليسوا المقصودين على سبيل الانحصار ولو كانَ الاستشهاد على وحدانية الله مقصوراً على هؤلاء (ورقة بن نوفل والأبيونيين مثلاً) لذكر القرآن ذلك بصراحة ووضوح ولكن الآية جاءت عامة في الدلالة على جميع أهل العلم الذي أهلتهم علومهم إلى تقديم الأدلة والقرائن على وحدانية الله.

ـ ٤٦/ ١٠ ـ الأحقاف: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قيل في التفسير:

«إن الشاهد من بني إسرائيل هو عبدالله بن سلام الذي شهد بصحته استناداً إلى ما شهدت به الكتب المتقدمة (على مثله) لذلك أسلم وحَسُن إسلامه. وقد شهد له النبي بقوله عنه «إنه من أهل الجنة». وروى عامر بن سعد عن أبيه قال: «ما سمعت رسول الله يقول مثل هذا القول لأحد يمشي على الأرض غير ابن سلام» (تفسير ابن كثير).

ـ ٣/ ٧٠ ـ آل عمران: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾.

نزلت في اليهود الذين كفروا بالقرآن وهم يشهدون بصدقه في كتبهم.

ـ ٥/ ٤٤ ـ المائدة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

والمناسبة التي نزلت فيها هذه الآية والآيات الثلاثة قبلها ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ هي «أن نَفراً من اليهود جاؤوا يحتكمون عند النبي في رجل وامرأة تزانيا فسألهم: ماذا

تجدونه مكتوباً في التوراة؟ فقالوا نفضحُ ونَجْلُدُ فقال عبدالله بن سلام: كذبتم إن في التوراة الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع القارىء ـ وكان منهم ـ يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها فقال عبدالله بن سلام للنبي: مره أن يرفع يده فأمره النبي فرفعها فقرأ عبدالله آية الرجم فأمر النبي برجمهما: قال ابن عباس وقد اشتركت في رجمهما وكان الرجل يقي المرأة بنفسه من الحجارة».

ـ ١٠/٩٤ ـ يونس: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

قال قتادة: بلغنا أن النبي (ص) قال عندما نزلت الآية: لا أشك ولا أسأل.

ـ ١٦/٤٣ ـ ٤٤ ـ النحل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

نزلت هاتان الآيتان للتأكيد على أن الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى الناس هم من طبيعة الناس «رجال بشر» وتؤكِّدان على توجيه السؤال لأهل الكتب السابقة إن كان أنبياؤهم من صنف البشر أم لا فإن كانوا من صنف البشر امتنع عليهم الاعتراض على نبوة محمد لهذا السبب.

ـ ٢١/٧ ـ الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾.

نزلت بمثل التأكيد السابق، على أن الأنبياء هم بشر غير خالدين وبأجساد تأكل الطعام وتعيش مثل الناس.

وذلك رداً على توهم المشركين الذين وصف القرآن وهمهم وترددهم بقوله على لسانهم:

﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ ٢٥/٧ ـ الفرقان.

هذه الآيات العديدة أوردْتُها بألفاظها وأوردت تفسيرها ومناسباتها، وهي واضحة وضوحاً قاطعاً في:

ـ أنها لا تدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة، ولا تدل على أن الأُمية تعني

في التفسير واللغة، والفهم العربي لها، غير هذا المعنى.

ـ كما لا تفيد أن النبي كان مطلعاً على الغيب أو أدعى الاطلاع عليه، أو أنه مخلوق يختلف عن البشر في الطبيعة والتركيب والحياة اليومية.

ـ ثم لا تفيد أن الراسخين في العلم، أو أهل العلم، مقصود بهم في القرآن ورقة بن نوفل والأبيونيون على سبيل الحصر.

ـ كما دلت الآيات على الاستشهاد بأهل العلم، كافة، الذين توصلوا بعلمهم وفكرهم المستنير إلى وحدانية الله، وإلى العلماء من أهل الكتاب الذين آمنوا وأسلموا بعد أن استيقنوا من: أن علامات الرسالة المحمدية موجودة لديهم في كتبهم.

ثمة عقدة تعاني منها أفكار المؤلف، في كتابه هذا وفي كتب سلسلة الحقيقة الصعبة كافة، وهي كرهه الشديد لرسالة الإسلام ونبوة محمد فهو لا يستطيع أن يرى في النبي أية صفة من صفات النبوة.

وعندما يصطدم بدهشة ورقة بن نوفل الذي قال: «هذا هو الناموس الأكبر الذي نزل على موسى، قدوس، قدوس».

يدركه الارتباك ويُسقِط في يده.

فهو لا يستطيع تكذيب ورقة، ولا تفسير قوله.

وهو في ذات الوقت لا يستطيع هجران عواطفه اللدودة الموروثة.

لذلك: سوف نراه في الفصول القادمة جاهداً جداً، لتفتيت معاني دهشة ورقة بن نوفل ومفاجأته بالوحي وإفراغها من معانيها الإلهية واستخراج معانٍ معاكسة منها.

وهنا في هذا الفصل:

لجأ إلى القرآن الذي ارتبطت به قناعات المسلمين ومجدهم الروحي فاقتطع من الآيات أجزاء، وألقى من هذه الأجزاء أجزاء وقام بعملية جمع ووصل وتفسير فاستخرج من هذه العملية المركبة مفاهيم لا يقبل بها سواه. وقد ابتعد عن سرد الآيات مخافة أن يقبض عليه متلبساً بجرم التحريف، فأشار إليها عابراً، وتحدث عنها مغامراً.

وأنت أيها القارىء، أتوجه إليك بالنص على حقيقته، والشرح والتفسير

والمناسبة من أوثق المصادر، آملاً ألا تسترخص قناعاتك فتقدمها إلى عابر السبيل هذا، دون ثمن فكري، أو مناقشة أو حوار علمي. وأطلب إليك، أن تعود مثلما عدت إلى استدراك الحقيقة من معادنها الأصلية، وأن تكتشف بنفسك بُعْدَ الهدف الذي يرمي إليه أبو موسى، وسوءَ القصد، الذي يسعى نحوه، من وراء كتاب «قس ونبي» وسائر أشقائه في سلسلة الحقيقة الصعبة.

رابعاً ـ القس ورقة يعلن النبي خليفة

في جميع فصول الكتاب تتجاذب أبا موسى فكرتان: امتلأ بهما حتى الأسنان، كل منهما تريد أن تستقل به من دون الأخرى، وهو حائر بينهما في توزيع الرضا، ولكنه مع حيرته يبدو لا فرق لديه في الانتماء بالنهاية إلى أيةٍ منهما تنتصر على الأخرى فكلتاهما تتمركزان حول شخصيتي ورقة بن نوفل والنبي محمد، ودور كل من هاتين الشخصيتين في نشر رسالة الإسلام ونجاحها. وفي وجود القرآن، وثباته وإعجازه.

ففي الفكرة الأولى: يظهر ورقة مربياً مشرفاً على صياغة شخصية محمد وإعداده وتهيئته منذ ولادته لكي يلعب دور نبي بين الأميين (العرب) فيأخذ هذا الدور أخذاً تمثيلياً، ويصدع به تنفيذاً لمخطط بشري وضعت خطوطه وخطواته ودقائق تفاصيله في معزل عنه، وسُكب ذلك كله في عقله، فتقمَّصه بشكل عجيب.

ولقد قام ورقة بوضع الخطوط الحمراء أمام محمد، فنبوته المنتظرة هي من النوع المقبوض عليه من تلابيبه لأنها نوع من النبوات، مصنوع على الأرض ولم تشترك السماء في شيء منه، لذلك لا تحمل الجديد، وليست مخولة بتقديم المزيد. إنها فقط لنقل كلمة الإنجيل الأعجمية إلى العرب باللغة العربية ودعوتهم إلى النصرانية.. لتزول عنهم وصمة الأمية، ويصبحوا مثل الأمة اليهودية والأمة المسيحية، اللتين نزل كتاباهما بلغتيهما.

وفي الفكرة الثانية: تبقى أيضاً عند ورقة بن نوفل، الذي يقدمه المؤلف شخصية فذة، انتهت إليها جميع العلوم وأتقن العديد من اللغات، إتقان العالم العارف المتمكن من قواعدها وتراكيبها كتابةً وقراءةً وتأليفاً. وهو فوق علمه، يتمتع

بوجاهة ونفوذ، جعلت منه سيد العرب وقائدهم ومرشدهم ومديرهم في أمورهم الدينية والدنيوية.

وقد تقلّدَ منصب القسوسية الجليل على مكة وبلاد الحجاز عامةً، تقلده دون مقلد، ذاتُه قلّدتْ ذَاتَه هذا المنصب، دون أُسقفيه أعلنته أو بتركية باركته وقبلت به أو سلطة دينية مارست عليه طقوس التكريس، فكان فريد تاريخه، ونسيج نفسه.

وبتلك الخوارق من المواهب والمزايا، بسط سلطانه على رعيته التي انتشرت فاكتسحت مكة وبطاحها وجزيرة العرب، ووضع يده على الكعبة التي كانت مركز الإشعاع النصراني منذ عهد قصي بن كلاب، فدعَّم سلطاتها ومارس فيها طقوس النصرانية وفروضها وأسرَارها، باعتبارها الكنيسة التي يلتئم فيها الشمل البشري والفكري للدين النصراني.

وبما أنه كان يرى في المستقبل إلى الأبعد من البعيد، رأى إلى جسده وهو يطل على الصعب من مسيرة العمر، فالسنون تهبط بأثقالها على جسدٍ يدب فيه الضعف ويخف فيه النشاط وتقصّرُ الجوارح عن متابعة مهمات الإيصال والاتصال بالناس وإليهم، فلا أشعة العين ولا أعصاب الأذن ولا عضلة اللسان، ولا تلافيف المخ، مثلما كانت عليه فيما مضى حيويةً وديناميكيَّةً وتألقاً.

إنه صائر إلى الزوال، وكلماتُ زميله «قس بن ساعدة» ترن في أُذنيه: من مات فَات، وكل ما هو آتٍ آت.

وهذه العقيدة، التي وقف عليها عمره، وفكره سوف يتهددها الزوال إن زال، والأبيونية التي عكف منذ ما يزيد على نصف قرن يوقد مشاعلها ويملأ مجامرها، سوف تمحي إن لم يعمل على بقاء استمرارها.

فكان محمد، بن عبدالله هو من وقع عليه الاختيار لكي يحمل الشعلة المقدسة من بعد ورقة، وهو وحده الذي يحمل من المواهب والإمكانيات الخارقة ما يضمن نجاحه في هذه المهمة العظيمة.

نعم:

فكرتان تتجاذبان عقل الكاتب، فما يدري «خراش لمن يصير»[1] هل اعِد محمدٌ لكي يكون نبياً؟ أم أُعِدَّ لكي يكون قسيساً وخليفةً على كنيسة؟ فكرتان لا يدري قارىء «قس ونبي» أيةً منهما يريد أبو موسى. فكلتاهما مرادتان لديه عزيزتان عليه. وهو بينهما في ارتباك تتجاذبان عواطفه ومعلوماته، تجاذبا، توشك حبال المفاصل عند هذه الأفكار أن تتقطع. فهو من أول الكتاب حتى آخره، بين مشدود ومشدود مضاد.

ماذا يريد أبو موسى أن يكون محمداً؟ إلى أين يريد أن يصل بنا في شخصه ومهمته؟ هل هو نبي ذو رسالة؟ وإن كان نبياً ومكلفاً بالرسالة فهل تلقى الوحي من الله أم من ورقة؟

وقرآن الإسلام هل هو كلمة الله نزلت مباشرة على محمد باللسان العربي؟ أم هو كلمات أعجمية مترجمة إلى العربية؟ قام بها ورقة من الإنجيل ولقنها إلى محمد؟

أم أنه، لا هذا ولا ذاك ولا ذلك؟

فقط، هو فتى من فقراء قريش، اختاره ورقة بن نوفل، لهونه عليه يتماً وحاجةً وأميةً، فتلقاه ومثلما يتلقى العجينة المطواع التي لا إرادة ولا معرفة لها وتعهده تربية وتعليماً وإعداداً وتوضيب مقابلات ومناظرات ومحاورات ومناسبات للمكر بالناس ومصادرة قناعاتهم، حتى يقفز إلى سُدَّة القسوسية من بعده محققاً الفكر والعقيدة؟.

العنوان الذي نحن بصدده «القس يعلن النبي خليفة»:

يصل بالمؤلف إلى أقصى مواقع التناقض والاستهتار بعقول القراء واستغفالهم، العنوان: نعم العنوان أولاً:

فكيف يتسنى لقس ـ وهو من البشر ـ أن يسيطر على نبي؟

فالنبوة هي تكليف إلهي فكيف يشده إلى الأسفل وينزل به إلى القسوسية؟ وحتى: لو قصد المؤلف: أن القس أعلن محمداً نبياً وخليفةً، فإن التناقض لا يزول بل تلتصق فيه الاستحالة المطلقة.

---

(1) قصة خراش معروفة في الأدب:

تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدري خراش لمن يصير

كيف له وهو الإنسان أن يعلن عن نبي؟

ومتى كان الأنبياء من صناعة البشر، ومتى كانت الرسالات تحاك على الأرض؟

ومثل هذا الذي يعلن نبوته قسيس. كيف يستطيع قبول هذا الإعلان دون إشارة إلهية؟.

يمكن للبشر أن يتلقوا من البشر مواقع القيادة السياسية والعسكرية والفكرية أما مواقع النبوة، فليس لبشر أن يمنحها لبشر. لأن النبوة تعلن عن نفسها وعناية الله تعصمها من الإخفاق.

وأبو موسى الذي يتحدث عن أنبياء بني إسرائيل بانحناء حتى الأرض يعلم أن أياً منهم لم يعلنه نبياً، قسّ، ولا كاهن، ولا واحدٌ من البشر، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. ٥/٦٨ ـ المائدة.

ورقة بن نوفل الذي امتدحه الرسول، يضطرنا هذا المؤلف الآن إلى الغمز قليلاً من شخصه، فقد كان يهودياً ثم حاد عن اليهودية، ولكنه ظل يحمل جذورها في أعماقه. فبدا من خلال أبي موسى «يهودياً تنصَّر» وهذه اليهودية التنصرية، جعلت من أفكاره وتصرفاته كمّاً مختلطاً بلا تحديد. فهو يأخذ من هذه ضغثاً ومن تلك ضغثاً فتأتي أحكامه متزاوجه على خلاف الطبيعة، أنغال أحكام وفلزات أفكار، فقدت أسماءها وهجرت مميزاتها.

(النغل هو ابن الأتان وأبوه الحصان. وهو نتاج من لقاح بين حيوانين من نوعين مختلفين. . .) لسان العرب ـ محيط المحيط.

على أننا لن نستمر طويلاً مع أبي موسى عند شخصية ورقة بن نوفل من خلال هذا التلاعب بالألفاظ الكروية التي قذفها بيننا. . .

بل سوف نحلِّل تلك الشخصية من ذات الأوصاف التي أثبتها المؤلف نقلاً عن المؤرخين.

قال:

«حتى هنا يكون محمد قد استكمل تدريبه لدى القس..»

أي:

بعد أن زوجه من خديجة و«دَرَّبه على الخلوة والتعبد والتحنث» و«علمه العلم الطبيعي والعلم الإلهي».

أصبح قادراً على أداء المهمات التي أُعدَّ لها أربعةً وأربعين عاماً.

بعدئذٍ جاءت الإعلانات عن نبوته بعضها يتلو بعضاً. قبل الزواج وبعده، على ألسنة السحرة والكهان والإنس والجان والملائكة والبشر والشجر والحجر طوال خمس عشرة سنة، على مراحل وبمناسبات، قال المؤلف لا حصر لها ولا عدد، وهي مالئة كتب السيرة والأخبار.

غير أن المؤلف اختار منها ستة إعلانات في ستة مناسبات مختلفة في الزمان والمكان والأشخاص.

الإعلان الأول: بعد أن رجع ميسرة غلام خديجة الأمين من مرافقة محمد في تجارة لها ببلاد الشام. طفق يحدث سيدته عمّا رأى وسمع من مذهلات محمد، فاستوعبت كلامه وما إن تركها حتى انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تضع الحديث بين يديه وتطلب منه تفسيراً لما جاء به ميسرة فقال لها «باطمئنان العارف بمشيئة الله»: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة فإن محمداً لنبيُّ هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر هذا زمانه».

يرجى الانتباه إلى ما يلي:

- «قال لها باطمئنان العارف بمشيئة الله».

أي إن هذه المذهلات التي سمعها ورقة عن محمد، هي من علامات مشيئة الله في النبوة المنتظرة.

- «لئن كان هذا حقاً فإن محمداً لنبي هذه الأمة».

أي: لو كانت المذهلات التي رواها ميسرة قد جرت بالفعل، فإنها تدل على نبوة محمد المقبلة.

أي: إن ورقة، ليس له دخل ولا علم مسبق ولا مشاركة في المذهلات ولكنها مشيئة الله، الذي بيده كل شيء.

ـ «وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر وهذا زمانه».

أي إنه قرأ فيما قرأه من الكتب أنه سوف يبعث في هذه المنطقة بالذات نبي وإن هذا الزمان هو زمانه[1].

هذا الإعلان: لم يصدر عن ورقة.

بل كان ورقة من الأشخاص المُعلَنين به. فهو رواية ميسرة عما جرى لمحمد في طريق الشام، وكانت مهمة ورقة مقتصرة على تحليل هذه الوقائع واستنتاج معانيها الإلهية، والتصريح، بأنها علامات نبوة من الله.

ومصدر هذه الحادثة التي سماها إعلاناً: «السيرة لابن هشام ١/١٧٥ ـ ١٧٧». والسيرة الحلبية ١/١٤٧ ـ ١٥٢ والكامل في التاريخ ٢/٣٩.

الإعلان الثاني: أتاه جبريل آخر الشهر وهو في غار حراء، أي بعد بلوغه الأربعين قائلاً: ابشر يا محمد: أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. فاعتراه ذهول فتركه الملاك وعاد المرتاض إلى بيته فأخبر خديجة فقالت له: ابشر يا ابن عمي واثبت إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثُم خفَّت به إلى ورقة تنبئه النبأ فقال: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لَنَبِيٌّ هذه الأمة.

يرجى الانتباه إلى:

أ ـ «أتاه جبريل وهو في غار حراء وقال: أنا جبريل وأنت رسول الله».

أما كان يكفي أبا موسى، هذا القول، ليبعد ورقة عن الوحي وفكرة اصطناع النبوة والقرآن؟

ب ـ «إن جبريل هو الناموس الذي كان يأتي موسى».

---

(١) سوف نخصِّص فصلاً في أواخر الكتاب عن علامات الرسالة المحمدية في التوراة والإنجيل.

وإذن فما هي مشاركة ورقة؟ وهل ينسب إليه إلا تعليلُ وتحليلُ الحوادث التي وقعت فعلاً دون تدخله؟

جـ ـ وقدوس قدوس.

ألا تعني أن الدهشة أخذت بمجامع ورقة؟

ألا تدلّ هذه الدهشة، على أن ما وقع لمحمد، لم يكن تمثيلاً، ولم يكن تنفيذاً لمخطط موضوع؟

هـذه الحادثـة أوردها المؤلف من: السيرة لابن هشـام ١/٢٢١ ـ والسيـرة الحلبية ١/٢٦٢ ـ ٢٦٣ وطبقات ابن سعد ١/١٩٥.

الإعلان الثالث: أثناء طواف النبي حول الكعبة بعد عودته من غار حراء، وقبل الذهاب إلى بيته لقيه ورقة وكان يطوف هو أيضاً فقال له: أخبرني يا ابن أخي بما رأيت وسمعت فأخبره بما سمع ورأى فقال له: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأُمة ولقد جاءك النّاموس الأكبر الذي جاء موسى ولَتُكَذَّبَنَّ، ولَتُخرجَنَّ ولَتُقَاتَلَنَّ. ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصـراً يعلمه. ثم أدنى رأسـه منه وقبـل يافوخه.

يلاحظ:

أ ـ أخبرني يا ابن أخي بما سمعت ورأيت. هذا دليـلٌ على عدم وجـود التواطؤ بين الاثنين لإخراج هذه الرواية. ودليل على أن ورقة كان جاهلاً بما يجري لمحمد.

ب ـ إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى. في هذا دليل على أن النبوة المحمدية، أعلن بها الله عن طريق الناموس الذي أعلن النبوة الموسوية.

جـ ـ ورقة الذي تنبأ، بما سوف تصل إليه الأُمور، أرجأ إسلامـه إلى ذلك اليوم الذي يُجاهَر بالدعوة، ويجاهَر ضدَّها بالعداء.

وهـذه الحادثـة أوردها المؤلف نقـلاً عن سيرة ابن هشـام ١/٢٢١ والسيرة الحلبية ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

«هذا الاطمئنان الذي حصل عليه محمد من تأييد القس له ونصرته إياه فيما إذا أدرك زمن الدعوة هذا الذي كان يحتاجه محمد للثبات في مهمته وهو نفسه الاطمئنان الذي ورد ذكره في القرآن بالآيات: ١٣/٢٨ - ٣/١٢٦ - ٨/١٠ - ٢/١٦٠ - ٩/٤٠ - ٤٨/٤ - ٤٨/٢٦ - ٤٨/١٨ - ٩/٢٦ - ٨/٣.

الإعلان الرابع: «ذهب أبو بكر الصديق برفقة محمد يستفسره عن الحالات والإرهاصات التي تصيب محمداً وأنه يهرب من الهاتف عندما يتحدث إليه فطمأنه ورقة وقال له لا تهرب وإذا أتاك اثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني».

يلاحظ:

ـ اسمع ما يقول ثم ائتني.

إن فيها ما ينفي أن يكون لورقة علم مسبق بما يعرض لمحمد وما يقال له.

(مصادر الإعلان هذا: عند المؤلف هي:

سيرة ابن هشام ١/٢٢١ - الحلبية ١/٢٦٢ - ٢٦٣.

وبعد الحادثة، التي انتهى المؤلف من سردها تاريخياً أضاف:

ثم طفق محمد يسأل مرشده عن حقيقة ما يأتيه ويستوضحه عن حقيقة ما ينتابه. وقد أثبت القرآن هذه التساؤلات وأطلق على تلك الأفكار والانفعالات التي كانت تجتاح محمداً أسماء تنطبق عليها:

ـ هل هي أضغاث أحلام؟ ٢١/٥ و١٢/٤.

ـ أم هي جنة من شيطان؟ ٧/١٨٤ - ٢٣/٢٥ - ٣٤/٨ - ٣٧/١٥١.

ـ هل هي سحر ساحر؟ ٦/٧ - ١٠/٨٦ - ١١/٧ - ٢٧/١٣.

ـ هل هي شعر شاعر؟ ٦/٦٩ - ٢١/٥ - ٢٧/٣ - ٥٢/٣٠.

ـ هل هي كهانة؟ ٥٢/٢٩ - ٦٩/٤٢ - ٦/٥٠ - ٧/١٨٨.

هذه الآيات، موجودة فعلاً في القرآن.

ولكن هل كانت بمناسبة تساؤلات من محمد عما ينتابه عند نزول الوحي؟ وهل كانت هذه التساؤلات تلقى منه إلى ورقة بأمل الجواب عليها والمعاونة على الشفاء منها؟

أبو موسى: وظف هذه الآيات جميعها «لرأيه».

أما نحن: فسوف نقوم بعرض كلماتها ومناسباتها ونترك للقارىء أن يستخرج المرامي الحقيقية منها.

الإعلان الخامس: بعد أن تمَّ تأييد القس حلت الطمأنينة في نفس محمد محل القلق والتردد، فثبت وراح يباشر مهمته الرسولية وينذر ويعلن إلى الناس ويتلو ما نزل عليه من السور، ولكنه لم يتمكن من حمل عبء الرسالة فراح يضطرب ويتربد وجهه ويعرق جبينه، فيعود إلى بيته ويقول: زملوني زملوني، أي لفوني بثياب وأغطية دافئة. فتقول له خديجة: ابشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل لغيرك وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق... ثم قامت فأخبرت ورقة بما جرى، فأسكن القس روعها وقال: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى يا ليتني فيها جذعاً وأكون في زمن الدعوة. ثم التفت إلى خديجة وقال نعم لم يأت رجل بما جئت ألا عودي.

يلاحظ: - يا ليتني فيها جذعاً وأكون في زمنِ الدعوة.
- لم يأت رجل بما جئتِ ألا عودي.

فلو كانت الرسالة والدعوة من تخطيطه. لما تمنى أن يكون حيّاً في زمنها، إذ كان يمكنه الإذن بإعلانها بعد أن أصبح محمد قادراً على نشر الدعوة وبعد أن أكمل تدريبه على يدي القس - كما يقول أبو موسى -.

أما المصادر التاريخية التي استقى المؤلف منها هذه الحادثة فهي:
(السيرة الحلبية ١/٢٦٧ - ٢٦٣، طبقات ابن سعد ١/١٩٥).

الإعلان السادس: في رواية عن علي بن أبي طالب أن محمداً سمع النداء: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قال محمد: لبيك: قال جبريل قل: الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين، فاضطرب وقام وأتى ورقة فقال له هذا: ابشر ثم ابشر فإني أشهد أنك الذي بشرَّ بك ابن مريم فإنك على مثل ناموس موسى وإنك نبي مرسل وإنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك، ولئن أدركني لأجاهدن معك».

(السيرة الحلبية ١/٢٦٣ ـ ٢٦٧ ـ ٢٧٥).

بعد أن سرد المؤلف هذه الحادثة، نقلاً، عن مصدرها التاريخي. طفق يقول تعليقاً عليها:

«في هذا الإعلان تطمين آخر لمحمد بأنه لن يكون وحده في جهاده ضد المنافقين من قريش فالقس إلى جانبه يرشده وينصحه بالصبر وعدم استعجال الأمر وقد نزلت الآيات تتحدث عن النصائح الثمينة لكي يتذكرها النبي دوماً. وهي الآيات: ٤٦/٣٥ ـ ١١/١٢ ـ ٩٣/٣ ـ ٨٧/٦.

ثم يتابع المؤلف:

«ذلك كله يؤكد وقوع محمد وقعة إلهيَّةً في مخطط القس وتدابيره فالقس ورقة خطط ودبر والزوجة نفذت والعم عضد، والنبي استسلم لإرادة هؤلاء... والحقيقة تقال: إن الله إذا ما أراد اختيار أنبيائه يهيء لهم الظروف المناسبة لتكفل لهم النجاح في مهماتهم.

. . . .

في هذا الإعلان لهجة، مختلفة عن الإعلانات السابقة.

ذلك: أن أبا موسى، لأول مرة يقرن مشيئة الله بنبوة محمد. إذ في كل ما سبق، كان القس ورقة هو كل شيء وكان الله بعيداً عن هذه التحركات والتخطيطات.

أما هنا فأبو موسى يقول:

«إن الله إذا ما أراد اختيار أنبيائه يهيء لهم الظروف المناسبة لتكفل لهم النجاح في مهماتهم».

فمحمدٌ يبدو في رأيه لأول مرة، نبياً.

وأن الله اختاره مثلما اختار غيره من الأنبياء.

وأن الظروف التي كفلت نجاح مهمته الرسولية هيأها الله وليس ورقة بن نوفل مرحى... لأول مرة يجد الوجدان له منفذاً عند الكاتب في هذا الكتاب وإن كنا نشك، في نقاء هذه الخطوة من الشوائب.

. . . .

تلك هي الحوادث التي عرفها المؤلف على أنها إعلانات ستة، صدرت في تواريخ ومناسبات مختلفة. . . ولنا عليها ما نلاحظه كالآتي:

١ ـ ليست إعلانات صادرة عن ورقة بن نوفل، بل هي وقائع جرت للنبي محمد كان يطلع الأقربين عليها، فيسعى هؤلاء للاستفسار عنها ممن يعرفون أن عندهم بعض الاطلاع على مجريات التاريخ.

فمهمة ورقة، هي استخدام ثقافته اليهودية وعمق اعتقاده بها، للمقارنة والمقايسة بين هذه الظواهر التي كانت تعرض إلى محمد، وبين ما عرض إلى موسى في جبل «حوريب». واستنتج، التشابه الكبير بينها جميعاً.

وإذ ذاك: عاد إلى بعض نسخ التوراة الحقيقية، فوجد فيها إنباءً عن النبي المنتظر ظهوره من نسل إسماعيل في برية «فاران» (مكة).

فاستقر على هذا التفسير، في كل مرة كانت تَرِدُه أنباءٌ عن مقابلات محمد للوحي.

٢ ـ إن ما صدر عن خديجة وورقة من المفاجأة والارتباك وهما يسمعان لأول مرة عن نزول الوحي على محمد، ينفي بشكل منطقي قاطع، أن يكونا قد وضعا مخططاً مسبقاً لهذا الوحي. أو كانا يعلمان عنه شيئاً.

٣ ـ أبو طالب الذي يعتبره المؤلف ركناً ثالثاً من الأركان الثلاثة التي قامت عليها مؤامرة الدعوة الإسلامية، لم يأت له ذكر أو خبر في هذه الحوادث مع أنه ظل حيّاً مدة غير قليلة بعد إعلان الدعوة.

ثم: لا يزال المؤرخون على اختلاف فيما بينهم عما كان جوابه عندما قال له النبي وهو على فراش موته (أبو طالب) قلها يا عماه ولو في أُذني (أي الشهادتين) فمنهم من:

ـ قال بأنه نطق بالشهادتين ومات مسلماً.

ـ ومنهم من رفض ذلك بترديد عبارة يعرفها الكثيرون لا مجالَ لذكرها.

٤ ـ الحوادث أو الإعلانات ٢ ـ ٣ ـ ٤ هي حادثة واحدة ذكرت بلفظٍ واحد تقريباً في الصحيفة ٢٦٢ ـ ٢٦٣ من السيرة الحلبية والصحيفة ١/٢٢١ من سيرة ابن

هشام. ولكنه سردها (ثلاثة حوادث، ثلاثة إعلانات). والحادثتان ٥ ـ ٦ اخذتا من صحيفة واحدة هي السيرة الحلبية ص ٢٦٣ ـ ٢٦٧ ومن طبقات ابن.سعد ١/١٩٥.

إن إيراد هاتين الحادثتين، على أنهما ستة حوادث لا تخفى مقاصده على من تتبع هذه المصادر. فلقد كثَّف المؤلف العدد وكعَّبه لإبراز الأثر التطميني الذي عكف ورقة على سكبه تدريجياً في قلب محمد.

ولكي يُعزِّز رأيه ويولِّدَ القناعة لدى قارئيه، أشار إلى الآيات القرآنيـة التي تحدثت عن موقع ورقة في الرسالة الإسلامية وقسمها إلى قسمين:

ـ آيات لتذكير النبي دوماً، بأن ورقة إلى جانبه، وما عليه إلا الصبر والتنفيذ على مهل، وأن يمتلىء بالاطمئنان لأن القس لن يخذله.

ـ آيات، تصف حالة العجز عن الاحتمال عند النبي؛ ولولا وقُوف القس إلى جانبه ودعمه، لما استطاع تنفيذ مهمته الرسولية.

ولقد عدت ـ مسكوناً بالدهشة ـ إلى هذه الآيات، مستغرباً أن تكون شخصية محمد قد انطوت على هذا الضعف وشخصية ورقة قد انطوت على هذه القوة، فازدادت دهشتي. ولكن!

من جرأة المؤلف على ارتكاب الغلط وتحريف النصوص، حتى النصوص التي يقرأها مليار من البشر صباح مساء منذ أربعة عشر قرناً.

ولكي يقف القارىء بنفسه على الحقيقة. أضع بين يديه جميع تلك الآيات مع تفسير معانيها وسرد مناسباتها.

. . . .

آيات الاطمئنان والطمأنينة: ١٣ ـ ٢٨ ـ الرعد: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾. (مدنية).

ـ ٣/١٢٦ ـ آل عمران: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

(مدنية) نزلت في بدر لتطمين المسلمين وتبشيرهم بنزول الملائكة إلى جانبهم.

ـ ٨/١٠ ـ الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(مدنية) نزلت في بدر لتطمين المسلمين بالنصر الذي هو من عند الله.

ـ ٢/٢٦٠ ـ البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(مدنية ـ واضحة المناسبة والدلالة).

ـ ٩/٤٠ ـ التوبة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(مدنية) ومناسبتها هي هجرة النبي إلى المدينة مع أبي بكر.

ـ ٤٨/٤ ـ الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

(مدنية، نزلت في من استجابوا وانقادوا لحكم الله ورسوله فاطمأنت قلوبهم وزادتهم الطمأنينة إيماناً.

ـ ٤٨/٢٦ ـ الفتح: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

(مدنية: نزلت في المشركين الذين رفضوا أن يبدأوا صك صلح الحديبية بكلمة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» فأنزل الله سكينته على الرسول والمؤمنين في مواجهة الحمية الجاهلية عند المشركين.

ـ ٤٨/١٨ ـ الفتح: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(مدنية: نزلت في الذين بايعوا بيعة الرضوان تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعماية. والشجرة هي بأرض الحديبية واسمها «سمرة».

ـ ٢٦/٩ ـ التوبة: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

(مدنية: نزلت في وقعة حنين حين انهزم المسلمون وبقي النبي على بغلته الشهباء، عمه العباس آخذ بركابها والنبي يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» ثم أمر العباس وكان جهير الصوت أن ينادي يا أصحاب الشجرة يـ أصحاب السمرة، فتقاطروا وشدوا على الكفار حتى انهزموا بعد أن أنزل الله سكينته على رسوله والمؤمنين.

ـ ٣/٨ ـ الأنفال: لم أجدها في الأنفال كما أشار المؤلف ووجدتها في سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾.

(مدنية: نزلت بعد رجوع النبي من صلح الحديبية. وعن عمر قال: نادى منادٍ يا عمر قال فرجعت: قال النبي نزلت علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾).

. . . .

تلك هي آيات الطمأنينة التي نزلت ـ كما قال المؤلف ـ لتطمين محمد بأن ورقة بن نوفل إلى جانبه وأن عليه ألا يخشى شيئاً بعد مناصرة ورقة له.

وتبين:

ـ أنها آيات مدنية نزلت كلها بعد أن مات ورقة وصار تراباً ولا يرجى منه أزرٌ ولا نصر.

ـ أنها نزلت بمناسبات، وحوادث معينة، لا علاقة لورقة فيها.

ـ إنها صريحة في أن الذي أنزل السكينة والطمأنينة هو الله، وليس سواه.

مسكين ورقة بن نوفل. لقد حولته مؤسسة أبي موسى الحريري إلى ورقة تغطي بها أهدافها وغاياتها. وفي الظن، أنه لو علم ما سيؤول إليه ذكره على يد هذه

المؤسسة، لفضل أن يكون من أبناء أي عصر، غير عصره.

. . . .

آيات الاستفسار: أورد المؤلف بضع عشرة آية من القرآن مستدلاً بها على حالات العجز والضعف والخوف والتردد التي كانت تُلِم بالنبي وتظهر عجزه عن الاستمرار في أداء المهمة. فيأخذ ورقة بيده، يدعمه ويعضده ويقويه وكان النبي يسائل معلمه وأستاذه هل هي أضغاث أحلام؟ أم مظاهر جُنة؟ أم هي سحر ساحر؟ أم شعر شاعر؟ أم هي كهانة؟

وقد استدل المؤلف من هذه الآيات، على أنها تمثل جانباً من ا لخطة البشرية التي أحكم وَضْعَها وَرَقَةُ بنُ نوفل ونفَّذها محمد.

لذلك:

نرى وجوب بيان خطأ الاستدلال، لغوياً وقرآنياً، بعد تبيان حقيقة مقاصد هذه الآيات، وذلك بالتسلسل الذي وردت فيه بكتاب المؤلف:

آيات أضغاث الأحلام: ٢١/٥ ـ طه: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

نزلت مُرَدِّدَةً أقوال وافتراءات المشركين فتارةً يقولون عن القرآن إنه أضغاثُ أحلام وطوراً يقولون إنما افتراه شاعر.

ـ ١٢/٤٤ ـ يوسف: ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾.

نزلت في رؤيا فرعون، عندما عجز الكهنة عن تفسيرها فأعلنوا عن عجزهم بقولهم إنها: «أضغاث أحلام».

آيات الجنَّة: ٧/١٨٤ ـ الأعراف: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

نزلت في المشركين الذي اتهموا النبي بالجنون فكذب القرآن دعواهم. وقد ذكَرَ قتادة: أن النبي كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخِّذُهم فخِذاً فخِذاً «يا بني فلان» فحذَّرهم بأس الله فقال قائلهم «إن صاحبكم لمجنون».

ـ ٢٣ / ٢٥ ـ المؤمنون: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

نزلت تتمة للآية السابقة ٢٤ وهي: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

ـ ٣٤ / ٧ ـ سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾.

نزلت في الكفار الذين استبْعَدُوا فكرة قيام الساعة. إذ لم يؤمنوا بأن الله يجمع الأموات بعد تشتتها وتمزقها في التراب بخلق جديد.. فقالوا: أهذا افتراء على الله أم به جنة فرد عليهم في نهاية الآية: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾.

ـ ٣٧ / ١٥٨ ـ الصافات: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾.

قال ابن عباس: زعم أعداءُ الله أن الله تبارك وتعالى هو وإبليس أخَوان فقال الله: سبحان الله عما يصفون. وإنَّ إبليس وأعوانه من الجنة، لمُحضَرون يوم الحساب لمتلقي العذاب.

آيات السحر: ٦/٧ ـ الأنعام: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

نزلت في مكابرة المشركين.

ـ ١١/٧ ـ هود: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي لن يصدقك يا محمد فيما تقول عن البعث والقيامة. ولن يصدقك إلا من فتنته بسحرك.

ـ ١٠/٦٧ ـ يونس: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

نزلت في المشركين الذين كانوا يصفون آيات القرآن بأنها السحر المبين.

ـ ٢٧/١٣ ـ النحل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

نزلت فيما قاله جماعة فرعون عن الآيات المبصرة التي نزلت إلى موسى فهي آيات تُبصَر بالعين ولكنهم قالوا إنها سحر، مكابرةً منهم وعناداً.

آيات الشعر: ٣٦/٦٩ ـ يس: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي: إن الشعر ليس من طبعه ولم يعلمه الله إياه، ورُوِيَ أن النبي لم يكن يحفظ بيتاً من الشعر على وزن منتظم. بل كان إذا أنشده زحفه أو لم يتمه. وعن

الحسن البصري أن الرسول كان يتمثل بهذا البيت: «كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً» فقال له أبو بكر: «كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهياً».

- ٢١ / ٥ - الأنبياء: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

هذا إخبار عن الكفار الذين قالوا عن القرآن إنه أضغاث أحلام، افتراه شاعر..

- ٢٧ / ٣٦ - النمل: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾.

هذه الآية لا تتضمن أية كلمة عن الشعر.

- ٥٢ / ٣٠ - الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

أي ننتظره حتى يأتيه الموت فتريحنا منه قوارع الدهر.

آيات الكهانة: ٥٢ / ٢٩ - الطور: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

يخاطب الله النبيَّ أنه ليس بالكاهن الذي يأتيه الرِّئيُّ من الجان، ولا بالمجنون الذي يتخبطه الشيطان بالمس.

- ٢٩ / ٤٢ - الحاقة: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

نفى الله عن القرآن أن يكون قول شاعر أو كاهن بل هو تنزيل من الله.

- ٦ / ٥٠ - الأنعام: «لم أجد في هذه الآية ما يتعلق بالكهانة أو الشعر».

- ٧ / ١٨٨ - الأعراف: كذلك لم أجد فيها ما يتعلق بالكهانة أو الشعر».

ويبدو أن المؤلف اعتمدهما دون العودة إليهما، بهدف تكثيف عدد الآيات لكي يدخل الروع في القارىء قبل القراءة.

آيات الدعوة إلى الصبر وعدم الاستعجال: زعم المؤلف أن الآيات ٤٦ / ٣٥ و ١١ / ١٢ و ٦٧ / ٨ هي النصائح التي وجهها ورقة إلى محمد يدعوه فيها إلى الصبر وعدم اليأس والتريث في نشر الدعوة وهذه الآيات هي:

ـ ٤٦/ ٣٥ ـ الأحقاف: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

هذه دعوة من الله إلى النبي لكي يصبر مثلما صبر الرسل وألا يستعجل العذاب والعقاب إلى الكافرين، فسوف يتم إهلاكهم.

ـ ١١/ ١٢ ـ هود: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

نزلت لئلا يضيق صدره بما يفترون عليه.

ـ ٩٣/ ٣ ـ الضحى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾.

في رواية: أبطأ جبريل فقال المشركون: لقد ودع محمداً ربُّه فأنزل الله تعالى هذا القسم: بالضحى وما فيه من الضياء والليل وما فيه من الظلام أنه لم يُودِّعْهُ.

....

تلك هي الآيات التي اعتمدها أبو موسى، والتي قال عن بعضها إنها تساؤلات وجهها محمد إلى ورقة بن نوفل يستفسْر فيها عما يأتيه من حالات وانفعالات عند حضور الوحي. وقد تبين: أنه ليس منها أية آية جاءت بطريقة التساؤل من محمد، بل هي سردٌ ثم دحضٌ لما كان يقوله المشركون عن النبي والقرآن. وكذلك آيات النصائح، التي قال المؤلف إنها في جملة الدعائم النفسية التي قدمها ورقة إلى محمد، فأدخل الطمأنينة إلى قلبه، ولولاها لعجز عن أداء المهمة وقد تبين أنها لا تمت إلى هذه المعاني بأية صلة.

....

لقد اتضحت بعدَما تقدَّمَ من عرض وشرح. طَرِيقَةُ أبي موسى في التأليف بموضوع الإسلام والقرآن. فالتأليف في اللغة يعني الجمع بين شيئين أو أشياء ومنه تأليف الكتب أي جمع مواضيع وأبحاث تتفق مع بعضها وتتجانس لكي تشكل مؤلفاً. ولكن كتاب «قس ونبي» قام بمهمة التفريق لا التأليف فقد فرق ما بين الآيات وسياقها، وما بينها وبين أجزائها، وما بينها وبين معانيها ومناسباتها وأهدافها.

وقد مرَّ معنا كيف استثمر الحالات التي كانت تعرِض للنبي في أول فترات

الوحي على غير حقيقتها فاعتبرها إعلانات «من ورقة عن نبوة محمد» وانتقل منها إلى أن النبوة هي صنع يديه ولا دخل لله بها.

وأشار إلى ثلاثة وثلاثين آية، قال إنها وضعت في القرآن لتخليد فضل ورقة وأثره الحاسم على مسيرة النبوة. ولكن تبين أنها نزلت في المدينة بعد أن كان ورقة قد مات وأصبح تراباً، وأنها نزلت تلبيةً لمناسبات عرضت في حينها بعد موت ورقة واستمرت على مدى عقدين من الزمن.

خامساً ـ القس النبي والنبي القس

عناوين مثيرة وغريبة اعتاد أبو موسى أن يضعها لأبحاثه. ففي البحث السابق كان العنوان «القس يعلن النبي خليفة» فكانت غرابته وإثارته لا تقلان عن هذا العنوان.

قلنا، آنذاك: كيف يعتبره نبياً ثم يعلنه خليفة على قسوسية كنيسته؟ أليست النبوة أكرم وأسمى من القسوسية ومن المراتب الكهنوتية كافة؟ كيف يتحول النبي إلى قسيس؟

النبوة وحي وتكليف إلهيين فإذا أراد الله استخلاف أحد أنبيائه أعلن هو هذا الاستخلاف ولا يعطي صلاحيته إلى أحد.

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾. ٢٨ / ٢٦ ـ ص.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. ٢ / ٣٠ ـ البقرة.

وفي هذا العنوان: «القس النبي والنبي القس».

يلقي المؤلف بيننا أحجية، مستحيلة الحل.

من منهما هو النبي؟ ومن منهما هو القس؟ وهل يمكن أن يتبادلا الأدوار؟ أو هل يمكن أن يكون كل منهما قساً ونبياً معاً؟ وهل هما شخصان ومهمتان؟ أم

شخص واحد بمهمتين؟ أم شخصان بمهمة واحدة؟

هذه الأحجية:

لم يطلقها أبو موسى لكي يلقى لها حلاً عند أحد.

ولكنه ذات الأسلوب الذي اعتاد عليه واعتمد فيه دوماً على الألفاظ المستديرة والعبارات المتمفصلة، التي تلتقي وتسبح، في جوٍّ من انعدام الوزن، ونحن الذين سرنا مع أسلوبه سبعين صحيفة حتى الآن من كتابه، ورأينا كيف قرأ آيات القرآن وكيف انعطف بها عن غاياتها ومناسباتها وأوكل إليها غايات بعيدة عنها في الزمان والمكان والهدف، لم يعد يثير فينا هذا الأسلوب استغراباً ولا مفاجأة. بل أعددنا عدتنا، لمواجهة نواياه في كل فصل، وانكببنا على تحليل النصوص من معطياتها اللغوية والقرآنية والتاريخية والعودة بها من ذلك التيه الذي ألقاها أبو موسى فيه.

ـ تساءل في بداية البحث:

ماذا كان في نية القس أن يعلن؟ نبوة محمد أم قسوسيته؟ لماذا كان التساؤل، وهو الذي ظل طيلة البحث السابق جاهداً لاهثاً يتفصد جبينه عرقاً، وهو يقفز من مرجع تاريخي إلى آخر ليجد ستة مناسبات في ستة ظروف أعلن فيها القسُّ نبوة «محمد».

لقد أعلن هذه النبوة في مناسبات ستة. وفي كل منها، كان محمد يتلقى الدعم والتشجيع والمؤازرة والنصح والإرشاد لكي يصدع بالرسالة.

في تلك المناسبات، يصف أبو موسى، محمداً، ذكي الفؤاد، عميق الاقتناع والتمثل لدور النبوة الذي أُنيط به من قبل ورقة.

لذلك:

تساءلنا بدورنا لماذا بعد هذا يتساءل أبو موسى عن حقيقة نوايا القس؟ فانبرى بعد أسطر قليلة يقول:

إنه وحده الذي اكتشف تلك النوايا التي ظلت خافية على جميع من درس وأرخ عن تلك الفترة من التاريخ. وما ذاك إلا لأن الجميع يجهلون كيفية انتقال وتسليم القسوسية من سلف إلى خلف في النصرانية ويجهلون طريقة إعلان النبوة. هكذا يعلل اختفاء نوايا القس وصعوبة تحليلها لدى الدارسين.

رحم الله، الجميع، كلٌ ممن أرخ ودرس وكتب منذ ما قبل الإسلام بقرن من الزمان حتى الآن. وحده أبو موسى عرف كيفية انتقال القُسوسية من سلف إلى خلف. وكيفية إعلان النبوة.

ولكن هذا العليم بكيفية انتقال القسوسية في النصرانية، لم يقدم كلمة واحدة عن السلف الذي انتقلت منه القسوسية إلى ورقة بن نوفل.

لم يقدم، ولن يستطيع أن يقدم كلمة في هذا المجال.

لقد تحدث عن ورقة بن نوفل، مخلوقاً على القسوسية بكلمة الله. مثلما جاء المسيح. فهو آدم النصرانية في الجزيرة العربية. ومنه انتشر الضياء السرمدي. وبعد فلنبق عند اكتشاف أبي موسى ـ فماذا كانت نية القس ورقة في رأيه؟

قال:

«إن نية القس ومحمد لم تكن تتطلع إلى النبوة، فكلاهما عارف بما ينبغي أن يكون وكلاهما شكّل أساساً جوهرياً في المخطط».

«محمد لن يعلن نبياً، فالقس في حاجة إلى من يخلفه على قسوسية كنيسة مكة وقيادة النصرانية في البلاد العربية ولمّ شملها وتوحيد شيعها اليهودية المتنصِّرة وجمع كتب عقيدتها. ومحمد أهل لذلك بعدما حبته العناية الإلهية بالمواهب وما ألقاه إليه ورقة من العلوم والعقائد».

فالنية المشتركة هي بمفهوم أبي موسى:

«الإعلان عن خلافة محمد لورقة في قيادة الأبرشية النصرانية التي كانت منتشرة بشكل واسع في مكة والحجاز وباقي الجزيرة العربية».

لذلك: تبنّاه، وزوّجه على الطريقة، وبالطقوس النصرانية، ودرّبه على الصوم والصلاة، وعلمه التوراة والإنجيل وناموس موسى وعيسى، ونقل له الإنجيل العبراني بلسان عربي، فجاء القرآن ترجمة للإنجيل، فهو ذكر وتذكرة، وتفصيلٌ، وتصديقٌ للكتاب العبراني الذي حضر محمد تعريبه أربعاً وأربعين سنة. فكان بذلك منفذاً للأمر. ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾. ٣٩/١٢ ـ الزمر.

قدم أبو موسى عدداً كبيراً من المؤيدات لرأيه، مؤكداً على اقتناع محمد

بدوره هذا، قسيس على مكة، يعلِّمُ الناس طقوس الأبيونية ويلقي بينهم المواعظ الأسبوعية حول الثواب والعقاب والجنة والنار والقيامة وقصص الأنبياء، وتعاليم التوراة، ثم يشرف على عمادهم وزواجهم ويصلي على موتاهم ويتلقى ويحفظ اعترافاتهم.

ذلك كله!

«يتطلب وضع كل موضوع على حدة، وإلحاقه بما أصابه من مناقشة».

ورقة تبنى محمداً:

كيف صحَّ هذا الزعم عند المؤلف؟ هل قدَّر المعنى الاجتماعي لمفهوم التبني؟ في عصر ما قبل الإسلام وفي الجزيرة العربية؟

التبني معناه أن ينادي على محمد باسم «محمد بن ورقة»[1] فهل حصل هذا فعلاً؟ أو هل كان يمكن حصوله ومحمد حفيد عبد المطلب «الفياض» و«مطعم الوحش والطير» و«سيد مكة ثم هو ابن أخي أبي طالب الذي ورث مزايا ومكانة أبيه؟ فلماذا يتنازل هذان عن بنوتهما الطبيعية لمحمد وتربيتهما له؟ وهو منذ صغره شخص متميز المواهب لم يوزن به أحد إلا رجحه ذكاءً وعقلاً وصدقاً وأمانةً؟

ولماذا يلقيان به إلى ورقة بن نوفل وهو دونهما مالاً وجاهاً وسيادةً؟

ورقة يزوج محمداً:

تحدثنا في ما سبق عن ظروف هذا الزواج وإجراءاته وعن الأشخاص الذين شاركوا في الإعداد له والذين شهدوا عليه واحتفلوا به.

- ميسرة الذي روى إلى خديجة ما رآه وما سمعه من الأمور المذهلة التي وقعت لمحمد وهما على طريق الشام.

- وخديجة التي مسَّ شَغافَ قلبها حديثُ ميسرة لم تلبث أن بعثت إليه

---

١) في التاريخ: إن محمداً تبنى زيداً بن حارثة فكانوا يدعونه زيد بن محمد. ثم بطل التبني بالآية ٥/٣٣ ـ الأحزاب. ﴿ما جعل الله أدعياءكم أبناءكم أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم. . .﴾.

بخادمتها نفيسة تعرض عليه رغبة سيدتها في الزواج منه. فكان القبول منه للإيجاب الصادر عنها، وهما الركنان اللذان يقوم عليهما كلُّ عقد بين طرفين (شرعي أو مدني). فأقيم الحفل في منزلها، وحضره عمها من جانبها كما حضره عماه أبو طالب والحمزة. وتمت الإجراءات مثلما يتم أي زواج في تلك البيئة بذلك الزمن، بذات الصيغة والأعراف والعادات المتبعة في قريش وباقي القبائل، مع فارق رئيسي، وهو أن هذه الشخصيات جميعها من تابعي الحنيفية التي أبعدتها عن نجاسات وعادات الجاهلية المكروهة.

فأين هذا؟

من الطقوس النصرانية في الزواج؟ أين الإكليل والإشبين؟ ولماذا لم يقم الزواج في الكنيسة، والكنيسة (الكعبة) لا تبعد عن مكان وجودهم إلا خطوات؟ ومتى كان الزواج النصراني يتم في البيوت مع وجود الكنيسة في مكان مجاور؟

هذا الواقع التاريخي لو تعمق أبو موسى، لهجر نظريته، هجراناً نهائياً. لأنها تدحض الانتماء النصراني بين هذه المجموعة. وتدحض الادعاء بأن الكعبة كانت الكنيسة التي كان ورقة بن نوفل يمارس فيها خدمته الإلهية. وتدحض الادعاء بولاية ورقة على خديجة مع وجود عمها.

ورقة يدرب محمداً على الصوم والصلاة والتحنث:

وفي مكان سابق من هذا الكتاب كان أبو موسى سرد روايات عن «حليمة السعدية» و«خديجة» و«عائشة» نقلاً عن مصادرها التاريخية.

وكلها اتفقت على أن الله هو الذي حبَّب إليه الخلوة، وليس ورقة.

وأن أول من تحنث في قريش واختلى، كان عبد المطلب وليس ورقة.

وأن خلوة محمد، كانت منقطعة به عن الخلق، لكي يتحقق فيها فراغ القلب فلم يكن يشاركه فيها أحد، ولم يكن يتلقى فيها تدريباً أو تعليماً من أحد.

وإن التقاء ورقة بمحمد، لم يكن قبل الزواج. ثم انقطع بعد الزواج فلم يذكر المؤرخون عنه شيئاً، حتى نزول الوحي واللجوء إليه لتفسيره. فقام بدور

المثقف اليهودي الذي يختزن في ذاكرته مظاهر الناموس الذي نـزل على موسى ويعرف مما اطلع عليه في التوراة والإنجيل قبل التحريف، أن نبوءات السـابقين تشير إلى ظهور النبي من نسل إسماعيل في برية فاران.

ثم: كيف دربه على الصوم والصلاة؟

فهل ثبت في أي مرجع أن محمداً كان قبل الإسلام يصوم ويصلي بصيام وصلاة النصارى؟ كلا. بل ثبت أن ورقة بن نوفل كان يمارس الحنيفية مع الحمس من قريش. ولم يثبت أنه كان يمارس الصلاة بالطقوس النصرانية.

ورقة علَّم محمداً التوراة والإنجيل وناموس موسى وعيسى:

كيف تعلم الكتابين وهما بالأعجمية؟ وكيف يتعلم وهو لا يعرف القـراءة؟ ومتى توفر الوقت الكافي لإلقاء وتلقي هذا العلم الغزير؟ وهل يمكن لهذا الشيخ المسن أن يقوم بإفراغ هذا العلم العظيم الذي شمل نواحي الحياة والتكوين لجميع الكائنات في رأس ذلك الشاب الصحراوي الذي لم يكتسب في السابق علماً ولا ثقافةً؟

ثم: هل يعقل أن تكون هذه المعجزة قد تمت بمعزل عن البشر كل البشر؟ حتى أقرب الناس إلى ورقة ومحمد، لم يذكروا أنهم سمعوا شيئاً عن القرآن قبل نزوله وعن الرسالة قبل الأمر بها؟.

إن مهمـة الرسـالة، والقـرآن، بما فيهمـا من التكاليف العلميـة والتعبديـة والأخلاقية والقيادية تحتاج إلى زمن طويل لإفراغها من رأس المعلم، واستيعابها من المتعلم؟.

فالمؤلف، تحيط به ورطةٌ تاريخيةٌ ، وجغرافية، ومنطقية، لأن ما تقدم به يفتقر إلى الدعم، الذي لم يجده في أي منها.

ورقة هو الذي نقل الإنجيل من العبراني وحوله إلى القرآن العربي:

ذكرنا من قبل أن الذين كتبوا في تاريخ الإنجيل اتفقوا على أن أول كتابةٍ له

كانت باللغة الآرامية[1] التي سادت منطقة الشرق وآسيا الوسطى منذ القرن الثامن قبل الميلاد. ثم نقل من الآرامية إلى اليونانية ثم إلى اللاتينية وجال منذ أوائل القرن الثاني حتى أواخر القرن الخامس[2].

هذا الكلام الذي أثبتناه هنا، أخذناه بالحرف تقريباً عن كتاب المؤلف ص ٧٢ ـ وهو ينطوي، على عناصر مناقشة المؤلف في عنوانه الذي وضعه:

ـ الإنجيل الذي كان بين يدي ورقة في القرن السادس، لم يكن مكتوباً بالعبرانية بل كان بالآرامية أو باليونانية.

وبذلك يفسر ما جاء عن المؤرخين من أن ورقة «كان يكتب بالعبرانية من الإنجيل» بأنه كان ينقله إلى العبرانية من لغة أخرى.

ـ الإنجيل الأبيوني الذي بنيت عليه نظرية أبي موسى، انتشر منذ أواخر القرن الثاني واختفى في القرن الخامس أي قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرن[3]..

ـ لم يثبت أن الإنجيل المذكور ترجم إلى العربية، لأن المؤلف نفسه لم يجد دليلاً تاريخياً أو كنسياً يؤكد ذلك. فقال «وربما ترجم إلى العربية» وكلمة ربما تعني عدم وجود الدليل وهي أقرب إلى النفي منها للإثبات.

ومع هذا كله:

فالمؤلف يصرّ على أن ورقة بن نوفل كان يقوم بترجمة الإنجيل من اللغة العبرانية إلى العربية، في الوقت الذي ينفي أن يكون ثمة إنجيل باللغة العبرانية بين يدي القس.

ثم لا ينسى المؤلف أن يصرِّح بأنه لم يبق أي أثر لترجمة ورقة. كما لا يعرف فيما إذا كان ورقة قد انتهى منها أم ـ الموت وافاه قبل ذلك.

وبالرغم من جميع هذه الداحضات لمقالاته، يستمر على الدرب الخاطئة

---

(١) ص ٥٠ و ٢٥ و ٨٤ من هذا الكتاب.
(٢) ص ٧٢ ـ من قس ونبي.
(٣) ص ٥٢ ـ ٥٦ ـ ٥٧ ـ من قس ونبي.

التي اختطها فيقدم للمرة الثانية: مراجعة لإثبات ترجمة القرآن عن الإنجيل العبراني وهي: ـ صحيح البخاري ـ شرح الكرماني ١/٣٨ ـ ٣٩ الذي جاء فيه:

«إن ورقة كان يكتب الكتاب العبراني».

ـ الأغاني ٣/١١٤ الذي جاء فيه: «كان ورقة يكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب».

فهما ـ أي المرجعان ـ لا يفيدان أن ما كان يترجم هو الإنجيل المكتوب بالعبرانية، كما مرَّ سابقاً.

لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل: هذه من الآية التسعين من سورة يونس أوردها المؤلف في خاتمة الصحيفة ٦٤ ـ ضمن سياق من القول يفيد بأن دعوة محمد لم تكن جديدة وأن القرآن لم يكن أكثر من ترجمة واستنساخ. وتصديق لما في التوراة والإنجيل. وأنه كان يدعو الناس إلى موسى، ويعبر لهم بهذه الآية: بأنه لا شريعة إلا شريعة موسى ولا دين ولا كتاب ولا اعتقاد إلا ما عليه اليهود عاكفون.

هذا تزييف واضح: فالآية لم تنزل بلسان محمد ولم يتوجه بها إلى الناس كشرع ونهج يغني عن الدعوة، بل وردت في القرآن إخباراً عن فرعون الذي طارد موسى وبني إسرائيل وخاض البحر من ورائهم، وعندما أدركه الغرق وحُمَّ عليه القضاء أدركته الخشية والندم فقال: آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأعلن إسلامه واستسلامه فدسَّ له جبريل حمأةَ البحر في جوفه وقال له: الآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين؛ فمات دون أن تناله رحمة الله. والآية هي:
﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يونس ١٠/٩٠ ـ ٩١.

«كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهرٌ فيُركب ولا ضرعٌ فيُحلَب»

علي بن أبي طالب

«يوم المظلوم على الظالم أشدُّ من يوم الظالم على المظلوم»

علي بن أبي طالب

الفصل الثالث
إنجيل القس ورقة - وقرآنه

مواضيع الفصل:

أولاً - إنجيل القس ورقة.
ثانياً - القرآن العربي.
ثالثاً - استمرارية الوحي والتنزيل.

أولًا ـ إنجيل القس ورقة

في هذا البحث، وخلال الصحائف من ٦٩ ـ ٧٣ عرض المؤلف عدداً من الأفكار هي من حيث المبدأ ليست جديدة، ولكنها من حيث طريقة العرض والأدلة المعتمدة تحتاج إلى إفرادها بجواب. وهي تتلخص بالآتي:

١ ـ تذكير بمهمة القس ورقة بن نوفل.

٢ ـ تتبع الإنجيل الأبيوني من حيث المنشأ والانتشار والوجود الحالي.

٣ ـ حتمية وجود النصرانية في مكة والحجاز تفرض حتمية وجود الإنجيل. وتفرض حتمية كونه مصدراً للقرآن.

. . . .

تذكير بمهمة القس ورقة: كرر أبو موسى ما كان قد ذكره في الصحيفة ٢٧ وما بعدها وأعاد التأكيد على أن مهمَّة ورقة طوال حياته (النصرانية طبعاً) كانت نقل الإنجيل من العبرانية إلى العربية. وأسند هذا القول إلى ثلاثة مراجع: صحيح مسلم ١/٧٨ ـ ٧٩ وصحيح البخاري ١/٣٨ ـ ٣٩ والأغاني ١/١٤١.

وكنا في البحث الخامس من الفصل الأول عندما تحدثنا عن «مهمة القس ورقة» وفي البحث الخامس من الفصل الثاني «القس النبي والنبي القس» ناقشنا مهمة القس واعترضنا على مقولة المؤلف. وعدنا إلى المراجع ذاتها وأوردنا النصوص المعتمدة، وتبين منها أن الترجمة التي كان يقوم بها ورقة هي بالعبرانية، وليست من العبرانية.

فإن كانت بالعبرانية، فهذا يعني أن ما كان يترجمه إليها، كان مكتوباً بلغة أخرى وإن كانت الترجمة من العبرانية.. فإنها تكون واقعة على التوراة، وليس

على الإنجيل الذي لم يزعم المؤلف أنه كان موجوداً بالعبرانية في ذلك القرن.

أما الإنجيل الذي وصفه أبو موسى بأنه إنجيل الأبيونيين فهو ـ على فرض صحة وجوده ـ كان مفقوداً ومهجوراً على المستوى الشعبي والكنسي منذ القرن الخامس.

. . . .

إن فرضية اعتكاف ورقة على ترجمة الإنجيل ووضع القرآن، بالرغم من أنه لم يقم عليها دليل تاريخي، هي ساقطة في المعايير الآتية:

ـ استحالة وجود إمكانية لدى ورقة أو غيره للقيام بهذا العمل المعجز.

ـ استحالة تاريخية متمثلة في عدم وجود أي أثر للترجمة العربية قبل إلباسها ثوب البيان القرآني.. وفي عدم وجود الأصل الأعجمي لها.

ـ استحالة فنية، لأنَّ مثل هذا العمل، يستغرق السنين الطوال كما يتطلب أن يتضافر عليه عددٌ كبيرٌ من المتمكنين في اللغة الأصل واللغة الأخرى وفي جميع العلوم الكونية والتاريخية والتشريعية والدينية والتفرغ لإنجاز هذا العمل الخارق مدة طويلة من الزمن.

تلك الإستحالات الثلاثة تسقط فرضية المؤلف.

وبسقوطها تسقط الفكرة التي بنى عليها الكتاب بكامله. إذ تبقى معلقة في الهواء دون أساس تستند إليه.

لأنه إذا لم يقم دليل على أن ورقة بن نوفل ترجم القرآن من العبرانية. ولم يقم دليل على أنه هو الذي هيأ الرسول لمهمته الرسولية. فإن دوافع تأليف كتاب «قس ونبي» وسواه من تلك السلسلة، تغدو لغواً ومن باب العبث الكلامي.

هذا المأزق، هو الذي جعل أبا موسى جاهداً وراء كل مرجعٍ وأثرٍ وكلٍّ ما كُتب وقيل عن تلك المرحلة التاريخية من حياة الرجلين.

فاستنطق الرمال والحجارة والبطاح والأودية وفرك الكلمات حتى تفككت حروفها، لعلّه من وراء ذلك كله يجد ما يسعف حجته.

ولكنّهُ بعد هذا الضنى، لم يجد غير عبارة وردت في الصحيحين وعبارة

وردت في الأغاني، وهما ليستا فقط لا تفيدان فرضيته، بل تسقطانها بعد تحليلهما تحليلاً لغوياً دقيقاً.

تتبع الإنجيل الأبيوني: قال المؤلف: إن إنجيل الأبيونيين لم يعد باقياً من الأدلة عليه غير بعض الإشارات التي وردت في أقوال آباء الكنيسة الأقدمين. لأن تابعيه انصهروا في الدعوة الإسلامية فاختفى إنجيلهم مع اختفاء عقيدتهم وزالت حاجتهم إلى الإنجيل والعقيدة كليهما.

ينطوي هذا القول في معانيه البعيدة على النتائج التالية:

ـ إذا كانت الشيعة الأبيونية، انصهرت في الإسلام وإذا كان الإنجيل الأبيوني اختفى مع اختفاء الحاجة إليه مثلما اختفت الشيعة القائمة عليه.

فذلك يعني:

ـ أن هذه الشيعة وجدت أجوبة على جميع تساؤلاتها العقائدية والفكرية والزمنية، في القرآن والنظام الإسلامي.

ـ وإذا كان القرآن مستنسخ عن إنجيل تلك الشيعة فقد كان يتوجب الإبقاء عليه، لأنه يُمثِّل الأصل العقائدي الذي قام عليه القرآن والإسلام ـ بزعم المؤلف ـ.

ـ ولو كان الإنجيل هو الأصل، لكان القرآن تابعاً. ولما كان يمكن لمحمد أو سواه أن يحذف من صدور الناس كتابهم المقدس بين ليلة وضحاها، وبخاصة، إذا كان الكتاب المذكور وشيعته هما الأصل العقائدي والفكري للكتاب والدين الجديد.

ـ وإن كان لم يبق من الإنجيل الأبيوني، أكثر من إشارات عابرة وردت في أحاديث بعض آباء الكنيسة بالقرنين الثالث والرابع، وهي لا تتجاوز الأسطر القليلة. فكيف عرف المؤلف أن القرآن بكامله مترجم ومستنسخ عن الإنجيل الأبيوني؟ وهل يستطيع أي باحث أو مؤرخ أن يجزم بهذه المقولة ما لم يكن الأصل الأبيوني موجوداً بين يديه؟

ـ قال: إن الإنجيل الأبيوني جال في بلدان عديدة ثلاثة قرون، أي إنه فقد من التداول في القرن الخامس، وذلك قبل الدعوة الإسلامية بما يزيد على قرن من الزمن.

وفقدانه ـ في حال سبق وجوده ـ لا يقع على المسلمين. لأنه لم يرد في التاريخ دليل على أن المسلمين أحرقوا أو أتلفوا أو رفعوا من التداول أي كتاب من الكتب المقدسة. خاصة، إذا كان هذا الكتاب، هو التوراة أو الإنجيل، لأنهما كتابان قال القرآن عنهما أنه ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ٣/ ٤٧.

ـ وانتشار الإنجيل الأبيوني ـ كما قال المؤلف ـ كان واسعاً في بلدان عديدة من سوريا إلى آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وهي بلدان لم تقع تحت السيطرة الإسلامية كلها وما وقع منها تحت سيطرة الإسلام وقع متأخراً. مما يتوجب معه الافتراض بأن الخزائن الكنسية وكهوف مكتباتها تحتوي على كل ما كتب عن المسيح، وكلِّ ما أُلفَ حوله من أناجيل.

ـ وإذا كان هذا الإنجيل، هو أصل الكتاب الإسلامي، ومنه ـ كما يقول المؤلف ـ استنسخ القرآن قصة مريم وقصة عيسىٰ ونبوته وعدم صلبه وتبشيره بالنبي محمد. أي إن مثل هذا الإنجيل هو حجة للمسلمين على أتباع عيسى، فلماذا لم يحافظ عليه المسلمون وهو دعم لكتابهم وتصديقٌ لرسالتهم؟

. . . .

هذه الحقائق التي يؤيدها المنطق السليم في الحوار تضع الإنجيل الأبيوني أمام الفرضيات الآتية:

ـ إمَّا إنَّه لم يوجد كإنجيل مستقل.

ـ وإما أنه وجد ولكنه هُجِرَ وأُلغِيَ مثلَ الأناجيل التي ألغَتْها المجامع المسكونية بعد أن اعتمدت على الأناجيل الأربعة الحالية.

ـ وإما إنه، لا يعدو أن يكون مجموعة من الأفكار والأخبار التي طرحتها جماعة اليهود لتفسير شخصية المسيح من خلال التوراة، ولكنها لم ترتفع إلى مستوى العقيدة التي تجتمع حولها شيعة دينية متميزة.

ـ وإما أن بعض نسخه لا تزال موجودة إلى الآن في أحد كهوف المكتبات الكنسية في مكانٍ ما من العالم، كأثر تاريخي، اندثر باندثار المتأثرين به وقد اقتضت بعض المصالح الخاصة إبقاءه في الخفاء.

حتمية وجود النصرانية تفرض حتمية وجود الإنجيل وكونه مصدراً للقرآن:
هذه الحتمية في وجود النصرانية التي حتمت كونها مصدراً للقرآن هي مقولةٌ، لا ترتفع عن مستوى الفرضيات، التي تبقى على ضبابيِّتها ما لم تدعم بالأدلة.

لذلك: وبما أنها فرضية. فإن الجدل فيها، يقوم على المنطق الذي نَعْرِضُه بما يلي:

ـ الانتشار المسيحي بين القبائل العربية عند ظهور الإسلام لم يكن بالمعنى الذي حدده أبو موسى، فالمراجع التاريخية المعتمدة من قبله لم تذكر أن تلك القبائل المتنصِّرة، كانت تابعة إلى الشيعة الأبيونية، أو أنها كانت خارجة عن المسيحية منتشرة في بلاد الشام وفي غيرها.
ـ (اليعقوبي ـ أخبار مكة للأزرقي ـ المعارف لابن قتيبة الدينوري ـ الحيوان للجاحظ ـ ص ١٧ ـ من قس ونبي).

ـ ورد في تلك المراجع أن الوجود المسيحي كان محدوداً جداً في مكة بحيث لم يَعُدُّوا غير عبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث. وهذان مارسا عقيدتهما النصرانية خارج مكة بل خارج الجزيرة العربية، أحدهما في الحبشة والثاني في بلاد الشام.

أما ورقة بن نوفل، فإن المؤرخين الذين تحدثوا بالدقة والتفصيل عن نصرانية عبيدالله وعثمان، لم يتحدثوا عن نصرانيته، ولم يذكروا شيئاً عن درجة كَنَسيَّةٍ كان يحملها، كما لم يذكروا أنه قام بنشر النصرانية أو بشَّر بها، أو أن أحداً من قريش تأثر بآرائه أو تبعه.

بل كلهم مجمعون على أنه هو الذي تأثر بالعقيدة الشائعة وهي الحنيفية حيث مارس التحنث مثل غيره، وحرَّم الخنزير، وذبائح الأوثان وامتنع عن الخمر ونهى عن الوأد، وتمسك بأخلاق الحنيفية التي كان يمارسها الحمس من قريش.

ـ إن آباء الكنيسة تحدثوا عن هذا الإنجيل ـ كما قال المؤلف ـ ولكن اسمه ورد عندهم في صور مختلفة: «إنجيل متى العبراني»، «الإنجيل بحسب العبرانيين»، «إنجيل النصارى»، «إنجيل الرسل الاثني عشر».

ويقول القديس جيروم[1]: «الإنجيل بحسب العبرانيين الموضوع بالآرامية هو قريب المشابهة مع إنجيل متى» (حوار جيروم مع البلاجيين)

كما يقول في كتابه «مشاهير الرجال»:

«الإنجيل بحسب العبرانيين نقلتُه حديثاً إلى اليونانية واللاتينية واستخدمه أوريجينوس». أي:

الإنجيل هذا موضوعٌ بالآرامية، وليس بالعبرانية، بل هو بالآرامية وفقاً لرواية العبرانيين.

ـ وقد استخدمه أوريجينوس. وهو كاهن عاش ما بين النصف الثاني للقرن الثاني وثلاثينات القرن الثالث.

فأين هذا الإنجيل إذن؟
ما دام أنه كان بين يدي أغناطيوس في أنطاكيا؟
وأوريجينوس وأكليمونضوس في الإسكندرية؟
وجيروم في حلب. وإيريانوس في آسيا[2]؟

وإن كانت نسخته الآرامية قد فقدت فأين النسخة اليونانية؟ وأين النسخة اللاتينية؟ هل أصابها الاختفاء أيضاً؟ ولماذا لم يقدمهما أبو موسى ويعتمد عليهما لإثبات «الجذر الذي نشأ عنه القرآن»؟.

خاصة، وأن تلك الترجمة، موثوقة لأنها من قبل آباء الكنيسة.

ـ ولكن أبا موسى، الذي طافت في رأسه هذه التساؤلات، لم يلبث أن قال بعد صحيفة واحدة فقط:

«وفي جميع الأحوال إنه ـ أي الإنجيل الأبيوني ـ تحريف واضح لإنجيل متى الآرامي الذي هو أصل الأناجيل»[3].

كيف عرف أنه تحريف؟ وليس بين يديه الأصل.

---

(1) القديس جيروم عاش في القرن الرابع الميلادي.
(2) ص ٧١ ـ من قس ونبي.
(3) ص ٧٣ ـ منه.

وكيف جزم بأن إنجيل متى هو أصل الأناجيل مع أن تاريخ الإنجيل يثبت هذا السبق إلى الرسول مرقس، الذي اقتبس عنه لوقا ومتى كلاهما[1].

وفي «كتاب جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» قال المؤلف: «إن الأبيونية شيعة اعتنقت النصرانية ولكنها لم تتخلَ عن يهوديتها بل اعتبرت نصرانيتها فرعاً وتتمة لليهودية وعنها أخذت معتقداتها».

ـ أما ما جاء في القرآن عن تاريخ الأنبياء والأمم السابقة، وروايته لقصة مريم وولادة عيسى المسيح.. فهي من جملة الأنباء التي أوحاها الله إلى رسوله مثلما أوحى إلى أنبيائه السابقين بتاريخ بدء الكون وتكون السلالات البشرية وطوفان نوح وسواها.

فالرسالة الإسلامية واحدة من الرسالات السماوية التي تلتقي جميعها في المصدر الذي يزودها بالحقائق التاريخية والكونية. وليس من المعقول أن تكون الحقيقة مختلفة عندما تسرد في عدد من الكتب.

أين الترجمة العربية؟: بعد ذلك الجهد المضني الذي بذله «قس ونبي» في البحث عن دليل على الترجمة العربية للإنجيل لم يستطع كتمان إخفاقه فقال: «إنه لا يستطيع هو ولا سواه أن يعرف شيئاً عن الترجمة العربية، وإن هذا منوط برحمة التاريخ التي قد تنكشف عنها رمال مكة الظالمة فتظهر تلك الترجمة من تحت جلاميدها»

لقد انتظر الكثيرون، مثلما ينتظر أبو موسى، وسوف يستمر الانتظار بدون جدوى، لأنَّ ما يطرحه من مقولات، هو من الخطورة والأثر والتأثير في حياة شعوب المنطقة، بحيث لا يمكن أن يختفي هكذا دون أي خبر أو أثر لو كان له في الأصل خبر أو أثر.

ومع ذلك:

فأبو موسى، محارب، في جَدَلِهِ، لا يُلقي سلاحه أو يستسلم بسهولة وها هو

---

(١) ص ٩٢ ـ ٩٥ من هذا الكتاب.

بعد إعلان يَأسه مِن التاريخ والأحافير وكتب الحديث، يركز على القرآن، وعلى أيام القس، فعسى أن يلقى ضالته هناك فإلى أبحاثه وفصوله القادمة.

ثانياً ـ القرآن العربي

وضع المؤلف على عاتِق القرآن مهمات عديدة، قام بها جميعاً، كما وضَّح ذلك من سوره وآياته:

ـ فهو القراءة العربية للكتاب العبراني.
ـ وهو القراءة المفصلة للكتاب الأعجمي.
ـ وهو القراءة الميسرة للكتاب العبراني.
ـ وهو التذكرة للكتاب العبراني.
ـ وهو القراءة المصدقة للكتاب العبراني.

وقد أفرد كلًّا من هذه المهمات، بفقرة شرح فيها ما تعنيه تلك المهمة. ودلَّ على آيات القرآن المؤكدة والمؤيدة لها.

ولكنه قبل أن يخوض في التفصيلات وضع ملخصاً لأفكاره، بمثابة تمهيد لكي يكون عند القارىء استعداد مسبق لتقبُّل تلك الأفكار.

ـ فمحمد لم يكن يعلم شيئاً عن الكتاب والإيمان، وقد أكد القرآن على حاجته إلى من يهديه إلى الطريق المستقيم **﴿ما كنت تدري من قبله ما الكتاب ولا الإيمان وإنك لتُهدَىٰ إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾** (هكذا أوردها ـ تُهدَى ـ)

فكان ورقةُ بن نوفل هو المعلم الهادي، ولولاه لظل قاصراً عن إدراك العلم والهدى والإيمان، وتقبَّل محمدٌ هذه الأُستاذية، مثلما يتلقاها أي تلميذ يسعى إلى اكتساب العلم والمعرفة، فظل يسأله ويستشيره ويستفتيه ويطلب منه النصيحة والتفسير عن كل ما يشكل عليه فهمُهُ ويعسُرُ عليه التصرف فيه، تنفيذاً لأوامر المعلم: **﴿وإن كنت في شك مما أُنزل إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾**.

ـ وهكذا ـ يقول المؤلف ـ سوف نلتقي مع المذهولين بشخص محمد، عند نقطة «جهله» بالعلوم ولكننا نختلف معهم في مصادر العلوم التي صدرت عنه بعد الرسالة، كيف ظهرت عنده هذه العلوم؟ وكيف كان يختزنها طيلة الأربعين عاماً الماضية دون أن يحسَّ بها أحد؟ وممن اكتسبها وهو الأمي، الجاهل بالقراءة والعاجز عن مراجعة الكتب والمصادر المكتوبة؟

يقول:

نحن سوف نظل على سلامة وعينا، بعيداً عن المذهولين. قريبين أشد القرب من المعلم الحقيقي ورقة نسأله ونستمع إليه، ونستدل منه على مفاتيح الحقائق القرآنية ومصادر الدعوة الإسلامية، ونفتح خزائن العلوم لنرى في بطونها مواهب ذلك العقل المتحرك المبدع. (انتهى كلامه).

غير أننا قبل افتتاح مائدة الحوار مع أطروحة المؤلف نود تدوين تمهيد يقابل تمهيده:

١ ـ جميع المهمات التي أناطها بالقرآن تدور حول «الكتاب العبراني». فالقرآن في رأيه، هو القراءة الميسرة و«القراءة العربية» و«المصدقة» و«التذكرة» للكتاب العبراني. فماذا يقصد بالكتاب العبراني؟

ـ إن كان يقصد الإنجيل بحسب العبرانيين، فقد سبق أن أوردنا ما قاله القديس جيروم من أن هذا الإنجيل وضع بالآرامية. أي إنه رُوي بحسب رواية العبرانيين ولكنه كتب باللغة السائدة (الآرامية).

وإن كان الأمر كذلك: فإن الترجمة التي ذكرها الأغاني، كانت لكتاب عبراني، وليس للإنجيل.

ـ وإن كان القصد، هو التوراة. فإن أبا موسى يكون قد بعُدَ كثيراً عن غايته التي ما فتىء يكررها باستمرار وهي العودة بالقرآن إلى أصل إنجيلي وليس إلى أصل توراتي.

٢ ـ أورد الآية ٥٢ ـ من سورة الشورى، إيراداً مجزوءاً ومحرفاً لكي يثبت بهذا الجزء أن القرآن ـ وليس أبو موسى ـ هو الذي تحدث عن حاجة محمد إلى من

يعلمه ويهديه. فأورد الآية بصيغة المجهول، وحرص على هذه الصيغة بأن وضع «الشكل» على الحروف حتى لا يحصُل خطأ في قصده.

وكتب الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتُهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. الشورى ٥٢/٤٢.

غير أن الآية ترتبط مع سابقتها، ارتباطاً غير قابل للتجزئة بحيث تتكاملان في المعنى والهدف:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الشورى ٥١/٤٢.

ففي الآية الأولى: لا يكلم الله بشراً إلا بإحدى الوسائل التي منها الوحي، وفي الثانية أخبر أنه أوحى إليه القرآن ﴿روحاً من أمرنا﴾ وقبل هذا الإيحاء لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن القرآن نزل نوراً يهدي به الله من يشاء كما أن هذه المكرُمَة، مكرُمةَ الهدايةِ إلى الصراطِ المستقيم أنيطت بالنبي

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

مكرمة الهداية التي أنيطت بالنبي، تكرر ذكرها مرات في القرآن:

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾. ١١٣ ـ النساء.

﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. ١ ـ إبراهيم.

وبعد.

إن إيراد قسم من الآية ٥٢ ـ دون الآية ٥١ ـ

وإيراد فعل تهدي، بصيغة المجهول.

واستخراج المعنى الملتوي، كلُّه عمليةٌ تتُّهم صاحبَها بفقدان مصداقية العالم وزوال صفة الحياد العلمي.

لأنها من النوع الذي لا يندرج في حالة الخطأ غير المقصود.

. . . .

عودة إلى تقسيمات البحث

١ ـ القرآن هو القراءة العربية للكتاب العبراني:

القرآن كلمة عربية مشتقة من الفعل الثلاثي ـ قرأ ـ لتعبِّر عن مجموع ما بين دفتي الكتاب الإسلامي من الكلام العربي الواضح الفصيح، وقد فهم العرب والمستعربون على السواء هذه الكلمة باللسان العربي القرشي الذي كان يتكلم به النبي وعرب الحجاز.

والعرب ـ كل العرب ـ عندما سمعوا كلمة قرأ، وتداولوها لفظاً وقراءةً وكتابةً لم ينصرفوا بها إلى جذر آرامي أو حيراوي أو نبطي أو غيرها من جذور الألسنة والكتابات التي نشأت عنها لغة الجزيرة وبلاد الشام.

فلماذا ذهب المؤلف بهذه الكلمة إلى الآرامية (قْرو ـ نِقرِى ـ قِريوتُـو) ومن قرأها على الأصل الآرامي؟ وهي لم تكن لغة النّاس بتاريخ الدعوة ونزول القرآن؟ ولم تكن مُتَدَاوَلةً في اللفظ والكتابة والشعر؟.

تساؤل: ماإن طرحناه حتى وجدنا جواب المؤلف غير بعيد.

ففي ذات الصحيفة قدم تفسيراً بعيد الغاية، وقال: إن كلمة القرآن مشتقة من أصلها الآرامي وتعني «تلاوة نص مكتوب».

هنا بدت الغاية بوضوح.
المؤلف يمسك بيدنا ليقودنا مثلّ الأطفال خطوة خطوة.

ففي تركيزه «لمفهوم تلاوة النص المكتوب» بأذهاننا، مقدمة لكي ينتقل بنا إلى الخُطوة التي تليها وهي: «إن جبريل عندما قال لمحمد: اقرأ باسم ربك الذي خلق» كان يعرض عليه ورقة مكتوبة».

وبعد أن تتركز هاتان الفكرتان وتستقران في الأذهان يقفز بنا قفزة ثالثة ولكنها نوعية هنا:

إنها تحليل «أمية محمد»، فهي بموجب التسلسل المنطقي في التعرف على

معنى «قرأ» تعني أنه كان ملمّاً بالقراءة والكتابة وإلاَّ لم يُقدم إليه جبريل أوامر الله على قرطاس.

وإذا قامت لدينا القناعة بمعرفته للقراءة والكتابة تيسَر لنا تعليل مصادر ذلك العلم الغزير الذي تلاه محمد بآيات قرآنية. إنه حصيلة المطالعة الدؤوب الطويلة الأمد يقوم بها عقل وقّاد يلتهم ما تقع عليه عيناه من ثقافات الأولين وكتبهم وعقائدهم.

تلك الغاية بدت في أول الأمر مترددة خجولاً، ثم ما لبثت أن ظهرت بعزم وتصميم وعلنية فيما يلي من أبحاث. وسوف نجد مكاناً لمناقشتها بعد أن نقوم بتحليل المعاني التي تنطوي عليها كلمة «قرآن».

ـ فالقرآن كلمة تعني «الجمع» و«الضم». وسمي كتاب الله قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها: ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾. أي: إذا بيَّناه لك بالقراءة فاعمل بما بيَّناه. و«قرأت الشيء قرآناً» أي جمعته وضممته بعضه إلى بعض. وفي الحديث: أقرأكم أُبيٌّ أي أتقنكم وأحفظكم للقرآن. وكل شيء جمعته فقد قرأته. وروي عن النبي قوله: «أكثر منافقي أمتي قراؤها» أي يحفظون القرآن لدفع التهمة عن أنفسهم وهم معتقدون تضييعه.

ـ وفعل قرأ وفعل قرن يأتيان في أحيانٍ كثيرة بمعنى واحد. فيفيد كل منهما التبليغ والتلاوة، فالصلاة قراءة، وفي الحديث الصحيح «أن جبريل قال للنبي (ص) إن الرب عزّ وجل يقرئك السلام» أي يبلغك. ويقال: اقرىء فلاناً السلام. واقرأ عليه السلام. وإذا قرأ فلان القرآن عند الشيخ يقول: أقرأني فلان أي حملني على القراءة.

ـ وفي القرآن آيات واضحة الدلالة على أن هذه الكلمة لم تعن «التلاوة المكتوبة»: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. ٦ ـ ٧/ الأنعام. ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾. الأعلى ٨٧/٦.

ففي الآية الأولى: نفي صريح لنزول القرآن مكتوباً على قرطاس.

وفي الآية الثانية: دليل صريح على أن القراءة هي تلاوة صوتية سمعية يعتمد

في تركيزها وتثبيتها على الذاكرة. وهنا: يحفظ الله ذاكرة النبي فلا تنسى غير ما شاء الله أن تنسى.

ـ بعد هذا نقف عند الأخذ والرد لدى المؤلف في التعرف على الحالات التي وردت فيها كلمة «قرآن» في كتاب الله.

قال المؤلف:

ـ كلمة قرآن وردت اثنتي عشرة مرة موصوفة بكلمة عربي.

ـ ووردت ثمانياً وخمسين مرة معرَّفة بأل التعريف.

ويتابع فيقول:

ـ إن مجيئها موصوفة بالعربية ينطوي على غاية معينة خاصة بالعرب وهي أن يعقل العرب القرآن ويتبينوا تفصيله ويتعرفوا على قصصه وأخباره. ويهتدوا به من كل عوج أو ضلال.

ـ وأما مجيئها معرفة «بأل» فهو دلالة على الأصل الأعجمي الذي جاء منه القرآن فقد تعرب عن الأعجمية ليستطيع محمد أن يفهمه ويقرأه دون الاستعانة بأحد فينذر به ويبشر بآياته.

وأنهى المؤلف أقواله، بخلاصة معبرة هي:

«نستنتج أن القرآن العربي هو قراءة عربية للكتاب الأعجمي وقد فصّلت آياته بلسانٍ عربيٍّ مبين ليدركها العرب ويؤمنوا بها» ص ٥٧ ـ من قس ونبي.

ونحن:

قبل تقديم قراءة تفسيرية للآيات التي اعتمدها المؤلف، نبادر إلى التعليق على ما تقدم من أقواله.

فالخصُوصية التي رآها في القرآن، لم يقل بها سواه، ذلك لأن القرآن مثل التوراة والإنجيل اللذين نزلا وكتبا باللغة الآرامية ونطقا بها ولكنهما أخذا طريقهما إلى شعوب ولغات شتى.

وكذلك القرآن:

نزل بالعربية.. ولكنه تجاوز العرب ولغتهم، ليكون بين أيدي الأعاجم والرومان والقبط والبربر والترك والزنج وسواهم من الأمم.

وفي آياته شمول إنساني غفل عنه أبو موسى فوضعه في قفص الجزيرة العربية.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ٨٩ ـ الإسراء و ٥٤ ـ الكهف.

﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ٧٦ ـ النمل.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ٥٨ ـ الروم.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ٢٩ ـ الأحقاف.

ففي هذه من الشمول والعالمية ما ينفي عن القرآن صفة التخصص، بلغة أو بلد أو أمة.

وهو حتى بعد هذا الزمن البعيد يَحْتَلُّ مكَانَهُ، لُغةً واعتقاداً في قارّات الدنيا، وبلغات أهلها. فلا تمنع لغة الأعاجم والهندوس والإنكليز والأفرنسيين والألمان أبناءها من قراءة القرآن بلغاتهم واعتناق الدين الذي دعا إليه، وإقامة المساجد التي يُقرأ فيها كل يوم.

. . . .

ولقد تقصيت الآيات التي استدل المؤلف منها على خصوصية القرآن بالعرب فوجدتها:

الآيات: ٤٤/٤١ ـ فصلت و ٢/١٢ ـ يوسف و ٣/٤٣ ـ ٤ ـ الزخرف و ٣/٤١ فصلت و ٣/١٢ ـ يوسف و ٢٩/٣٩ ـ الزمر و ١٤/١٧ ـ الإسراء و ٧/٤٢ ـ الشورى و ١٩٩/٢٦ ـ الشعراء.

فهي جميعها مكية، نزلت في المراحل الأولى للدعوة الإسلامية حيث كان العرب هم الذين يجابهون ويكابرون ويعارضون الإسلام والقرآن، فجاءت أكثر الآيات موجّهة إليهم.

ولكن هذه الخصوصية في التوجه، كانت مرحلية، إذ لم تلبث أن غابت بعد السنوات الأولى من البعثة فنزلت الآيات معرفة، مضافة إلى جميع الناس.

وزيادة على خطأ التفسير الذي لازم المؤلف منذ أول آية ولم يغادره في أية منها، فقد ارتكب خطأ الاستدلال.

ونقول: ارتكب، لأن الأخطاء التي وقع فيها هي من النوع الهادف إلى إضلال الآخرين. وإليك مثلاً:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾. الإسراء ١٧/١٤.

فقد أورد هذه الآية وقال في تحليلها:

«هذا الكلام موجّه إلى محمد، الذي ترجم له الكتاب الأعجمي ليستطيع قراءته بلغته دون الاستعانة بأحد وما كانت لتتيسر له القراءة لولا الترجمة».

فالمؤلف، اقتطع هذه العبارة، من الآية ١٤ـ من سورة الإسراء، التي ترتبط ارتباطاً معنوياً وثيقاً بالآية ١٣ ـ ومن قراءتهما سوية يتبين المعنى الذي هدف إليه القرآن: فلنقرأهما:

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ الإسراء ١٣-١٤.

ففي الأولى:

كل إنسان يتحمل أعمال (ما طار عنه من أعمال) وسوف يلقى هذه الأعمال في كتاب منشور يوم القيامة، وإذ ذاك يقال له: إقرأ كتابك بنفسك، فكفى بنفسك حسيباً، وسوف تجدُ في الكتاب أنك لم تُظلم لأنه احتوى على كل صغيرة وكبيرة صدرت عنك أو بسببك.

فأين هذه الغاية المبثوثة في الآيتين، والشاملة لجميع الناس من المعنى الضيق المضغوط الذي حصرها فيه أبو موسى؟

وكيف فهم من هاتين الآيتين أنهما تعنيان محمداً، وتؤكدان قدرته على الاستغناء عن الاستعانة بسواه في قراءة الكتاب؟

وأين وكيف وجد العلاقة بين آيات القرآن وبين الترجمة المزعومة؟ هذا التجزيء، والافتعال، هما ركنان أساسيان بُنِيَ عليهما كتاب المؤلف. لذلك نعيد قولنا: إن ذلك منه يعد ارتكاباً لا خطأً.

. . . .

وفي زعم الأصل الأعجمي للقرآن:

أورد المؤلف الآية ٤٤ ـ من سورة فصلت: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾.

فاستدل منها على أن القرآن أعجمي الأصل عربي الترجمة.

ولكي نتبين المعاني التي تنطوي عليها كلمات الآية والهدف والغاية لا بد من قراءتها كاملة، ومراجعة مناسبة نزولها، والعودة إلى المراجع، لنرى كيف فهمها الذين عاصروا القرآن والذين تبعوهم جيلاً بعد جيل. الآية: ٤٤ ـ ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

من الواضح:

أن «لو» الشرطية هي حرف امتناع لامتناع، وهنا كان جعل القرآن أعجمياً من الممتنعات، فكان في المقابل ممتنعاً قولهم: ﴿**لولا فصلت آياته**﴾ أي إن القرآن نفى أن يكون أعجمياً نفياً قاطعاً.

ولكن: لماذا وردت الآية بهذه الصيغة؟

ما اتفق عليه المفسرون، انطلاقاً من ظاهر الآية، ومما توارثوه تابعاً عن تابع، أنها نزلت في عناد المشركين ومكابرتهم، فهم لن يتحولوا عن مواقف الشرك والمكابرة، وسيظلون يلقون بين يدي النبي مطاليب التعجيز فهم يطلبون منه حيناً أن تكون له بينات بصائر كتلك التي أُعطيت إلى موسى وعيسى. وحيناً يطلبون منه أن يفجر لهم من الأرض عيوناً أو يرقى إلى السماء أو ينزل الملائكة قبيلاً، فيقول لهم:

﴿**سبحان ربي هل كنت إلاَّ بشراً رسولاً...**﴾ و﴿**هل أنا إلاَّ بشر يوحى إلي؟**﴾. وهنا ـ في هذه الآية ـ يعرض القرآن صورة من صور المكابرة وهي: ﴿**لو**

أنزل القرآن بالأعجمية لقالوا: أأعجمي في اللغة ينزل على عربي؟﴾.

على كل حال: فالآية التي اعتمد عليها المؤلف، ليست فقط لا تثبت الأصل الأعجمي للقرآن بل تنفيه نفياً قاطعاً.

وذلك، كما هو واضح من كلماتها ومناسبتها وتفسيرها.

٢ ـ القرآن هو القراءة المفصلة للكتاب الأعجمي:

طاف أبو موسى على معاني كلمة «التفصيل» وكلمة «التصريف» في التعبير القرآني، حيث كانت، توصف بها الآيات القرآنية حيناً وحيناً تضاف إليهما فرجع من هذه الجولة اللغوية والقرآنية حاملاً معنيين لهما:

الأول: التعريب بطريقة النقل من اللغة الأعجمية إلى اللغة العربية.

الثاني: هو التفريق بين الآيات لتيسير حفظها على محمد وتسهيل تذكره لها.

ولقد قدم المؤلف لتأييد المفهوم الأول الآيات ٤١/٤٤ و ٤١/٣ و ١١/١ وقال:

«كان التعريب أمنية المكيين على محمد لأنهم كانوا يزيدون قراءة الإنجيل فلا يستطيعون لأعجميته. فلبى طلبهم وقدم لهم الترجمة المطلوبة بالقالب القرآني».

كما قدم لتأييد المفهوم الثاني ثماني عشرة آية.

جمع فيها آيات التفصيل بثمانية منها وترك للتصريف عشراً. ثم ختم بحثه قائلا:

«نستنتج أن القرآن هو كما جاء في الآية ٣٧ ـ من سورة يونس **تفصيل الكتاب العبراني لا ريب فيه**).

وفي هذا تصريح خالٍ من الالتباس بأن القرآن هو ترجمة عن العبرانية.

وقبل التوقف عند التفصيل والتصريف، واستعادة الآيات القرآنية استوقفتني الآية ٣٧ ـ من سورة يونس، كما أوردها المؤلف وأدهشني ما غاب عني وعن المسلمين، وجميع من قرأ القرآن أن القرآن نفسه تحدث عن نفسه بأنه تعريب عن العبرانية. فبادرت إلى القرآن فوجدت الآية بكاملها كالآتي:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. يونس ١٠/٣٧.

وهي خالية من «كلمة العبراني». وتفسير الآية:

إن القرآن ليس مُفترى على الله، ولا يكون إلا من عنده فهو لا يشبه كلام البشر. ولكنه مهيمن على الكتب ومصدق لما فيها من الحقائق قبل تحريفها وهو بيان للأحكام الكتابية من رب العالمين.

فكيف أجاز المؤلف لنفسه أن يضيف كلمة «العبراني» إلى الآية؟ ص ٧٦ ـ من كتابه، إن ذلك:

ينفي عنه صفة الأمانة، ويلغي مصداقية التحليل العلمي لديه.

ويفقد الثقة في ما يطرحه من نصوص ويلزم القارىء في أن يعود إليها في مَظانِّها، ليتأكد من سلامة الاقتباس والنقل.

غير أننا لا بد من تذكير المؤلف، بأن أهل مكة لم يتمنوا على محمد أن يترجم لهم الإنجيل، ولو كانت لديهم هذه الرغبة لصارحوا بها من هو على معرفة بالإنجيل وباللغة المكتوب فيها. وهو «ورقة».

ثم، لا يستطيع أحد الادعاء بجهالة التاريخ، فيما يتعلق باستقبال مكة لمحمد وكتابه. فقد آذوه وعارضوه وحاربوه وهجَّروه، فلو كان في عمله منفذاً لرغبتهم وطلبهم لما ناصبوه الحرب والعداء.

. . . .

بعد ذلك نضع كلمتي «التفصيل والتصريف» على طاولة البحث والاستقصاء من نواحيهما اللغوية والتفسيرية، وبالقدر الكافي، خلافاً لما قام به المؤلف.

ففي اللغة:

التفصيل: هو التبيين والتوضيح بالتجزيء والتفريد وفك التشابك بين المعاني، وعلى هذا الأساس اللغوي فسَّروا: ﴿**كتاب فصلناه**﴾ أي بيناه وفصلنا ما بين آياته بالفواصل. وفسروا: ﴿**آيات مفصلات**﴾ بأنها تعني وجود فاصل بين

الآيتين تمضي هذه وتأتي هذه. أي بين كل آيتين مهلة. ومنه قوله «القصّاب فصّل الشاة أي عضاها» وفصلت الوشاح إذا نظمته مفصلاً (مرجانه بين لؤلؤتين).

والتصريف: هو التبيين والتوضيح أيضاً، ومعنى «صرفنا الآيات» بيّناها. والصِّرف هو الخالص من كل شيء ومنه شراب صِرف أي لم يمزج والصريف من اللبن هو الذي ينصرف من الضرع حاراً، إذا حلب فإذا سكنت رغوته أصبح صريحاً، وقيل الصرف هو القيمة وهو الوزن وقيل هو التوبة.

أما في التفسير:

فالكلمتان تعطيان معنىً واحداً وهو التبيين. ففي جميع الآيات التي وردت فيها هاتان الكلمتان انصرف المعنى إلى الصراحة والوضوح والبيان والتبيين... بشكل خال من الشك والريب والخطأ.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ١١٤ - الأنعام.

فالكتاب المفصل هو القرآن بوضوح مقاصده وصدقه وصراحته والذين آتيناهم الكتاب مقصود بهم اليهود والنصارى الذين جاءهم كتاب من قبل. هؤلاء يعلمون أن القرآن منزل من الله بالحق، وليس نقلاً أو ترجمة. ولو كان منقولاً أو مترجماً لما وُصِفَ بأن منزل من (ربك بالحق) فالله ينزل كتبه على أنبيائه بالوحي فلا يترجمها، ولا يقوم بعملية المضاهاة عليها.

والله الذي أنزل التوراة والإنجيل لهداية البشر في مرحلة تاريخية معينة لا يعجزه أن ينزل القرآن متجاوزاً فيه ظروف التوراة والإنجيل ومراعياً نسبية الزمان والمكان التي أقامها على قانون كوني من القوانين التي يقوم عليها الكون.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. ٣ - ٤ - آل عمران.

﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾. ٢٠/١١٣ - طه.

فالقرآن منزل من الله. وإنزاله كان عربياً، وكان تعريف آياته، إيضاحاً

صريحاً، بما وعد الله المؤمنين وبما توعَّد الكافرين. ولو كان غير ذلك لجاء القرآن موصوفاً بأنه مترجم أو منقول.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾. ٢٥/٤٨ - ٥٠ - الفرقان.

ومعنى ذلك:

«أننا أمطرنا هذه الأرض وصرفنا الماء عن سواها فسقاها المطر وتعدَّى الأُخرى وذلك ليذكِّر الناس أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات والعظام والرفات».

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾. ٤١ - ٤٢ - فصلت.

أي: لو نزل أعجمياً، لطلب المشركون توضيحه، وإذ ذاك سيقولون أأعجمي ينزل على عربي: وفي هذا استنكار من القرآن لمكابرة المشركين.

. . . .

تلك هي معاني «التفصيل والتصريف» في آيات القرآن، لغةً وتفسيراً فأين وكيف فهم منها أبو موسى، معاني الترجمة من الأصل الأعجمي؟

وأين وكيف فهم منها قصد التسهيل على محمد لقراءتها بلغته؟

إن على قارىء «قس ونبي» أن يستدعي إلى جانبه بعض المراجع التفسيرية واللغوية، لكي يجنب نفسه خطر السقوط في الأشراك التي نصبها أبو موسى في كل صحيفة من كتابه.

ولا نقول هذا القول إلا من باب الحرص على الحقيقة العلمية التي أفرغها هذا المؤلف في إرث عاطفي لا ينظر إلا بعين واحدة ولا يزن إلا بكفةٍ واحدة.

٣ ـ القرآن هو القراءة الميسرة للكتاب العربي:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ القمر ٥٤/١٧ - ٢٢ - ٣٢ - ٤٠.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الدخان ٤٤/٥٨.

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ المزمل ٧٣/٢٠.

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ المزمل ٧٣/٤٠.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إبراهيم ١٤/٤.

أورد المؤلف هذه الآيات واستوحى منها نتيجة مفادها: «إن القراءة العربية للكتاب العبراني هي القرآن الذي قيضه الله إلى محمد تيسيراً لكي يقوم برسالته على أكمل وجه وبأسلوب يساعد على الحفظ والتذكر فهو كما طلب محمد نزل حجة لله على العرب وقيام التكليف عليهم» ص ٧٧ ـ ٧٨ من قس ونبي. إن استعادة قراءة الآيات، والعودة بها إلى معانيها اللغوية، وإلى ما جاء في تفسيرها عند علماء التفسير توضح بأن استنتاجات المؤلف غير صحيحة وهي بعيدة كل البعد عن المعاني العامة، وعن المعاني اللغوية وعن المناسبات التي نزلت بسببها الآيات.

ـ فليس في هذه الآيات، وليس في غيرها كما سبق البحث، ما يدل على أن القرآن مترجم عن أصل أعجمي.

ـ وكذلك العودة بالقرآن إلى أصل عبراني بعيد عن الموضوعية[1].

ـ وقيام الحجة وزوالها ووجوب التكليف وخلافه، طوي بعد نزول الديانات الموحدة التي وضعت منهاجاً جديداً للتكليف والوجوب وهذا المنهاج هو اتباعها، لأنها وجهت إلى كل الناس من جميع اللغات والأجناس. فالعرب قبل الإسلام، لم يكونوا بعيدين عن معرفة كلمة الله في التوراة والإنجيل، الكتابين، الذين كانا هدى للناس، قبل القرآن، فالتكليف والوجوب قائمان عليهم، ولا يقبل القول، بأنهما ساقطان عنهم في الفترة. ولقد ذكر المؤلف عدداً من القبائل، تهودت أو تنصرت، كلياً أو جزئياً، فلم تحل لغتها العربية دون اعتناق إحدى العقيدتين اللتين نزلتا وانتشرتا بالآرامية واليونانية.

---

(١) ص ١٨١ ـ ١٨٢ من هذا الكتاب.

والكتب: التي نزلت، على موسى وعيسى. والصحف التي نزلت على إبراهيم من قبلهما، تجاوزت اللغة الأصلية إلى لغات وأمم شتى.

لذلك كانت مرفوضة حجة المؤلف في العودة بالقرآن إلى أصل عبراني، بمقولة التكليف والوجوب. لأنها خاطئة من جهة وغير عادلة من جهة أخرى. فالإسلام برسالته وقرآنه، هو نظام، عقائدي واجتماعي، متكامل، متماسك الأسس. فلا يمكن أن يكون هذا الصرح الكبير الذي أحاط بجميع جوانب الكون والكائنات وتحدث فيها، فلسفة وقوانين وتحليلاً وتعليلاً، نسخة محكومة بأصل سبقها منذ عشرين قرناً.

. . . .

إن عملية الخلق مستمرة، وبها ومعها يتطور الإنسان، وعناية الله ترافق مسيرة التطور فتفرج من وقت لآخر عن القيم والمفاهيم العقائدية والتربوية بمقدار ما تحتاجه الأجيال الصاعدة... هكذا وعلى هذا المبدأ الإلهي، نزلت النبوات وانطلقت الرسالات متجاوبة ومترافقة مع المرحلة التاريخية والتطور الإنساني. وهكذا، وعلى هذا المبدأ يجب أن يدرس الإسلام وأن يُقْرَأَ القرآن.

فقد استوجبت الفترة التي أعقبت وفاة موسى، أن تقوم رسالة عيسى، كما استوجبت بعد وفاته أن تقوم رسالة محمد.

وهذه الرسالات لا تختلف إلا في نواحي التشريع والمناهج الحياتية للإنسان، أما المبدأ الأساسي الذي تلتقي فيه جميعاً، فهو توحيد الله وعدم الإشراك به. هنا نرى من المفيد للبحث أن نقول كلمة عامة:

- إن الظروف الاجتماعية وأساليب الحياة السائدة، كانت مُتشابهة بين بيئتي موسى ومحمد. فالمجتمع الذي نزلت فيه الرسالتان، هو مجتمع بداوة قبلي، لا يحكمه نظام ولا يسيطر عليه قانون عام. وكانت العواطف القبلية، من ثأر وغزو وضغائن وأحقاد تسود العلاقات الاجتماعية وتتحكم بها، لذلك اهتمت الرسالتان في بادىء الأمر بتوحيد المجتمع وتنظيمه وفرضت القوانين الدقيقة الصارمة. وبعد أن استقرت الأمور وجهت اهتمامها الكبير إلى تربية المناقبية السامية في الإنسان، أما رسالة عيسى، فقد نزلت في زمن كانت قوانين الإمبراطورية الرومانية وسيادتها

تضبط المجتمع، مما مكنها من ذلك الانتشار العالمي، فلم يكن من الهموم العاجلة أمامها، وضع تنظيم وقانون لضبط المجتمع وتوحيد كلمته السياسية. لذلك وجهت عنايتها إلى تربية المناقبية في الإنسان..

ـ ولو أجرينا مقابلة مبدأية بين ما جاء في الإنجيل من حض على السلوك الإنساني السامي، لوجدنا لقاءً يفوق التصور مع القرآن:

ففي الإنجيل: «لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ومن سخرك ميلاً فاذهب معه ميلين، أحبوا أعداءكم باركُوا لاَعنيكم أحبوا مبغضيكم». إنجيل متى ٥ ـ.

وفي القرآن: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾. فصلت/٣١.

في الإنجيل: «قال يسوع: إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعْطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء واتبعني».

«الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات وأقول لكم أيضاً إن مرور جمل من ثُقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (متى ـ إصحاح ـ ١٩).

وفي القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا

كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾. التوبة -.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ

وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي

بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١١ - التوبة).

....

- هذا التوافق التام، والالتقاء على صعيد المناقبية، كان لا بدَّ من أن يقوم، بعد أن تحققت وحدة المجتمع وكلمته السياسية التنظيمية في الإسلام لذلك عكف الإسلام مثلما عكفت المسيحية على تنمية مكارم الأخلاق واحتقار الغنى المادي وقيام الروابط المتينة بين الله والإنسان. فالله اشترى من المؤمن نفسه وما له لقاء الجنة التي يلقى فيها الحياة والسعادة الأبديتين.

والشر يقاوم بضده ويدفع بالتي هي أحسن، فذلك يُقيم الصداقة بدلاً من العداوة بين الناس.

هذه المناقبيـة، كانت قـد ضعُفت جاذبيتهـا، خلال الفترة من بعد عيسى ففقدت النصوص الصحيحة من أيدي النـاس وزحفت الغرائـز على ما تبقى من أخلاق وفضائل وعمت الفوضى في العلاقات الاجتماعية، فكـان مجيء الإسلام ونزول القرآن غطاءً كاملاً لحاجات الإنسان الروحية والمادية. . . ذلك كله:

لا يمكن أن يكون قد تم، تلبية لرغبة محمد، أو رغبة مخلوق بل تنفيـذاً لمشيئة الله التي تحكمُ ولا تُحكم وتَتَّجِهُ ولا تُوَجَّه.

٤ ـ القرآن هو التذكرة للكتاب العبراني:

اذكر، ذكِّر، تذكرة، مذكِّر، ذكرى. هي كلمات تعدد ورودها في القرآن، وقف المؤلف عندها مفسراً معانيها، محللاً أبعادها وغاياتها، فأحصى منها بضعاً وعشرين آية، كانت حافزاً لوضع هذا العنوان. فهي أي الآيات، وردت في القرآن بمعنيين على سبيل الحصر هما:

ـ التذكير بقصص الأنبياء وأخبارهم ووصاياهم وأمثالهم.

ـ التذكير بما جاء في التوراة والإنجيل من العبادات والفروض والأحكام وقصة الخلق وأحوال المخلوقين والمعاد الأخير والثواب والعقاب.

والأمران ـ كما يرى المؤلف ـ منفردين أو مجتمعين، يدلان على أن القرآن هو ذكر وتذكير بالكتاب العبراني السابق الذي عكف ورقة بن نوفل على ترجمته ورصد له عمره وجهوده. فلوَلا قيام ورقة باستحضار هذه الذكرى من ذلك الكتاب لما استطاع محمد أن يقوم بمهمته، لأنه كان جاهلاً بالكلمة الأعجمية، وبثقافات الأمم والقرون الخوالي.

وقد صدع محمد بالأمر، وعرف حدوده، وحدود ورقة. فكان يتقبل إعلانه في كل مناسبة سانحة. ويردد شرح طبيعته، وكم ردَّد بصوتٍ عالٍ ما كان يخاطبه به ورقة ﴿**وما أرسلناك إلا شاهداً ومبشِّراً ونذيراً**﴾ وكم ردَّد ذلك بلسانه الشخصي ﴿**إن أنا إلا نذير وبشير**﴾.

فمحمد هو البشير الذي يبشر بالكتاب العبراني وهو النذير بما أنذر لا أكثر من ذلك ولا أقل.

ويقول المؤلف:

«إن ما سوف نعرضه من آيات، يشكل المفحمات في الإفصاح عن حقيقة الأصل الأعجمي للقرآن ويحسم الجدل بشكل نهائي».

«فالمذهولون بشخص محمد يوافقوننا على جهله باللغة الأجنبية، لأنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا حينما تسمَّرُوا على زعم جهله بقراءة العربية وكتابتها».

وهذا القصور الثقافي عند محمد:

ـ ينبغي أن يكون هو الذي نقل القرآن من الأعجمية إلى العربية.

ـ ويثبت في ذات الوقت أن هذه المهمة الجليلة، قام بها ذلك العالم الجليل الذي بلغ من المعارف ما لم يبلغه سواه وانتهى إليه من علوم الأديان وأسرارها ما لم يدركه غيره.

ـ فلكل من ورقة بن نوفل ومحمد بن عبدالله فضل على الإنسانية كبير.

فضل ورقة أنه أحسن اصطفاء التلميذ البارع الذكاء.

وفضل محمد أنه المصطفى الذي قام بالدور العظيم وتحمل المسئولية الكبرى، وواجه المخاطر الجسيمة. فما كان لأي منهما غناء عن الآخر وما كان للإسلام «دعوةً» و«نظاماً» و«قيومية» لولاهما مجتمعين، أي وجود.

. . . .

هذه خلاصة ما جاء به المؤلف في هذا البحث، وضعَها مثلما توضع المسلَّمات العلمية، وقال: إن أساسها وأصلها ومنشأها في القرآن موجود. وهي ـ لو كانت مثلما عرضها ـ كفيلة بنقض الإسلام من جذوره «رسالةً» و«نبوةً» و«قرآناً» و«تراثاً».

فتقزِّمُه، وتجعل منه ظاهرة سطو، تحركت في غفلة من الزمن واختطفت ما في التوراة والإنجيل من العقائد والعلوم والشرائع والفلسفة والتنظيم وادعتها انتحالاً ثم دفنت تحت جلاميد التاريخ أدوات الجريمة وأدلتها وطمست آثاها ومعالمها.

كلام خطير جداً... ليس له أن يمر دون عقاب علمي.

وعقاب العلم، هو دحض المقولات الخاطئة، وبيان زيفها وضلالها والتشهير بمقاصدها وغاياتها، وتمزيق مقولاتها شر ممزق.

وهي عملية لن تكلفنا العسير ولا الكثير، لأن أبا موسى لبس مسوح الرهبان وغسل يديه من دماء القديس[1] ورَفَع القرآن ونادى لا حكم إلاَّ لآياته، عودوا إليه واقرأوه بإمعان فسوف نلتقي عند حجة مقاصده. تعمقوا في الآيات وغوصوا إلى قاع الكلمات وتعرفوا إلى دقائق معانيها ومراميها وتحرروا من الإرث الببغاوي الذي جثم على عقولكم أربعة عشر قرناً.

وإذ ذاك: سوف تجدون الكتاب العبراني منسوخاً في قرآنكم ولكن بلغتكم.
وإذ ذاك: سوف يتضح لكم أن قرآنكم هو الوجه العربي للكتاب الأعجمي، فهو ظله وصورته.

....

فمن القرآن، ومن آيات الذكر والتذكر والذكرى ـ على وجه التحديد ـ اكتشف أبو موسى هذه المقولة الجريئة التي تاهت عنها تلك الخلائق منذ أن قرأت القرآن حتى الآن.

فلنعد إذن:

---

(١) كان الحاكم الروماني بيلاطس البنطي غسل يديه من دماء المسيح.

إلى هذه الآيات، ولنقف عندها وقوف الدارس المدقق، مثلما طلب أبو موسى ولنتحرر من الإرث العقائدي واضعين نصب أعيننا كلمات الآيات لغةً ومدلولاً دينياً لنرى بعد ذلك ما تسفر عنه هذه العملية.

في اللغة:

الذكر هو حفظ الشيء وتذكُّرهُ. قال أبو إسحٰق: قوله تعالى **﴿واذكروا ما فيه﴾** أي ادرسوا ما فيه. وأذكَرَه إياه أي ذكّره به. والإسم هو الذكرى. فالذكرى بمعنى الذكر وبمعنى التذكر في قوله تعالى: **﴿وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾**. والذكر والذكرى نقيض النسيان، والتذكر مثل الاستذكار وهو تذكُّر ما أُنْسِيتَه. قوله تعالى: **﴿وادَّكر بعد أُمَّة﴾** أي ذكر بعد نسيان وأصله واذتكر فأُدغم. المُذِكر هو موضع الذكر. والذكر الصلاة. وقراءة القرآن ذكر. وكذلك الدعاء والتسبيح والتهليل لله والثناء عليه بجميع محامده. وفي الحديث «القرآن ذكر فذكروه» أي جليل خطير فأجِلُّوه، وقوله تعالى. والقرآن ذي الذكر أي ذي الشرف. وفي صفة القرآن، الذكر الحكيم أي الشرف المحكم العاري من الاختلاف.

والتذكرة هي العظة للالتزام بالأوامر والامتناع عن النواهي.

. . . .

هذا هو مجمل المعاني اللغوية لكلمة ذكر وما يتفرع عنها من اشتقاقات وصيغ لغوية مختلفة، فليس فيها ما يفيد بأن القرآن هو ذكر أو تذكير بكتاب آخر، أو أن مضمونه هو مضمون ذلك الكتاب. الذي كان بين يديه وهو الذي استوحى منه آياته وهو الذي ظل محمد يحضر نقله طيلة أربع وأربعين سنة. (ص ٨٠ ـ من قس ونبي).

ـ فكلمات ذكر وذكرى وذكرٌ واستذكار وتذكرة، وردت في أماكنها من القرآن لتدل على حفظ ما يتلى من المواعظ والأحكام والوصايا والقصص والأنباء والحض على عدم نسيانها. فهي كلها تعني نقيض النسيان أو أو الإهمال وتنصرف إلى ما كان الرسول يتلوه على قومه من آيات الكتاب ولزوم حفظها والتقيد بها وعدم نسيانها لأن فيها جزاء الدنيا والآخرة.

ومن الخطأ في المعنيين، اللغوي والقرآني، أن تفسَّر الآيات من خلال تلك الكلمات غير هذا التفسير. فالكتاب السابق الذي أعاد المؤلفُ القرآن إليه، لم يكن بين يدي العرب، ولم يكن بلغتهم، ولم يكلفوا به ـ كما اعترف المؤلف ـ فكيف يطلب منهم استذكاره؟ وحفظه وعدم نسيانه؟ ذلك لأن ذاكرة الإنسان إنما تكلف إلى الاحتفاظ بمخزوناتها وبما تلي عليها سابقاً فإن استجابت إلى التكليف فتلك هي الذكرى والتذكر والاستذكار.

ـ أما آيات الحديث والإخبار عن قصص الأنبياء والأمم الخالية والتي جاءت في القرآن بصيغة الأمر وابتدأت بـ﴿**واذكر في الكتاب...**﴾ فليس فيها ما يحيل إلى كتاب سابق بل هي وحيٌ من الباري إلى نبيه كلفه فيها تلاوة هذه القصص على الناس كي يتعظوا ويزدجروا عن المعاصي ويتجنبوا أن يصيبهم ما أصاب الأمم المكابرة المعاندة للحق لما جاءهم... فجاءت هذه القصص كاملة التفاصيل، ولو كان الأمر مجرد الإحالة إلى كتاب سابق لاكتفت الآيات بالإحالة دون السرد التفصيلي.

ولا ينال من هذا التعليل والتحليل:

أن بعض القصص موجود في التوراة، لأن ذلك لا يمنع من أن يوحى بها مفصلة وكاملة إلى النبي، لأن مصدر الوحي واحد وكلاهما موسى ومحمد، نذير وبشير، وليس لأي منهما يد في صنع هذه الحوادث، ولا في تأليف قصصها.

. . . .

بقي أن نعود إلى الآيات عوداً متمعناً فيها آية آية:

١ ـ ٥٤/٧٤ ـ المدثر: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾.

إن هاء الضمير تعود إلى القرآن في فعل (ذكره). والتذكرة هي خلاصة عن أخبار الأنبياء وقصصهم وأمثالهم وتعاليمهم.

٢ ـ ١١/٨٠ ـ عبس: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾...

هذه الآيات:

نزلت في ابن مكتوم الأعمى الذي جاء يسأل النبي ويقول: أرشدني، فأعرض عنه مشغولاً بأحد الكبار من قريش. والآيات تتضمن المعاني الآتية:

- وصية في تطبيق المساواة في التعامل مع الناس وتعليمهم، لا فرق بين شريفهم ووضيعهم.

- ﴿أو يذكّر فتنفعه الذكرى﴾ أي يتعظ مما يتلى عليه.

- ﴿إنها تذكرة﴾. أي وصية بالمساواة. وقال البعض إن هاء الضمير تعود إلى أحكام القرآن وآياته.

- ﴿في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة﴾. أي إن هذه العظة، هي مرفوعة وموقرة ومعظمة وخالية من الدنس والنقص والزيادة.

٣ - ٤٨/٦٩ - الحاقة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. أي إن القرآن هو عظة وتذكير للمتقين بوعد الله ووعيده.

٤ - ٧/٣ - آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي:

إن من يفهمها ويعقلها على وجهها الصحيح هم أولو العقول السليمة.

٥ - ١٩/٧٣ - المزمل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

أي: يتذكر من شاء أن يتخذ سبيلاً إلى ربه.

٦ - ٢٠/٢ - ٣ - طه: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾

أي: ليتذكر ذاكر وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكرٌ أنزَلَ اللهُ فيه توضيح الحلال والحرام.

٧ ـ ١٧/٨٨ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ الغاشية: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾.

أي:

تذكير بعظمة الله وآياته في الخلق والتكوين وهندسة الكون وقيمومته لكي يؤمنوا ويتعظوا. فالرسول هو مخبر ومذكر وليس مجبراً ومسيطراً.

٨ ـ ٥١/٥٥ ـ الذاريات: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

هذه الآية ترتبط بسابقتها في المعنى.

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾.

أي:

ذكر بما جرى لغيرك مع غيرهم وعِظْهُم وبيِّن لهم أحوال السابقين من الأنبياء الذي اضطهدوا وكذبوا واتهموا بالسحر والجنون فقد تنفع الذكرى قلوب المؤمنين.

٩ ـ ١٠/٣ ـ يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

تخبر هذه الآية أن الله رب الكون خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش يدير الخلائق لا يشفع عنده إلا بإذنه فاعبدوه وتذكروا عظمته، وإنه المتفرِّدُ بالخلق والتكوين.

١٠ ـ ١٩/١٦ ـ ٤١ ـ ٥١ ـ ٥٤ ـ ٥٦ ـ الأنعام.

١١ ـ ٣٨/٤١ ـ ٤٥ ـ ٤٨ ـ ص.

١٢ ـ ٤٦/٢١ ـ الأحقاف.

هي آيات سُردت فيها قصص الأنبياء وما لاقوه من استنكار واضطهاد وقد جاءت جميعها بصيغة الحديث، وبدأت بكلمة ﴿واذكر...﴾ أي هي أوامر أُوحي بها إلى النبي لكي يسردها عَلَى الناس.

....

تلك هي آيات الذكر والذكرى ومشتقاتها. أثبتنا نصها، وأثبتنا شرحها «معنىً ومناسبةً». ومن إلقاء نظرة عابرة يتبين أنها لا تحيل القرآن إلى كتاب آخر، ولا تدعو المؤمنين به إلى تذكر التوراة أو الإنجيل ذلك ـ أننا مع كل التقدير والتقديس للتوراة والإنجيل ـ لا نقصد المساس بهما، بل المساس بالخطأ الجنائي، الذي يحاول المؤلف أن يدفعنا إليه وهو إلغاء أي دور إيجابي للقرآن، والنبي محمد.

. . . .

ولن يفوتني قبل مغادرة البحث، ما كان المؤلف، قد وضعه من المعاني لكلمات «التخفيف» و«الضعف» التي وردت في القرآن فقال في ص ٧٩ ـ:

«أُعطي القرآن إلى العرب بهذا الأسلوب السهل الميسَّر القابل للذكر والترتيل وجاء استخلاصاً واختصاراً لِمَا ورد في التوراة من علوم، وذلك كله تخفيفاً على العرب الذين يعانون من الضعف الجسدي والقصور العقلي، فحمل إليهم القرآن من علوم التوراة بمقدار ما يستطيعون قبوله، لأن العلم الكثير يؤدي إلى القنوط عند من لا يتمكن منه».

وأيد رأيه بآيات الذكرى ومشتقاتها (التي وردت)

وبآيات التخفيف والضعف.

أما آيات الذكرى فقد سبق عرضها وتفسيرها.

وأما آيات التخفيف والضعف فهي الآتية:

١ ـ ٢ /١٧٨ ـ البقرة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

نزلت هذه الآية لتثبيت مبدأ العدل في القصاص، إذ لم يكن مكتوباً عند الأمم السابقة وخاصة عند بني إسرائيل إمكانية الدية بالقتل العمد فأطعم الله العرب الديَّة، تخفيفاً منه عليهم ومراعاة لظروفهم التي كانت في بعض الأحيان تفرض الاقتتال الواسع عندما يقتل أحدُ أبناء القبيلة فتتسع حروب الثأر بالقتل والقتل المضاد ما أمكن من أبناء القبيلتين».

٢ ـ ٤/٢٨ ـ النساء: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾.

اتفقت جميع الروايات على أن الضعف الذي برَّر التخفيف، إنما ورد في مناسبة تحديد عدد الصلوات اليومية والأوامر والنواهي التي طلبها النبي في ليلة الإسراء.

٣ ـ ٨/٦٥ ـ الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

واضح: أن هاتين الآيتين نزلتا لتحريض المؤمنين على القتال عندما كانوا يواجهون العدو وهم أقل منه عدداً وعدة فعوض الله لهُم هذا الضعف وخففه بقوة الإيمان والصبر التي أفرغها في نفوسهم فكان لهم النصر مع فارق العدد والعدة.

٤ ـ ١٧/٨٥ ـ الإسراء: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

نزلت هذه الآية لمناسبة هي غير مناسبة الضعف والتخفيف والقوة. وغير وصف قلة العلم والمعرفة عند العرب.

بل: إنه قدم بعض علماء اليهود إلى النبي فسألوه عن الروح فنزلت ﴿**قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ فقال اليهود لقد أوتينا التوراة ومن أوتيها أوتي العلم الكثير والحكمة البالغة. فنزلت الآية: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾.
أي إن علم التوراة هوُ قليل إلى جانب علم الله.

. . . .

تلك آيات التخفيف والضعف، بكلماتها، ومعانيها ومناسباتها، لا تلتقي في أي منها مع رأي أبي موسى، ولا تفيد أن اليسر والسهولة وقابلية الاستذكار والترتيل في القرآن كانت للتخفيف عن العرب والإيصال إليهم بمستوى عقولهم المحدودة.

كما لا يمكن لمن يقرأ القرآن أن يوازي بينه وبين أي كتاب لأن ما فيه من إعجاز بياني، وعلمي، وشمولية كونية، وإحاطة بالماضي والحاضر والمستقبل يفوق جميع ما في غيره من الكتب، مما يدحض كل زعم، بأنه مختصر عن غيره أو استخلاص منه.

٥ ـ القرآن هو القراءة المصدقة للكتاب العبراني:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ ٦/٩٢ ـ الأنعام.
﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ ٣/٣ ـ آل عمران.
﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ ٤٦/١٢ ـ الأحقاف.
﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ ٣٥/٣١ ـ فاطر.

أورد المؤلف ثلاث عشرة آية من هذه الآيات، مستدلاً منها على أن عبارة ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ التي وردت فيها بصيغ مختلفة تلتقي في معنى واحد وهو أن الأصل الذي نشأ عنه القرآن هو التوراة والإنجيل وأن محمداً أفرغ في القرآن منهما ما شاء، بأسلوب ميسر سهل، قابل للحفظ والتلاوة والاستذكار. مراعاةً لما هو عليه العقل العربي من تخلف وعجز عن قبول وتلقي العلوم الصعبة والأحكام المعقدة.

ولسنا الآن... في جدل مع المؤلف حول طبيعة العقل العربي وإمكانيته في الاكتساب والاستيعاب، ولا حول أسلوب القرآن الميسر السهل الممتنع. بل سوف يقتصر جدلنا حول معاني «التصديق» في اللغة والقرآن، فأبو موسى يرى:

أن تصديق القرآن للتوراة والإنجيل يعني أنه نسخة عنهما. وأنه لا غاية له ولا مهمة عنده غير التبشير بهما والدعوة إليهما، فلا يقبل منه الادعاء بكينونة رسولية أو شرعية مستقلة لأن ذلك يخرجه عن فلك تكوينه.

أما المسلمون، وكثير من المفكرين الحياديين فيرون:

أن تصديق القرآن لما نزل في الكتابين من الحقائق الإلهية، لا يعني أن الله لم يبق عنده سواها، أو أن تلك الحقائق غطت وتغطي حاجة الإنسان في كل عصر وزمان. فالله خلق الإنسان وخلق فيه النزعة إلى التطور لذلك فهو في حاجة على الدوام إلى عناية الله لكي تمده بالتعليم والحقائق على مستوى تطوره المعرفي، فالتوراة والإنجيل ـ كما ورد في القرآن ـ نزلا هدىً للناس من قبل، أما بعد مرور القرون وتغير الظروف وتطور العقول، فإن هداية الناس احتاجت الجديد، فكان القرآن، الذي لبّى جميع تساؤلات الإنسان.

وحادثة اليهود مع النبي معروفة عندما سألوه عن الروح فقرأ عليهم ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾

فقالوا: لقد أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي العلم الغزير والحكمة البالغة. فنزلت آيةٌ قاطعة في الدلالة على رفض هذه المقولة وعلى أن علم الله لا تحده الكتب. وهي أمر إلى الرسول أن يعلن لهم ولغيرهم:

﴿ ﴾ أي: إن علم التوراة هو علم قليل من علم الله.

فالله يفرج عن أسرار الحقائق والعلوم ويوحي بالمفروض والأحكام وينزل الشرائع وقواعد الأخلاق بمقدار ما تتطلبه حاجة الإنسان وما تقتضيه مرحلة تطوره ونموه العقلي.

لذلك: صدَّق القرآن على الثابت من الكتابين ورفض التحريف والتبديل ودعا اليهود والنصارى وجيمع الأمم إلى وحي الله الذي ضَمَّ بين دفتي القرآن جميع الثوابت والأوامر الإلهية فيما سبق من العصور مضافاً إليه متطلبات التطور العقلي.

والتصديق:

هو عكس التكذيب، وهو الموافقة على رأي مطروح أو قول مبثوث فإذا صدقت زيداً في رأي من آرائه أو خبرٍ من أخباره فلا يعني ذلك أنه أحيط بك وأصبحت نسخة لا تتحرك ولا تحيد عنه.

إن تصديق القرآن للكتب السماوية، وإيمانه بالرسل والأنبياء، دون تفريق هو من أوامر الله ووحيه.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾. (آل عمران)..

فالكتاب:

نزله الله على قلب النبي ليكون من المنذرين.

وهو وحي من الله وليس ترجمةً ولا نسخاً عن غيره.

ولو كان مصدره ترجمة ورقة بن نوفل لما وردت نسبته إلى الله بهذا التحدي وبهذا الأسلوب الجبروتي الخارق. لذلك لا يمكن أن يُوصَفَ «الإدِّعاءُ بترجمة القرآن» إلا أنه جرأة على الحقائق وزورٌ وبهتان.

. . . .

لنعد إلى إحدى الآيات التي اتخذها أبو موسى حجة في إثبات عائدية القرآن إلى التوراة والإنجيل. وهي الآية ١٢/١١١ من سورة يوسف فلنقرأها مع ما سبقها من الآيات التي تكاملت معانيها واتحدت غايتها:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

فالقصص، التي قصَّها القرآن، والتي أكد أنها ليست حديثاً يفترى، هي

قصص الأنبياء والرسل وما لاقوه في سبيل رسالاتهم من الأقوام والأمم الجاحدة وهذه القصص مصدقة لما ورد عنها، في الكتب السماوية.

لذلك جاء عليها القرآن مثبتاً ومصدقاً، ما بقي منها ثابتاً وصادقاً، ونافياً منها ما تحرَّف وتبدل. ثم فصل كل شيء فيما يتعلق بالتحريم والتحليل والطاعات والواجبات، وعما هو في باطن الغيوب المقبلة، وتنزيه الله، عن مماثلة المخلوقات وتفرده بالأسماء والصفات.

فهو ـ أي القرآن ـ هدىً ورحمةً لقوم يعقلون.

وهو حتى بمقتضى المفهوم من الآيات التي اعتمدها أبو موسى، كينونة واستقلال، وهيمنةٌ واحتواء، لِثوابت الكون. فلا هو تابع ولا منسوخ، وفهمه على غير هذا الوجه فيه ضغط لحجمه، وفيه ظلم وافتئات.

....

ولقد تعامل الناس عامة، والمسلمون خاصة، مع القرآن بهذا الفهم. ولعل في الحادثة التي رواها الإمام أحمد ما يوضح موقف النبي والمسلمين من الكتب السابقة، ويؤكد استقلالية الإسلام «رسالةً» و«كتاباً» عما سبقه من الكتب والرسالات، لا إنكاراً لها، ولكن تجاوزاً عنها وفيضاً عليها. فقد حدث جابر بن عبدالله أن عمر أتى النبي بكتاب أصَابَهُ من أهل الكتاب فقرأه على النبي، فغضب النبي وقال: أمتهوِّكون[1] يا ابن الخطاب؟

والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيجيبوكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه. والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني.

وقال عندما جاءه بنو قريظة بجوامع من التوراة:

«والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم». (أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وأورده ابن كثير في تفسير الآية ١٢/٣ من سورة يوسف: وهي الآية:

---

(١) من هَوَك: أي تردد واحتار.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾.

ثالثاً ـ استمرارية الوحي والتنزيل

أ ـ وحدة الوحي:

ما دامت عملية الخلق مستمرة. وما دامت الأجيال متتالية فلا يكاد ينقضي جيل حتى يقوم على أعقابه جيل، فإن عناية الله لن تنقطع عن مخلوقاته ما بقي دولاب الحياة يتحرك ويدور.

هذه العناية تصل إلى الناس بالرسالات والنبوات، التي تتلقى كلمة الله لتنشرها إلى الخلق قواعد علم، وأخلاق، وحكمة، ومعرفة.

وهكذا يفتر الوحي، ولا ينقطع. ويحتجب التنزيل ولا ينقضي.

فرحمة الله هي صلة الخالق بخلقه. وبدونها يزول الارتباط، ويسقط التكليف، ويصبح القول بالثواب والعقاب عبثاً ولغواً.

هذه حقائق، نتفق عليها مع أبي موسى عندما قال:

«الله هو هو وكلمته هي نفسها، ووحيه هو ذاته، وخلاصه للعالم كما خلقه إياه. فالوحي اللاحق استمرار للوحي السابق والأنبياء اللاحقون يكملون رسالة الأنبياء السابقين».

ولكن استخلاصَ المبادىء والنتائج، هو موضع الخلاف مع أبي موسى. فأبو موسى رأى من خلال مبدأ الاستمرارية، أن الوحي الذي نزل على محمد يختلف عن سواه، لأنه ليس جديداً، بل هو الوحي السابق يكرر نفسه بالشكل والموضوع، وحتى بالأحكام والآيات.

أو بالأحرى: إن الوحي الذي جاء إلى محمد، كان ادعاءً، واستدعاءً منه لوحي سابق، وليس من الله.

لقد سمى أبو موسى: هذا الوحي «بالوحي المحمدي» وسمى القرآن «بالكتاب المحمدي» واكتشف عملية التقمُّص بين الوحي والكتاب المحمديين وبين غيرهما مما جاء به موسى وعيسى، وذلك بالآيات:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٣٩/٦٥.

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٤٢/٣.

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ... ﴾ ١٧/٣٩.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَدَيْهِ... ﴾ ٣٥/٣١.

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ٢٩/٤٥ و ١١/٤٩.

و «اللوح المحفوظ ٨٥/٢٢» و «الكتاب المكنون ٥٦/٧٧» وغيرها:

من الآيات الكثيرة، تؤكد أن الكتاب المحمدي منسوخ عن كتاب متقدم. وأن الوحي المحمدي ناشيء عن علامات وحي سابق.

وأنباء الغيوب، التي اعترف محمد بأنه لا يعلم عنها شيئاً، ومع ذلك فقد تحدث عنها، مما يؤكد أنه تناولها من الإنجيل ونسبها إلى مُغَيَّبات وَحْيِهِ.

. . . .

هذه النتائج هي إنشاء خيالي، تحكمت فيه نزعة سلفية موروثة، لم تحرص على جلال العلم. بمقدار ما انقادت إلى العاطفة.

ـ فالوحي لا تسمية له، ولا يصح إلحاقه بالبشر، لاختلاف الطبيعة والتكوين فلا هو وحي محمدي ولا موسوي ولا عيسوي، إنه وحي الله فقط، يكلف به من يشاء لتأدية رسالة أو تنفيذ أمر.

والكتب السماوية، منذ الصحف الأولى وزُبُر الأولين، حتى الكتب الأخيرة خاليةٌ من أية عبارة تَنْسِبُ فيها الوحيَ نسبةً بشريةً.

لـذلك: كـان تسميةُ ظـاهرةِ وحي الله على محمـد، بالـوحي المحمدي، مقصوداً بها التحريف والانحراف.

لا سيما، وهو لم يتحدث عن الوحي الذي نزل على موسى بهذا الأسلوب فقد كان يطلق عليه دوماً اسم «الناموس الأكبر الذي نزل على موسى».

ـ ويبدو أن المؤلف نسي ـ وهو في بُحْرَانِ عواطفه ـ ما كـان قد أورده عن المصادر التاريخية من دهشة ورقة بن نوفل عندما أخبرته خديجة بما عرض لمحمد في الغار، فقال: «قدوس قدوس والـذي نفس ورقة بيـده لئن كنت صدقتني يـا خديجة فإنه الناموس الذي نزل على موسى».

لقد تكررت استفسارات خديجة له، وتكرر جوابه لها، فلم يقل في واحدة منها. إن ذلك كان ناموس موسى[1].

ـ ثم:

إذا كان الوحي ظاهرة إلهية (الوحي اللاحق هو استمرار الوحي السابق) كما قال فكيف سماه؟ ونسبه؟ وعدَّده؟ وقسَّمه؟ وقال: محمدي وموسـوي؟ وإذا كان الوحي الذي نزل على محمد هو ذات الوحي الـذي نزل على الأنبيـاء السابقين بـدلالة الآيـات ٤/١٦٣ و٤٢/٣ و ٣٩/٦٥ فكيف يقول بعـد ذلك؟ إن الـوحي المحمدي منسوخ عن الوحي الذي سبقه.

وكيف يكون ذاتاً واحدة ثم يتكاثر وتنشأ عنه نُسَخٌ ومشتقَّاتٌ؟ إنها أضاليل من الأقوال أراد بها دفع الآخرين إلى ضلال الرأي على أننا سوف لن نكتفي بالدحض المنطقي لرأيه، بل سوف نستعرض الآيات التي اعتمد عليها واحدة واحـدة، لغةً وتفسيراً، لنبين بُعدَهُ عن حقائقها ومقاصدها بُعْدَ الخَطَإِ عن الصواب.

. . . .

أ ـ قال:

إن الغيب الذي كانت تُوحى منه الأنباء إلى محمد، هو كتاب التوراة الذي كان بالنسبة إليه غيباً منيعاً، لا يحسن قراءته، ولا فهمه، فاقتطع منه ورقةَ بن نوفل ما شاء أن يقتطع وأفرغه في القرآن.

---

(١) ص ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ من قس ونبي.

وقد استدل بالآيات ٣/٤٤ و١٢/١٠٢ و١١/٤٩.

- فالآية ٣/٤٤ - آل عمران: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

وردت هذه الآية في خاتمة الأنباء التي استمرت من الآية ٣٣ - ٤٤ والتي تحدثت عن النذر الذي نذرته امرأة عمران لربها وعن ولادة مريم وطفولتها وعن دعاء زكريا إلى الله أن يهبه الذرية وعن بشارة الملائكة له بيحيى واستغرابه أن يكون له ولد وقد بلغ الكبر وامرأته عاقر، وعن آيته ألا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، وحديث الملائكة إلى مريم بأن الله اصطفاها وطهرها من الدنس. وعن اختلاف بني إسرائيل فيمن يكفلها والاقتراح على ذلك بالأقلام.

بعد هذه الأنباء... تأتي الآية ٤٤ - لتذكر محمداً بأنها أنباء من الغيب تُوحَى إليه.

- والآية ١٢/١٠٢ من يوسف:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾.

جاءت في خاتمة الأنباء التي ابتدأت ببداية السورة واستمرت طيلة مئة آية وقد تضمنت أحسن القصص كما جاء في الآية (٢) من السورة، حيث ابتدأت برؤيا يوسف، واجتباء الله له وتعليمه فن تأويل الأحاديث وإتمام نعمته عليه وقصته مع إخوته، وكيف تركوه في الجب، فأخذته السابلة، ثم صار في بيت عزيز مصر وما جرى بينه وبين امرأة العزيز وكيف عصمه الله من الزلل فحنقت عليه وألقته في السجن. ثم أوّلَ رؤيا السجينين، وبعد تفسير الرؤيا، استخلصه فرعون لنفسه وأقامه عزيزاً على أرض مصر. ثم مجيء إخوته وتعرفه إليهم وهم له منكرون ثم مجيء أبويه وسجودهما مع إخوته الأحد عشر، فكان في ذلك تأويل رؤياه الأولى.

﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ (الآية ١٠٠).

بعد هذه القصص كلها: جاءت الآية ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك...﴾.

ـ والآية ٤٩/١١ ـ من سورة هود:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وردت في خاتمة الأنباء التي استمرت من الآية ٢٥ ـ حتى الآية ٤٩. فتحدثت عن نوح وجداله مع قومه وإنكارهم لنبوته وغضب الله عليهم بالدمار الشامل والإيحاء إلى نوح بالطوفان وإلهامه بصناعة الفلك الذي يعصمه من الغرق هو ومن معه من المخلوقات وهلاك الكفار الذين كان منهم ابن نوح الذي رفض الله شفاعته به وقال له: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنِ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين.

. . . .

هذه هي الآيات وهي موحاة من غيب الله، كما ورد فيها صراحة.

وليست مثلما قال أبو موسى: إنها مستوحاة من غيب التوراة.

فالتوراة، وما فيها، خرجت عن أن تكون غيباً، بل أصبحت علماً ومعلومات بعد أن نزلت على موسى وأفرغت على القراطيس. فالاطلاع عليها واستعادة ما فيها، لا يعتبر استيحاءً من الغيب.

لذلك: فإن صراحة الآيات كافية للرد الحاسم، على أن مصدر الأنباء هو الوحي من غيب الله لم تكن معلومة من النبي ومن قومه.

ب ـ قال أبو موسى: أينما وردت في القرآن كلمة الكتاب كمصدر للعلم والمعلومات والوصايا والشريعة فإنها تعني التوراة.

واستشهد بالآيات: ٢١/٨٥ ـ ٢٢ و٧٧/٥٦ ـ ٧٨ و٣٩/١٧ و٣١/٣٥ و٤٥/٢٩.

ـ فالآيتان ٢١/٨٥ ـ ٢٢ من سورة البروج: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾.

تتحدثان عن أن القرآن موجود في اللوح المحفوظ عند الله يزوِّد منه الوحي لينقله إلى الناس عن طريق الرسل. وهذا الحفظ دلالة على التقدير والتعظيم. وهما: أي الآيتان خاليتان من لفظة «الكتاب».

- الآيتان ٥٦/٧٧ - ٧٨ - من سورة الواقعة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾. وذلك للتدليل أيضاً على أن القرآن مكنون لديه ومحفوظ.

- الآية ١٧/٣٩ - من سورة الإسراء: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.
فالحكمة من الحكم، وهو العلم والفقه والقضاء بالعدل، والحكيم هو المُتقنُ للأمور. وقد وردت «الحكمة» في خاتمة عدد من الآيات بسورة الإسراء تضمنت الكثير من الإرشادات والنصائح والأخلاق والمعاملات وهي:

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا • وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا • رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا • وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا • إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا • وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا • وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا • إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا • وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا • وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا • وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا • وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا • وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا • وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا • وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا • كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا • ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

تلك هي الآيات، التي وصفتها (الآية ٣٩) بأنها من الحكمة التي أوحاها الله إلى النبي.

فلا علاقة: لها جميعاً بكلمة «كتاب» ولا علاقة لها جميعاً بالتوراة أو الإنجيل.. لأنها وحي الله المباشر.

ـ الآية ٣١/٣٥ ـ من سورة فاطر:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾

فالكتاب هنا، هو الكتاب الأصل الذي وصفته الآيات العديدة بانه «الكتاب المكنون» وأنه «في اللوح المحفوظ» ومنه يوحى إلى الأنبياء، ومنه تتألف الكتب السماوية على الأرض بين البشر حيث يُوحى منه في كل كتاب بمقدار ما يشاء الله أن يوحي، ووفقاً لإمكانية التلقي عند البشر في مراحلهم الحياتية المتطورة.

ـ الآية ٤٥/٢٩ ـ من سورة العنكبوت:

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

لفظ الكتاب، يحمل ذات المعنى الذي ورد في الآية السابقة.

هذه الآيات، سواءٌ أقرئت منفردة أم مجتمعة، يتضح فيها أن الوحي هو من عند الله. فالوحي هو الأسلوب الإلهي في مخاطبة الأنبياء.

وعندما يكون الأساس في الآية، قائماً على: ﴿أوحينا إليك﴾ أو ﴿يوحى إليك﴾ فذلك خطاب إلهي.

لأنه يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الشورى ٥١/٤٨.

لذلك لا يفسر مفهوم الوحي في الآيات القرآنية على:

ـ أنه تلقين من بشر إلى بشر.
ـ أو أنه نسخ من كتاب إلى كتاب.
ـ أو أنه ترجمة من لغة إلى لغة.

وبالتالي: فإن ما جاء في الآيات السابقة من الوحي «بأنباء الغيوب»

و«الكتاب» و«الحكمة» و«اللوح المحفوظ» و«الكتاب المكنون» هي وحي من الله إلى نبيه محمد (ص).

. . . .

ب ـ وحدة التنزيل:

«والتنزيل القرآني هو أيضاً تنزيل لاحق صادر عن تنزيل سابق، أو هو بيان عنه».

وقد كان همُّ محمد أن يظهر للناس ـ كل الناس ـ جميع ما نزل على الأنبياء الأقدمين فهو يأخذ منهم ويعتمد عليهم ويستوحي وينقل عنهم جميع أخبارهم وقصصهم. وينتج من ذلك أن تنزيل القرآن العربي هو من تنزيل سابق له. والذين يقرأون التنزيل السابق يشهدون على صحة التنزيل العربي. **﴿وإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾**. تلك هي أقوال المؤلف في الصحائف ٨٣ و٨٤ وما بعدها من كتابه.

ففي رأي المؤلف:

إن القرآن ليس تنزيلاً من الله ولا مستقلاً عما قبله من الكتب.

والمهمة التي كانت تشكل الهاجس عند محمد هي أن يبيِّن إلى الناس ما نزّل على الأنبياء السابقين. فهو يأخذ منهم وينقل عنهم القصص والأمثال والأحكام والشريعة، فالعلاقة لم تقم بين الله ومحمد والوحي الإلهي. بل قامت بين الكتب السابقة ومحمد، وكان الوسيط الذي هو «الوحي المحمدي» ورقة بن نوفل.

وبذلك يكون إطلاق كلمة «التنزيل» على القرآن مجازاً بيانياً لغوياً فهو لم يُكرَّم بتنزيل من الله، وصاحبه لم يتخصص بتكليف رسولي. بل الموضوع بتشعُّبه وتنوُّع أشخاصه، واتساع نشاطاته، هو مخطط بشري صنع لتحقيق غاية تاريخية وجغرافية، في آن واحد.

هذا الموقف الفكري،

حمله المؤلف على آيات من القرآن ليقينه أن من يقرأون سوف لا يستطيعون الاعتراض ولا التنصل.

وجرياً على أسلوبنا مع المؤلف، وتكراراً لتأكيد فقدان مصداقيته لدينا استعدنا قراءة الآيات، وعكفنا على تحليلها وتفسير واستقصاء مناسباتها واستخراج غاياتها، لأن في ذلك الرد الأمثل.

وقد تبين، أنها لا تتفق مع رأي المؤلف ولا تلتقي معه على صعيد. وهذه هي الآيات:

٢ / ٤ ـ البقرة: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

أي: يصدقون بالقرآن الذي أنزل ويصدقون بما أنزل من قبلك، وهو الصحيح من التوراة والإنجيل والكتب الأخرى.

وبمقتضى «مفهوم الآية» هناك إنزالات متعددة، في ظروف متفاوتة نزلت من الله بطريق الوحي، وكان القرآن آخرها.

ولا يعني أن القرآن، أُنزل من التوراة أو الإنجيل. لأن هذين الكتابين كانا على الأرض وبين أيدي الناس ولم يكونا عند نزول القرآن في السماء لينزل القرآن منهما، ويظلا معلّقين في الجو.

ثم:

إن التصديق كلمة يجب أن لا تفهم إلا بمقدارها، فإذا كان القرآن قد صدق رسالة الأنبياء وكتبهم، فذلك لا يعني أنه لم يعد كتاباً وأنَّ الناس يستغنون عنه بما في تلك الكتب. ذلك أن في القرآن ما لم يرد ذكره ولا الإشارة إليه في الكتابين السابقين لأن كلاً من الكتب أوحي بها لكي تغطي مرحلة اجتماعية وفكرية تختلف عن سواها.

ولو أن مهمة القرآن، اقتصرت في الأصل على إعادة التبشير بما جاء في التوراة والإنجيل ونشر الديانتين أو إحداهما. لورد ذلك بمستوى الصراحة التي خوطب بها المسيح عيسى بن مريم:

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾. (آل عمران - ٥٠).

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾. (المائدة - ٦).

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. (الصف - ٢).

هنا في هذه الآيات تكليف صريح واضح لعيسى بن مريم بأن يقيم التوراة وهذا يتفق مع ما تكرر في الإنجيل:

«فقد خرجت إليه امرأة كنعانية، فيما هو، في نواحي صور وصيداء قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داوود. ابنتي مجنونة جداً. فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥/٢١ - ٢٤).

«حينئذٍ خاطب يسوع الجموع قائلاً: على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه...» (متى - ٢٢/١/٢).

- ٣/١٨٧ - آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾.

ليس لهذه الآية أية علاقة في مسألة إنزالات الكتب.

بل تعني أن الله أخذ ميثاقاً على أهل الكتاب على ألسنة أنبيائهم أن يؤمنوا بالنبي ولا يكتموه، وأن يعلنوه إلى الناس. ولكنهم نكثوا ونبذوه واشتروا به ثمناً قليلاً.

- ٤/٢٦ - النساء: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

لقد اختتمت في هذه الآية مجموعة من الأحكام التشريعية والدينية والأخلاقية عرضها القرآن في ست عشرة آية كانت آخرها الآية ٢٦ - وفي هذه الآيات وضع الإسلام عدداً من القواعد والنظم فيما يتعلق «بأموال اليتامى» و«شروط تعدد

لزوجات» و «قواعد الوصاية على السفهاء» و «تربية اليتامى وحفظ أموالهم حتى بلوغ سن الرشد» و «الإرث وتوزيع الأنصبة الإرثية» واعتبر ذلك كله حدوداً خصص في وصف طبيعتها الآية ١٣ - ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ثم انتقلت الآيات إلى مواضيع أخرى فنصت على وسائل الإثبات وحجمها في «الفاحشة» و«عقابها» عند الثبوت و «التوبة» و «معاملة النساء» و «تعداد المحارم قاطبة» حتى نهاية الآية ٢٥ - ثم جاءت الآية ٢٦ - بعد ذلك كله لتوضح بأن ما ورد في الآيات يعبر عن إرادة الله في الهداية وبيان قواعد الحلال والحرام.

ومن قراءة هذه الأحكام والتعمق في شمولها واتساعها، يتبين أنها نزلت في القرآن على غير مثال سابق، وأنها تتفق مع المستوى الاجتماعي والفكري الذي وصل إليه الإنسان، وأنها أوسع شمولاً مما ورد في التوراة والإنجيل والكتب والتعاليم السابقة مجتمعة.

- ١٦٢/٤ - النساء: ﴿ لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

هذه الآية تتكامل مع الآيتين السابقتين، حيث يستدل منها جميعاً أن الخطاب موجّه إلى اليهود. فالآيتان هما:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

فالراسخون في العلم، بالآية ١٦٢ -:

هم علماء من اليهود باشخاصهم وهم: «عبدالله بن سلام وثعلبة بن شعبة، وأسد بن شعبة» على إجماع المفسرين والرواة، فقد كان هؤلاء يهوداً، ثم آمنوا بالنبي وأسلموا بعد أن تأكد لديهم صدق نبوة محمد (ص) من كتبهم.

- ٥٩/٥ - المائدة: ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

أي هل تجدون فينا ما تنقمون به علينا إلا أننا آمنا بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل من قبل وهي الكتب السماوية؟ وهذا تساؤل استنكاري.

فالإيمان بالقرآن والكتب السماوية، لا يدل على أن القرآن غير منزَّل أو أنه مأخوذ من التنزيل السابق. بل يدل معنى الآية على استقلالية التنزيل في كل الكتب المنزلة وليس ثمة من وحدة جامعة بين التنزيلات العديدة غير وحدة المصدر الذي نزلت منه ومبادىء الأخلاق والمثل التي تتسع وتتطور مع تطور الإنسان، ولكنها لا تلغى، بل تظل معبرة عن العصر الذي نزلت فيه.

ـ ٤/٦٠ ـ النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾.

هذه الآية تستنكر موقف الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبغيره من الكتب ثم يحتكمون في خلافاتهم إلى الطاغوت، وقد أُمروا أن يكفروا به. وقد نزلت في رجلٍ مسلمٍ اختلف مع يهودي فقال له اليهودي: بينك وبيني محمد فأجابه المسلم بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل نزلت في جماعة من المنافقين أرادوا المحاكمة عند الطاغوت (حكام الجاهلية) بالرغم من أن الإسلام أوجب الاحتكام إلى كتاب الله.

ـ ١٦/٤٤ ـ النحل: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. هذه الآية ترتبط مع سابقتها.
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤٢ -)
والكلام في الآيتين موجّه إلى الذين استنكروا أن يكون الرسول رجلاً بشراً فخاطبهم القرآن بقوله: اسألوا أهل الكتب الماضية إن كان الأنبياء رجالاً بشراً أم ملائكة فإن كانوا من الملائكة جَازَ لَكُمْ أن تستنكروا نبوة محمد. والزُّبُر: هو جمع زُبُور أي الكتاب. وَزَبَرْتُ الكِتَابَ أيْ كَتَبْتُهُ.

ـ ١٦/٨٩ ـ النحل: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾
أي إن الشهداء على كل أمة هم الرسل في جميع الأزمنة، لذلك أرسل (محمد) شهيداً على من وصلته دعوته. وزُوِّدَ بالكتاب، محتوياً، كلَّ ما يحتاجه

الإنسان في حياته ومآبه وهو مع هذا هدىً ورحمةً وبشرى.

- ٦/١١٤ - الأنعام: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

هذه الآية تُطلِقُ لفظ «الكتاب» علىٰ القرآن الذي أُنزل على محمد.. وعلى التوراة أيضاً والإنجيل.

فهؤلاء الذين أوتوا الكتاب (التوراة والإنجيل) يعلمون ممّا ورد في أنباء كتبهم أن القرآن منزل من الله بالحق.

- ١٠/٩٤ - يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

تبيِّنُ هذه الآيةُ أن الذين أوتوا الكتاب قبل محمد (اليهود والنصارى) يعرفون أن الكتاب الذي نُزِّل على محمد وهو القرآن، جاء بالحق لذلك تخاطِبُ النبي لكي يَسألَهم، فسوف يجيبون بما عندهم من الدلالة عليه. قال قتادة: بَلَغنا أن النبي (ص) قال عندما نزلت هذه الآية: لا أشك ولا أسأل. وهذا إعلام وإثبات أن صفة النبي موجودة في الكتب المتقدمة التي هي بأيدي أهل الكتاب. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ ٧/١٥٧ - الأعراف.

. . . .

هذه الآيات تؤكد وحدة التنزيل، ولا خلاف على ذلك في المبدأ والمطلق. وهي جزء من الدعوة الإسلامية، التي دعت إلى الإيمان بوحدانية «الله» ووحدانية المصدر في التنزيل ووحدانية الغاية الدِّينيَّة التي كُلِّف إليها جميع الأنبياء.

ولكن المؤلف. وقع في التناقض كالعادة.

- فهو بعد أن قدَّم الآيات القرآنية للاستدلال منها على وحدة التنزيل التي تشمل جميع الكتب بما فيها القرآن.

ـ عاد فأخرج القرآن. ونفى اعتباره كتاباً إلهياً، وزعم أن مهمة القرآن هي التبشير بالكتب السابقة والدعوة إليها.

ـ وذلك، اعتماداً منه عن قناعة لا تحمل دليلاً من القرآن ولا من سواه فالآيات التي قدمها، لا تلتقي مع رأيه، بل تجافيه لغةً وتفسيراً.

. . . .

جـ ـ وحدة الكتاب ـ والشريعة ـ والمؤمنين:

مثلما نفى أبو موسى في الفقرتين (أ ـ ب) كون القرآن «موحىً به» أو «منزلاً» من الله. سار هنا على الأسلوب ذاته.

فهو هنا في بحثه عن وحدة «الكتاب والشريعة والمؤمنين» يؤكد هذه الوحدة ثم لا يلبث مثلما فعل من قبل أن يُخرِجَ الإسلامَ منه «كتاباً وشرعاً ومؤمنين» دون أن يبين لماذا خص الله بعنايته، طوائف اليهود والنصارى وعدَّ أتباعهما من المؤمنين، وحجب هذه العناية عن الآخرين. مع أنه العدل المطلق... ومع أن المخلوقين هم جميعاً خلقه، وأن صراط الجميع واحد، فإما إلى جهنم يلتقي فيها من لم يؤمن وإما إلى الجنة يلتقي فيها كل مؤمن لا فرق في الجنس واللون واللغة.

هذا ما قال به الأنبياء جميعاً، وإلاَّ كنا مع الله في حالة من التفرقة العنصرية وجل سبحانه عن ذلك.

يقول أبو موسى:

ليس للقرآن، وليس للشّريعة الإسلامية، وليس للمؤمنين بهما، مرجعٌ إلهي، بل مرجعيتهما بشرية.

فالكتاب، أينما وجدت هذه الكلمة، تنصرف إلى التوراة.

والشريعة، أينما وجدت في القرآن، تنصرف إلى شريعة موسى.

والإسلام عندما يضع شريعةً أو نظاماً تقووياً أو سلوكياً، يكرر شريعة موسى ويأخذ من كتابه، فيستنسخ ما يشاء من أحكامه وشريعته، ويستمد للمؤمنين به أوصافاً وأخلاقيات هي من أوصاف المؤمنين اليهود والمسيحيين ومن أخلاقياتهم.

وأبو موسى، في أطروحاته، بهذا الكتاب وغيره من سلسلة كتبه، يلتمس المؤيدات من التاريخ، فيجده مقفراً، ويلتمسها من الأحافير فيجدها خاوية فلا يقنع، بالعود إلى الحق.

بل، يلتمس في القرآن ما يسعى إليه.

وإذ يجده حصيناً منيعاً، يسلك معه سلوكاً غير كريم.

فهو يَقْرَأُ، خَطَأً، ويفسر خطأً، ويعرض الآية، منهوبةً، من أحكامها ومناسبتها وغايتها، ويعجِنُ فُتَاتَ المعاني التي استخرجها على غير هدىً ليصْنَعَ منها قالَباً من الأدلة على دعواه.

لذلك:

نحن على اضطرار أن نذكِّر بما على عاتقنا من مهمة في مواجهة هذه الجناية ولو تقاضتنا، جهوداً مكثفة، وصادرت منا وقتاً عزيزاً فإنما نحن من هواة الحقيقة، وتابعيها وخدامها، وكل صعب في سبيلها هيِّن وكل عسير يسير.

فلنعد إلى الآيات. بذات التسلسل الذي اتبعه. وهو: آيات وحدة الكتاب ـ آيات وحدة الشريعة ـ آيات وحدة المؤمنين.

. . . .

آيات وحدة الكتاب:

ـ ٣/ ١١٩ ـ آل عمران: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

تصف هذه الآية حالة المسلمين وغيرهم من أهل الكتب. فتقول للمسلمين أنتم تؤمنون بالكتاب كله (أي بالكتب ـ التوراة والإنجيل والصحف والقرآن) وإيمانكم هو إيمان حقيقي.

أما هم فإنهم يتظاهرون بأنهم مؤمنون مثلكم. وما ذلك منهم إلا تظاهراً فإذا خلوا، وكنتم بعيدين عنهم، عضوا عليكم الأنامل من الغيظ وكراهية وشكا، بإيمانكم وكتابكم. (الأنامل ـ أطراف الأصابع).

ـ ٤/١٣٦ ـ النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

هذه الآية، ليست فقط لا تسعف حجة المؤلف، بل هي نقيضُها تماماً لأنها تذكر الكتاب الذي نُزِّل على محمد والكتاب الذي أُنزل من قبل وكلاهما من عند الله.

فهما متعددان، أي ليسا كتاباً ترجم عنه آخر.

والكتاب السابق أُنزل إنزالاً. أما القرآن فقد نُزِّل تنزيلاً، والفرق في هذه العملية، مشتق من الفرق بين الفعلين.

ففعل أُنزل، يعني أن الإنزال تم دفعة واحدة.

وفعل نُزِّل، يعني أنه نزل على مراحل وبشكل متفرق.

فالآية هذه:

هي دليل من القرآن على استقلاليته. على عكس ما أراد لها المؤلف أن تكون، وذلك خطأً منه في التفسير وسوءٌ في التدبر والتدبير.

ـ ٥/٦٨ ـ المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

هذه الآية: تأمر محمداً بأن يحذر اليهود والنصارى بأن يقيموا حقائق التوراة والإنجيل التي تحدثت عند مجيء النبي محمد. فإن لم يفعلوا فما هم على شيء من الهدى والإيمان.

ـ ٦/٣٨ ـ الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

الكتاب هنا في هذه الآية:

ليس بالمعنى الذي قصده المؤلف. بل هو علم الله، الذي ليست الكتب المنزلة إلى البشر، إلا قليلاً منه.

فعلم الله (كتابه) لا ينسى شيئاً ولا يفرط في شيء. قال قتادة: الطير أمة والإنس أمة والجن أمة. وقال السدي: (إلا أمم أمثالكم) أي خلق أمثالكم فالله لا

ينمى من الأمم أي مخلوق. عليه أرزاق الأمم ومعاشهم ثم إليه يحشرون. . . قال ابن عباس: أي يموتون.

وقال آخرون: حشرُهَا يعني بعثُها يوم القيامة بدليل قوله ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾. أما رزق الدابة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾.

أي: كتاب مفصح عن أسمائها وأعدادها ومكانها وحركاتها.

ـ ٦/١٥٥ ـ الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

وردت هذه الآية بعد آيات التحريم لتخبر أن الله أنزل القرآن وأغدق عليه التبريك والتعظيم وأمر باتباعه التماساً لرحمة الله وعطفه.

وآيات التحريم هي الآيات ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣ ـ ١٥٤:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

(١٥١) ثم تستمر الآيات في تعداد ما حرم الله اقترافه وهي: عدم الاقتراب من مال اليتيم، ولزوم الوفاء بالكيل، والقسط بالميزان، والعدل بالقول، والوفاء بالعهد.

ثم تلخص الآية (١٥٣) ما سبق بقولها: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وتأتي من بعدها الآية ١٥٤ ـ

ذلك أن الآيات السابقة وبخاصة الآية (١٥٣) أخبرت عن القرآن بأنه هو صراط الله المستقيم المطلوب اتباعه وترك كل سبيل أخرى. ثم: عطفت على التوراة بالمديح فقالت:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤).

إذ كثيراً ما يقرن بين القرآن والتوراة مثل:

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾.

- ٦/١٥٦ - الأنعام: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾.

هذه الآية لا تدرك معانيها، ما لم تقرأ معها الآية التي تليها:

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (١٥٧).

قال ابن جرير:

إن ترابط المعاني وتكاملها قائم من الآية ١٥٥ - وتتلخص بأن هذا الكتاب المبارك الذي تحددت فيه بالتفصيل جميع المحرمات والمحللات قد نزل إليكم بينة من الله لئلا تقولوا لم ينزل الكتاب من قبل إلا على طائفتين، ولو أنزل علينا كتاب لكنا أسرع منهما إلى الهداية. فها هو يقطع تعللكم ويزيل عذركم. فمن يصرف عن آياته فسوف يجزيه الله سوء العذاب.

. . . .

هـ -آيات وحدة الشريعة:

- ٢/١٨٥ - البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ . ﴾

هذه الآية تضع تشريع الصيام. وقد كان المؤلف ذكر في الفقرة الثانية من الفصل الثاني من كتابه: أن صيام هذا الشهر هو تشريع نصراني فأوضحنا تاريخية الصيام وخطأ مقولة المؤلف في الصحيفتين ١٢٥ - ١٢٦ من هذا الكتاب نكتفي بلفت النظر، دون التكرار.

- ٤/٢٨ - النساء: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا . . ﴾.

- ٨/٦٦ - الأنفال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

وردت مناقشتنا لهاتين الآيتين، وبيَّنَّا بطلان احتجاج المؤلف بهما في الصحيفة ٢٠٥

وهنا تحت عنوان «وحدة الشريعة» نجد المؤلف، يعتمد عليهما وعلى الآية ٢/١٨٥، مكرراً خطأه السابق.

فصيام رمضان، لا تتفق عليه الشريعة الإسلامية مع اليهودية والمسيحية. والتخفيف التشريعي، نزل بالنسبة إلى المسلمين رأفةً بهم ورحمةً من الله. وهو أي «التخفيف» لم يرد له ذكر في التوراة أو في الإنجيل. كما أن وروده في القرآن ضمن خطاب موجّه إلى المسلمين يفيد بأنه حالة جديدة متغيرة عن الحالة التي كانت عند الشريعتين السابقتين. وهذا بحد ذاته: يفيد الاختلاف في الشريعة، ولا يفيد وحدتها.

كما أن التخفيف جاء في القرآن محصوراً ومحدوداً بالآيات (٢/١٧٨ ـ آية الدين) و(٤/٢٨ آية الصلاة) و(٨/٦٥ ـ ٦٦) آيتي المصابرة.

حيث تحددت من خلال تلك الآيات، المعاني والأهداف والجهات التي قصدها القرآن من مفهوم «الضعف والتخفيف».

وليس فيها ما يتفق مع تحليل المؤلف وتعليله.

ـ ٤/٢٥ ـ النساء: هذه الآية تحدثت عن قواعد وشروط الزواج من الإماء وما ملكت الإيمان، وذلك تيسيراً لمن ليست لديه سعة وقدرة على الزواج من المحصنات المؤمنات فاشتُرِطَ إذن ولي الأمة وإتيان الأجر وأن لا تكون من المسافحات، ولا المتخذات أخداناً إلى آخر الآية.

وهذا التشريع بشروطه الإنسانية العادلة هو تشريع جديد لم يكُن موجوداً قبل الإسلام. وقد رُفعت عن الأسرى من النساء، حالة البؤس التي كانت تعاني منه المرأة الأسير قبل الإسلام.

ـ ٦/٣٤ ـ الأنعام: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾.

هذه الآية: ليس لها علاقة بالتشريع، بل بإخبار النبي عما لاقاه من قبله الأنبياء في سبيل رسالاتهم وما تذرّعوا فيه من الصبر حتى نُصِروا.

ـ ٦/١٢٤ ـ الأنعام: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾.

ليس في هذه الآية أية قاعدة تشريعية.

بل هي تتمة لمعاني الآية السابقة عليها (١٢٣). ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

- ١٠/٤٧ - يونس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لا علاقة لهذه الآية بالتشريع، شأن الآية السابقة، بل تتحدث عن مجيء الرُّسل يوم القيامة فيُقضى بين الناس بالقسط دون ظلم.

- ١٠/٦٤ - يونس: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.هذه الآية تتمة للآيتين السابقتين لها وهما: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

وليس لها، أي هدف تشريعي. بل تنتهي إلى أن لِأَوْلياءِ الله بشرى في الدنيا والآخرة، وأن ذلك من كلمات الله التي لا مبدل لها.

- ١٦/٣٦ - النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ليس لها أي هدف تشريعي.

- ١٧/٧٧ - الإسراء: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

هذه الآية والآيات ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ من السورة نزلت في اليهود الذين أتوا الرسول قائلين: يا أبا القاسم: إن كنت نبيَّ صدقٍ فالحَقْ بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغها نزلت الآية:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣ -).

فأمره الله بالرجوع إلى المدينة فيها محياك ومماتك ومنها تبعث.

وقيل: هذه الآيات نزلت في كفار قريش الذين هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

أي:
هكذا قدَّرنا، إن الذين كفروا بالرسل وأوقعوا عليهم الأذى سوف يأتيهم العذاب. هذه معاني ومناسبة الآيات الأربعة من سُورة الإسراء.

ليس فيها تشريع.

ومعنى «السُّنَّة» فيها، ليس التشريع كما اتفق المفسرون.

ثم:
كان ينبغي أن يقف أبو موسى عند عبارة **﴿سنة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾**.

ليتبين منها دَحْضاً قرآنياً صريحاً لمقولته. إذ هي تبين أن رسالة النبي هي موحاة من الله مثل غيرها من الرسالات.

. . . .

ـ ١٨ / ٢٧ ـ الكهف: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

ـ ٣٥ / ٤٣ ـ فاطر: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

ففي الآية ٢٧ ـ الكهف: أمرٌ إلى النبي بتلاوة ما يوحى إليه من كتاب الله على الناس وليس له من دون الله ملجأ. إذا لم يقم بهذه المهمة.

وفي الآية الثانية تأكيد على سنة الله في الخلق وهي إيقاع العقاب على المستكبرين والمكذِّبين للرسل. (٤٣ ـ فاطر).

ـ ٤٢ / ١٣ ـ الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

هذه الآية مع مثيلاتها من آيات القرآن أوضحت أبعاد الرسالة الإسلامية في العمق وعلاقتها وارتباطها بالرسالات الأُخرى.

فالدين: هو القَدْرُ المشترك بين الأنبياء، وهو واحد، لا يتعدد ولا يتجزأ ولا ينقص ولا يزيد وهو «عبادة الله وتوحيده» هذا هو الدين الذي أُمِرَ، جميعُ الرسل أن يقيموه وأن لا يتفرقوا فيه.

فلا خلاف في هذا المبدأ الإلهي.

ولكن الاختلاف البادي بين الرسالات، هو في الشرائع والمناهج التي وُضِعت في كل عصر مراعيةً درجات التطور والوعي الإنساني. والظروف الاجتماعية والجغرافية التي تنتشر فيها الرسالة. وفي القرآن صراحة ووضوح بالغين: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥/٤٨ ـ المائدة).

هذه الآية:

وردت بعد الآيتين ٤٦ و٤٧ من سورة المائدة، اللتين ذكر فيهما أن الله قفّى بعد موسى ومن قبله من الأنبياء، بعيسى بن مريم حيث أمره «باتباع التوراة» لأنها كانت سائغة الاتباع وذكر الإنجيل وأمر أهله باتباعه واتباع ما فيه ثم ذكر القرآن ووصفه بأنه مهيمن على الكتب السابقة ـ أي أمين ومؤتمن ـ وشاهد.

فما وافقه منها فهو حق وما خالفه فهو باطل.

وقال ابن عباس: خاطب الله نبيه محمداً لكي يحكم بما أنزل الله في القرآن وألا يتبع أهواءهم، لأن ما في القرآن هو الحق وما يخالفه هو الباطل. وعن النبي (ص): «نحن معشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد».

وفي قوله:

﴿**ولكلٍّ جعلنا شرعة ومنهاجاً**﴾ إخبارٌ عن الأمم والأديان المختلفة في الشرائع والمناهج التنظيمية والمتحدة في التوحيد (٥/٤٨).

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء ٢١/٢٥).

وفي هذا إخبار عن الله الذي شرع لكل رسول شريعة ثم نسخها أو بعضها برسالة وشريعة النبي الآخر من بعده حتى نسخ الجميع بالشريعة الإسلامية.

وليس في هذا تناقض. بل هو لطف من الخالق، الذي أوجد الإنسان مزوداً

بإمكانيات التطور وأسبابه وآلياته الفكرية والمادية فاستلزم ذلك ألّا يحتبسه بشريعة مستقرة، كانت تلبي حاجات تطوره فيما مضى، ثم تجاوزتها هذه الحاجات فيما بعد، فكان لا بد من الشرائع التي تراعي ظروف الزمان والمكان وحاجات الإنسان.

ـ ٤٨/٢٣ ـ الفتح: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

هذه الآية، هي تفسير وتتمة للآية التي سبقتها ٢٤ ـ وهي:
﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.
فهما:

ـ تنفيان من جهة أن يكون المقصود هنا بكلمة «سنة الله التي قد خلت» هو الشريعة الموسوية أو غيرها.

ـ وتدلّان من جهة ثانية على أن المقصود هو سنة الله التي لا تتغير أبداً وهي أنه كلما تواجه الإيمان والكفر في معركة البقاء كان النصر للإيمان وكان الكفر إلى الخذلان.

. . . .

آيات وحدة المؤمنين:

ـ ٢/١٣٦ ـ البقرة: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

نزلت: لتحذير المسلمين من بعض أهل الكتاب الذين كانوا يقرأون التوراة والإنجيل بلغتهم (التوراة بالعبرانية والإنجيل بالآرامية) ثم يترجمون إلى المسلمين ما يقرأون فقال الرسول: لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بـالله وما أنـزل: الآية...

ـ ٣/٨٤ ـ آل عمران: «وردت بنفس ألفاظ الآية ١٣٦ ـ مع اختلاف في فعل القول الوارد في كليهما: ففي الآية ١٣٦ (قولوا) وفي الآية ٨٤ (قل) أي إن الخطاب فيها موجّه إلى النبي».

ـ ٤/١٦٢ ـ النساء: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

كنا أوردنا شرحها مع شرح الآية ١٦١، في الصحيفة ٢٢٠ ـ.

على أننا سوف نقدم لمحة لغوية عن السبب الذي وردت بموجبه كلمة «والمقيمين الصلاة» بصيغة النصب مع أنها معطوفة على مرفوع.

فقد ذكر ابن جرير أنها وردت في مصحف ابن مسعود بالرفع «والمقيمون الصلاة...» ولكنها في جميع المصاحف بالنصب.

ولقد قال، البعض وقد كان أبو موسى منهم، إن هذا غلط في القرآن ولكن علماء اللغة، قالوا: إنها منصوبة على المدح. كما في الآية:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

وأوردوا سواغية هذه الصيغة في كلام العرب كقول الشاعر:

لا يبعدَنْ قومي الذين هُمْ	أسْدُ العداةِ وآفةُ الجَزْرِ
النازلين بكل مُعتَرَكٍ	والطيبُون معاقِد الأزْرِ

وقال آخرون:

هو مخفوض عطفاً على ما سبقه فكأنما يقول: «يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبإقامة الصلاة...» أي إنها مكتوبة عليهم.

ـ ٤/١٣٦ ـ النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

ـ ٥/٥٩ ـ المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

ـ ٥/٦٨ ـ المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

هذه الآيات الثلاثة وردت مناقشتها سابقاً:
ـ في الصحيفة ٢١٨ ورد شرح الآية ٥/٩٥.
ـ في الصحيفة ٢٢٣ ورد شرح الآيتين ٤/١٣٦ و ٥/٦٨.

ـ ٥/٧٧ ـ المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

في هذه الآية:

نداء إلى النصارى الذي غالوا في المسيح، متبعين أهواء شيوخهم الذين ضلوا عن الطريق فأضلوهم معهم.

ـ ٤/١٧١ ـ النساء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

نزلت:

في النصارى الذين تجاوزوا الحد في المسيح فغلوا فيه واعتبروه إلهاً وغلوا في أتباعه وأشياعه وجعلوا العصمة من صفاتهم فتبعوهم في كل ما قالوه وما فعلوه. ﴿اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾.

وعن ابن عباس أن النبي (ص) قال: لا تُطْرُوني كما أَطْرَتْ النَّصارى عيسى فأنا عبدالله فقولوا: عبدالله ورسوله. ولا تقولوا على الله إلا الحق. أي لا تقولوا إن له صاحبة أو ولداً أو شريكاً. . . وكلمته ألقاها إلى مريم أي إن عيسى ليس كلمة الله بل صار بكلمة الله. والكلمة هنا تعني الإعلام. أي إن الله أعلَمَ مَرْيَمَ في كلمته «بمجيء عيسى». آل عمران ٣/٤٥

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ.. ﴾ أي يعلمك.

ـ ٦/١١٤ ـ الأنعام: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

وردت مناقشتها في الصحيفة ٢٢٢ ـ.

ـ ٥/٨٣ ـ المائدة: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

لقد وردت هذه الآية بعد الآية ٨٢ ـ:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ

وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

نزلت الآيتان في وقت واحد وبمناسبة واحدة. وذلك في مجال المقارنة بين موقف اليهود الذين مارسوا أشد العداوة والبغضاء على النبي وأصحابه وبين موقف جماعة من النصارىء وهم «النجاشي وصحبه» الذين فاضت عيونهم بالدمع عندما قرأ جعفر بن أبي طالب على مسامعهم سورة مريم وذلك مما يعرفون من حقيقة الأنباء عن رسالة النبي ومن التأثر والخشوع والإيمان.

هؤلاء: قال عنهم القرآن في مناسبة أخرى:

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ..﴾.
٢٧/٥٧ ـ الحديد.

فالرهبانية اشتقت من «الرهبان ـ جمع راهب» التي اشتقت من الرهبة أي الخوف من الله وهذا الجمع (رهبان) مثل (راكب ـ ركبان وفارس ـ فرسان) ففيما جاء بالآية ٨٧/٥:

﴿**تفيض عيونهم من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾ أي مما عرفوا من كتبهم عن صحة الرسالة و﴿**واكتبنا من الشاهدين**﴾ أي الذين يشهدون بصحتها.

وفي الأخبار: أن إيمان النجاشي هو وصحبه بصحة رسالة النبي، هو الذي جعله يرفض تسليم المهاجرين إلى المكيين الذي جاؤوا بقيادة أبي سفيان طالبين منه ذلك لهذا أُثِرَ عن النبي (ص) أنه قال عندما جاءه نبأ موت النجاشي:

«هذا أخ لكم مات في بلاد الحبشة فصلوا عليه، ثم خرج بهم إلى خارج المدينة وصلى عليه صلاة الغائب».. (ابن كثير ـ في تفسير الآية السابقة).

ـ ٩٠/١٠: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

هذا القول ورد ـ كما هو ظاهر ـ على لسان فرعون بعد أن عجز وأدركته ساعة المنية، آملاً بقوله هذا أن ينقذه الله، ولكنَّ جبريل دس في جوفه حمأة البحر قبل أن تناله الرحمة. وقال له: ﴿**آلآن وقد عصيت وكنت من المفسدين**﴾. أي: الآن أسلمت بعد أن عصيت وأفسدت وكفرت.

ـ ٤٦/٢٩ ـ العنكبوت: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

قال قتادة وغير واحد:

هذه الآية منسوخة بآية السيف التي منعت المجادلة معهم وقال آخرون بل هي باقية غير منسوخة وهي محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

والإيمان. الذي تحض الآية على إعلانه واعتناقه هو ما اتفقت عليه كل الكتب المنزَّلة من وحدانية الله والتسليم به.

تقدمنا في هذا الفصل بتحقيق مفصل بعض الشيء عن بضعةٍ ومئة آية قرآنية كان المؤلف قد جعل منها أدلة على مقولاته.

في أن لا شريعة غير شريعة موسى.

ولا كتاب غير التوراة والإنجيل.

ولا وحي من الله غير ما نزل من أجلهما.

ولا صفات، تصح أن يوصف به كل مؤمن إلا مأخوذة عن إيمان اليهود والنصارى ولقد تبين بكل وضوح بعد استعادة تلك الآيات ومعاينة شروحها ومناسباتها أنها ليست كما قال المؤلف.

- فالوحدة قائمة في الدين، والشرائع تختلف.

- والوحدة قائمة في الكتاب المكنون واللوح المحفوظ، ومنه وعنه نزلت الكتب من السماء.

- والوحدة قائمة في الإيمان، بالدين الواحد، القائم على وحدانية الله وليس في المؤمنين الذي يختلفون في الشكل والجنس واللغة واللون والعادات والشرائع.

وإذ يقول المؤلف في الصحيفة ٨٨ - ما يلخص معتقده ورأيه النهائي في الإسلام فإنما هو يقفز من فوق التوراة، ويتجاوز جميع المسلمات الدينية والتاريخية: قال:

«واحد من اثنين: إما أن يكون محمد اكتشف التنزيل السابق بذاته وتعلمه بلغتِهِ الأصلية العبرانية ونقله إلى العربية بما يناسب أحوال مدعويه وإما أن يكون تلقَّن التنزيل السابق على يد خبير حكيم علمه ما لم يكن يعلم ولا يمكننا افتراض شيء آخر، فلا الله يتدخل بأمور الناس متخطياً كل معطيات الإنسان فيعلمه بعد

جهل، ويظهر عليه متجلياً مراراً ومراراً ولا الملاك جبريل تتفتح له أبواب السماء ليزور صديقه على الأرض طيلة ستين سنة ونيف».

إن تفتيت هذه المقولات ليس عسيراً.

ـ فلا التوارة ولا الإنجيل، وبخاصة الإنجيل كان في زمن الدعـوة مكتوبـاً بالعبرانية وقد كنا، أثناء جولتنا التاريخية على تحرك الإنجيل بين اللغات والأمم أتينا من المراجع ما يؤكد بأن الإنجيل، وخاصة إنجيل متى، كتب بالآرامية ثم تُرجِمَ إلى اليونانية ثم إلى اللاتينيةِ وإلى غيرها من اللغات، دون العبرانية.

ـ نعم لقد تلقَّنَ محمد، القرآن، من الخبير الحكيم الذي علمه ما لم يكن يعلم ولكن ذلك الخبير، لم يكن ورقة بن نوفل ـ كما قال المؤلف ـ بل الله رب العالمين الذي صرح في القرآن مئات المرات أنه هو الـذي نزَّلـه بالـوحي على محمد.

ـ وإذ ينفي أن يتجلى الله، مباشرة، أو أن يرسل وحياً، إلى بني الإنسان لكي يعلمهم بعد جهل.

يتخطى عقيدته ورأيه هو بالذات.

ـ هو كمسيحي مرفوضةٌ مسيحيته إن لم يؤمن بأن روح الله، وابنه والأقنوم الثاني الذي هو الله في المطلق، (المسيح) قد نزل مباشرة بناسوت بشري فتربى، وأكل وشرب ولبس وجاع وتألم وصلب بالأسلوب المادي البشري. وكان في ذلك كله معلماً للإنسان ما لم يكن يعلمه.

ـ وفي التوراة، يتجلَّى الله لأول مرة في «العليقة» فيشعلها بـالنار ثم تتـالى مسيرته مع موسى ومع بني إسرائيل من بعد موسى... يشعر بالوحشة والبرد فيطلب إليهم أن يبنوا له هيكلاً يقيه ذلك.

ويرافقهم في حروبهم ويشترك معهم في سفك الدماء وتهجير الناس، نحن هنا:

لا نتعرض ولا نهاجم، بل نذكِّر بما كان يجب أن لا ينساه أبو موسى. وهو الذي تقوم عليه التوراة من أول حرف فيها.

ونقول:

كيف يستطيع الله، أن يقوم بهذا التجلي هنا، ويعجز عن ذلك مع محمد؟ ولماذا لا يرى المؤلف في محمد وكتابه شيئاً من الملامح الإلهية، مع أن المقارنة بين رسالة الإسلام وقرآنه، وبين ما سبقهما من الرسالات والكتب، تعطي التأكيد على المصدر الإلهي، لما في الإسلام من عمق وشمول ولما في القرآن من إعجاز وبينات.

«الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك وأن تتقي الله في حديث غيرك. . .»

علي

الفصل الرابع

النصرانية والإسلام ـ دين على دين

مواضيع الفصل:

أولاً - النصرانية في بيت محمد

قال المؤلف:

لم تبق النصرانية وقفاً على الرهبان والمبشرين بها في مكة والحجاز بل اعتنقها قوم كثير من قريش وسواهم: ويؤكد نقلاً - كما يقول - عن اليعقوبي في تاريخه والأزرقي في أخبار مكة وآثارها، أنه كان لتلك النصرانية الواسعة قس يدير شئونها ويمارس طقوسها ويعلن شعائرها هو ورقة بن نوفل، وأنه كانت لها كنيسة توفر استمرار هيمنتها العقائدية على الناس، وهي الكعبة التي منحتها النصرانية رفعةً وتقديساً عما كانت تتمتع به من قبلها.

فالمناخ النصراني - يقول المؤلف - كان طاغياً على بيت محمد قبل الدعوة الإسلامية، جده ووالداه وأعمامه وأقرباؤه ومعارفه، كانوا كلهم من أتباع هذا الدين يمارسونه، طقوساً، وعبادة، وسلوكاً.

ويفرد المؤلف فقرة خاصة لكل من هؤلاء، يتحدثُ فيها عن مظاهر النصرانية في تركيب سلوكه وتكوينه التربوي.

ونحن:

قبل أن ننفرد مع تلك الفقرات بالتحليل، والتدقيق، نذكِّر القارىء بأن المؤلف كان من قبل وفي أكثر من مكان بهذا الكتاب تحدَّث عن طغيان النصرانية على محمد وبيته وأهله الأقربين والأبعدين. حيث جعلهم، تلامذة لسيد العرب وزعيمهم الروحي، القس ورقة بن نوفل، الذي أخذوا منه وتلقوا عنه نصرانيتهم، ومارسوا تحت قيادته الروحية طقوسها وفروضها اليومية والأسبوعية وكان المؤلف آنذاك:

اعتمد لدعم أطروحته، على ذات المراجع التي يكرر الاعتماد عليها هنا، وهي الأزرقي، واليعقوبي، وأبو الفرج الأصفهاني.

ونذكر القارىء أيضاً، أننا تعقبناه آنذاك، في مصادره، وحاصرناه في مراجعه، ففتحنا أمام عينيه صفحات «الأزرقي في تاريخ مكة وآثارها» و«اليعقوبي في تاريخه» و«أبي الفرج في أغانيه» و«طبقات ابن سعد» و«كتب السيرة المكية والحلبية وابن هشام» و«المسعودي في مروج الذهب» فلم نجد فيها كلمة واحدة تؤيد دعواه.

ولم نجد دليلاً على شيء من مزاعمه. وإذ نقول: لم نجد فذلك يعني نفياً جازماً وقولاً قاطعاً. لأن حرف الجزم «لم» هو للنفي المطلق الخالي من الاستثناء.

فأنت أيها القارىء، لهذا الكتاب. مرجوٌّ منك أن تقرأ نقيضه ومرجوٌّ منك أن تستدعي المراجع التي نُسبت إليها ـ ومنها ـ مزاعم المؤلف، كما اعتَمَدَتْ عليها نفسها تأكيداتُنا في نفي تلك المزاعم، وسوف تتأكد مثلما تأكدنا أن المؤلف اصطنع بنفسه لنفسه الدليل، واعتمد فيه على الإفتئآت والتهويل ولم يقصد منه إلا الإضلال والتضليل.

فلا نصرانية في بيت محمد ولا يهودية.

والكعبة، ظلت منذ أن بناها إبراهيم وابنه إسماعيل، بيتاً ومثابة وأمناً يحج إليها العرب من كل صوب. ولم يعرف التاريخ أنه رصدت فيها كنيسة أو كنيس أو مورس فيها طقس نصراني أو يهودي.

وقد وصفها القرآن، وصفاً دقيقاً حقيقياً واقعياً، بما عرفه الناس فيها فقال في سورة البقرة ٢/ ١٢٥ و ١٢٧.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وفي سورة آل عمران ٩٦ ـ ٩٧.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ... ﴾.

وورد شيء من هذا في لامية أبي طالب الشهيرة:

«وموطىء إبراهيم في الصخر رطبةً ... على قدميه حافياً غير ناعلِ»

فلو كانت الكعبة غير ما وصفها القرآن.

أي لو كانت كنيسة، لما كان في القرآن هذه العلنية والوضوح. وهذه الإشارة البارزة إلى تأسيسها وتخصيصها.

وأيضاً لو كانت كنيسة، لكان وَصْفُها في القرآن بهذه الصفات، مبرٌراً للطعن عليه والتشهير به... ثم وفي التاريخ أن الذين دافعوا ضد وقوع الكعبة في أيدي المسلمين، كان كفار قريش وليس النصارى المزعومين في مكة.

ومع ذلك:

ومع كراهيتنا للتكرار الذي يجذبنا إليه المؤلف سوف نبقى معه على التزامنا الأدبي، نتتبعه فقرة فقرة، وعبارة عبارة، وآيةً آية. بعدما ثبت في كل ما تقدم حتى الآن فقدانُهُ للموضوعية والأمانة الأدبية.

لقد قال في الصحيفتين ٩٥ و ١٠٠:

«لم يكن للشرك ولا للجهل بالله ولا إنكار وجوده ولا الوثنية بمعناها الحقيقي وجود في مكة، فمكة لم تكن مشركة ولا جاهلة بالله وبالتالي لم تكن في عصر الجاهلية بل كانت مؤمنة بالله الواحد الخالق، ولكنها كانت تتقرب إليه بشفاعة الملائكة والقديسين والرموز والصور والتماثيل والأيقونات... والقرآن يذكر في العديد من الآيات إقرار العرب بأن الله هو الخالق وهو المحيي والمميت ومدبٌر الكون وفاعل الخير والشر، ومسخٌر الشمس والقمر والنجوم ورب السماوات السبع ورب العرش العظيم ومخرج الحي من الميت.

فالشرك المكي كان شرك عبارة، والجاهلية المكية لم تكن موجودة إلا في خيال كتاب السيرة ومؤرخي الإسلام الذين كان من همهم دوماً إظهار النور على الظلام واندحار الكفر أمام الإيمان».

أقوال أبي موسى، بالحرف.

هي ـ وإن ظهرت بريئة ـ ذات أسلوب استقصائي إلا أنها تنطوي على غايات غير بريئة.

إنها واحدة من المحاولات المئات، لتحجيم رسالة الإسلام وتقليص مهمتها عن طريق عرض الإسلام كحركة اجتماعية فكرية لم تقع على كفرة جاهلين بالله ولم تكن في حاجة إلى إضافة الجديد على المفاهيم والعقائد اللاهوتية التي كانت عند العرب.

والشرك العربي، ينطوي في عمقه على الإقرار بألوهية الله.

أما مظاهر التوسل إلى الشمس والقمر والنجوم وتماثيل الصخر والشجر وغيرها والاحتماء بالأيقونات والاستشفاع بذوي الشفاعة، فإنها لم تكن غير تأكيد لوحدانية الله والتزلف إليه والتقرب منه لنيل رضاه.

وفي الشرك العربي ـ كما يؤكد المؤلف ـ جذور النصرانية التي تؤمن بفاعلية الاستشفاع عند الله عن طريق القديسين والرموز والتماثيل والأيقونات. غير أن الأمر، بعيد عن ذلك كل البعد.

فالمعاني التي فهمها العرب والمسلمون من «كلمة الشرك» سواءٌ في أصولها اللغوية أم في مدلولها القرآني، تغاير المفاهيم التي وضعها المؤلف مغايرة تامة، وأولئك، بمن فيهم أصحاب المعاجم وعلماء التفسير والترتيل أدرى وأولى بالاتباع لتحديد ما تنطوي عليه الكلمة العربية من المعاني.

ـ ففي لسان العرب:

اشتقت عشرات الألفاظ من اللفظ الثلاثي «شرك» فالشرك والمشاركة هي المخالطة، وأشرك بالله جعل له شريكاً في ملكه، وفي سورة لقمان ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ فسروا الشرك بأن تجعل مع الله شريكاً في ربوبيته. لا تشرك بالله أي لا تعدل به غيره فتجعله شريكاً له: قال ابن عباس: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ١٢/١٠٦ ـ يوسف.

ليس معنى هذا آمَنُوا بالله وأشْرَكُوا بالشيطان ولكن عبَدُوا الشيطان مع الله وقال

محمد بن المكرم: إن المشركين لم تنفعهم معذرتُهم بقولهم: ﴿وما نعبدُهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ لأن التوحيد لا يتم مع هذا الاستثناء.

ـ وفي التفسير:

أ ـ عندما سمع النبي العرب يصرخون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك... صرخ قائلاً: قدِ... قدِ: أي حسب حسب وذلك عندما وصلوا في نداء التلبية إلى لبيك لا شريك لك... ثم نزلت الآية ﴿إن الشرك بالله لظلم عظيم...﴾.

ب ـ وفي اللات، والعزّى، ومناة الثالثة الأخرى (١ ـ ٢ ـ ٣). تفاخر أبو سفيان على المسلمين بقوله: لنا العزّى ولا عزّى لكم فقال النبي لأصحابه قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

واللات: اشتقوا اسمها من اسم الله، وكان يعظمها العرب.

أما مناة: فكانت الأشْهَرَ بين الآلهة عند العرب وقد وردَتْ مفردةً في القرآن لشُهرتها.

جـ ـ وفي الآيتين ١٨ ـ ١٩ من سورة يونس:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

قال ابن عباس في تفسيرها:

ينكر القرآن على المشركين عبادة غير الله ظنّاً بقبول شفاعته لديه. وهو لا

---

(١) اللات هي صخرة بيضاء منقوشة كانت بين مكة والمدينة.

(٢) العُزى: هي شجرة بين مكة والطائف كانت تفخر بها قريش.

(٣) مناة: هي صنم بين مكة والمدينة كانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج إلى مكة.

يضرُّ ولا ينفع ولا يستطيع شفاعة. ولقد كان الناس أمة واحدة في الفترة ما بين آدم ونوح وعلى دين واحد ثم وقع الاختلاف فعبدوا الأصنام، فبعث الله الرسل بالحجج والبينات والبراهين ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من يُحيِي على بينة. ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهذه الكلمة هي أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه.

د ـ وفي الآية ٣/٣٩ ـ من الزمر: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾.

فالدين لا يكون ديناً حقيقياً ما لم يكن خالصاً لله دون شريك.

هـ ـ وفي الآيتين ٣/٧٩ ـ ٨٠ من آل عمران:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

ورَدَ أن سبب نزول هاتين الآيتين هو مجيء نفرٍ من اليهود إلى النبي قائلين له: يا محمد هل تريدنا أن نعبُدَكَ كما تعبد النصارى المسيح قال معاذ الله أن نعبد غير الله أنا عبدُهُ ورسوله ثم نزلت الآيتان المذكورتان.

. . . .

تلك الآيات التي استشهد بها المؤلف على خصوصية الشرك العربي. واعتباره وجهاً ثانياً من وجوه العبادة لله والإقرار بربوبيته ووحدانيته في الألوهية... ولقد تبين منها ومما تقدم قبلها:

أن المفهوم اللغوي والقرآني لكلمة «الشرك» هو «نقيض الإيمان بوحدانية الله». ولا ينفي هذا المفهوم تقديم «الشرك وبعباراتٍ تجميلية» وعرضه بأسلوب إنشائي على أنه من الطقوس النصرانية.

ـ ففي ذلك طعن على النصرانية وجهل بها.

ـ وسوف يبقى الشرك سمة الجاهلية، التي أخذت اسمها من «الجهل بالله» وسواءٌ نظر إليه من خلال شرك المكيين أم من خلال كل شرك في كل زمان ومكان

فسوف يتحصل دوماً «أن الشرك ووحدانية الله لا يجتمعان» فإذا كان الشرك نقيض الإيمان بالوحدانية.

وإذا كان ثابتاً في التاريخ أن الإسلام كافح الشرك ورفض التعايش العقائدي والفكري معه لحظة واحدة. وحارب المشركين حتى الإبادة والإفناء فكيف يصح القول:

«بأن الشرك لم يكن جاهلية أو أن الإسلام بإحلاله عقيدة التوحيد، محل الشرك وعبادة الأوثان لم يأت بالجديد ولا بالمفيد»؟!؟.

....

بعد ذلك:

نعود إلى نصرانية البيت المحمدي، نصرانية عبد المطلب، وابنه عبدالله وآمنة بنت وهب، وأبي طالب، والحمزة، والأقرباء، والأصدقاء، والمعارف كافة ـ كما عددهم المؤلف ـ.

أولئك كيف صحَّ اعتبارهم نصارى؟

هل جاء في التراث الديني أو التاريخي أو الأدبي، وحتى الأسطوري دليل على نصرانيتهم؟ هل تحدث الأوائل أو التابعون أو تابعوا التابعين عن قيام كنيس أو كنيسة أو هيكل أو مذبح في مكة؟ وعلى الأخص في الكعبة التي بناها إبراهيم وجعلها الله مثابة للناس وأمناً وأمر باتخاذ مقام إبراهيم فيها مصلًّى[1]. هل انتهى إلى علم أحد أن الإنجيل كان يتلى في الكعبة أو في أي بيت تلاوة طقوسية تعبدية من كاهن على رعيته؟ هل ارتفع الصليب في أي بيت؟ أو تدلى من حول أي عنق؟

وورقة بن نوفل الذي لبس من ريشة المؤلف وخياله ثوباً كهنوتياً فضفاضاً ونُسب إليه سبق ديني وعلمي وتفوق قيادي وعبقرية خارقة. هل عثر الباحثون أو الدارسون على أثر من آثار هذه العبقرية؟ أم إنه لم يكن أكثر من تمثال من الثلج لم يلبث أن ذاب تحت أشعة الشمس؟

تساؤلات: لم تغب عن المؤلف. ولكنه أغمض عنها ودار من حولها.

---

(١) مقام إبراهيم مصلًّى: اختلفوا في تفسير «المقام» فقيل الحرم كله. وقيل الحج كله وقيل: الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدمي إبراهيم حتى غسلت رأسه.

وهي ـ مع ذلك ـ تلاحقُه على الدوام. تلاحقه من موقع التحدي العلمي لكل فكر مكابر يستهتر بالحقيقة ويستغفل القراء.

فالمؤلف طاف ـ ولا شك ـ على كتب الأخبار والتاريخ والتفسير وعلم الكلام والدراسات الاجتماعية، قديمها وحديثها، عربيها وأجنبيها، وحدَّق طويلاً في رمال مكة وبطاحها واستنطق حجارة الكعبة وأصنامها وصورها، بحثاً عمَّا يعزز شوقه المضطرم إلى تحجيم رسالة الإسلام ووضع محمد في موضع المقلد. الناسخ المترجم.

وحينما أخفق المؤلف،

لجأ إلى الحنيفية فألحقها بالنصرانية، إلحاق مصادرةٍ وادعاءٍ، ونسب طقوسها ومظاهرها السائدة في الجزيرة وفي قريش على الأخص إلى مدرسة ورقة بن نوفل، التي نشرت النصرانية من خلال الحنيفية.

هنا:

صار لا بد من افتتاح صفحة جديدة مع المؤلف تحت عنوان «الحنيفية والنصرانية». هل هما مفهومان مستقلان؟ أم مفهوم واحد؟ وهل كان العرب يرمزون إلى النصراني بالحنيفي ويرمزون إلى الحنيفي بالنصراني؟ وإن كانا نهجين، مستقلين، فمن منهما سبق الآخر وأعطاه وكان مرجعاً له؟

ولكننا...؟

لن نستبق فصول الكتاب، وسوف نرجىء افتتاح هذه الصحيفة إلى حينها في الفقرة «ثالثاً» التي عقدها المؤلف حول العلاقة والارتباط والتماثل بين النصرانية والحنيفية والإسلام.

سنبقى هنا الآن مع المؤلف في تحليل نصرانية البيت المحمدي التي عبَّر عنها ومارسها بالطقوس والممارسات الحنيفية ـ على حد قول المؤلف ـ.

ـ نصرانية عبد المطلب:

من الثابت أنه كان في قريش وغيرها شخصيات امتنعت عن عبادة الأصنام[1]. وكانت على دين إبراهيم الخليل وهو الدين الحنيف القائل بتوحيد الله ورفض الشرك به، وهو الدين الذي وصفه القرآن بأنه الدين القيم[2]. وقد قامت أدلة تاريخية كثيرة على أن عبد المطلب كان من هؤلاء وكان على الحنيفية والتوحيد[3].. فقد كان موحداً رافضاً للأصنام، محرماً على نفسه الخمر، وكان بإجماع المؤرخين أول من تحنث في غار حراء متخلياً عن الناس، متفكراً في عظمة الله وجلاله، وكان إذا دخل شهر رمضان صعد من خلوته فأطعم المساكين ورفع من موائده للوحش والطير إلى رؤوس الجبال حتى غلب عليه لقب «الفياض» و«مطعم الطير والوحش»[4]. وقد منع الزنا ونكاح المحارم ووأد البنات والطواف عرياناً بالبيت وهو أول من أمر بقطع يد السارق والوفاء بالنذور.

هذه المزايا تثبت هداية عبد المطلب، وحنيفيته، واتِّبَاعَهُ مُلَّة إبراهيم ولكنها ليست دليلاً على النصرانية لديه.

ـ فالنصرانية لا تحرم الخمر وعبد المطلب حرمها.
ـ والنصرانية لا تقطع يد السارق وعبد المطلب قطعها.
ـ والنصرانية تقول بالأقانيم الثلاثة وعبد المطلب كان موحداً لا يشرك بالله.

ثم؛ وهذا دليل شديد:

لو كانت النصرانية منتشرة في مكة والحجاز ذلك الانتشار الواسع كما يقول المؤلف ولو كان البيت المحمدي، أباً وجداً وأعماماً، كلهم نصارى. بمن فيهم عبد المطلب وأبو طالب.

فلماذا سميت ممارسات هؤلاء حنيفية، ولم تسمَّ نصرانية؟

---

(١) ابن الجوزي في كتاب الإمتاع ـ السيرة الحلبية ١/٣٦ـ ٤٨ والمكية ١/٣٧.
(٢) ٩/٣٦، ١٢/٤٠، ٣٠/٣ـ ٤٣، ٩٨/٥.
(٣) السيرة المكية ١/٧٢.
(٤) السيرة المكية ١/٢٢ ـ ٢٣ ـ ٧٣، والسيرة الحلبية ١/٤.

وهل كان عبد المطلب وأبو طالب ليقبلا أن يقال عنهما حنيفيان، وهما يعتنقان النصرانية؟

لقد كان ورقة بن نوفل يهودياً، ثم أصبح نصرانياً. فهل يقال عنه ـ بمنطق المؤلف ـ أنَّ عقيدته كانت الحنيفية وليست النصرانية.

إن توظيف الطقوس الدينية من ممارسات تعبدية ورياضة روحية وورع اجتماعي، في شخص عبد المطلب وابنه أبي طالب، لصالح النصرانية، هو توظيف خاطىء. لأن المؤلف نفسه كان قد اعترف في أكثر من مكان أن حنيفية إبراهيم، كانت تعني «ملةً مستقلةً» عن باقي الملل تعود إلى مؤسسها الأول، وأن البيت المحمدي والحمس من قريش كانوا على هذه الملة: (ص ٩٥ ـ ٩٦.. وما بعدهما من قس ونبي).

ب ـ نصرانية والدي محمد:

إن هداية والديه، نسخةٌ عن هداية جده، كلهم أحفاد إبراهيم وإسماعيل، وملة إبراهيم كانت معروفة ومنتشرة بين المستنيرين وبخاصة في قريش، وهم الحمس.

وتلك الهداية كانت تابعة ونابعة من دين الجد الذي هو أبو الموحدين من البشر بعد نوح، ولم تكن من النصرانية ولا من اليهودية.

والمؤلف، يرزح تحت أخطاءِ التعليل والاستنتاج، عندما يبني قناعته بنصرانية والدي محمد على قرينة «تركهما له مربية حبشية اسمها بركة» وكنيتها أم أيمن. فالمؤلف لا يكاد يقع على هذه الحادثة حتى تقوم في رأسه عشرات الأفكار والافتراضات.

ـ لأنها ـ بتقديره ـ ما دامت حبشية فهي نصرانية حتماً، وما دامت مربية فهي على قدر كافٍ من الإلمام بعقائد النصرانية وطقوسها وتاريخها، وما دامت تتعهد محمداً بالعناية بعد فترة الرضاع فمما لا شك فيه، أنها سهرت على تنصيره وتربية العقيدة النصرانية في رأسه. ثم ـ وهذا هو المهم هنا ـ أنها ما دامت قد اختيرت

بهذه المواصفات فإن الوالدين الذين اختاراها كانا على ملتها النصرانية، وأنهما كانا قاصدين هذا القصد.

إنه توغل في غابةٍ من الخطأ وسوء الاستنتاج، لم يعد في مقدور المؤلف أن يعود عنه.

ـ فحتّى هذا اليوم لا تزال توجد أعداد غفيرة من القبائل الحبشية والسودانية لا تدين بالنصرانية أو الإسلام، وهي على وثنيات موروثة منذ آلاف السنين.

ـ ثم هل يمكن اعتبار وجود الخادمة الزنجية في بيت من البيوت، دليلاً على نصرانيتها، ونصرانية البيت، ونصرانية غاية استخدامها؟

ـ وعبدالله بن عبد المطلب، مات قبل أن يولد ابنه محمد أي لم يشارك في اختيار «بركة» فلماذا جعله المؤلف شريكاً في الاختيار؟

إن افتراض نصرانية والدي محمد.

هو افتراض، ليس خطأ تعليلياً فقط، بل ارتكاب مقصود، يراد به تكتيل وتركيم الأدلة، مهما كانت، لكي يدفع الناس إلى الموقع الغلط.

جـ ـ نصرانية أبي طالب:

ما لنا ولحديث أبي موسى ومزاعمه عن ملة أبي طالب، بعد أن اتفقت المراجع التاريخية على أنه حدد بنفسه هذه الملة ووضعها فقال وهو يُحتضر: «أنا على ملة عبد المطلب ثم مات». هذا ما جاء في:

طبقات ابن سعد ١/١٢٢ والسيرة الحلبية ١/١٢٥.

كما ذكرت المراجع الأخرى أنه كان كأبيه من الهداية ورفض الأصنام والتعبد والاهتمام بالفقراء والتحنث وصيام رمضان والالتزام بالتوحيد والحنيفية الإبراهيمية: (السيرة الحلبية ١/١٢٢ ـ ١٢٦ والسيرة المكية ١/٩١ ـ ٩٢ ـ ٣ وطبقات ابن سعد ١/١٢٠ ـ ١٢٢ وفقه السيرة لمحمد الغزالي ٦٧).

والمؤلف يخطىء كثيراً عندما يؤكد على حنيفية أبي طالب ثم يعتبر أنَّ الحنيفية جاهلية وضلال. (ص ٩٩ و ١٠٠ من قس ونبي).

ذلك أن الضلال الجاهلي، هو الشرك وعبادة الأوثان وممارسة العادات الجاهلية. وهي كلها مما تبرّأ منها أبو طالب أسوة بأبيه عبد المطلب، والخلاف الذي أتى عليه المؤلف، كان يجب أن لا يتجاوز حدوده.

فالمؤرخون لم يختلفوا على حنيفية أبي طالب.

وهم لم يختلفوا على أن الحنيفية، هي الهداية والتوحيد.

ولكنهم اختلفوا فيما إذا كان أبو طالب أعلن شهادته الإسلامية أم أنه لم يعلنها. وسواء أعلنها أم لم يعلنها، فإنه لم يكن نصرانياً ولا مشركاً.

ثانياً ـ الإسلام قبل الإسلام

«إلا أن هناك سؤالاً بالغ الأهمية يتحتم طرحه وهو: هل الإسلام دين جديد نشأ مع محمد وكان هو أول من دعا إليه أم إنه كان موجوداً قبل محمد؟

وبتعبير آخر: هل من خلاف بين تعاليم النصرانية التي عاش محمد في ظلها وبرعاية قس مكة وبين تعاليم الإسلام في القرآن العربي؟

هل الإسلام العربي وجد من لا شيء؟ أم إنه صيغة عربية للنصرانية؟

القرآن وحده يملك الجواب وعليه اعتمادنا وغير القرآن مشكوك فيه».

. . . .

بهذه العبارات افتتح أبو موسى الصحيفة الأولى من بحثه هذا (ص ١٠٢ ـ) فهو يتساءل، آخذاً أوضاع المستفهم الذي أدركته الحيرة، ولكنه في القصد غير ذلك. إذ لا يلبث غير قليل حتى يتحول إلى سائل من نوع خاص. يطرح السؤال وعلى مرمى يديه وعينيه يوجد الجواب.

إنه في القرآن. منه فقط نلقى الأجوبة على تلك التساؤلات.

لأن باقي المصادر قاطبة.

ـ إما مقفرة.

ـ وإما أنها غير كافية.

ـ وإما أن ذلك القدر غير الكافي مشكوك فيه.

ثم:

إن القرآن هو المرجع الذي لا يملك المسلمون حياله إلا التسليم.

على أننا قبل أن نلتقي وإياه عند الآيات التي حشدها في هذا البحث.

نرى من المفيد أن نقف على معنى كلمة الإسلام:

كيف فهمها الناس منذ أن أصبحت رمزاً للدلالة على أتباع النبي محمد؟

وكيف كانوا يفهمونها قبل الدعوة؟

وكيف قرأوها في القرآن؟

فالمسلم هو الذي اعتنق الإسلام. فهو المستسلم لأمر الله، المُخلص في عبادته، وإظهار الخضوع لشريعته.

وفي القرآن: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا...﴾ فسره ثعلب بأن كل نبي بعث بالإسلام ولكن الشرائع مختلفة. وفي قوله: ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ أي ادخلوا في الإسلام. فالسِّلم هو الإسلام ومن ذلك قول امرىء القيس:

فلست بعادل بالله ربّاً ولا مستبدلاً بالسِّلمِ ديناً

وكذلك قول الأحوص:

فذادوا عدوَّ السِّلم عن عُقرِ دارهم وأرسوا عمودَ الدِّين بعد التمايُلِ

والسِّلْم بفتح الشد وتسكين اللام هو الانقياد والسَّلَم بفتح الشد واللام هو السلام. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ ٤/٩٠ وبعد دعوة النبي محمد.

صار مفهوم «الإسلام» ينطوي على دلالتين، يقوم بهما:

الدين الإسلامي، والشريعة الإسلامية.

ففي المعنى الأول: تتفق جميع الدعوات التي كلف بها الرسل، وجميع الديانات الذي زرعوها في قلوب البشر على إرساء قواعد دينية واحدة، لا تتغير في

الجوهر، وهي: عبادة الله، وتوحيده، والخضوع لمشيئته: وبهذا المعنى تكررت آيات القرآن:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

٢١/٢٥ ـ الأنبياء.

وفي المعنى الثاني: الشرائع وطرائق الدعوة، التي تختلف في الزمان والمكان واختلاف مدارك الإنسان.

وقد صح عن النبي حديث أوضح فيه هذين المعنيين، وهو قوله: «نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد».

وفي شرحه قال البخاري وغيره من المفسرين: أولاد العلاتِ هم الإخوة لأب ولكن الأمهات شتى... فالدين عند الجميع واحد وهو الإسلام الذي لا تتغير دعوته ولا تتبدل طبيعته مهما تعددت النبوات، أما الشرائع فهي الأمهات المتعددة التي تستقل كل منها بصفاتها وسماتها وطابعها الزماني والمكاني وهي واجبة الاتباع في عصورها لا يُقبَلُ الخروجُ عنها كلياً أو جزئياً إلا إذا نزلت شريعة جديدة ترافقت مع نبوة جديدة تتعدل بموجبها الأحكام لتبدِّل الأزمان.

وفي حديث آخر أورده البخاري في صحيحه: «والذي نفسي بيده لا يسْمَعُ بي أحدٌ يهوديٌّ أو نصرانيٌّ ومات ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أهل النار». وفي هذا:

وجوبٌ على اتباع الشريعة الجديدة، التي احتوت الشرائع القديمة فأبقت منها ما هو واجب ومتوافق مع المرحلة الزمنية وحفظت مع الزمن ما تجاوزه الزمن.

....

والآيات العديدة التي أشار إليها المؤلف. توجهت إلى الناس كافة حاملة إليهم مفهوم «الإسلام» بمعنييه السابقين. لذلك لن نفتش عن غيرها في القرآن وفي غيره.

فهي كافية بذاتها لإبطال أطروحة المؤلف.

ـ ٣/١٩ ـ ٢٠ ـ ٦٧ ـ ٨٥ ـ آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

فالإسلام في الآية ١٩ ـ فسرته الآية ٢٠ ـ وحددته بقولها: ﴿**أسلمت وجهي لله...**﴾ كما تكرر التحديد والتفسير في ما تلا من ذات الآية:

﴿أأسلمتم﴾ فإن أسلموا: أي أسلموا وجوههم إلى الله.

والأصل التاريخي لهذا المفهوم يعود إلى النبي إبراهيم الذي وجهته فطرته السليمة إلى تسليم وجهه لله كما وردت قصته في القرآن:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام ٦/ ٧٦ ـ ٧٩

ولذلك:

رفض القرآن مقولة اليهود والنصارى في انتساب إبراهيم إلى ديانتهما فقال:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦٧ ـ آل عمران).

ولذلك:

حرص القرآن على تحديد معنى الإسلام، ومرجعيته التاريخية، كيلا يقع الناس في الالتباس فيعتبروه نهج محمد وعنوان دينه، الذي خصه الله به لأول مرة. فقال في أكثر من آية:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾. عمران ٨٤ ـ ٨٥.

فالدين الذي جاء به جميع الأنبياء، هو الإسلام، بمعناه الاستسلامي إلى مشيئة الله والإقرار بوحدانيته، وهو دين الله، الذي يسلم إليه من في السماوات والأرض، ومن يبتغ ديناً غيره فهو من الخاسرين.

- ٤/٤٨ - ١٦١ - النساء: هما آيتان بمعنى واحد. وبلفظ واحد لم تختلفا إلا في الخاتمة، وذلك من حيث طبيعة الجزاء.

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾. (٤٨).

- ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾. (النساء ١٦١).

والآيتان لم ترد فيهما كلمة «إسلام» ولم تتحدثا عن مفهومه. فما ندري لماذا أوردهما المؤلف. وما هو مغزى اعتماده عليهما.

- ٥/٣ - المائدة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴾.

هذه الفقرة، تشكّل الجزء ما قبل الأخير من الآية الثالثة... التي عددت بعض أنواع الأطعمة المحرمة، والاستقسام بالأزلام. وذلك كله مع سواه من الوصايا والشريعة والفروض والحدود تشكل الجانب الآخر من الدعوة الإسلامية... وبتمامها، تمت النعمة وكمل الدين وصار إعلان الله عن رضاه بالإسلام ديناً للبشر في عهد محمد، حنيفاً عن الديانات المشركة موحداً لله.

٦/١٤ - ١٢٥ ثم ١٦٢ - ١٦٣ - الأنعام: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ. فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

فمعنى كلمة الإسلام هنا، هو توحيد الله وعبادته.

و«أول المسلمين» و«أول المؤمنين». هاتان الصفتان اللتان وصف بهما النبي

في القرآن، ليستا للأولوية الزمانية، بل للأولوية من حيث القدر والقيمة ـ كما اتفق المفسرون على ذلك ـ.

وفي القرآن تركيز شديد، ومتعدد، على أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً وجوهر دعوتهم.

ـ فموسى خاطب قومه بقوله: ١٠/٨٤

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾.

ـ ويوسف من قبله قال: ١٢/١٠١

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

ـ والحواريون تحدث عنهم القرآن: ٥/١١١

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

ـ والنجاشي نزلت فيه وفي أصحابه هاتان الآيتان: ٢٨/٥٢ ـ ٥٣

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾.

ـ ويعقوب: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا ﴾ ٢/١٣٣

ـ وملكة سبأ أسلمت مع سليمان بالمعنى الحقيقي للإسلام.

﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ٢٧/٤٤ ـ النمل.

ـ ١٠/٩٠ ـ يونس: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

لقد كرر المؤلف اعتماده على هذه الآية، وكنا ناقشناه في ذلك أكثر من مرة، فهي على لسان فرعون عندما أدركه الغرق، ولا يفهم منها تحديد معنى الإسلام بالمفهوم الديني.

ـ ٢٢/٧٨ ـ الحج: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾.

أي :

إن مفهوم الإسلام أطلقه إبراهيم الخليل لأول مرة ومنه جاءت التسمية، فهو الدين الذي لم يجعل الله فيه حرجاً. وهو قائم، في صحف إبراهيم وفي (هذا) أي في القرآن.

ـ ٤١/ ٣٣ ـ فصلت: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

فالدعوة إلى الله والعمل الصالح هما جوهر الإسلام وعماده. فلا يكون مسلماً من لم يتحقق فيه هذان العنصران.

وقد قيل: نزلت هذه الآية في تكريم المؤذنين الذين يدعون إلى الله في كل يوم، ويدعون إلى الصلاح والفلاح. لذلك أُثِرَ عن النبي قوله «لحوم المؤذنين محرمة على النار».

وقيل نزلت في عموم من آمن بالدُعوة ودعا إليها وعمل أعمالاً صالحة وقال إنني ممن أسلموا وجوههم إلى الله.

ـ ٤٦/ ١٥ ـ الأحقاف: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

أي :

من الذين أسلموا أمرهم إلى الله.

بلغ أَشدَّهُ أي قوي وارتجل. بلغ أربعين سنة أي تناهى وكمل عقله فالمرء بعد الأربعين لا يتغير إلى الزيادة.

. . . .

بعد أن انتهى المؤلف من الآيات، قال في خاتمة بحثه بالصحيفتين ١٠٤ و ١٠٥ :

«لهذا ليس للمسلمين حجة في أن يضيعوا على الإسلام الحقيقي زَمَناً سابقاً على الزمن الذي هم عليه مطمئنون وليس لهم أن يدَّعوا الإسلام وكأنما أعطي لهم

دون سواهم. هذا الإسلام السابق على الإسلام العربي. أي دين هو؟ كل ما نحن في البحث عنه يؤلف الجواب: ومختصر الجواب أن الإسلام لا يختلف عن النصرانية بشيء بل هو النصرانية عينها، يعتقد معتقدها ويقيمَ كتبها ويدعو دعوتها ويتّبع أصولها ويؤمن إيمانها ويرفع شعارها ويسير بحسب شريعتها. واختصار ذلك «لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل». والأجدر بالقول: إن النصرانية والإسلام دين واحد باختلاف الاسم فالإسلام العربي هو الإسم العربي للنصرانية».

....

من المستغرب حقاً، أن ينتهي المؤلف إلى هذه النتيجة. بالاستناد إلى مَضَامين الآيات السابقة وغاياتها.

فالآيات التي تقدمَ ذِكرُها وَكانت معتمدَه، أثبتت أن النبي محمد لم يدَّعِ ملكية هذا المفهوم. ولم يضيع عليه لحظة من وجوده التاريخي بل عاد به إلى الأنبياء من إبراهيم الخليل ثم إلى بنيه، وأحفاده ثم إلى موسى وعيسى والحواريين ثم إلى جميع من عَبَدِ الله وأناب إليه مخلصاً وسلم أمره إليه صادقاً.

حتى:

إن القرآن ـ كتاب المسلمين ـ اعتبر الإقرار والإيمان بالإسلام الذي جاء به الأنبياء مطلوباً من كل مسلم محمدي. بمقدار ما هو مطلوب منه الإقرار والإيمان بدعوة النبي محمد. ولا يكمُلُ إسلام المسلم المحمدي ما لم يكن إيمانه بصدق الرسالات والنبوات قائماً دون تفريق.

ولقد كان القرآن، وكانت السُّنَّةُ، على وضوحٍ كبير:

ـ وعندما حددا مواضيع الخلاف بين الأديان وأسبابها، حصرَاها في الشرائع التي أوحى بها الله مراعيةً تطور المجتمع، وذلك رأفة بالإنسان، لكي لا يقرن إلى شريعة أبدية، لا تجاريه في تطوره وحركته.

أما قول المؤلف:

«إن الإسلام هوعين النصرانية يعتقد معتقدها ويقيم كتبها ويدعو دعوتها ويتبع أصولها ويؤمن إيمانها ويرفع شعارها ويسير بحسب شريعتها. فالإسلام والنصرانية دين واحد باختلاف الاسم. فالإسلام العربي هو الاسم العربي للنصرانية».

فإنه قول: مشبوبٌ بالعاطفة والخيال، وبعيدٌ عن علوم الأديان والتاريخ:

ـ فالإسلام لا يعتقد معتقد النصرانية ولا يدعو دعوتها ولا يؤمن إيمانها ما لم تلتق معه على صعيد التوحيد.

فالقرآن حذّر أهل الكتاب (النصارى) من الغلو في دينهم وأن يقولوا على الله غير الحق، أو أن يقولوا إن المسيح هو ثالث ثلاثة، أو أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله.

ـ والإسلام، يؤمن بأن الله رفع المسيح إليه، ونزهه عن الصلب، والصلب وقيامة المسيح قياماً جسدياً بعد الموت، من مرتكزات العقيدة النصرانية.

ـ والقرآن وضع شريعة متكاملة، قامت عليها مجتمعات عديدة، فاستطاعت أن تستوعب مشاكلها من كل نوع أما في النصرانية فلا شريعة بهذا المستوى وهذه المساحة.

ـ ثم؛ ثبت بعشرات الأدلة حتى الآن أن الإنجيل الذي زعم المؤلف بأنه النسخة الأصلية للقرآن، ليس له وجود ولا دليل على مضامينه. ولا إشارة إليه إلا في عبارات مجزوءة مختصرة وردت على لسان بعض آباء الكنيسة في القرنين الثالث والرابع الميلادي.

ـ وبعد: فإنه لا يعقل حتى بأضيق حدود المنطق، القول بأن الشعار والدعوة والشريعة، هي ذاتها، لدى دينين يفصل أحدهما عن الآخر بعدٌ زمني يزيد على ستة قرون. لأن هذه المفاهيم الثلاثة تتأثر بمراحل التطور الفكري لدى الإنسان الذي تتوجه إليه، فلا تتخلف عنه، ولا تتجاوز عليه، وإلا فقدت فاعليتها وتأثيرها، وسقطت غايتها.

ـ ولو كان التماثل قائماً بين الدين الإسلامي وسواه، دون أي فرق بل هو عبارة عن نسخة عنهما، تابع لهما، مكلف بالتبشير بهما لما توعَّد النبي محمد بالنار من ظل على يهوديته أو نصرانيته ولم يتبع دعوته. ولما جزم ذلك الجزم القاطع بقوله:

«والذي نفسي بيده لم يسمع بي أحد يهودي أو نصراني ومات ولم يؤمن

بالذي أُرسلت به إلا كان من أهل النار» ـ البخاري ـ

ـ ولو كان الإسلام هو النصرانية عينها، وكانت النصرانية هي الإسلام العربي فلماذا عارضته النصارى منذ بدء دعوته حتى الآن لم يقف معه ويؤمن به منهم إلا القليل،

إذ لو كان الإسلام دعوة نصرانية، لكانت النصرانية داعيةً له ساعيةً إلى نشره.

(نقصد بالنصرانية أتباع المسيح الذين لا يزالون حتى الآن على عقيدة الأقانيم الثلاثة والصلب والفداء والقيامة والبنوة الطبيعية لله). ولا فرق أن يسميها المؤلف «المسيحية» لأن هذه التسمية حديثة، ولأنها لا تغير شيئاً من الواقع.

ثالثاً ـ النصرانية والحنيفية في الإسلام

١ ـ يتلخص ما أراده المؤلف من هذه الفقرة. «بأن الإسلام لم يأت كدين جديد بل أتى بدعوة إلى ملة إبراهيم» ص ١٠٦ ـ من كتاب المؤلف وهذا القول، مرَّ معنا في متفرقات من فصول الكتاب وناقشناه من منطلق «وحدة الدين» التي جمعت على دعوة واحدة هي عبادة الله وتوحيده والعمل الصالح».

وكان النبي إبراهيم أول من اهتدى إليه ووضع قواعده. عندما أعلن تبرؤه من عقائد المشركين ووجَّهَ وجْهَهُ إلى الذي فطر السماوات والأرض حنيفاً.

لذلك أوحي إلى النبي محمد أن يؤمن بملة إبراهيم وأن يتبعها:
﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ١٦/١٢٣ ـ النحل.

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ١٢/٣٨ ـ يوسف.

ولذلك:
أفهمَ النبيُّ ومن اتبعه، أن دعوته هي امتداد واستمرار للإسلام الإبراهيمي، لا خلاف في المبادىء الدينية بينهما:
﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾ ٢٢/٧٨ ـ الحج

ولذلك امر المسلمون بأن يؤمنوا بالأنبياء دون تفريق:

١٣٦/٢ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾

هذه الوحدة النبوية:

بدؤها ومنشؤها وأساسها هو الدين الواحد الذي لا يتغير.

وقد أورد القرآن آيات عن «الوحدة الدينية» وآيات عن «الاختلاف التشريعي».

ففي وحدة الدين:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ١٣ ـ الشورى.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ ٩٨ ـ البينة.

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ ١٦١ـ الأنعام.

وفي الاختلاف التشريعي:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ...﴾ ٤٨/٥ ـ المائدة.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا...﴾ ١٨/٤٥ ـ الجاثية.

قال ابن الأعرابي:

إن نوحاً هو أول من حرَّم البنات والأمهات والأخوات.

وقال ابن عباس:

إن ما في الآية ٤٨ ـ من سورة المائدة وما في الآية ١٨ ـ من سورة الجاثية إخبار عن الأنبياء الذين اتفقت رسالاتهم كلها على «دين التوحيد» واختلفت في الشرائع والأحكام. ولو شاء الله لجعل الشريعة واحدة ولكنه شرع لكل رسول شريعة على حدة ثم نسخها أو بعضها بشريعة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به محمداً (ص) إلى الناس كافة. فالشريعة هي: ما أمر الله به من الصوم والصلاة والحج والزكاة وأعمال البر والإحسان، فقد يكون الشيء حراماً أو قوياً في شريعة وحلالاً أو ضعيفاً في شريعة تالية.

بهذه المعايير:
يجب أن نتلمس وحدة الدين الإسلامي والدين الإبراهيمي.
والاختلاف التشريعي بين الأديان.
وبهذه المعايير نتبين أوجه الخطأ في الطرح غير المدروس وغير الدقيق الذي طرحه «أبو موسى».

. . . .

٢ ـ قال المؤلف:
«ليست الحنيفية ديناً، بل هي صفة أُطلقت على النصرانية مثلما أُطلقت على الإسلام. وكانت في الجاهلية هي التعبير عن النصرانية، فالحنيف هو النصراني والحنيفية هي النصرانية» (ص ـ ١٠٩) منه.

هذا يخالف معطيات القرآن ومعطيات التاريخ.
ونقول معطيات القرآن لأن المؤلف حصر اعتماده عليه وأعلن أن ما سواه مقفرٌ أو مشكوكٌ فيه.

ـ ففي القرآن: الحنيفية، هي ملةٌ، عقيدةٌ، مستقلةٌ عن اليهودية والنصرانية: إنها «حنيفية وكفى».

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ . . ﴾ ٢ / ١٣٥ ـ البقرة.

أي: رفضٌ لليهود والنصارى واتِّباعٌ لملة إبراهيم. ٣/٦٧ ـ آل عمران.
﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

«لم أُبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة». حديث شريف: مسند ابن حنبل.

ففي هذه الآيات والحديث النبوي من الوضوح ما يكفي لنفي أقوال المؤلف نفياً قاطعاً، ويؤكد على أن القرآن لم ينظر إلى الحنيفية على أنها هي النصرانية.

وإذا كان الحال في القرآن كذلك.
فإنه أيضاً في التاريخ:

ـ فالحنيف هو من اختتن وحج البيت واستقام على ملة إبراهيم واتباعه واعتزل الأصنام واغتسل من الجنابة (الطبري).

ـ وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان وما أُهل لغير الله وحرم الخمر وتأمّل في خلق الكون. (ابن الكلبي).

ـ وكانوا يختنون أبناءهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفّنون الموتى ويغتسلون من الجنابة ويتزوجون بالصداق والشهود ويطلّقون ثلاثاً. (معجم البلدان).

ـ والأحناف لم يكونوا طائفة موحدة متجمعة، إنما كانوا نفراً من قبائل متفرقة اتفقت فكرتهم على رفض عبادة الأصنام والدعوة إلى الإصلاح. (جواد علي).

ـ ويقال: كان من الأحناف.

عبيد بن الأبرص، والأفوه الأودي، وعنترة بن شداد، وحاتم الطائي، ودريد بن الصمة، والمرقش، والنابغة الذبياني، وطرفة بن العبد، وعروة بن الورد، وزهير بن أبي سُلمى، وزيد بن عمرو بن نفيل، وحنظلة بن صفوان، وسويد بن عامر، وعامر بن الظرب العدواني، والمتلمس بن أمية الكناني، وغيرهم. (مروج الذهب للمسعودي).

ولم يذكر أي مرجع تاريخي أن أيّاً ممن ذُكِرتْ أسماؤهم، كان نصرانياً باستثناء زيد بن عمرو بن نفيل.

كما أشار بعضُ المؤرخين إلى أن معظم من قالت عنهم كتُبُ الأخبار أنهم نصارى لم يكونوا كذلك بل كانوا أحنافاً.

والذي هو جدير بالقول هنا هو:

«إن الحنيفية تحرم لحم الخنزير وشُرْبَ الخمر والنصرانيةُ لا تحرِّمهُمَا».

«وإن الحنيفية تمارس الزَّواج بالشهادة والصّداق والنصرانية ليست كذلك».

«والحنيفية تمارس الطلاق والاختتان وتوجب الاغتسال من الجنابة ولم تكن النصرانية، كذلك».

فكيف يقال؟

إن الحنيفية هي النصرانية، وإن النصرانية هي الحنيفية؟ ومظاهر الحياة في الجاهلية التي وصفها وصفاً مفصلاً جميع المؤرخين العرب فكلهم مجمعون على أن تعبير الحنيفية، كان يطلق «حصراً» على من اتبع ملة النبي إبراهيم. فمنذ الزمن البعيد جداً عن زمن وجود اليهودية والنصرانية كانت تقوم هذه الملة من خلال ممارسات عدد من المستنيرين الذين اهتدوا إلى مكارم الأخلاق، بالفطرة، والإرث الإبراهيمي.

فقد استقر في أذهان هؤلاء، أنهم بقية النسل الإبراهيمي، وأن الكعبة هي البيت الذي بناه هذا الجد العظيم، ولذلك فهم أولى من غيرهم باتباع ملَّتِهِ وإرث بيته.

وكانت اليهودية والنصرانية ـ في الجزيرة ـ يضيق صدرها أحياناً بهذه الفئة من الناس، وتضيق عينُها من الكعبة التي يجتمع عندها العرب بسبب نسبها الإبراهيمي فتخلق فيهم عواطف الخشوع والأمن والسلام.

لذلك كانت الديانتان بين الحين والحين، تحاولان القضاء على وجاهة الكعبة، بالغزو حيناً، وبشيادة البيوت حيناً آخر، وهي بيوت منافسة أطلقوا عليها اسم الكعبة، ليصرفوا العرب عن كعبة مكة.

فأبرهة الحبشي، كان نصرانيا، وقد جاء لكي يهدم الكعبة.

وكعبة نجران، كانت كعبة نصرانية منافسة جثمت تحت قبة من الأُدم فرشت بثلاثماية جلد. وكان إذا جاءها الخائف أمن وطالبُ الحاجة أُجيب والمسترفِد أُرفد، وكانت تقع على نهر نجران بناها عبد المسيح بن دارس بن عدي وكان يستغل من النهر عشرة آلاف دينار ينفقها في القبة.

(جواد علي، ٦/٦١٦، وتاج العروس).

ويروى أن قس بن ساعدة، كان أُسقُفاً عليها.

كما يروى قول الأعشى فيها:

وكعبة نجران حَتْمٌ عليكِ ... حتى تُناخي بأبوابها
نزورُ يزيداً وعبد المسيح ... وقيساً هُمُ خيرُ أربابها

وفي السير قامت كعبة صنعاء، وكان اسمها «القليس» وكذلك قامت الكعبة في مأرب، وظُفَار.

وقد ورد في عهد النبي مع نصارى نجران «لا يغير أُسقف عن أُسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن كهانته وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ولا يُخسرون ولا يُعسرون ولا يطأ أرضهم جيش».

ـ والحمس من قريش هم الأحناف، الذي عُرِفوا بهذا الاسم لاتباعهم ملة إبراهيم. ولم يكن يطلق على واحد منهم صفة اليهودي أو النصراني. ولو كانت الحنيفية، هي صفة للنصرانية لما ظلت مستقلة في الاسم والطقوس والممارسات والمظاهر.

رابعاً ـ الدين القيِّم

أ ـ مقدمة عامة:

قال المؤلف: «الدين القيِّم» هو المفهوم الديني المعبر عن حالة الاندماج والتوحد بين النصارى والإسلام العربي. لقد أصبح اسمهم الإسلام، وكتابُهم القرآن ودعوتهم هي دعوة محمد فشهد لهم عيسى بأنهم أصبحوا مسلمين (الآية ٣/٥٢) و«الأمة الوسط» و«الأمة المقتصدة» (الآية ٢٣/٥١).

وتابع أقواله:

«إن من يتمعن في آيات القرآن المسرودة فيما سيأتي يتضح له أن الإسلام ـ في الحقيقة ـ هو الاسم العربي للنصرانية، وأن النصرانية والإسلام هما اسمان لمسمى واحد. (المؤلف في كتابه ص ـ ١١٦ ـ ١١٧).

لم نفاجأ بأقوال المؤلف.

فقد عودنا على أن يعكس القواعد. فبدلاً من أن يقرأ المرجع (قرآناً ـ أم غيره) ليخرج بحكم علمي من النصوص يبدأ فيضع أحكامه وتصوراته، ثم يبحث لها عن أسباب الدعم والتأييد. وعندما، يواجهه الإخفاق، لا يعود إلى الحق ـ والعودُ أحمد ـ بل ينكب على النص، شطباً، وبتراً وتجزئةً ثم ضغطاً على المعاني إلى أن تصبح على مقاس تصوراته وأحكامه.

هنا: يقول:

ـ المسلمون هم النصارى، توحدوا وشهد لهم عيسى بأنهم أصبحوا مسلمين. والدليل موجود في الآيتين: ٥٢/٢٣ و٥٢/٢).

ـ هذا التوحد النصراني، اتخذ اسم «الأمة المقتصدة» و«الأمة الوسط» ودليل ذلك في الآية (١٤/٦١).

ـ ثم صار «دين القيِّمة» و«الدين القيم». كما تحدثت بذلك الآيات ٣٠/٣٠ ـ ٤٣ و٣٦/٩ و٤٠/١٢ و٥/٩٨).

إن ذلك كله يستدعي أن نعود إلى الآيات. ففي ذلك زوال الالتباس.

ـ ٥٢/٢٣ ـ المؤمنون: هذه الآية لا تكتمل أبعادُ معانيها إلا بقراءتها مع الآية التي تسبقها: وهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

في الآيتين، تأكيد على الرسل جميعاً ـ وليس على النصرانية، فقط ـ أن دينهم واحد وأن الله الخالق المعبود هو واحد. هذه الوحدة «الدينية» و«التعبدية» هي التي تجمع الرسل. وهي التي كرر القرآن تأكيدها في العديد من الآيات.

والمعنى اللغوي لعبارة ﴿هذه أمتكم أمة واحدة﴾.

أي مقاصِدُهُم الدينية واحدة. وهي مقاصِدٌ لا نظير لها: مثل قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله﴾ وفي التفسير: أي والدين واحد عند جميع الرسل.

ومنه قول النابغة: ﴿وهل يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وهو طائع﴾ أي ذو دين.

ـ ٥٢/٣ ـ آل عمران: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هذه الآية، لا تتعلق بالمعنى الذي أراده المؤلف، بل هي إخبار عن عيسى وحواره مع الحواريين الذين ناصروه وآمنوا بالله وطلبوا منه أن يشهد على إسلامهم لله.

ـ ١٤/٦١ ـ الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

وهذه أيضاً:

تتعلق بمناسبة أخرى غير مناسبة زعم اتحاد الإسلام والنصارى.

فهي تتوجه إلى المؤمنين لينصروا النبي محمد (ص) مثلما نصر الحواريون عيسى بن مريم ويؤمنوا مثل إيمان تلك الطائفة التي نصرها الله وأظهرها على الطائفة التي كفرت.

فأين هذا المعنى، من مزاعم «التوحد» و«الأمة المقتصدة والأمة الوسط»؟؟

ـ ٣٠/٣٠ ـ الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ـ ٤٣/٣٠ ـ الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

فالدين القيم ودين القيمة: هو الدين الذي فُطِرَ عليه النَّاس جميعاً وهو الشريعة والفطرة السليمة (ابن كثير). وهو الذي دعا إليه الأنبياء.

لذلك: وتأكيداً على الفطرة، كان النبي يقول: «كل نسمة تولد على الفطرة حتى يُعْرِبَ لسانُها فأبواها يهودانها أو ينصرانها» (مسند ابن مالك ـ النسائي). وكان (ص) ينهى عن قتل أبناء المشركين في الحرب، فقد نادى: «لا تقتلوا الذرية، لا تقتلوا الذرية فقد يكون خياركم أبناء المشركين».

ـ ٥/٩٨ ـ البينة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

أي:

إن الأنبياء والرسل، لم يؤمروا إلا بالدين القيم، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

تلك كانت رسالاتهم، التي كانت الوحدة الجامعة بينهم جميعاً.

٣٦/٩ ـ التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي:

إن التوقيت، وعدد الأشهر، واعتبار الحُرُم منها أربعة، حددت في كتاب الله (أي في علمه) يوم خلق السماوات والأرض.

تلك من فطرة الله وشريعته، والدين القيم. لا مبدل لها ولا معدِّل.

ـ ١٢/ ٤٠ ـ يوسف: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

هنا أيضاً: تأكيد على المفهوم القرآني للدين القيم وهو:

«الحكم لله، والعبادة له وحده» أما سواه من صنوف الآلهة، فما هي إلا أسماء البشر، جهلاً، ما أنزل الله بها من سلطان. وعبارة: «من سلطان» هنا، معناها: الحجة والبرهان.

. . . .

بعد تلك الخلاصة:

استعرض المؤلف في عدد من الصفحات (١١٠ ـ ١١٧) الديانات المعينة بالقرآن، وعرض نقاط الاختلاف والالتقاء العقائدي بينها وبين الإسلام، فتحدث عن «اليهود» و«المسيحيين» و«النصارى» و«المسلمين». وأفردَ كل طائفة أو ملة منها ببحث.

ليصل من مقايساته وتحليلاته إلى نتائج، هي غريبة على تفكير أي باحث، وبعيدة كل البعد عن المسلَّمات التي يقدسها أبناء هذه الطوائف.

. . . .

ب ـ اليهود:

بما أن أثرهم العقائدي، كان ضعيفاً على الإسلام قبل الهجرة، لبعدهم عن مكة، فإن المؤلف لم يتوسع في الحديث عنهم. فالنبي لم يجادلهم، والقرآن المكي، لم يوجِّه إليهم توبيخاً أو تقريعاً. وذلك:

لأن عداوتهم للدعوة، لم تستحكم وتأخذ بُعدَها في المجابهة والمقاومة إلا بعد استقرار النبي في يثرب. فهم كانوا ينتشرون في يثرب والطائف وخيبر والمناطق المجاورة:

في المدينة، قوبلت مجابهتهم للنبي، بالتأنيب لهم والتنديد بهم وكشف ضلالهم، وعمق عدائهم.. فكثرت آيات التحذير منهم، والابتعاد عنهم. فهم:

يحرفون الكلم ٤٦/٤ وهم شر البرية (١٢٤/٢ - ١٩٣ - ٢٥٨ - ٥٧/٣ و٦٨) بالإضافة إلى ما يقارب تسعين آية. وهم أول كافر به ٤١/٢ ويلبسون الحق بالباطل ٧١/٣ ويصدون عن سبيل الله ٩٩/٣).

إن ما أورده المؤلف عن اليهود، لن يكون موضوع نقاش معه، لأن الآيات نزلت فعلاً في وصف اليهود.

جـ ـ المسيحيون والنصارى:

درس المؤلف كلاًّ من المسيحيين والنصارى على حدة بسبب ما وجد بينهما من الاختلاف العقائدي.

فالنصارى ـ كما قال ـ فئة ليست من اليهود وليست من المسيحيين ـ بل هي شيعة أو عدة شيع، لها عقائدها المستقلة المختلفة عن كليهما. فهي لا تنكر المسيح مثلما فعل اليهود ولا تغالي فيه مثلما فعل المسيحيون، لذلك تحملت اضطهادهُمَا لها ومطاردتَهما إياها.

ولكنها، مع إصرارها على عقائدها، لم يكن أمامها من مفر غير المناطق النائية عن العالم، ملتمسة فيها الأمان. فكانت بلاد نجد وبلاد الحجاز من تلك المناطق التي وفدت إليها شيع النصرانية على موجات بدأت منذ أواخر القرن الأول ففتحت المدارس وبنت الأديرة وأقامت الرهبان على نشر تعاليمها وعقائدها.

لقد تعرف النبي على هذه الشيعة، لأنها كانت مستقرة، وواسعة النشاط في بلاد الحجاز فقرأ كتبها وجالس كهنَتها واكتسب ما عندها من علوم وشرائع وقصص وأنباء. في حين أن المسيحية، كانت خارج مناخ الدعوة، بعيدة عن مكانها، فلم

يعرفها النبي إلا مؤخراً. وبالضبط في عام الوفود، حيث حصل أول وأهم حدث تاريخي. هو ذلك الجدل العقائدي الذي قام بين النبي وبين وفد نجران في ذلك العام.

(وفد نجران كان من الشيعة اليعقوبية أو النسطورية، وكلتاهما شملهما قرار مجمع نيقيا الذي قضى بهرطقتهما. وكان الوفد قد قدم إلى النبي بطلب الأمان، فحظي به ونظم له عهد الأمان التاريخي المعروف).

أما العرب في أقطارهم الأُخرى:

فقد عرفوا المسيحية، من خلال «النسطورية» و«اليعقوبية» و«الملكانية».

ذلك:

كان تلخيصاً لما جاء به المؤلف من أفكار.

وأضاف إليه:

إن التفريق بين اليهودية والنصرانية، تجده على أشد الوضوح في تعامل القرآن معهما، ونظرته إليهما.

ففي حين عبَّر في العديد من الآيات عن تقديره للنصارى. هاجم المسيحية هجوماً لا هوادة فيه، فكفر معتقداتها، في نبوة المسيح، وسِّر الفداء والصلب الجسدي والقيامة من الموت والقول بالأقانيم الثلاثة.

ومن يقرأ: الحوار مع وفد نجران، يرى أنه بدأ بالنصائح ثم انتهى إلى التكفير، بعد أن رفض الوفد نصائح النبي ودعوته إلى الإسلام.

فالمسيحية والنصرانية ـ يقول المؤلف:

«شيئان مختلفان في التقييم الإسلامي. وبالرغم من أن المناظرة مع المسيحيين لم تقم إلا مرة واحدة، هي مع وفد نجران فقد تكرر سردها والإشارة إليها في «التوبة» و«آل عمران» و«المائدة» و«النساء» بسبب الأهمية التي علقها النبي عليها».

. . . .

الأفكار التي سردناها، صدرت عن المؤلف، بأسلوب تخصَّصَ فيه دون سواه ينطوي على التناقض، جنباً إلى جنب مع فقدان مصداقية الاستشهاد بالآيات والمصادرة جنباً إلى جنب أيضاً، مع سوء التعليل والاستنتاج.

وهو فيها:

لا يقتصر على الآيات القرآنية، كما ألزم نفسه، بل يمر على التاريخ فينسب إليه ما ليس فيه. ويسرد عن المجتمع تقسيمات لم تكن منه.

لذلك:

وجدت من المفيد، قبل استعراض الآيات القرآنية، أن أطوف على مراجع التاريخ، لكي أجد الجواب على التساؤلات الآتية:

- كيف كان العرب قبل وفي صدر الإسلام يفهمون معنى المسيحية والنصرانية؟

- هل كان لهما انتشار واحد وتوضع في الزمان والمكان؟ أم كانت كل منهما تُشكِّل ديناً مستقلاً.

- متى وكيف دخلتا إلى الحجاز ونجد؟

....

أ ـ مقدمة عامة:

١ ـ عند جميع من كتبوا في التاريخ عن تلك الفترة، أو الذين درسوها دراسة علمية تحليلية. لا يوجد أي دليل على أن العرب في الجزيرة كلها كانُوا يتداولون كلمة «مسيحي» أو «مسيحية». بل كان الاستدلال والدلالة على أنصار عيسى بن مريم، يتم بتداول كلمات «نصرانية ونَصارى ونصراني» وقد حصل اختلاف حول تحديد أصل اشتقاق هذه الكلمة.

- ففي لسان العرب وتاج العروس، ما يشير إلى أن الاشتقاق هو من «الناصرة» المدينة المعروفة في فلسطين.

- وعند آخرين: إنها اشتقت من نداء عيسى: من أنصاري إلى الله قال الحواريون: نحن أنصار الله واشهد بأنا مسلمون.

فانطلقت تسمية «النصارى» على، «أنصار المسيح وأتباعهم».

ـ أما كلمة المسيح: فهي صفة وليس اسماً، وُصِف بها عيسى بن مريم لأنه كان يمسح بيده على العليل فيشفيه، كما أن هذا الوصف ورد في الكتب بوصف الدجال الذي يظهر في آخر العصر ممسوح العين. فالله خلق مسيحين أحدهما «الصدِّيق عيسى» والآخر «الضِّليل الدَّجال».

٢ ـ عند ظهور الدعوة الإسلامية كان أتباع عيسى ينتشرون تحت اسم النصرانية، في بلاد الشام والعراق والجزيرة واليمن ومصر وبلاد الأحباش وكان ذلك الانتشار من خلال الفِرَق الآتية:

الآريوسية، النسطورية، اليعقوبية، الملكانية.

٢ ـ فالآريوسية:

شيعة تنتمي إلى الكاهن «آريوس» الليبي المولد والمصري الجنسية الذي طرد من مجمع نيقيا في الربع الأول من القرن الرابع لأنه جاهر بمعتقدات تخرج في جوهرها عن المعتقدات النصرانية التي لخصها قانون الإيمان النيقاوي لقد رفض مجمع نيقيا آراء ومعتقدات آريوس وأخصَّها عقيدة «الوحدة وتثليث الألوهة». فقد قال:

«إذا كان لأقانيم الثالوث الأقدس جوهر إلهي واحد عندئذٍ لا يكون بينهم فرق أو تمييز وعدم الفرق يقود إلى مزج الأقانيم الثلاثة في واحد ورفض التثليث». وقد قدم حلاً لمسألة الثالوث فقال:

«الله الأب وحده هو الإله الحقيقي بالمعنى الخاص الصارم. وابن الله والروح القدس كائنات إلهية بالدرجة الثانية فقط لهما طبيعة تتميز عن طبيعة الأب وفي حالة خضوع دائم له خضوع السبب إلى المصدر والمسبب. والله أزلي أبدي لا يموت لأنه الحق أما ابن الله فهو مولود، له بداية وله نهاية والكلمة مصنوع من الله وغير معصومة ولكن استقامة المسيح حفظته من الخطأ».

٣ ـ النسطورية:

هي شيعة نصرانية نسبت إلى نسطوريوس وهو راهب انتُخب في عام ٤٢٨م

بطريركاً على كرسي القسطنطينية. فما لبث أن ظهرت عقائده الخطيرة على الكنيسة إذ كان يرى أن شخصية عيسى تتكون من طبيعتين، طبيعة لاهوتية وطبيعة بشرية وقد استطاع الصُّلْبُ أن يحقق الانتصار على الطبيعة الناسوتية الجسدية ولكنه فشل في تحقيق النصر على الطبيعة الأُخرى.

فقرر مجمع أفسس طرده من الكنيسة وحرمانه من نعمة المسيح وطارده هو وأتباعه منذ عام ٤٣١م، فاضطروا إلى الفرار هاربين من الاضطهاد إلى خارج حدود السلطة الزمنية للكنيسة والأمبراطورية الرومانية واستقروا تحت حماية الدولة الساسانية التي رحبت بهم على حدودها وساعدتهم على الانتشار وأمنت لهم المساعدات المادية فأنشأوا مدارسهم وبيعهم وأديرتهم في الرَّها ونصيبين وقوي مذهبهم وساح في الحيرة والعراق والقبائل المتاخمة وشبه جزيرة العرب والهند والتركستان والصين والتيبت.

٤ ـ المونوفيسية أو اليعقوبية:

منسوبة إلى الراهب يعقوب البرادعي الذي أعلن بكتاباته، إن عقيدة الكنيسة تتمثل في إيمانها بسر التجسد في الطبيعة الواحدة المتكونة من اتحاد الطبيعتين دون اختلاط أو امتزاج أو تبلبل. وقد رفض المجمع الخلقيدوني اتحاد الطبيعتين وفقاً لفكرة يعقوب فقرر في عام ٤٥١م، طرده من الكنيسة ورفض عقيدته.

٥ ـ الملكانية:

نسبة إلى الملك أو الأمبراطور. أي العقيدة التي يعتنقها الأمبراطور ويحمي كنيستها ورهبانها. وقد حدد القانون النيقاوي هذه العقيدة في مجمع نيقيا، ولا يزال حتى اليوم يُمثِّل الرأي المسيحي:

«نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق ما يرى وما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد مولود من الآب أي من جوهر الآب إله من آله نور من نور حق من آله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر الذي كان به كل شيء ما في السماء وما على الأرض الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل وتجسد

وتأنس وتألم وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وسيجيء ليدين الأحياء والأموات وبالروح القدس» (أسد رستم ج ١، ص ٢٠٢).

وقد صار إكمال هذا القانون في المجمع القسطنطيني الأول بعام ٣٨١م وأدان الآريوسية معتبراً أن الذين يقولون: «كان زمن لم يكن فيه وإنه قبل أن يولد لم يكن وإنه صار إلى العدم، أو إنه من أُقنوم آخر أو جوهر آخر أو إنَّه ابن الله مخلوق أو متحول أو متغير. فهؤلاء جميعاً تعزُّرُهم الكنيسة وتطردهم وتحرمهم من النعمة».

٣ ـ غير أن هذه الفرق على اختلاف نظرتها العقائدية وفلسفتها الروحية كانت تلتقي على الثوابت العقائدية التالية:

«تأليه المسيح، بنوته من الله، سر الفداء، سر الصلب، سر القيامة بعد الموت». وهي التي أعْلَنَ، القرآن رفضه لها ومعارضته إياها، لأنها ضد التوحيد واعتبر المتمسكين بها، يشركون مع الله إلهاً آخر، فكفَّرَهم وحارب أفكارهم.

. . . .

٤ ـ ومن العقائد المختلطة بين اليهودية والنصرانية نشأت فرق دينية دخلت الحجاز ونجد فيمن دخل من الموجات النصرانية التي كانت تفر من الكنيسة البيزنطية حاملة معها هرطقتها التي وصمتها بها المجتمعات الكنسية، وهذه الفرق هي «الأبيونية» و«القيرنثية» و«الكسائية». وكنا في الصحيفتين ٦٥ ـ ٦٦ من هذا الكتاب قدمنا مختصراً عن عقائدها:

ـ التي هي في مجملها ليست من النصرانية.

ـ والتي لم يكن لها أي أثر في المجتمع بتاريخ ظهور الإسلام بسبب اندثارها واندثار أتباعها منذ القرن الخامس ـ كما اتفق المؤرخون ـ.

. . . .

فالنصرانية كانت ترد في القرآن كلما تعلق الكلام بملة عيسى وأتباعه. فمنهم من آمن بالرسالة وأسلم، ومنهم من بقي على مواقفه واعتقاده فيما يتعلق بشخص المسيح والتثليث والصلب والفداء وغير ذلك من العقائد التي تتعارض مع عقيدة التوحيد التي دعا إليها الإسلام والديانات كافة.

ومن يعود إلى المراجع التاريخية يجد أن اسم «النصرانية» كان يرافق ويدل على أتباع عيسى في قبائل العرب وأحيائهم وأن اسم «المسيحية» لم يكن معروفاً ولا متداولاً حتى إن هذه المراجع عندما تحدثت عن ورقة بن نوفل وعبيدالله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، تحدثت عنهم بصفتهم «نصارى من قريش» ولم تقل عن أي منهم أنه كان مسيحياً. بالرغم من أن عثمان بن الحويرث مارس عقيدته ومات في بلاد الروم وحظي بلقب البطريق. وعبيدالله، مارسها وقضى حياته ومات في الحبشة. وفي حديث تلك المراجع عن ورقة بن نوفل قالت: «أما في قريش فقد كانت النصرانية في بعض أفراد من بني عبد العزى ومنهم ورقة بن نوفل الذي كان امرءاً يهودياً ثم تنصَّر وقد قرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل وكان يكتب الكتاب العبراني»؛ موجز بن هشام ٨؛ ـ واليعقوبي ١٠/٢٩٨ ـ وابن الأثير ٢/٢٣٨).

ولم تذكر تلك المراجع أو سواها:

أنه كان قسيساً أو أن الكعبة كانت الكنيسة التي يمارس فيها الطقوس. وهذه من الوقائع الخطيرة في تأثيرها مما يجعلها غير قابلة للنسيان أو الإهمال من التدوين فيما لو كانت حقيقية. فالمؤرخون اهتموا بدقائق الحوادث، فكيف بمن يأتي زاعماً، بأن أكثر البيوت الدينية قداسة عند المسلمين كان كنيسة؟ وأن الطقوس النصرانية ظلت تقام فيها حتى يوم فتح مكة؟

بعد هذه المقدمة:

سوف ننفرد مع كل من المسيحيين، والنصارى، والمسلمين، بفقرة خاصة تتضمن تحليلاً مختصراً لآرائها، وسرداً سريعاً لتحركها التاريخي. متلازمين مع الآيات التي قدمها المؤلف لتدعيم استنتاجاته ومقولاته:

٦ ـ المسيحيون: قال المؤلف:

«إن النبي محمداً لم يتعرف على المسيحيين ولم يفهمهم ولم يقف على كتابهم الرسمي ولا على حقيقة عندهم: هم يؤمنون بالإنجيل برواياته الأربعة،

ويعتقدون بألوهية المسيح، وبنوته الطبيعية لله، وبحقيقة الصلب، وسر القيامة والفداء».

«لقد عرف العرب منهم فرقاً ثلاثة لا غير، هي النسطورية واليعقوبية والملكانية، ربما أنهم كانوا يغالون في المسيح فقد هاجم القرآن هذا الغلو في سورة النساء وفي سورة المائدة (٤/١٧١ ـ ١٧٢)، (٥/٧٣ ـ ٧٧)».

«ولكن الذين تعرف إليهم محمد وكفَّرهم واعتبرهم مشركين، هم وفد نجران الذي قدم إليه عام الوفود أي عام ما قبل السنة الأخيرة من الدعوة حيث دعاهم إلى المباهلة فخافوا منها وطلبوا منه الأمان السياسي وحرية الدين لقاء الجزية وكانوا أول من فرضت عليه الجزية في الإسلام».

«وبالرغم من أن الجدال بين النبي والمسيحيين لم يتكرر فقد أورده القرآن في «سورة التوبة» و«آل عمران» و«النساء» و«المائدة» في الآيات (١ ـ ٦٤) و(٤/١٧٠ ـ ١٧٢) و(٥/٧٥ ـ ٨٠ ـ ١١٢ ـ ١٢٢).

....

تلك هي خلاصة أفكار المؤلف في هذا البحث، أفرغها في الصحائف ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ من كتابه وهي بالإضافة إلى عدم دقتها في تفسير الآيات وتدبرها، تلاعبت على معانيها وقرأت التاريخ على ضوء استنتاجاتها القرآنية. بعد أن مارست على التاريخ ضغطاً وتحويراً في الوقائع حيناً واختلاف بعضها حيناً آخر.

١ ـ فالفرق الثلاثة التي قال المؤلف إن العرب ـ ومنهم النبي طبعاً ـ عرفوها هي النسطورية واليعقوبية والملكانية.

وكان وفد نجران الذي قام معه الجدل العقائدي، ينتمي إلى اليعقوبية بعد أن توحدت معها النسطورية كما أثبت ذلك:

(الطبري والمسعودي وجواد علي حديثاً في المجلد ٦/٦١٤ من مؤلفه تاريخ العرب قبل الإسلام).

تلك الفرق الثلاثة، ووفد نجران، لم يكن لديها كتاب خاص غير الإنجيل

برواياته الأربعة، ولم تكن لديها عقائد أخرى غير العقائد المسيحية التي عددها المؤلف (الإيمان بالإنجيل، الإعتقاد بألوهية المسيح، وبنوته الطبيعية لله، وبحقيقة الصلب، وسر القيامة، وسر الفداء).

تلك كانت المواضيع التي قام حولها الجدل العقائدي بين النبي محمد ووفد نجران فقد كان وفد نجران يدافع عن المسيحية في كل مكان «عقيدةً وكتاباً» وقد بلغ به الثبات على موقفه، أنه لم يتزحزح عن شيء منه، فأنهى الجدل العقائدي، وطلب الأمان السياسي وحرية الدين. فكان له ما طلب وكان في ذلك الاتفاق:

ـ أول معاهدة أمن وأمان يعقدها الإسلام.

ـ وأول جزية تفرض على أهل الكتاب الذين دخلوا في ذمة المسلمين لحماية أنفسهم وأموالهم وحرية معتقداتهم والحفاظ على بيعهم ومدارسهم.

٢ ـ الفرق الثلاثة، تتفق في العمق العقائدي مع المسيحية في كل مكان ولكنها وصمت بالهرطقة بسبب الاختلاف بينها وبين الكنيسة على التحليل الفلسفي اللاهوتي لطبيعة تكوين شخصية المسيح. وهل هي ناسوتية بحتة أم لاهوتية أم ذات طبيعتين متحدتين، أم إنهما قابلتين للانفصال لا تتحقق الأزلية والأبدية إلا لإحداهما وهل هو مساوٍ لله في الجوهر.

أما الأساس العقائدي، الذي وصفه القرآن بالغلو، والشرك بالله عن طريق تعدد الآلهة، فهو قائم عند هذه الفرق كما هو قائم عند المسيحية كافة.. وهو الذي جابهه القرآن واتهم أصحابه بالكفر.

٣ ـ وفي التاريخ وقائع ثابتة اتفق المؤرخون عليها، شرقاً وغرباً. ولكن أبا موسى تغافل عنها... وهي: تلك الرسائل التي وجهها النبي منذ بدء الدعوة أي قبل عام الوفود بحوالي عشرين عاماً، إلى ملوك ذلك الزمن يدعوهم فيها إلى الإسلام.

منها: الرسالة التي وجهت إلى هرقل عظيم الروم، حيث تقوم المسيحية الرسمية كما يقول المؤلف، وفيها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام

على من اتّبع الهدى. أما بعد: فأسلم تسلم ويؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الآريسيين.

ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً وأن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون».

لقد قُرىء هذا الكتاب على هرقل، أمام أبي سفيان (صخر بن حرب) الذي كان على رأس وفد من قريش إلى الأمبراطور لحثّه على طرد رسول محمد وعدم الاستجابة إليه.

هذا الواقع التاريخي:

يدحض زعم المؤلف بأن النبي لم يكن يعرف شيئاً عن المسيحية والمسيحيين، وكذلك المنطق القرآني، يدحض هذا الزعم أيضاً، لأنه توجه إلى العقيدة المسيحية قاطبة في أي مكان، فندّد بالغلو والشرك والتثليث والصلب والقيامة والفداء وَعَدَّ أصحاب هذه العقائد، كفاراً مشركين، ودعاهم إلى كلمة سواء هي عبادة الله وعدم الشرك به وألا يُتّخَذ بعضُ الناس أرباباً من دون الله.

ومن قبل:

كنا قلنا، بأن تعبير «المسيحية» و«المسيحيين» لم يكن شائعاً في زمن الدعوة. وأن تعبير «النصرانية» و«النصارى» كان يطلق على جميع أتباع عيسى

لذلك:

لم يرد في القرآن غير تعبير النصارى والنصرانية.

وللمثال فقط، نورد، كيفية التقييم والحجم الذي كانت تضعه الكنيسة للشيع التي كانت توصم «بالهرطقة» وهو المثال الآريوسي:

«لقد ظلت الآريوسية بعد طردها بقرار مجمع نيقيا، موضع اعتبار عند الكثيرين من الأساقفة النصارى في الشرق والذين ظلوا يناصرونها ويرون آراءها في أن المسيح هو ابن الله ولكنه لا يشترك معه في المادة والخلود، حتى إن الأمبراطور الذي أصدر قرار نفي آريوس وأتباعه قَبِلَ الاجتماعَ معه بشكل خاص. فلم يجد في تلك الآراء ما يشكّل خروجاً على الدين وأوحى بأن ترد إليه وإلى

أتباعه كنائسهم وبيعهم وأن يقبل في صلاة العشاء الرباني، ولكن المنية عاجلته فيما كان ذاهباً إلى حضور الصلاة...»
(قصة الحضارة لوول ديورانت ١٢/١٦ ـ ١٧).

ومنه يتبين أن الخلاف بين الكنيسة التي «مثلت المسيحية الرسمية» والفرق الموصومة بالهرطقة، لم يكن يتغلغل إلى عمق العقيدة المسيحية. التي كان يتفق عليها الجميع، والتي كانت منطلق المجادلات الفلسفية، مما جعل القرآن يتعامل مع العقيدة، كجذر وأصْلٍ، دون الفروع وفروع الفروع.

٤ ـ الآيات ٤/١٧٠ ـ ١٧١ ـ ١٧٢ من سورة النساء.

لم يرادفها تخصيص بوفد نجران. ولا تأكيد على واقع جدلي محدد في الزمان والمكان. بل جاءت متحدثة ومنذرة وناصحة لجميع أهل الكتاب (النصارى).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧٠ ـ النساء).

ليس في ظاهر الآية ولا في المراجع التفسيرية ما يدل على التخصيص، بل جاءت إلى الناس كافة تنبئُهم، بما جاءهم به الرسول من حق وتدعوهم إلى الإيمان.

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (١٧١ ـ النساء).

وفي هذه الآية:

توجّه الخطاب إلى أهل الكتاب كافة، وليس إلى وفد نجران فقط.

واجتمع في الخطاب تحذير عام من الغلو، الذي هو الكفر والشرك، ومن التثليث في العقيدة والعبادة.

وهذا مما يتفق فيه ويجتمع عليه كل أبناء ملة عيسى عليه السلام.

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١٧٢ ـ النساء).

في هذه الآية:

تتمة للآية ١٧١ ـ وتحديد طبيعة السيد المسيح، في أنه عبدٌ لله لن يستنكف هو والملائكة المقربون عن السجود لله.

٥ ـ وكذلك الآيتان ٧٣ ـ ٧٧ من سورة المائدة:

ليس فيها تخصيص، زماني أو مكاني، وليست محصورة بوفد أو شيعة، بل هي تحذير لأهل الكتاب كافة.. وتكفير لكل من قال ويقول بأن المسيح ثالث ثلاثة، وغلا في دينه وقال ويقول على الله غير الحق.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. (٧٣ ـ المائدة).

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾. (٧٧ ـ المائدة).

٦ ـ أما الايات ٧٥ ـ ٨٠ ـ ١١٢ ـ ١٢٢ من سورة المائدة.

فإنها لا تضع قواعد أو مبادىء جديدة في مخاطبة أتباع عيسى.

ـ ففي الاية ٧٥ ـ تأكيد وتحديد لطبيعة المسيح، على أنه ليس إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل. وأمه امرأة صدِّيقة، وكانا يأكلان الطعام ويحملان الطبيعة والتكوين البشريين.

ـ وفي الآية ٨٠ ـ تحذيرٌ ووعيدٌ للذين يتولَّون الكافرين ويوالونهم ويتركون موالاة الرسول والمؤمنين.

ـ وفي الآية ١١٢ ـ طلب الحواريين من عيسى أن ينزل لهم مائدة من السماء إذا كان ربه يستطيع ذلك.

ـ أما الآية ١٢٢ ـ التي اعتمدها المؤلف من سورة المائدة. فهي ليست منها. إذ أن سورة المائدة تنتهي بالآية ١٢٠ ـ ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾.

. . . .

د ـ النصارى:

قال المؤلف:

النصارى: يختلفون عن اليهود، ويختلفون عن المسيحيين.

فلا ينكرون نبوة عيسى مثلما يفعل اليهود الظالمون. ولا يؤلهونه، ويعتقدون بأنه ابن الله مثلما يفعل المسيحيون.

ـ فهم الأمة الوسط المقتصدة الذين عنتهم الآيات ٢/١٤٣ و ٥/٦٦ و ٣/١٩٩.

ـ وهم يؤمنون بموسى وعيسى على السواء وذلك كما وصفتهم الآيات: ٧/١٥٩ ـ ١٨١ و ٣/٧٢ ـ ٧٥ ـ ١١٣.

ـ وهم الراسخون في العلم وأولوا العلم الذين رفعهم الله درجات:
٣/٧ ـ ١٨ و ١٧/١٠٧ و ٢٩/٤٩ و ٤٠/٨٣ و ٥٨/١١.

ـ وهم الذين استشهد بهم محمد على صحة الرسالة: ٣/١٨٩ و ٤٦/١١ و ١٣/٤٣.

ـ وشهادتهم تدفع الشك من صدر محمد وأتباعه وتدفعه عنهم:
١٠/٩٤ و ١٦/٤٣ و ٢١/٧ و ٥/٤٧.

ـ وهم الحكم الذي يلجأون إليه: ٥/٤٣ و ٣/٥٥.

ـ وقد تدخّل النبي في شئونهم وتدخّل لحل خلافاتهم: ٤٣/٦٣ و ١٦/٦٤.

وقبل المباشرة في تحليل الآيات وفقاً للمواضيع التي وضعها لها المؤلف لا بد من تدوين الملاحظتين الآتيتين:

الأولى : إن النصارى بأحد المفاهيم «الأبيونية والقيرنثية والكسائية» اندثر، أثراً وتأثيراً، ولم يبق له وجود منذ القرن الخامس الميلادي. أي: قبل الخطاب القرآني بأكثر من قرن وربع القرن.

الثانية : وفقاً لما جاء في أقوال المؤلف، وتحديده لأوصاف النصارى بالاستناد إلى آيات القرآن. وتأكيده على أن تلك الآيات هي التي توضح التفريق العقائدي الكامل بين النصارى وبين كل من اليهودية والمسيحية.

فإننا:

سوف نلتقي بهذا التحديد والتوضيح ـ كما يقول المؤلف ـ عندما نستعيد هذه الآيات.

والآن: سوف نقرأ الآيات تحت العناوين التي وضعها المؤلف.

. . . .

- الأمة الوسط:

- ٣/١٩٩ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ . . . ﴾.

هذه الآية موجهة إلى النبي وأصحابه، وليس إلى النصارى.

في الآية السابقة ترابط وتكامل معها إذ تتحدثان مجتمعتين عن القبلة التي كان عليها المسلمون في بدء الدعوة وهي بيت المقدس. وتُخبِرَانِ عن سبب ذلك وهو أن الله جعلهم أمةً وسطاً وجعلهم شهداء على الناس. والوسط هنا هو الخيار والأجود فيقال قريش أوسط العرب داراً أي خيرها. لذلك خص الله هذه الأمة الوسط بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، والوسط أيضاً هو العدل، الذي لا بد من توافره فيمن اختير لكي يكون شاهداً.

أما الآية ١٤٢ - فهي:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

آل عمران ٣/١٩٩- ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

هذه الآية:

- لا تتحدث عن الأمة الوسط، الذين هم أمة محمد، كما مر في الآية السابقة.

- بل تتحدث عمن آمن بالرسالة من أهل الكتاب (يهوداً أو نصارى) مع بقاء إيمانهم بما أُنزل إليهم، قائماً.

وقد ذكرت بعض كتب التفسير أنها نزلت في: عبدالله بن سلام وصحبه وهم يهود أسلموا وحَسُنَ إسلامهم، وفي النجاشي وأصحابه، الذين آمنوا بعدما سمعوا ما جاء في القرآن عن مريم وابنها عيسى المسيح، حيث فاضت عيونهم بالدمع خشوعاً وإيماناً. ويروى: أن النبي (ص) عندما سمع بموت النجاشي فيما بعد قال: «إن أخاً لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه، وخرج بأصحابه فصفهم خارج المدينة وصلّى عليه».

- ٥/٦٦ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

ولكنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل. وإن كانت منهم امة مقتصدة، فهم العدد القليل أما البقية فهم الكثير الذي قالت عنهم الآية **﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾** والاقتصادُ هنا هو أوسط مقامات الأمة، ولا تعلوه غير رتبة السابقين لقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ..﴾. ٣٥/٣٢ فاطر

الإيمان بموسى وعيسى وتلاوة الكتاب:

آل عمران ٣/١١٣. ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

نزلت في اليهود الذين كانوا يحللون أكل أموال العرب بدون حق، لأنهم أميون أي عوام غير يهود في نظرهم. وكانوا يقولون: ليس علينا في الأميين سبيل. في حين أن البعض من أهل الكتاب كانوا يؤدون الأمانة بميعادها وبشكل كامل.

- ٣/١١٣ - ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

اتفق المفسرون على أنها نزلت في جماعة من اليهود لا يزيدون على العشرة هم: عبدالله بن سلام وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شعبة وبقية أصحابهم، وفي جماعة غير قليلة من النصارىء الذين أسلموا ومنهم النجاشي وصحبه الذين فاضت عيونهم من الدمع مما عرفوا من الحق خشوعاً وإيماناً.

فهؤلاء جميعاً آمنوا لذلك قالت الآية **﴿ليسوا سواء﴾** مع الذين كابروا ولم يؤمنوا.

- ٧/١٥٩ - ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ...﴾.

نزلت في طائفة من قوم موسى، فوصفتهم بأنهم يهدون بالحق ويعدلون به. والقرآن كرر هذا الوصف لهذه الطائفة في مناسبات عديدة.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾. القصص ٢٨/٥٢

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ...﴾. البقرة ٢/١٢١

ولقد اتفق أكثر المفسرين، على أن هذه الطائفة الموصوفة هي التي مرّ تحديدها في الآية ١١٣/٣ من اليهود والنصارى.

- ١٨١/٧ - ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ... ﴾.

جاء في الآثار أن المقصود «بالأمة» هنا «هي الأمة المحمدية لأن النبي (ص) كان يقول عندما تُقرأ «هذه لكم» وقد أعطى القوم مثلها (يعني أمة موسى).
ثم يقرأ: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ الاعراف ١٥٩/٧
وأثر عنه: ﴿أن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل﴾
وفي الصحيحين: قال رسول الله... «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة».

٢ - الراسخون في العلم:

الآيات التي أوردها تحت هذا العنوان والتي قال إنها تعني النصارى، دون اليهود أو المسلمين أو سواهم. هي:
٣/٧ - ١٨ و ١٠٧/١٧ و ٤٩/٢٩ و ٨٣/٤٠.

وقد سبق تحليلها وتفسير مدلولاتها ووجهة الخطاب فيها، وذلك في الصحائف ٨١ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ من هذا الكتاب، مما يغني عن العودة والتكرار.

الذين يرفعهم الله درجات:

أورد المؤلف الآية ١١/٥٨ - من سورة المجادلة للدلالة على أن الذين رفعهم الله درجات على سواهم هم النصارى... فالآية هي:
١١/٥٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.
نزلت هذه الآية لتعليم العرب المسلمين، أصول وآداب المجالس، ومناسبتها، إنه حضر جماعة من أهل بدر إلى النبي. وكان اهتمامه منصباً على تكريمهم فوصل بعضهم متأخراً فلم يجدوا مكاناً فسلموا ووقفوا فاضطر النبي إلى

أن يقول: قم يا فلان... وقم يا فلان... فشق ـ ذلك على من أقيم منهم وقال الكافرون: ألستم تقولون إنه عادل؟ كيف أقام أشخاصاً يحبونه ويحبون القرب منه؟ فسمع النبي فقال: «رحم الله رجلاً يفسح لأخيه. فصاروا بعد ذلك يقومون سراعاً لإخوانهم، فالذي يقوم سواء أكان من المؤمنين المتقين أم المؤمنين من أهل العلم يرفعه الله درجات بتواضعه».

تلك هي مناسبة الآية، وتفسيرها.

أليس من المثير أن يصادرها المؤلف، لفظاً ومعنىً ومناسبة، ليلصقها في مكان لا تقترب منه ولا تطل عليه؟؟

الذين استشهد بهم محمد وشهادتهم تدفع الشك عنه وعن أصحابه:

قدَّم المؤلف عدة آيات وقال:

تلك الآيات تقدم الدليل القرآني على مقدار حاجة محمد إلى النصارى ـ الأبيونيين. فهم، بالإضافة إلى كونهم مخزن العلوم ومرجعها بالنسبة إليه، وبالإضافة إلى كون إنجيلهم يحتوي على أصل القرآن. فإن شهادتهم على صحة رسالته وصدق دعوته هي التي دفعت الشك عنه وعن أصحابه وحفظتهم من التكذيب والاستنكار.

لذلك:

ونظراً للقيمة القصوى التي سردها وأناطها بالأبيونيين. ومن أجل التحقق من سلامة تقديرات المؤلف نقدم ثبتاً لهذه الآيات نصاً وتفسيراً ومناسبة كالآتي:

ـ ٣/ ١٨٩ ـ آل عمران: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ليس في هذه الآية أية كلمة عن الشهادة والتأييد.

ـ ١٣/ ٤٣ ـ الرعد: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾.

لقد نزلت هذه الآية فيمن أسلم من أهل الكتاب (يهوداً ونصارى) مستندين في إسلامهم على ما صحَّ في كتبهم من علامات الدعوة الإسلامية وأوصاف النبي

محمد. وذهب بعض المفسرين إلى أنها نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه الذين كانوا يهوداً وأسلموا.

ـ ٤٦/١٠ ـ الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

اتفق المفسرون على أن المقصود بالشاهد في هذه الآية هو عبدالله بن سلام.

ـ ٤٧/٥ ـ المائدة: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وهذه مثل ما جاء في الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ..﴾ ٦٨/٥ المائدة.

ففي هاتين الآيتين نداء إلى أهل الكتابين (التوراة والإنجيل) لكي يعودوا إليهما عوداً صحيحاً ويلتمسوا منهما علامات النبوة والرسالة التي تنبأ بها الكتابان من قبل. كما أن فيهما تحذيراً واضحاً، على من لم يحكم منهم بما أنزل الله في الكتابين وفي القرآن، فإنه من الفاسقين وهو فوق ذلك يخسر الأساس العقائدي الذي يعتمد عليه ﴿لستم على شيء﴾.

ـ ٩٤/١٠ ـ يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

تؤكد الآية، على أن الرسالة حق، وأنها مكتوب عنها في الكتب السابقة، وتدعو الى سؤال أهل الكتاب عن ذلك فيما أذا حصل أي شك لدى السائل.

ـ ٧/٢١ ـ الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذا الخطاب موجّه إلى الذين شكوا في رسالة النبي بسبب كونه بشراً جسداً مثل غيره، مقدّرين خطأً، أن النبي يجب أن يكون ملاكاً بلا جسد مادي. فدعاهم القرآن إلى سؤال أهل الطائفتين اليهودية والنصرانية وسواهما، عن طبيعة الأنبياء والرسل التي ظهرت بينهم وإذ ذاك، سوف يجدون الجواب، بأن الأنبياء كانوا رجالاً مثل باقي الرجال في التكوين المادي والطبائع البشرية.

على أن هذه الآيات، بمجملها:

لا تفيد أن النبي أقام شهادة أهل الكتاب عاملاً أساسياً في دفع الشك عنه، أو مساعداً في دعم رسالته. بل يفهم منها جميعاً أن النبي كان يبلغ هذه الآيات للناس لكي يزول الشك من نفوسهم ويسيروا على طريق الهداية.

- ٦/٤٣ - الأنعام: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ... ﴾.

هذه الآية مرتبطة بما قبلها، حيث يتحدث فيهما عن الأمم السابقة:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٤٢ - الأنعام).

وكان الحكم بالنسبة إلى النصارى وكان يتدخل لحل شؤونهم:

وفي الآيات الثلاث الآتية، يقول المؤلف، إن التلاقي العقائدي بين النصارى وبين محمد، بلغ مرحلة متقدمة جداً، بحيث صار هو الحكم فيما ينشأ بينهم من خلافات، يلجأون إليه حيناً، ويبادر هو بالتدخل في شؤونهم أحياناً... وذلك للمحافظة عليهم وحل خلافاتهم، والحؤول دون تفاقمها. أما الآيات فهي:

- ٣/٥٥ - آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

إن من لديه ولو قليل من الإلمام بتراكيب اللغة العربية، وقواعدها، يعرف عندما يقرأ الآية، أن هاء الضمير، تعود إلى الله سبحانه وتعالى. فهو الذي يتوفى عيسى ويرفعه إليه ويطهره من الذين كفروا وهو الذي إليه مرجع الجميع والحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

لذلك:

ليس إسناد هذه الأفعال إلى النبي محمد من قبل المؤلف، غير محاولة إلى اقتناص قناعة من القارىء، على صحة ما يدعيه.

- ٥/٤٣ - المائدة: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

نزلت هذه الحادثة لِمناسبةٍ ذكرناها من قبل. وهي حادثةٌ معيَّنةٌ بذاتها تتلخص في أن جماعة من اليهود جاؤوا يسألون النبي عن عقاب الزانية وشريكها فقال لهم أليس ذلك موجوداً في التوراة قالوا نعم: نسوِّد الوجوه ونحممها ونحملها، وتخالف

بين وجهيهما ونطوف بهما ونشهِّر. فقال النبي أئتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فجاؤوا فقرأوا فيها قبل وبعد آية الرجم التي وضع القارىء يده عليها لتغطيتها، فقال عبدالله بن سلام للنبي: مُرْهُ أن يرفع يده ويقرأ فرفع يده فقرئت آية الرجم فأمر النبي برجم الزانيين. قال عبدالله بن عباس كنت حاضراً واشتركت في تنفيذ الرجم وكان الرجل يتقي بجسده عن المرأة ما يستطيع اتقاءه من الحجارة. (ابن كثير).

ـ ١٦ / ٦٤ ـ النحل: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

هذه الآية تتمم الآية التي سبقتها والتي تحدثت عن الأمم السابقة التي أرسل الله إليها الرسل ولكن الشيطان زين لهم أعمالهم، فكان وليهم، وكان لهم العذاب الأليم. وما القرآن الذي أُنزل على محمد إلا لتبيان ما اختلفت عليه الأمم، وتقديم دليل لهم للرحمة والهداية.

والآية السابقة هي:

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. (٦٣ ـ النحل).

. . . .

هـ ـ المسلمون:

قال المؤلف في الصحيفتين ١١٦ ـ ١١٧:

«الدعوة الإسلامية، هي الأوامر إلى محمد لأن يوحد أحزاب النصارى».

فكان هاجسُهُ ألا يقال عنه إنه فرق بينهم. ولقد نجح في تنفيذ الأمر فتوحدوا تحت اسم الإسلام، فالمسلمون والنصارى توحدوا في كل شيء في الاسم والكتاب والعقيدة حتى أصبحوا أمة واحدة وأصبح اسمهم الإسلام وكتابهم القرآن وعقيدتهم لا إله إلا الله، ولهذا شهد لهم عيسى على أنهم مسلمون. فالنصرانية والإسلام دين على دين واسمان لمسمى واحد، الأول نشأ في اليهودية والثاني في مكة والحجاز وكلاهما واحد.

ولتأييد رأيه في وحدة الدينين، بجامع الإنجيل الذي هو الأصل، قدم المؤلف عدداً من الآيات، دون تدوين لنصوصها، أو تفسيرها. بل اكتفى، بالإشارة إلى

أرقامها، بعدما استخرج منها تفسيراً يتفق مع مقولاته ويختلف عن قراءة وتفسير وفهم كل من يقرأ تلك الآيات وهذه الآيات هي:

١٣/٤٣ و١٠٣/٣ و٩٤/٢٠ و١٥٩/٦ و١٣٦/٢ و٨٣/٣ و٨٤/٣ و٢٨٥/٢ و١٥٢/٤ و١٠٥/٣ و٣٢/٣٠.

وبعد قراءتها بكامل كلماتها، وتحليلها، لغةً وتفسيراً ومناسبة، تبين أنها تحمل المعاني والغايات الآتية:

- ١٣/٤٣ - الزخرف: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾.

هذه الآية هي تفسير وتسلسل لما ورد فيما سبقها من آيات تضمنت كل ما خلقه الله وسخره للإنسان:

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾.

على أية حال:

ليس في الآية ١٣ - المعتمدة من المؤلف ولا في الآيتين ١١ و١٢ شيء عن توحد الإسلام بالنصارى. وليس من ارتباط بين هذه الآيات وأطروحة المؤلف.

- ١٠٣/٣ - آل عمران: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

إن التأليف الوارد في الآية...

ليس تأليف الأحزاب النصرانية. وليس تأليف النصارى مع الإسلام. ولكن الآية نزلت في العرب الذين كانت تتحكم بينهم خصومات ذات أساس جاهلي فأزالها الإسلام. وذكر ابن يسار أن الأوس والخزرج كانوا قد تصالحوا في ظل الإسلام، فترك ذلك لدى اليهود أشياءً فبعثوا من بينهم من يؤلف بين قلوب المتصالحين ويذكرهم بيوم «بعاث» وحروب الجاهلية فحميت النفوس وتثاوروا ونادوا بالشعار وطلبوا الأسلحة فبلغ ذلك النبي فقدم عليهم وقال في جموعهم ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ... ﴾. فتصالحوا وتعانقوا.

لقد: وضع المؤلف يده على هذه الآية، وأدخلها في مخططه، بعد أن حوَّر مناسبتها، وتجاوز على معناها. وهو لا يشعر بأي حرج ـ على ما يبدو ـ لظنه، أن قليلاً من القراء من يفرِّغ وقته لكي يتعقبه ويكشف خطته وغايته.

ـ ٢٠/٩٤ ـ طه: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾.

هذه الآية: تحدثت عن واقعة حصلت قبل وجود النصارى بأربعة عشر قرناً تقريباً وذلك عندما عاد موسى من غيابه في جبل حوريب، ووجد بني إسرائيل قد سقطوا في ضلالة السامري، وعبدوا العجل الذهبي الذي صنعه لهم، فألقى باللائمة على أخيه هٰرون الذي أهملهم، وأخذ بلحيته ورأسه بكلتا يديه تأنيباً، فصرخ هٰرون مسترحماً بالآية المذكورة.

ـ ٦/١٥٩ ـ الأنعام: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى الذين تفرقوا شيعاً عديدة (اليهود بلغوا ٧١ ـ فرقة والنصارى بلغوا ٧٢ ـ فرقة) فبرأت محمداً منهم (لست منهم في شيء) وأبلغته أنه بعيد عن خلافاتهم التي يحكم الله بها عندما ينبئهم بما كانوا يفعلون.

ـ ٢/١٣٦ ـ البقرة: ﴿ ... وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

كنا أوردنا معاني هذه الآية وغاياتها في الصحيفة ٢٣٣ ـ وهي ـ على كل حال لا تتعلق بما أورده المؤلف وبما أراده منها. إذ ليس فيها ما يشير إلى تكليف النبي بأن يعمل على توحيد النصارى ضمن شيعة نصرانية واحدة.

ـ ٣/٨٣ ـ آل عمران: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

هذه الآية، لا صلة لها بما ذهب إليه المؤلف.

بل تعطي المعنى الحقيقي «للإسلام» الذي هو تسليم لله مفروض على موجودات السماوات والأرض، دون خيار.

ومثل هذه الآية، وردت آيات تؤكد جبروت الله على مخلوقاته:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ • يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٠ النحل ١٦/ ٤٩ ـ ٥٠.

في ذلك كله إنكار واستنكار من الله على من أراد غير دينه الذي أسلم له من في السماوات والأرض «طوعاً من المؤمن وكرهاً من الكافر».

ـ ٣/ ٨٤ ـ آل عمران: «تكررت فيها ألفاظ الآية ١٣٦ ـ البقرة. مع خلاف في صيغة فعل الأمر الذي جاء في هذه الآية بالمفرد، بينما ورد في الآية ١٣٦ ـ بصيغة الجمع ﴿قل ـ قولوا...﴾.

ـ ٢/ ٢٨٥ ـ البقرة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

٤/ ١٥٢ ـ النساء: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ليس لهذه الآية، ولا للآية السابقة ٢٨٥ ـ البقرة أي ارتباط بالأفكار التي طرحها المؤلف. كما هو ظاهر من منطوق الكلمات دون حاجة للرجوع إلى التفسير والمناسبات.

ـ ٣/ ١٠٥ ـ آل عمران: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

في الآية إخبار عن الأمم التي اختلفت بعدما تليت عليها الرسالات والآيات البينات فباءت بالعذاب العظيم، لذلك تحذر المؤمنين من أتباع محمد ومصدقيه أن لا يكونوا مثل أولئك السابقين كيلا يحل بهم ما حل بأولئك.

وليس فيها ـ كما يبدو ـ إشارة إلى شيع النصارى. أو الوحدة المزعومة.

ـ ٣٠/ ٣٢ ـ الروم: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾..

هذه الآية تتمة وإخبار عما في الآيتين السابقتين ٣٠ ـ ٣١ من السورة.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ • مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فأوضحت (الآية ٣٢) هويه المشركين بنصها ﴿من الذين فرقوا...﴾. وقد جاء في التفسير أن هذا التعبير شمل اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وغيرهم الذين بدلوا وغيروا فاختلفوا وصاروا شيعاً، وكل شيعة يملؤها الفرح واليقين بصحة ما توصلت إليه من علم وتحليل.

....

بعد أن انتهى المؤلف، من موضوع الوحدة الاندماجية بين أتباع محمد والنصارى في ظل الإنجيل بعد ترجمته إلى القرآن والنصرانية التي لبست اسم الإسلام.

تقدم بآيات، تأكيدية على:

نصرانية الإسلام، وتعريب القرآن. وهي الأيات:

٢٣/٥١ و٣/٥٢ و٦١/١٤.

ـ فالآية ٢٣/٥١ من سورة المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾:

لسنا في حاجة إلى بذل أي جهد، لكي نتبين أن هاتين الآيتين ليست لهما علاقة بما يدعى «نصرانية الإسلام» و«تعريب القرآن».

إنما هما دعوة إلى الرسل لكي يأكلوا حلالاً ويعملوا صالحاً وأن يدعوا إلى عبادة الله، فالأمة واحدة، والدين واحد، وواجب العبادة هو لله الواحد. ﴿أمر ألاَّ تعبدوا إلا إياه...﴾ و﴿ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين...﴾.

ـ ٣/٥٢ ـ آل عمران: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

لا تتحدث الآية عن عهد النبي، بل عن عهدٍ سبقه بستة قرون.

وهذا الحوار بين عيسى والحواريين يؤكد:

ـ أن أتباع المسيح هم أنصاره، لذلك كان إطلاق اسم النصارى عليهم هو الأصح، استناداً إلى ما صدر عن المسيح وعنهم وإلى تكرار هذا الاسم على لسانهم. فيكون المسيح هو الذي سماهم، وهم قبلوا بالتسمية.

ـ إن الإسلام، بمعنى التسليم إلى الله، لم يحتكره محمد، ولم يدع

اختصاصه به، بل هو الدين الواحد لجميع الأنبياء، وهو الدين الذي صارت الدعوة إليه، ولا دين سواه.

- ٦١/١٤ - الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

....

فأنت ترى أيها القارىء أن ما في الآيات، لا يفيد، لفظاً، ولا تفسيراً، ولا تأويلاً ما قصده المؤلف.

بل تعالج مواضيع وتضع أحكاماً وتقرر قواعد، ليست قريبة من الزعم بقيام الحالة الاندماجية بين الشيع النصرانية وتكوُّنِ الإسلام من ذلك الاندماج أو أنّ القرآن هو الوجه العربي للإنجيل العبراني.

....

«يا أولاد الأفاعي لا تقولوا لنا إبراهيم أباً لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. لقد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتُلقى في النار».

ـ المسيح ـ

الفصل الخامس
حق القس على النبي

أولاً - في المسيح وأمه والروح القدس.
ثانياً - في الفروض والعبادات وشعائر الدين.
ثالثاً - في الحسنات والصدقات.
رابعاً - في الجنة والنار وأحوال المعاد.
خامساً - في أمثال الإنجيل القرآنية.

أولاً ـ في المسيح وأمه والروح القدس

أ ـ المسيح

«موضوع المسيح هو من أهم المواضيع ـ بل أهمها ـ التي اتفق الإسلام فيها مع النصرانيَّة واختلف مع اليهودية والمسيحية بل هو الموضوع الذي صار به الإسلام ديناً ثالثاً إلى جانب الدين اليهودي والدين المسيحي». ص ١٢٣ ـ من كتابه.

هذا ما قاله المؤلف. ثم أضاف:

إنه قام بعملية دراسة وتحليل، ردَّ فيها آيات القرآن إلى مصادرها في الإنجيل فظهر الاقتباس إلى حد المحاكاة والاستنساخ. فلم يبق بعد ذلك أي شك لديه في أن القرآن بقضِهِ وقضيضِهِ ليس أبعد من النسخة العربية للإنجيل بالأصل العبراني... (نفس الصحيفة ١٢٣ ـ).

فالمسيح وأمه والروح القدس، هي أكثر المفاهيم في تاريخ الإنسان، التي دُرست وفُسِّرت ووقع فيها الاختلاف.

فالمسيح ـ في النصرانية مثلما هو في القرآن بَشَرٌ سَوِيٌّ خُلِقَ من التراب مثلما خلق آدم من التراب ولكن بطريقة معجزة. وهو نبي خلت من قبله الرسل ولكنه أسمى منهم جميعاً:

ـ لأنه مؤيد بالروح القدس: ٢/٨٧ـ٢٥٣ و٥/١١٠.

ـ ولأنه كلمة الله وروح منه: ٤/١٧١ و٣/٤٥.

ـ ولأنَّ الله آتاه البينات ومنها الخلق وإخراج الموتى من القبور ٥/١١٠.

تلك هي ـ كما يقول المؤلف ـ وجهة نظر القرآن في المسيح، أخذها بكاملها من المذهب النصراني، فجاءت في آياته مختلفة عن المسيحية التي تعتقد بألوهيته

وبنوته من الله وأسرار الفداء والصلب والقيامة بعد الموت. وعن اليهودية التي اعتبرته دجّالاً وكانت الدافع الأساسي إلى صلبه.

. . . .

تلك هي محمل الدراسة التي قام بها المؤلف لشخصية المسيح، كما تراها اليهودية والمسيحية والنصرانية والإسلام.

ونحن هنا، لن نقف طويلاً مع المؤلِّف، عند تعرُّضه إلى رأي اليهودية والمسيحية والنصرانية في المسيح، لأن ذلك ليس من شأننا في هذا المؤلِّف، ثم هو مطروح على ذوي الاختصاص في الطوائف الثلاثة. لذلك، لن نقف عنده سواء أخطأ أم أصاب.

أمّا الذي استوقفنا في أقواله فهو:

١ ـ إن الإسلام لم يصبح ديناً ثالثاً إلا بعد أن تبنى وجهة نظر «النصرانية» في المسيح.

ـ إن القرآن انتهى إلى اعتبار المسيح أسمى الأنبياء قاطبة.

لذلك:

وبما أن مرجع المؤلف في أطروحاته، هو القرآن، صار من السهل والواجب أن نقيم لقاءً معه عند آيات الكتاب لنرى حجوم الخطأ أو الصواب في تلك الأطروحات.

ولو أنه في «مقولتيه» عبَّر عن رأي شخصي فقط.
أو أسندهما إلى المصادر المسيحية أو اليهودية فقط.
لما كان لنا عليه ملاحظة. ولكنه، طرحهما، أخذاً من القرآن ليتحقق لديه إرغام المسلمين، على الموافقة والتسليم بصحة رأيه.
مما اضطرنا إلى اتخاذ مواجهته، واجباً علمياً، يفرضه علينا ذلك المقدار المتواضع من الثقافة الإسلامية، وذلك الصدق العميق في كل ما نقوله وما يصدر عنا. وأقصد بالصدق هنا: الصدق مع الذات، والآن؟؟

هل اكتسب الإسلام موقعه الثابت إلى جانب اليهودية والمسيحية، بعد أن

اقتنص من النصرانية وجهة نظرها في المسيح؟ وهل هذا الموقع الاستقلالي المتميِّز للإسلام، مدين لذلك الاقتناص، ومؤسَّسٌ عليه؟؟

ـ إن ما هو مبثوث في الدراسات الاجتماعية والفلسفية والتاريخية في جميع البلدان وفي جميع اللغات. انتهى إلى أن الإسلام هو دين، وليس وجهة نظر محددة في موضوع قام بشأنه خلاف محدد.

فمحاربة الشرك كيفما كان وأينما كان، هو بعض هذا الدين لا كله.

لقد أمر أتباعه، بالحرب، حتى ترسيخ الإيمان بتوحيد الله. ولم يكتف بالوعظ والتبشير بل بَاعَ المسلمون أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيله. وهم ليسوا محاربين غزاة، ولكنهم مجاهدون، أقرضوا الله حياتهم في هذه الدنيا، لكي يضاعفها حياة أبدية.

والإسلام:

علوم ومناهج وشعائر وممارسات ويقين. شملت ما كان وما هو كائن وما هو منتظر أن يكون في عوالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد في الأرض والسماوات وما بينهما.

فتجاوز ونسخ ما قبله من الآراء وحتى المعتقدات، التي كانت من قبل قادرة على «هدى الناس». ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾. آل عمران ٣/٢ـ٣

فأغنى عنها جميعها، باحتوائه إياها وهيمنته عليها، فأبقى على ما هو قابل للمسير مع الزمن وترك ما أصر على الالتصاق بالماضي.

ويكفي أن يخصص الباحث وقتاً من وقته ليرى كيف تجمعت مناهج الحكم والحكمة والتشريع والفلسفة والعقيدة والأخلاق وأخبار الأنبياء والأمم الخوالي وأنباء الغيوب التي اندثرت في بطون الزمان والتي لا تزال مطويات بيمين الغيب تنتظر الإفراج والترحيل إلى عالم الشهادة.

ذلك كله:

تجمَّع والتقى، وتكامل واتحد، في مناهج الإسلام، وكان قابلاً للعيش والمعايشة أربعة عشر قرناً لم يدركه الفساد.

والباحث الذي طلبنا منه الطواف على مصادر العلوم والمعلومات نطلب منه أيضاً ألا يغفل مراجعة ذلك التراث الضخم الذي طفحت به وضاقت عنه آلاف المجلدات، التي رصدت تفاعلات المجتمعات الإنسانية، في القارات المعروفة، مع الإسلام في شتى مناهج الحياة، لذلك نقول بقناعة علمية يقينية:

إن المؤلف كان على جانب كبير من المحدودية واللاموضوعية عندما قذف في وجوه القراء بقوله: «إن موضوع المسيح هو الذي جعل من الإسلام ديناً ثالثاً»... فذلك القول، لم يُؤسَّسْ على علمٍ، ولم يَقُل به عالِمٍ.

....

٢ ـ أما لجهة القول بأن القرآن اعتبر المسيح أسمى من جميع الأنبياء فهو قول غير مسئول وخاطىء. وذلك لأن المؤلف لم يقرأ الكثير من الآيات، ولأنه أخطأ في تفسير ما قرأه منها.

ففي الأولى ـ هنالك عدد غير قليل من الآيات تحدثت عن الأنبياء دون تفريق وآيات أمرت النبي والمسلمين أن يؤمنوا بهم جميعاً دون تفريق بينهم.

(٢/١٣٦ و٢/٢٨٥ و٣/٨٤ و٤/١٥٢).

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢/١٣٦).

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٢/٢٨٥).

ذلك، كان على وجه العموم، حيث أمر القرآن بالاعتقاد المتساوي دون تفريق بين الأنبياء.

أما الثانية ـ وهو تخصيص عيسى بما فضّله الله على الرسل جميعاً. وذلك بالروح القدس الذي أيّدهُ وبالبينات التي أعطيت له لهذا يجب أن نلقي نظرة متعمقة على آيات القرآن التي عالجت هذين الموضوعين.

أ - فتأييد الله للمسيح بروح القدس في الآيات ٢/٨٧ - ٢٥٣ و ٥/١١٠ ليس تفضيلاً له على غيره من الأنبياء، لأن الله وحده يعلم كيف يهيء أسباب الرسالة ووسائل الإقناع بها. وتلك الوسائل، كان لها دوماً ارتباط بالبعد المكاني والبعد الزماني، لا تتخلف عنهما ولا تتجاوزهما.

والروح القدس، دوماً، هو وسيلة الاتصال بين الله ورسوله، فهو يحمل التعاليم ويلقيها إلى الرسول، لكي يقوم بالتبليغ والدعوة والتبشير.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١ - النحل).

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢ - النحل).

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (٢٦/١٩٣ - الشعراء).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (٤٢/٥٢ - الشورى).

ويبدو من هذه الآيات:

- أن الروح يرسلها الله أو يلقيها أو ينزلها على من يشاء من عباده ليكون من المنذرين.

- كما يبدو أن عبارة ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾ التي وردت في بعض الآيات التي تحدثت عن المسيح، هي التي أوهمت المؤلف بأنها تشكّل الدليل القرآني على تفضيله وتقديمه على الأنبياء.

ولو تتبع المؤلف فعل «أيّد» في مصادرها اللغوية لما وقع في هذا الخطأ، لأنها لا تعني التفضيل والتمييز بين شخصين أو شيئين بل تعني «المناصرة» ففعل «أيّد» يعني «ناصَرَ» و «قوّى».

وقد ورد في القرآن دوماً بهذا المعنى:

﴿**والسّماء بنيناها بأيدٍ وأنّا لموسعون**﴾: الأيْدُ، القوة، وقد اشتق من أيْدَ، كذلك الفعل أيّد.

وفي الحديث: قول النبي لحسان: اهجُهُم وروح القدس يُؤيدك «أي ينصرك».

ب ـ أما بناء التفضيل على الأنبياء، بالبينات، فمسألة تتطلب النقاش أيضاً:

ـ البينات، جمع بينة، أي الحجة والدليل. فالبينات هي الحجج التي قدمها عيسى إلى بني إسرائيل لتصديق رسالته وقد عدَّدها القرآن ووصفها هي وبينات الرسل السابقين بأنها بصائر أي إنها تدرك بالعقل وتبصر بالعيون، مثل: شفاء المرضى، وإحياء الموتى، وخلق الطير، والتنبؤ بالمغيبات، (عند عيسى).

ومثل: العصا، واليد البيضاء، وفيضان النيل بالضفادع والقمل، والجراد وشق البحر، وسواها (عند موسى).

فالبينات لم يفضل بها نبي على نبي، ولم يخصص بها وتحجبَ عن سواه. وهي كانت تلازم الأنبياء، ولكنها كانت تختلف بالشكل والماهية والنوع، وفقاً لحاجة الزمان والمكان دون تجاوُزٍ أو تخلُّف. لأن الله هو وحده الذي يعرف كيف يعزز رسالته، وكيف يؤيدها وينصرها.

وللوقوف على ما تعنيه «البيِّنات في القرآن» نستعرض هذه الآيات:

ـ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (٢/٩٢ ـ البقرة).

ـ ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢/٩٩-البقرة)

ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (٢/١٥٩ ـ البقرة).

ـ ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٣/٨٦ ـ آل عمران).

ـ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ (٤٠/٣٤ ـ غافر).

ـ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾(٥٧/٥٥ ـ الحديد)

ـ ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور).

من هذه الآيات وسواها:

يتبيَّن أن الله لم يجعلها لنبي تفضيلاً له عن سواه. ويكون الاستدلال بها على

تفضيل عيسى وتقدمه على الأنبياء، هو قصور في الإحاطة بآيات القرآن وأحكامه.

على أننا نستطيع أن نقول كلمتنا ـ بعدما تقدم ـ في هذا المؤلف دون خروج على قواعد الحياد والمنطق. وهي:

إن أحكامه على النبي محمد، وعلى رسالة الإسلام، هي أحكام مبنية على إرث سلفي عقائدي، لم يزده التطور الحضاري، وسيادة العلمانية على المجتمعات، إلا تعقيداً والتصاقاً بالفكر العدواني العبثي المثير للمشاعر، الذي يهدم ولا يبني ويفرِّق ولا يجمِّع ويضل ولا يهدي.

فإذا كان الإنجيل الأبيوني، هو دليل النصرانية.
وإذا كانت تلك النصرانية وإنجيلها، قد اندثرا منذ القرن الخامس.
فكيف وبأي منطق مقبول؟ يمكن القول بأن القرآن منسوخ عنهما؟ وكيف تُمكِنُ المضاهاةُ بين القرآن الذي يقرأه ملايين الناس وبين إنجيل لا وجود له؟؟

ولماذا ـ في رأي أبي موسى ـ يتوجب على الناس أن يصدقوا مزاعمه، دون دليل علمي أو تاريخي؟ وكيف يطلب منهم أن يهجروا ثوابتهم العقائدية، ليتبعوا ذلك الضباب الفكري الذي لا يعتمد على غير العاطفة والتحيُّز؟

ليت أبا موسى، يقف مع نفسه، وقفة الصراحة العادلة ويلقي عليها هذه التساؤلات وليته، يعود من جديد إلى ما كتبه، ليطلعَ على قرائه، بقراءة حقيقية للإسلام والقرآن.

فالحقيقة، ينبغي أن تكون، دوماً، ضالَّةَ العالم الدارس.
والعود إليها، دوماً، هو فضيلة.

. . . .

ب ـ مريم أم عيسى:

تتفق نظرة القرآن مع النصارى إلى مريم.
وتختلف مع اليهود والمسيحيين مع الفارق بينهما.
هذا ما قاله المؤلف: فهو ينطلق على الدَّوام من قاعدة التفريق بين مفهوم

«النصارى» و«المسيحيين» في الاعتقاد والطقوس وأساس التسمية. وتقابلها قاعدة ثانية هي الإصرار على التوافق التام بين النصارى والإسلام ويقدم أدلة التوافق وذلك بإجراء مقارنة بين آيات من القرآن وآيات من سفر التكوين والإنجيل. وقبل أن نناقش مدى صحة استدلاله بالنصوص.

نجد من المفيد إبداء الملاحظتين الآتيتين:

الأولى: إن يعقوب لا ينسب إليه إنجيل بين الأناجيل الأربعة التي تشكِّل العهد الجديد كما إن تاريخ الكنيسة تحدَّث عن يعقوبين كانا مع المسيحية في بدء الدعوة. وقد تتلمذا على المسيح وكانا من جملة أتباعه.

أولهما ـ هو يعقوب بن زبدى شقيق يوحنا، وقد استشهد في أورشليم بين عامي ٤١ أو ٤٢ ـ دون أن يترك إنجيلاً أو يقوم بتبشير أو يغادر مدينة أورشليم.

والثاني ـ هو يعقوب العادل أو يعقوب الأصغر ابن حلفا الذي آخاه المسيح وأحبَّه ونادى لأمه وهو على الصليب «هوذا ابنك يا امرأة» كما قال للتلميذ: «هوذا أمك» (إنجيل يوحنا ١٩/٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧).

وقد اقتصرت اهتماماته على تنظيم الكنيسة في أورشليم فلم يُغادرهما واحتمل موت الشهادة في عهد رئيس الكهنة «حنانيا» الذي حكم عليه بالموت رجماً في عام ٦٢م، لأن كثيراً من اليهود تأثروا به وأحبوه فاعتنقوا المسيحية بسببه. ولم يترك إنجيلاً. بل ترك رسالة واحدة تتألف من خمسة إصحاحات وتقع في العهد الجديد من ص ٣٦٩ ـ ٣٧٥.

الثانية: إن إنجيل متى المنحول، لا يمكن اعتماده مصدراً موثوقاً للمعلومات لأنه منحول، كما يقول المؤلف، فما يعرف من هو الذي وضعه، ولا تاريخ وضعه ولا المصدر الذي أخذ عنه.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المسيحيين لا يعترفون إلا على إنجيل متى الذي يشكِّل في الترتيب أول أناجيل العهد الجديد ويتألف من ثمانية وثلاثين إصحاحاً ويمتد ما بين الصحيفتين ٣ ـ ٥٦ ـ الكتاب المقدس ـ جمعية التوراة الأميركية (١٣٦٥) ص).

فإذا كان الإنجيل الذي يقدمه المؤلف للمضاهاة مع القرآن إنجيلاً منحولاً، فإن التمسك به والاعتماد عليه ظلم علمي وخطأ تاريخي[1].

بعد ذلك أعود مع المؤلف إلى: مظاهر التوافق بين القرآن والمصادر النصرانية، في تحديد شخصية مريم أم المسيح.

وهو «التوافق» الذي استدلَّ منه على أن القرآن أخذ ما لديه عن مريم من هذه المصادر أخذاً استنساخياً تاماً. وذلك:

- في انتسابها إلى سلالة الأنبياء.
- ودلالتها العجائبية.
- واعتكافها في الهيكل وكفالة ذكريا لها وهو زوج خالتها.
- وبشارة الملاك لها بمولودها الجديد وهي في الهيكل.
- ومخاضها إلى جذع النخلة وانحناء النخيل إليها ليقدم الثمر.

ففي النسب:
ضاهى بين القرآن ٣/٣٣ ومقدمة إنجيل يعقوب ١/١.

وفي الولادة:
ضاهى بين الآيات ٣/٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ وإنجيل يعقوب ٤ ـ ٥ ـ ٦.

وفي البشارة:
ضاهى بين الآيات ٣/٤٢ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ و ١٩/١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ وبين يعقوب ١/١ ولوقا ١/٢٦ ـ ٢٨ ـ ٣٠ ـ ٣٤ ـ ٣٥.

وفي الهيكل:
ضاهى بين الآيات ١٩/١٦ ـ ١٧ و ٣/٣٧ ـ ٤٤ وبين يعقوب ٧ ـ ٨.

وفي المخاض:
ضاهى بين الآيات ١٩/٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ والتكوين ٢١/١٤ ـ ٢٠ ويعقوب ١٢/١٦ ومتى ال[illegible] ١٠ ـ ١١.

---

(١) في الصحيفة ١٢٩ ـ من قس ونبي أشار المؤلف إلى أن هذا الإنجيل منحول على متّى.

فإذا أسقطنا من اهتماماتنا، ما يجب إسقاطه وهو:

- إنجيل يعقوب لعدم الاتفاق على وجوده.
- وإنجيل متى المنحول، لأنه غير ثابت، المصدر، والتاريخ، والمضمون.

فلن يبقى ما يقبل المضاهاة مع القرآن غير:

- الإصحاح ١ ـ من إنجيل لوقا بالآيات ٢٦ ـ ٢٨ ـ ٣٠ ـ ٣٤ ـ ٣٥.
- والإصحاح ٢١ ـ من سفر التكوين بالآيتين ١٤ و٢٠.

والآن:

فلنعد إلى المقابلة بين القرآن والمصادر الأُخرى.

المقابلة ما بين القرآن وسفر التكوين:

وردت في الإصحاح ٢١ ـ من سفر التكوين الآيات من ١٤ ـ ٢٠، متحدثة عن هاجر وابنها إسماعيل.

«فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما إلى هاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابلة بعيداً نحو رمية قوس لأنها قالت: لا أنظر موت الولد ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمةً عظيمة، وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في برية فاران وكان ينمو رامي قوس وأخذت له أمه هاجر زوجة من أرض مصر».

وفي سورة مريم: الآيات ١٩/٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۞ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۞ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

من الواضح، لكل من يقرأ الآيات القرآنية وما جاء في سفر التكوين ودون أن يعود إلى تفاسير وشروح. أنه لا يوجد أي تشابه يفيد أن القرآن أخذ من سفر التكوين.

- فعدا عن الاختلاف النوعي في جزالة الأسلوب وإعجازه في القرآن، توجد المفارقات الآتية:

- عيسى نادى أمه. أما إسماعيل فكان صامتاً.

- عيسى تكلم فور ولادته، وإسماعيل كان عمره يزيد على الثلاث عشرة سنة.

- الملاك أخبر هاجر أن الله سمع صوت الغلام يبكي ومريم سمعت صوت ابنها مباشرة دون واسطة.

- الملاك طلب من هاجر أن تشد يدها على الغلام وفتح عينيها على بئر ماء في حين أن عيسى نادى أمه لكي تهز بجذع النخلة ليسّاقط عليها الرطب الجني.

المقابلة بين القرآن وإنجيل لوقا:

جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا بالآيات ٢٦ - ٢٨ - ٣٠ - ٣٤ - ٣٥:

«وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة بالجَليل اسمها ناصرة (٢٦) إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داوود اسمه يوسف واسم العذراء مريم (٢٧) فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها الرب معك مباركة أنت بين النساء (٢٨) فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية (٢٩) فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك وجدت نعمة عند الله (٣٠) وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع (٣٩) هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإلهي كرسي داوود أبيه (٣٢) ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية (٣٣) فقالت مريم للملاك كيف يكون وأنا لست أعرف رجلاً (٣٤) فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله وهوذا اليصابات نسيبتك حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله (٣٥)».

أما في القرآن فقد ورد الحديث عن مريم في سورتي آل عمران ومريم كالآتي:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. من سورة آل عمران ٤٢ و٤٥ و٤٦.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۞ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

من سورة مريم ١٦ ـ ٢١.

من المقارنة بين النصين نجد الفروق العقائدية الجوهرية الآتية:

ـ إن مهمة عيسى في القرآن هي أن يكون رسولاً ووجيهاً في الدنيا والآخرة وعبداً لله ومن المقربين.

أما مهمته ووصفه في الإنجيل. فهو ابن العلي يدعى. ويجلس على كرسي داوود ويكون ملكاً على بيت يعقوب، ويبقى ملكه دائماً أبداً بلا نهاية.

ـ يختلف الأسلوب القرآني الآمر القاهر عن الأسلوب الآخر اختلافاً لا يمكن معه التماس أي تشابه أو محاكاة أو نسبة أو اقتباس أخذه القرآن عن الإنجيل.

. . . .

ثم لا بد قبل الانتهاء من هذه المقارنات من أن نستعيد ما كتبه المؤلف في الصحيفة ١٢٨ ـ التي جاء فيها:

«إلا أن المقابلة بين ما ورد في القرآن وما ورد في سفر التكوين من سيرة هاجر وابنها إسماعيل يرجح أن الله تكلم بواسطة ملاكه مع هاجر مثلما تكلم مع مريم ويثبت انتقال القرآن من حذو الكتب النصرانية إلى حذو أخبار هاجر. فولادة عيسى شبيهة بولادة إسماعيل في برية لا مزود.».

كيف قرأ المؤلف قصة مريم في القرآن وقصة هاجر في التوراة. وكيف وجد تشابهاً بين ولادة عيسى وولادة إسماعيل:

ـ ففي القرآن: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ ٢٢ و٢٣ ـ من سورة مريم). .

وعند إجماع المفسرين أن «المكان القصي. هو المكان الذي أقصاها عن العيون لئلا ترى ولا تُرى. وهو مكان يقع شرقي محرابها الذي تصلي فيه. (ابن كثير).

وفي التوراة: إن إسماعيل ولد في بيت أبيه ولم يغادره مع أمه إلا بعد بلوغه سنَّ الثالثة عشرة، عندما دبت الغيرة في صدر سارة وقالت لإبراهيم: إن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحٰق (تكوين ٢١/٤ ـ ٩ ـ ١٠) فنفذ إبراهيم طلبها وصرف هاجر مع ولدها (تكوين ٢١/١٤ ـ ٢٠).

فالمؤلف: أخطأ مرتين: عندما زعم أن القرآن حدد ولادة عيسى في المزود وعندما حدد ولادة إسماعيل في البرية.

ـ إن القرآن لم ينتقل إلى سرد قصة هاجر مباشرة بعد قصة مريم لكي يبين حالة التوافق والتماثل بين القصتين.

فقد جاءت قصة مريم بالآيات من ١٣ ـ ٣٣، ثم قصة الأحزاب من ٣٤ ـ ٤٠ ثم عن إبراهيم منفرداً عن أسرته من ٤١ ـ ٥٠ ثم عن موسى من ٥١ ـ ٥٣ ثم عن إسماعيل لوحده من ٥٤ ـ ٥٥ ثم تستمر السورة إلى نهايتها بالآية ٩٨ ـ دون ذكر شيء آخر عن إبراهيم أو إسماعيل أو هاجر. (سورة مريم)

. . . .

١ ـ الروح القدس:

بعد أن استعرض المؤلف مفهوم الوحي في اليهودية والمسيحية والنصرانية والإسلام قال:

يتبين مما تقدم أن هذا المفهوم لم يتحدد بوضوح يمنع الالتباس في فهمه:

ـ ففي التوراة يختلط الأمر بين أن يكون الوحي مناطاً بالملائكة أم إن الله يمارسه مباشرة.

ـ وفي القرآن كذلك، حيث نجد آيات الوحي تعني جبريل تارةً وتعني الروح القدس تارةً أخرى ٢/٨٧ـ٢٥٣ و٥/١١٠ و١٦/١٠٢ و٢٦/١٩٧ و٨١/١٩ ـ ٢١.

ـ وفي النصرانية كما في القرآن والتوراة اختلاط، ولكن فيما يتعلق بجنس الروح القدس. ثم انعكس ذلك على القرآن.

فلقد شاع اتباع الروح القدس وعده من الجنس المؤنث.

ـ فاليعقوبي أفاد في تاريخه (١/٧٢): «ولما عمده يوحنا ـ قصد المسيح ـ خرجت روح القدس على الماء». كما جاء في نبوءة أشعياء ١١/٢ وفي إنجيل العبرانيين: «الروح القدس يخاطب يسوع في عماده بقولها: أنت ابني الحبيب».

ويقابل ذلك في القرآن:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ (٥/١١٦ ـ المائدة).

أي:

ما دام أن روح القدس من الجنس المؤنث. وما دام أن الروح القدس هو الأقنوم الثالث المعبود فإن الآية القرآنية الموجهة إلى عيسى بتهمة الدعوة إلى تأليهه مع والدته تعطي الدليل على أن القرآن عدَّ مريم هي الروح القدس أو الأقنوم الثالث.

تلك خلاصة الأفكار التي أفرغها المؤلف في عدة صفحات. لنا عليها عدةٌ من الملاحظات التصحيحية كالآتي:

١ ـ لسنا في صدد تفسير التوراة أو المراجع النصرانية، ولا الدفاع عنها، هنا، لكي نتبين فيما إذا كان مفهوم الوحي، ملتبساً فيها، أو يكتنفه الغموض فيما يتعلق بتحديد ماهيته وجنسه وموقعه الديني.

٢ ـ إن عملية التركيب والترتيب التي استخلصها المؤلف من الآية ١١٦/٥ للوصول إلى أن القرآن اعتبر أن مريم العذراء هي الروح القدس هي عملية خاطئة. لا تقل عن الخطأ الذي وقع فيه عندما استخلص الدليل من سورة مريم على أن قصة ولادتها لعيسى، وقصة حملها، مستقاة ومقتبسة عن قصة هاجر وإسماعيل في سفر التكوين.

لأن القرآن:

ـ لو أراد هذا القصد لصرَّح به.

ـ ولأن الآية هنا تنفي اجتماع الأقانيم الثلاثة. وذلك حاصِلٌ بمجرد تحليل معاني كلمة «من دون الله». فهذه الكلمة تعني انفراد التأليه باثنين (عيسى وأمه).

ـ ذلك أن «من دون» تنصرف في اللغة إلى النقيض، والاستبعاد والتقصير عن الغاية. كما في الآية: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ (١١/٧٢ ـ الجن). أي منا الصالحون ومنا القوم الكافرون فكنا عقائد متعددة وآراء مختلفة.

ـ وذكر ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال سمعت من ينشد:

قلوب براها الحب حتى تعلقت ... مذاهبها في كل غربٍ ومشرقِ
تهيم بحب الله والله ربها ... معلقة بالله دون الخلائق

ـ وقيل ثوب دون، أي ثوب رديء، ورجل دون أي رجل ليس بلاحق[1].

٣ ـ استعرضنا الآيات التي ورد فيها «مفهوم الروح» فوجدنا أنها تندرج في مجموعتين. كل مجموعة تعطي مفهوماً خاصاً.

منها: الآيات التي عددها المؤلف.
ومنها: آيات لم يأت على ذكرها.
وإننا نشير إليها جميعاً بأرقامها:

ـ ٢/٨٧ ـ ٢٣٥ و٥/١١٠ و١٦/١٢ و٢٦/١٩٣ و٨١/١٩ ـ ٢١ هي الآيات التي ذكرها المؤلف.

ـ ٤/١٧١ و١٦/١٠٢ و١٩/١٧ و٣٨/٧٢ و٤٠/١٥ و٤٢/٥٢ و٧٠/٤ و٦٦/١٢ و٧٨/٣٨ و٥٨/٢٢ و٩٧/٤. وهي الآيات التي لم يذكرها المؤلف.

وبعد دراسة هذه الآيات. والطواف على ما تيسر لدينا من كتب اللغة والتفسير والتاريخ. أمكن أن نضع العلامات التوضيحية التالية:

أ ـ إن مفهوم «الروح القدس» يتحلل إلى مدلولين «القدس الذي هو الله» و«الروح الذي هو جبريل». وقد وردت كلمة الروح في القرآن. بصيغ عديدة: «رُوحُنَا» و«الروح الأمين» و«الروح القدس» و«روحي» و«بروح منه». في الآيات ٢/٨٧ ـ ٢٥٣ و٤/١٧١ و٥/١١٠ و١٦/١٠٢ و١٩/١٧ و٢٦/١٩٣ و٣٨/٧٢ و١٦/١٢.

ب ـ ورد «مفهوم ـ روحاً من أمرنا ـ» في الآية ٤٢/٥٢ وهو يعني القرآن.

(١) لسان العرب ـ وتاج العروس.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى).

جـ ـ ورد بلفظ «الروح» في الآيات ١٥/٤٠ و ٤/٧٠ و ٤/٩٧ و ٣٨/٧٨. مثل:

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ ـ ٣٨/٧٨.

قال المفسرون: حيثما ورد هذا اللفظ مفرداً، غير مضاف، أو موصوفاً، أو مبّعضاً بمن فإنه يعني أرواح ابن آدم التي تقف لتنتظر الحساب يوم الدينونة. والعطف هنا هو من باب عطف الخاص على العام. وقال آخرون: إنها تعني جبريل دون تكليف رسولي.

٤ ـ أما الاستدلال على أن روح القدس، هو مريم، وأن ذلك ثابت من الدلالة عليه بصيغة التأنيث من اليعقوبي، وإنجيل العبرانيين.

فهوا استدلال خاطىء لما يلي:

ـ أورد المؤلف عبارة اليعقوبي في ٧٢/١ وهي:

«فلما عمده خرجت روح القدس على الماء».

ـ أورد ما جاء في إنجيل العبرانيين، دون تحديد الإصحاح والآية (ص ١٣١) وهو:

«فلما عمده خرجت روح القدس على الماء».

أما موضع الخطأ فهو:

١ ـ التناقض الواضح في: «الروح يخاطب» و«بقولها» فالصيغة الأولى صيغة جنس مذكر. والثانية صيغة جنس مؤنث.

٢ ـ التهافت المعنوي في الأمور التالية:

ـ كانت أم يسوع واقفة ساعة عماده مع جموع الناس على شاطىء نهر الشريعة. فكيف خرجت على الماء؟ ومن أين خرجت؟ ولِمَ لَمْ يثْبُتْ شيءٌ من هذا في الأناجيل؟

ـ جاء في الإصحاح ٣/١٦ ـ ١٧، «فلما عُمِّد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه وصوت من السماوات: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت».

وجاء مثل ذلك في إنجيل مرقس ١/٩ ـ ١٠ ـ ١١.

وفي إنجيل لوقا ٣/٢١ ـ ٢٢.

وبهذا يتبين أنه، لا الإنجيل ولا القرآن، أطلقا مفهوم «الروح القدس» على مريم أم المسيح.

أما ما رآه المؤلف من خلط في القرآن بين جبريل وروح القدس، مستدلاً بذلك من مقارنة الآية ٢/٨٧ ـ البقرة التي تعني فيها «الروح القدس» روح الرب. وبين الآيات ٦/١٠٢ و٢٦/١٩٣ و٨١/١٩ ـ ٢١ فإنه استقراء مغلوط.

ـ في الآية ٢/٨٧ ـ البقرة: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾.

في قول: الروح هو جبريل والقدس هو الله.

وفي قول: المعنى «روح البركة».

وفي قول: المفهوم كله يعني جبريل.

ـ وفي الآيات الأخرى: دلالة على جبريل.

ـ فالخلط غير وارد حتى ولو اعتمدنا على مبدأ تحليل مفهوم «الروح القدس» في الآية ٢/٨٧. لأن روح القدس هو جبريل.

ثانياً ـ في الفروض والعبادات

استعرض المؤلف بعض الفروض والعبادات، وقال عنها: «إنها تشكل الأركان التي يقوم عليها كل دين» ثم أقام مقارنة ومقابلة على أسلوب ممارستها لدى الإسلام والنصرانية، فوجد محاكاةً ونقلاً بلغا ـ حد التماثل الكامل ـ كما قال وإذ ذاك. خرج بإحدى ثوابته، التي اعتدنا عليها. وهي:

«ليس في الإسلام من الفروض والعبادات وشعائر الدين غير ما أخذه عن

النصرانية وآيات القرآن التي حللت وحرمت وأمرت ونهت وحضًت وحظًرت لم يكن لها أي مصدر غير تعاليم التوراة والتلمود وإنجيل النصارى».

ومن شدة حماسة المُؤلف وتأثره العاطفي. وضع هذه النتيجة، مقدمة، لبحثه، وقبل أن يَخُطَّ كلمة واحدة في البحث والمناقشة. (النص الأول من الصحيفة ١٣٢ ـ وهي الصحيفة الأولى من البحث ثم تبدأ المناقشة بعد ذلك مستمرة حتى الصحيفة ١٤٠ ـ).

فاستبق القارىء إلى ما يجب أن يكتشفه هو لا المؤلف. وكأنه بذلك أعفاه من القراءة، فكتب وقرأ عنه وقدم إليه النتيجة السهلة الميسرة بهذه الكلمات. وذلك في رأيي من العيوب في التأليف والمؤلفين.

ولكن:

فلنغض البصر مؤقتاً عن هذا.

ولنقف مع المؤلف عند مناقشة الشعائر أو الفروض أو الطقوس الثي أخذها الإسلام بأسمائها ومعانيها وأساليبها من النصرانية ـ كما قال ـ

وهي: الختان، والخمر، ولحم الخنزير، والصلاة، والصوم، والمرأة. على أنني، قبل وضع كل طقس من هذه الطقوس على مائدة الدرس والنقاش أجد من المفيد تقديم نظرة تمهيدية حول ارتباط الأديان السماوية ونقاط التلاقي والاختلاف بينها وأسباب كل منها، معتمداً على الكتب السماوية وبعض المراجع التاريخية. وذلك بالفقرات الآتية:

أ ـ الأديان السماوية وإن تعددت، توحد بينها كلمة الله، فالمتأخر منها ليس مكلفاً بإلغاء المتقدم، بل له وعليه تصديقه في حقيقة ما جاء به وتجديد الدعوة إلى كلمة الله، ألوهةً وعبادة.

وفي القرآن وضوح في التأكيد على وحدة المهمة الرسولية عند جميع الرسل.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (٩٨/٥ ـ البيّنة

﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (١٢/٤٠ ـ يوسف).

(الأمر في الأولى موجّه إلى الرسل جميعاً بلا استثناء وفي الثانية إلى البشر عامة).

وفي المسيحية هذا التأكيد مثل ما في القرآن:

«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى ـ ٥/١٧ ـ ١٨).

تلك من الثوابت الإلهية في رسالات الأنبياء وفي الكتب السماوية التي أُنزلت عليهم لا ينقضها ذلك الفهم الخاطىء لمبدأ الناسخ والمنسوخ في القرآن. فهو وهي تماماً مختلفان. لأن النسخ القرآني، هو تحرك تشريعي من نصٍّ تجاوزته المرحلة إلى نصٍّ استقر مع الناس في التعامل. وذلك لأن الوحي اتبع أسلوب التعليم المرحلي كما سوف نرى عندما نبحث في الفروض والحدود والطقوس... ولقد بيَّن القرآن ماهية النسخ وغايته وعلاقة الناسخ بالمنسوخ. ففي الآية ١٠٦ ـ من البقرة قال:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾.

فالنسخ، هو دفع الحكم المتقدم بدليلٍ شرعي متأخر. والنسيان هو المحو من الذاكرة ومسألة النسخ هي مسألة متواترة ضمن أحكام الدين الواحد أو بين الأديان كما ثبت في اليهودية والمسيحية وما سبقهُما من أديان.

ـ فقد أحل الدين لآدم تزويج بناته من نبيه ثم حرم ذلك.

ـ وأباح إلى نوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ تحليل بعضها.

ـ وكان نِكَاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه وقد حرمت التوراة ذلك فيما بعد.

ـ وأمر الله إبراهيم بذبح ولده ثم نسخ الأمر بالفعل.

ـ وكان المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس في الصلاة ثم نسخ هذا الحكم بالتوجه إلى الكعبة.

ـ وكانت مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة في بدء الحروب الإسلامية ثم نسخت إلى مصابرة الاثنين.

والأمثلة كثيرة، وقد جُمع العدد الوفير في كتاب روائع البيان ج ـ ١ ـ ص ـ ١٢٩ وما بعدها لمؤلفه محمد علي الصَّابوني أستاذ التفسير في كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة.

ب ـ النسخ أو التجاوز التشريعي من شريعة إلى شريعة أو ضمن الشريعة الواحدة هو مبدأ اقتضته مشيئة الله التي خلقت الحياة على قوانين الحركة والتطور المستمرين. لذلك كان أول عمل قامت به المسيحية والإسلام بعدها هو المسح الشامل لجميع ما في المجتمع من طقوس وممارسات وقناعات وعلوم وعادات فأبقت على ما يألفه الذوق العام ويحقق مصالح المجتمع والفرد ونفت ونددت بما كان يستنكره الذوق العام ويتعارض مع المصلحة العامة.

وعملية المسح هذه وما تلاها من «إبقاء وإلغاء» وضع الإسلامُ لها تسمية ثم كرَّسها قاعدة شرعية، تشريعية، هي قاعدة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وأعطاها قوة الاستمرار وتجاوز الزمان والمكان فكان بذلك يختلف عن الديانتين السابقتين في عمق القاع التشريعي وسعته وقدرته على الحركة.

فالديانتان:

اليهودية والمسيحية، ارتبطتا بالمرجلة التاريخية التي مرت فيها كل منهما، فكلتاهما توجهتا إلى بني إسرائيل.

ـ في اليهودية يتحرك الدين، عبادةً، و«حدوداً، وتشريعاً، وأخلاقاً، حول بني إسرائيل، لا يهتم بغيرهم من خلق الله.

وقد تكون ظروفهم آنذاك اقتضت ذلك فالله أدرى كيف ومتى وأين يضع رسالته، وهو أدرى بوسائل دعمها وتثبيتها.

أما نحن فلنا أن نرى ذلك الدين وتلك الشريعة يوجههما الشديد المتكبر البالغ أقصى درجات العينية والحدية، والحامل على جبينه وبين عينيه ملامح العنف التاريخي الذي مرَّ به الإسرائيليون.

لذلك جاء المسيح، مكلفاً، بتخفيف الكثير من هذه القسوة، ونابذاً، روح الغطرسة والتكبر، ومحللاً الكثير مما كان محرماً على بني إسرائيل.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (٥٠ ـ آل عمران).

«سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخرك ميلاً فاذهب معه ميلين ومن سألك فاعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده».

«سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم»...

(من خطبة المسيح على الجبل ـ متى ٣٨/٥ ـ ٤٠).

لذلك:

ما إن أذن الله بتطور الإنسان حتى أصبحت هاتان الديانتان عاجزتين عن تلبية المطالب التشريعية المعقدة، التي فرضتها طبيعة الإنسان المتطورة باستمرار. فخرجتا من الحياة التشريعية مثلما خرج الكتابان «التوراة والإنجيل» تقلصت مهمتهما إلى كتابين للعبادة الكنسية، ولم يبق منهما ما له قدرةٌ على التحرك مع الناس غير الوصايا التي تنتمي إلى قواعد الأخلاق وليس إلى قواعد التشريع والعلوم الاجتماعية.

ـ أما في الإسلام فالأمر مختلف.

لقد حل التجريد محل الحدِّية والعينية.

وقامت شمولية الدعوة مقام التخصيص بشعب أو أمة أو بلد معين. فالخلْقُ في الإسلام كلهم، عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله[1]. والناس متساوون، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، لأنهم إخوة لآدم وآدم من تراب[2].

وبذلك: استطاع الإسلام أن يظل على تماسٍّ دائمٍ مع حاجات الإنسان الروحية والعقلية والمادية المتنامية على الدوام.

---

(١) حديث شريف.

(٢) حديث شريف.

وهو يصف نفسه، بأنه الدين الحق.

كما يقول المفسرون في معنى الآية ٤٨ ـ من سورة الفتح:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

إن الذين اتبعوا دين الحق مأمورون بمقتضى تعاليمه أن يظلوا جادين في البحث عن الحقيقة. والحقيقة في مفهومهم، ليست في تجميع ما يتركه الأسلاف من شروح وتفاسير لأحكام الفروض والعبادات ولكنها القوانين التي أبدع الله الأكوان بموجبها والتي يأذن الله لعقل الإنسان بين الحين والحين ما يريد له أن يكتشف منها والتي هي في طريق الظهور بالمقدار والوقت الذي يريده مبدع الكون وبالمستويات العلمية التي وصل إليها عقل الإنسان.

ومن أجل تأكيد ذلك. جعل الله الدين حقاً، وجعل الحق ديناً، فقرنهما. دون وصف أو عطف فاصل ليبين شدة الارتباط وكماله بينهما. فالدين هو الالتزام والطاعة والسلطان وهو أيضاً العادة. وكانت العرب تقول «ما زال ذلك ديني وديدني» أي عادتي والتزامي. فكما أن المدين ملتزمٌ تجاه الدائن بالوفاء هكذا التزام المسلم نحو العقيدة في الاستمرار على طلب الحق ونشدان الحقيقة.

ولذلك:

أكد الله بأن الإسلام هو الدين الذي يتقبله من عباده. وأن الإسلام هو بغية الذين أنعم الله عليهم بالقبول.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ (٣/١٩).

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٣/٨٥).

وفي الآية ٩/٣٣ ـ أوضح القرآن سبب تفرد الإسلام بهذه الخُطوة الإلهية فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾. فتجاوز بهذا الشمول حدود الطقوس والمظاهر التي تختلف فيها الأديان والتي يستدل بظاهرها على تابعيها... واعتبر كل من سعى جاهداً وراء الحقيقة، والهداية، وإبراز ما أمكن من مكنونات عظمة الخالق وإعجازه من خلال

الكشف عن القوانين التي أقام الله عليها الأكوان، هو مسلم، وإسلامه إسلام الفطرة السليمة، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ ١٣٨ البقرة.

تلك الخصائص:

جعلت الإسلام وعاءً رحبَ الأبعاد، احتضن ويحتضن جميع العقائد والحقائق والمعارف. وهذا هو تفسير كلمة «ليظهره» فالإظهار هو الاحتواء والغلبة والتمكين من الظفر.

لقد احتلت قاعدة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» موقعاً من أهم المواقع التشريعية والسلوك الإسلامي، لمطواعيتها ومرونتها وقدرتها على الحركة عبر الأزمنة والأمكنة «فأينما وجدت المصلحة فثمَّ شرع الله ودينه»[1].

والمصلحة هنا، هي مصلحة المجتمع بمن فيه وبما فيه، إذ لا تتحقق العدالة العامة إلا بتحقيقها، فهي تدور دوماً في فلك «الحسن والقبيح والنافع والضار» متجوزةً في الغالب «فلك الحلال والحرام والفروض والحدود».

حتى أن هذه القاعدة تقدمت ـ لأهميتها ـ في العديد من آيات القرآن وحض عليها النبي في الكثير من أحاديثه ومواقفه:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (٣/١٠٤ ـ آل عمران).

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (٣/١١٠ ـ آل عمران).

﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ (٩/١١٢ ـ التوبة).

ففي الأولى : خَصَّ الآمِرين بالمعروف بقوله **﴿وأولئك هم المفلحون﴾**.

وفي الثانية : حَضَّ على هذه القاعدة قبل الإيمان بالله لأنه اعتبرها نتيجة من نتائج الإيمان فلا تصدر إلا عن المؤمنين.

وفي الثالثة قدم أصحابها على الحافظين لحدود الله.

---

(١) ابن قيِّم الجوزية.

ولقد سئل النبي (ص) وهو قائم على المنبر: يا رسول الله أي الرجل خير؟ قال: «خير الرجل أقْراهُم وأوفاهم وآمَرُهم بالمعروف وأنهَاهُمْ عن المنكر وأوْصَلُهُم للرحم».

وعلى هذا الأساس من قاعدة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لا يكون المسلم الصيني الذي يبر والديه بمقتضى العرف السائد في بلاده أقل إسلاماً وخيراً من المسلم الحجازي الذي يبرهما بمقتضى الأعراف السائدة في مكة. لأن كلّاً منهما يطبق شرع الله ودينه.

....

ذلك التفصيل الذي نرجو ألا يكون قد سبَّب شيئاً من الضجر عند القارىء، كان في رأينا حقاً من حقوق البحث علينا لنبيِّن أن الإسلام الذي جاء بعد فترة من الرسل تزيد على ستة قرون، وجد بين الناس كمّاً كبيراً من العقائد والشرائع والعادات والطقوس والقناعات منها ما هو عميق الجذور في تربة المجتمع، فَألِفَهُ ورضي به وتعامل معه الذوق الاجتماعي العام. ومنها ما فقد اعتباره العملي وتأثيره الخلقي فصار مستنكراً بسبب التطور الذي دفع بالمجتمع إلى تجاوزه في المعرفة والتنظيم والتشريع.

فأبقى على ما أبقى وعدَّل ما عدَّل، ونسخ ما نسخ، لكي يقيم البناء السليم لشخصية الإنسان وشخصية المجتمع. وهو في تعديله ونسخه لا يلغي ولا يعرِّض ولا يندد بل يلتزم بالقاعدة القرآنية. ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٢/١٠٦) فللمنسوخ اعتباره وتقديره الشرعي،في الذاكرة والتراث وفي أنه كان فيما مضى دليل الهدى والإرشاد. ثم تجاوزته الحياة، بما منحت أبناءها من تطور في المعارف والحقوق والواجبات.

....

بهذا المنظار، وبهذا التقييم.

يجب أن نقرأ ـ بلا شطط ـ حالات التلاقي والتعديل والاختلاف بين الشرائع قديمها وحديثها.

وعلى هذا الأساس من واقع العلم والحياة، نَنْظُرُ إلى الفروض والعبادات

التي يقوم عليها كل دين، وكيف تعدلت، وتطورت، وموروست، بأوضاع مختلفة من دين إلى دين.

. . . .

. . . .

إنه ـ وإن كان ذلك التمهيد كافياً في نظرنا لتفتيت النتائج التي استخلصها أبو موسى ـ فإننا ندعو القارىء إلى جولة على بعض المواضيع التي أقام عليها نتائجه واستورد لها المؤيدات من المراجع اليهودية والمسيحية والنصرانية والإسلامية، وذلك كما يلي.

جـ ـ الختان:

إننا نوافق المؤلف على أن الختان، عادة اتبعها السوريون والمصريون والعرب وغيرهم من الشعوب. منذ القديم. ثم جاءت التوراة فجعلتها سُنَّةً إلهية، وعلامةً تذكِّرُ الإنسان بانتمائه العضوي إلى شعب الله المختار وتبذكِّرةً بعهد الله معه[1] كما نوافق المؤلف على أن الإسلام لم يشرع لهذه الحالة، لأنه اعتبرها من خصال الفطرة كما قال الرسول «ولأنه سُنَّةُ الرجال ومكْرُمَةٌ للنساء»[2].

ولكننا لا نوافق المؤلف:

عندما يورد نصوصاً مغشوشة، ويقدمها تقديماً غير صحيح، وينسبها إلى مصادر مقدسة: فهو يقول في الصحيفة ١٣٢ ـ:

«لقد مارس النصارى على مختلف فرقهم هذه السُنَّة واعتبروها شرطاً أساسياً من شروط الإيمان بالمسيح».

ويستهشد على ذلك في هامش الصحيفة المذكورة:

ـ بأعمال الرسل ١٥/١ ـ ٣٥.

---

(١) أول من اختتن هو إسماعيل بن إبراهيم وكان عمره ثلاثة عشر عاماً تقريباً حيث قام والده بعملية ختانه مع كل الذكور من الخدم في البيت. وكان عمر إبراهيم تجاوز التسعين (التكوين).

(٢) حديث شريف أخرجه الإمام أحمد.

ـ والرسالة إلى الغلاطيين ٢/٧ ـ ١١.

ثم يقول:

«إلا أن أتباع بولس الرسول من المسيحيين لم يخضعوا لهذه الشريعة بل رفضوها رفضاً قاطعاً».

واستشهد على رفضهم:

ـ برسالة بولس إلى روما ٢٥ ـ ٢٩ وإلى غلاطية ٦/٥ و١٥/٦ (ص ١٣٢ ـ من كتابه).

ولكنَّ العودة إلى هذه الأقوال في مصادرها بينت أنَّها لا تتضمن الحكم الشرعي الذي نسبه إليها المؤلف، ولم يرد في هذه الأقوال أنَّ الختان شرط أساسي من شروط الإيمان بالمسيح في أي عهد من عهود المسيحية.

وهذه هي الأقوال بحرفيتها:

أ ـ أعمال الرسل ـ ١/١٥ ـ ٣٥: «وانحدر قوم من اليهودية يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا، ولكن قام أناس من الذين آمنوا من مذهب الفريسيين وقالوا إنه ينبغي أن يختتنوا وأن يوصوا بحفظ ناموس موسى. ولكن ذلك لم يلق قبولاً فكتبوا هكذا: الرسل والمشايخ والإخوة يهدون سلاماً إلى الإخوة الذين من الأمم في أنطاكية وسورية وكيليكية إنه قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس الذي نحن لم نأمرهم» ١ ـ ٣٥.

ب ـ من رسالة بولس إلى أهل غلاطية:

«فإن هؤلاء المعتبرين لم يشيروا عليَّ بشيء بل بالعكس إذ رأوني أؤتمنت على إنجيل «الغُرْلَة» كما بطرس على إنجيل الختان بطرس كان ملوماً لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم ولكن لما أتوا كان يؤخِّر نفسه خائفاً من الذين هم من الختان ـ ١١ ـ ١٢».

فمن هذين النَّصَّين الذين اعتمد عليهما المؤلف يتبين:

ـ أن النصارى لم يكونوا متفقين بجميع فرقهم ـ كما زعم ـ على ممارسة

الختان أو على اعتباره شرطاً أساسياً للإيمان. بل يكاد العكس أن يكون هو الذي جرى عليه الاتفاق مثلما هو واضح في كتاب الرسل والمشايخ والإخوة إلى الأُمم في أنطاكيا وسوريا وكيليكية يستنكرون أن يكونوا قد أمروا بالختان أو اعتبروه شرطاً للخلاص والإيمان. وهذه الرسالة، انطلقت من أورشليم إلى البلدان.

ـ حتى رسالة بولس إلى أهل غلاطية:

ليس فيها شيء مما جاء به المؤلف. بل ترك الرسول بولس فيها إلى الناس حرية الاختيار، تركاً ضمنياً، مستَدَلاً عليه، من قوله إنه أؤتمن على إنجيل الغرلة، كما أؤتمن بطرس على إنجيل الختان.

وكان كل من الرسولين يكرز في مكان ما.

ـ فبولس في أنطاكية وكيليكية، واليونان، وأهلها من الأُمم التي ليس فيها انتشار يهودي.

ـ وبطرس، كان آنذاك يكرز في أماكن انتشار اليهودية.

فلا اليهود كانوا مهيئين ومستعدين إلى ترك الختان، الذي ورثوه إرثاً عقائدياً، ولا الأُمم كانُوا مستعدين آنذاك لممارسته لأنه لا يرتبط عندهم بأي طقس موروث أو عادة مقدسة.

ولو كان الختان شرطاً للإيمان، كما يزعم المؤلف:

ـ لكان واجب التنفيذ في كل مكان، وليس في إنجيل بطرس فقط.

ـ كما لو كان مرفوضاً رفضاً قاطعاً لما سمح لبطرس أن يكون مؤتمناً عليه في مكان ما. وفي الآيات نفسها من رسالة بولس إلى غلاطية (٧ ـ ١١ ـ ١٢) معالجة دقيقة لمسألة الختان، وتحديد لموقعها الشرعي في العقيدة عند المسيحيين. فهو يقول:

«الختان ينفع إذا عملت النّاموس ولكن إذا كنت متعدياً على الناموس فقد صار الختان غرلة».

«ختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان».

«لأنه في يسوع المسيح ليس الختان شيئاً ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبة».

«لأنـه في المسيح يسـوع ليس الختان ينفـع شيئاً ولا الغـرلة بـل الخليقـة الجديدة».

. . . .

تلك الشواهد أثبتناها بحرفيتها من مصادرها. وهي نفسها التي اعتمد عليها أبو موسى، تنقُضُ دعواه وترفُضُ أقواله. وتكشِفُ أسلوبه في الوضع.

د ـ الخمر:

قال المؤلف في الصحيفة ١٣٤ ـ:

«لقد حرَّمها النصارى الأبيونيون، لذلك حرمها القـرآن: فقال فيهـا: **﴿هي رجسٌ من عملِ الشّيطان فاجتنبوه﴾** (٢ ـ ٢٩٢) في حين أن اليهودية والمسيحية لم تحرماها.

فالمؤلف يرى أن القرآن لم يحرمها إلا لأن الأبيونيين حرموها.

وهو في قوله ينسى، ما كان قد أكّد عليه سابقاً من أن الإسلام، هو وحي لاحق استمر من وحي سابق وأن القرآن هو استمـرار للإنجيـل كما أن الإنجيـل استمرارٌ للتوراة.

فالوحي لا يكون إلا من الله.

وإن كان الوحي واحداً، وكان قـوةً إلهيةً مستمـرة في الأنبياء والكتب فـإن التشكيك به في المرحلة الإسلامية ينسحب إلى المرحلة المسيحية واليهودية على السواء.

والأمر الذي نريد أن نخلص إليه هو أن التحريم والتحليل يتمان بمشيئة الله التي تُبَلَّغ إلى الناس عن طريق النبي بعد أن يتلقاها من الوحي.

وقد مرَّ معنا أن عيسى بن مريم، حلَّل بعض المحرمات التـوراتية ووضـع بعض القواعد الأخلاقية التي تنسخ ما سبقها، وذلك تخفيفاً من الله على الناس ثم لا يختلف اثنان في أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من العادات الفاسدة التي كانت سائدةً في المجتمع الجاهلي. وكانت متحكِّمة في عقول وإرادة الكثيرين.

لذلك:

اتبع الوحي أسلوب التعليم المرحلي، في تحريمها. وذلك لكي يأتلف الناس، فيقبلوا التشريع ويقتنعوا بتنفيذه دون فرض أو جبر. فالنبي أوتيَ من الحكمة وسداد الرأي ومواهب القيادة ما أعانه على نشر الدعوة الإسلامية بالموعظة والصدق في القول والعمل. فهو كما وصفه القرآن:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ١٥٩/٣

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. القلم ٦٨/٤

١ ـ أول آية نزلت:

هي الآية ٢١٩/٢ ـ من سورة البقرة: وقد نزلت بأسلوب جدلي نقاشي:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

فالإثم: هو من جهة الدين،

والنفع: هو من جهة الدُّنيا، سواء أكان ذلك للبدن من حيث الهضم وشحذ الذهن والنشوة أم كان للتجارة بها، وقد قال فيها الشاعر حسَّان بن ثابت:

ونشربها فتتركُنّا ملوكاً وأُسداً لا ينهنهنا اللقاء

فالقرآن لم يهمل المنافع التي تذرع بها المدمنون. ولكنه ركَّز على الإثم الكبير ووضعَهُما مُتَقابِلَيْن وطَرَحَهُمَا للجدل في عقول الناس لكي يتبينوا بأنفسهم ضرورة الابتعاد عنهما.

٢ ـ والآية الثانية نزلت في سورة النساء. هي الآية ٤٣ ـ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

هنا: يخْطُو التشريعُ القرآني خطوةً متقدمةً. حيث ينتقل بالناس من مرحلة المفاضلة بين الإثم الكبير والنفع، إلى التخطير والتحذير.

فالصلوات الخمسة، تمارس مع نوافلها، في كل يوم، بمواعيد متلاحقة غير متباعدة، بحيث يصعب على من شَرِبَ الخمر حتى انطفأ تمييزُهُ، أنْ يثوبَ إلى كمال رشده، خلال الفترة الفاصلة بين الميقات والميقات وبذلك بات على

المسلم، أن يقلل كثيراً من الخمر، حتى يستطيع المثول بين يدي الله وهو مدركٌ لما يقول ويفعل.

وبالرغم من أن هذه الآية لم تكن حاسمة في التحريم، فقد كانت دفعاً بالوعي التشريعي إلى الأمام. وكان الناس ينتظرون الحكم الإلهي النهائي فقد صحَّ عن عمر أنه كان يدعو بين يدي رسول الله (ص):

«اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً» (ابن كثير).

٣ - ثم نزلت الآيتان ٩٠ - ٩١ - في سورة المائدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾.

فكانت في هاتين الآيتين المرحلة الأخيرة التي استقر عليها التشريع. وهي مرحلة التحريم الصريح القاطع.

ذلك التسلسل التشريعي، يعطي الدليل على المصدر الإلهي، إذ لو كان اقتباساً أو تقليداً لصار الاقتباس دفعة واحدة إذ، لم يسبق في أي تشريع غير القرآن أنه، جاء تحريم شيء أو تحليله على مراحل.

ولقد ثبت أن عدداً من المسلمين تجمعوا عند النبي بعد آيتي المائدة وقالوا: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على «سَرَفهم» كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان. فقال النبي: ﴿لو حُرِّمَ عليهم لتركُوه كما تركتم﴾. ثم نزلت الآية ٩٣ - من المائدة حاسمة للجدل في هذا الشأن:

﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

وفي حديث رواه الإمام أحمد:

إن النبي شَقَّ زِقَّ الخمر في المِرْبَد، بالسكين وأساله على البطحاء وقال:

«لعنت الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وقابضُ ثمنها».

أما ما جرى بين النبي يوسف وصاحبي السجن.
وما ورد عن خمر الجنة.

فهما لا يدخلان في محور البحث الإسلامي:
لأن الإخبار الأول كان عن المصريين القدماء.
ولأن خمر الجنة تختلف عن خمر الدنيا، فقد وصفها القرآن بقوله:
﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات).

والغَوْلُ هو صداع الرأس ووجع البطن وهو ما تصنعه خمر الدنيا وقد قال السُّدِّي: الغول هو اغتيال العقل:
كما قال الشاعر:
وما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول

ويرغم ما في الآيتين ٩٠ و ٩١ من تصريح بالتحريم، فقد ظل الجدل يقوم بين الوقت والآخر حول التحريم، وهل إن القرآن حرم تحريماً قاطعاً أم أمر بالاجتناب فقط.

فإننا ـ وإن تكن غاية هذا الكتاب محددة ـ نقدم رأياً بهذا الخصوص يتلخص بالآتي:

١ ـ لقد وصفت الخمر **﴿بأنها رجس من عمل الشيطان﴾** ووصفت: **﴿بأن فيها إثماً كبيراً هو أكبر من منافعها﴾**.

وجاء الأمر «بالاجتناب» في أول آية من آيات الخمر.

لذلك يحسن شرح معنى «الإثم» و «الرجس» و «الاجتناب» لكي نصل إلى المقصود الحقيقي في القرآن.

ـ فالإثم هو الذنب، والمعصية. قال الفراء: الأثيم هو الفاجر والإثم عند بعضهم هو شرب الخمر. فقد روي عن شاعر قديم:

شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي   كذاك الإثم تذهب بالعُقُول

ـ والرجس هو النجاسة والقذارة ويُعبَّر به عن القبيح والحرام والكفر واللعنة والرجس في القرآن هو الشك والعذاب.

فالخمرة هي الإثم الكبير لذلك تُعتبر، ذنباً كبيراً ومعصيةً غير عادية وقد حُرِّمت بشكل قاطع.

٢ ـ بعدها: فلنقرأ الآية ٣٣ ـ من الأعراف التي جاءت بصيغة الأمر التحريمي: وذلك لتأكيد مضمون الفقرة (١):

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

هنا: يأتي التحريم قاطعاً للإثم العادي. فكيف بالإثم الكبير.

٧ ـ أما الاجتناب فإنه، ينطوي على أمر تحريمي أعمق أثراً ونهياً من التحريم العادي... وقد تخصصت موبقات «الخمر والميسر والزنا» بالاجتناب أي بعدم الاقتراب من الأجواء والظروف التي تقود إليها. وذلك لأن هذه الموبقات تنطلق بحكم الغرائز، التي يصعب التحكم فيها وكبحها بعد توفر ظروفها فنبي الله يوسف كاد أن يقع في الإثم عندما همَّت به وهم بها لولا أن صرف الله عنه السوء والفحشاء، وذلك بعد أن قامت الظروف التي تحرض على الارتكاب ١٢/٣٤ ـ لهذا ـ كان اجتناب مجالسها، والابتعاد عن الظروف والشروط التي توفرها، عامل مساعد على تركها.

وفي هذا، دليل على الفهم العميق لطبيعة الإنسان، وتفوق عجيب في أساليب التربية وتنمية الأخلاق السامية.

لذلك:

يخطىء الذين يفهمون «الاجتناب» بأنه مفهوم قريب من الإباحة.

هـ ـ الصلاة:

وصل المؤلف إلى مرحلة الترنح، من شدة الخطأ، وهو يعطي مفهومه للصلاة الإسلامية. وقد كان من حقه كل العذر، فيما لو لم يقدم خطأه في كتاب يعرض

وُجْهَةَ نظر علمية مُعَداً لكي يقرأه كل الناس فقد قال في الصحيفة ١٣٧ ـ

«الصلاة بحسب أوقاتها المحدودة، هي نفسها في النصرانية والإسلام، ثلاث مرات في اليوم، عند الصبح، والظهر، والغروب. وما سوى ذلك فهو من النوافل. وقد حدد القرآن ذلك بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۢ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ (٢٤/٥٨).

ويسمي القرآن في مكان آخر صلاة العصر بصلاة الوسطى (٢/٢٣٨).

هذه الأقوال حافظنا عليها ونقلناها بحرفيتها عن المؤلف كما حافظنا على استدلاله بالآية ٢٤/٥٨.

وبموجبها تكون الأمور كالآتي:

ـ لصلاة عند المسلمين هي نفسها عند النصارى. وبما أن صلاة النصارى أقدم من صلاة المسلمين بستة قرون فإن الثانية مأخوذة عن الأولى ومنسوخة عنها.

ـ والصلوات هي ثلاثة، في كل يوم، وما سواها نوافل.

والشاهد في هذا القول هو القرآن بالطبع، فأبو موسى يستطيع أن يجد في القرآن أي شيء يريده، وأن يتصرف فيه بالكيفية التي يختارها والآية القرآنية موجودة بالانتظار:

هي الآية: ٢٤/٥٨.

وإذن؟ ماذا يفعل المسلمون قاطبة في صلاتي العصر والعشاء؟ هل هما نوافل لا تقامان إلا استحباباً.

ولكن؟! ما لنا ولهذا العبث من المؤلف. فلنعد إلى الآية ٤/٥٨. ولنقرأها مع المؤلف، ولنتبين فيما بعد من خلالها، إذا كان المسلمون يصلُّون منذ عهد النبي فَرضَيْ العصر والعشاء في حين أنهما نافلتان تقامان استحباباً، لا يجازى المسلم إن تركهما ويثاب إن أقامهما.

ـ ٢٤/٥٨ ـ النور: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

فهل قرأ المؤلف هذه الآية قبل أن يعتمد عليها لإلغاء فرضَيْ العصر والعشاء؟ وإن قرأها فهل حاول معرفة مضمونها؟

ما لنا؟ فهذه الآية لا تتحدث عن الصلوات أبداً. بل هي في آداب الزيارة ووجوب الاستئذان قبل الدخول، في ثلاثة.

ـ قبل صلاة الفجر لأن الناس يكونون نياماً.

ـ وعندما يضع الإنسان ثيابه ويتخفف منها، للقيلولة ظهراً.

ـ ومن بعد صلاة العشاء، لأنه يكون وقت النوم.

ـ هذه الأوقات الثلاثة، اعتبرها القرآن عورات[1].

بعد ذلك صار في الإمكان معرفة السبب الذي دفع بالمؤلف إلى حذف حكم الآية ٢٤/٥٨ وحذف غايتها.

ـ أما الصلاة الوسطى، فهي ليست صلاة الظهيرة. إذ لا ظهيرة (بالتصغير) في الصلاة، بل الوسطى هي صلاة العصر، لأنها تتوسط الصلوات الأربعة الصبح والظهر قبلها والمغرب والعشاء بعدها.

ـ وأما نافلة الليل.

فوجوبها محصور بالنبي لأنها وجهت إليه بالتخصيص.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٧٩ - الإسراء).

وذلك أخذاً من معنى «نافلة لك» فقيل: إن قيام الليل واجب في حقه دون الأمة، لأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. أما غيره فهي كفارة له عن ذنوبه.

(١) العورة: كل ما يتخوف منه أو يُستحيا منه إذا ظهر. وهي مكمن الستر. وعورة الرجل والمرأة سوأتهما. وقد نزلت الآية لمنع دخول الولدان وما ملكت الأيمان إلا بعد الاستئذان.

ـ بقي أن نقول كلمة في استقبال الكعبة بالصلاة، بعد أن ظل المسلمون في المدينة بضعة عشر شهراً يستقبلون بيت القدس.

فقد سبق عملية نقل الاتجاه إلى الكعبة نزول الآية ١٤٢ ـ من سورة البقرة وفيها تنبؤ عما سوف يقولونه عن سبب هذا التوليِّ الذي كان وُعِدَ به الرسولُ من قبل:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ۝ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

و ـ الصوم:

والصوم سُنَّة عامة في جميع الأديان، ولكن توقيته الشهري يختلف عند المسلمين. هذا هو الصحيح.

ولكن غير الصحيح هو قول المؤلف: «إن أحكامه الإسلامية شبيهة بأحكامه عند النصارى ومأخوذة عنها».

ففريضة الصيام شرعت على مراحل، مثل تحريم الخمر، لما فيها من مجاهدة النفس.

ـ فقد نزلت الآيتان ١٨٣ و ١٨٤ من سورة البقرة لتضعا أول مرحلة تعليمية تربوية لفريضة الصيام:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

فالأصل في الصيام، هو الانقطاع عن الطعام والشراب والوقاع بنيَّة خالصة، وقد أوجبه الله على المسلمين أسوة حسنة مثل باقي الأمم هو أيام معدودات فقط لئلا يشق على النفس استمراره يومياً. وفي بدء الإسلام كان فرض الصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وقد طبقوه مع حق الاختيار بالفدية لمن يتخلف عنه وهي إطعام مسكين عن كل يوم يتخلف فيه الصائم عن صومه.

ـ ثم نسخت تلك الأحكام بالآية ١٨٥ ـ من سورة البقرة:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهكذا:

استقرت فريضة الصيام، بعد تحرك تشريعي إسلامي.

هنا: لا بد من التذكير أن تسلسل الآيات ١٨٣ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥ لا يدل على نزولها متتالية متقاربة في الزمن. إذ أن الآيتين ١٨٣ ـ ١٨٤ نزلتا لوضع المرحلة الأولى من مراحل الصوم، وبعد فترة من الاستمرار بتنفيذها أي: بعد أن قبلها الناس واعتادوا عليها، نزلت (الآية ١٨٥) فأمر النبي أن توضع بعد الآيتين المذكورتين. لأن جمع الآيات في سور، ووضعها في مواضعها كان عملاً توقيفياً على النبي، وليس توفيقياً على الصحابة كما مرَّ معنا سابقاً. لقد نَسَخَتْ (الآيةُ ١٨٥):

ـ صيامَ الأيام الثلاثة من كل شهر.

ـ واختيارَ الفدية.

ـ وأوجبت صيام شهر رمضان بكامله على كل مسلم ومسلمة، لا يرخَّص بالإفطار فيه إلا لمسافر أو مريض.

ولقد تعددت الأخبار الرسولية عن كرامة هذا الشهر.

فقد روى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله (ص) قال:

«أُنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لست مضين

منه، والإنجيل لثلاث عشرة خلت وأُنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان. وكتب الأنبياء كلها نزلت جملةً واحدةً في يومٍ واحدٍ. أما القرآن فقد نزل جملة من السماء إلى بيت العزة وكان ذلك في ليلة القدر».

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ٣/٤٤

قال ابن عباس: الليلة المباركة هي ليلة القدر من رمضان وقد أُنزل فيها القرآن جملة.

....

ز ـ المرأة:

قبل الوقوف على المقارنة التي أجراها المؤلف بين نظرة الإسلام إلى المرأة ونظرة اليهودية والمسيحية إليها، نضع الملحوظتين الآتيتين:

١ ـ لقد كانت النظرة الإسلامية إلى المرأة، نظرة متقدمة ومتطورة عما قبلها، عند كل الأمم.

ـ فقَبِلَ منها الإسهامَ العقائدي والعملي في الدعوة. فكانت «خديجة بنت خويلد» أول من دُعِيَ إلى الإسلام من النساء والرجال قاطبة وكانت ذات النطاقين الإنسان الوحيد الذي اؤتمن على موضع النبي وصاحبه عندما طلبا الهجرة إلى يثرب.

وفي أول بيعةٍ جماعيةٍ هي «بيعة الرضوان» حضر مع الرجال عدد غير قليل من النساء فبايعن مثلما بايع الرجال وأُلقيت عليهن أعباء الدعوة ووعورتها مثلما أُلقيت على الرجال.

وتحدث القرآن عن المؤمنات القانتات والراكعات والساجدات مثلما تحدث عن المؤمنين والقانتين والراكعين والساجدين.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ ﴾ (٣٠ ـ النور)

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (٣١ ـ النور).

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (٤٥ ـ النجم).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الحجرات ١٣/٤٩

ـ وقُبِلَت في الإسلام:

مشاركةُ المرأة في السياسة وقيادة الجيوش فكلُّنا يذكر أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، تخرج على رأس جيش كبير لتحارب في سبيل رأي سياسي وكان تحت لوائها، الصحابيان الجليلان الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله.[٢] كما، لن نستطيع أن ننسى:

خولة بنت الأزور، والخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمي، وسكينة بنت الحسين، وهند بنت عتبة وسواهن.

بعد هذا:

أعود إلى تبيان أخطاء المقارنة التي أجراها المؤلف بين النظرة الإسلامية إلى المرأة والنظرة اليهودية والمسيحية.

قال:

«الأمر شديد المشابهة فيما يخص المرأة، وأحكام الزواج والطلاق فيما بين التصرانية واليهودية من جهة وبين القرآن العربي من جهة ثانية، متماثلة:

ـ ففي كلتا الديانتين:

ـ ولادة الأنثى مصدر غم وبؤس.

ـ وفي الإسلام: **﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مُسوداً وهو كظيم... ﴾**.

ـ وفي كلتاهما: الحياة العامة مقصورة على الرجال. وكذلك في القرآن: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ... ﴾. الأحزاب ٣٣/٣٣

ـ والطلاق حق للرجل وحده في الإسلام. والزواج «العدل» يكون من أربع نساء. (ص ١٢٧ ـ ١٢٨).

. . . .

أما ما وجدناه من أخطاء في مقارنة المؤلف فهو ما يلي:

١ ـ لقد أخطأ في قراءة الآيات التي وضعها للمقارنة، فلم يراع مناسبتها، ولا كيفية نزولها، ولو فعل، لما كانت موضع مقارنة لأنها نزلت في مناسبات ولغايات مختلفة.

ـ الآية ١٦/٥٦ ـ ٥٨ أخبرت عن قبائح المشركين: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ـ ولأن الآية ٢٤/٧١ وردت في المحارم فقط.

ـ ولأن الآية ٣٣/٣٣ وردت مع الآية ٣٢ ـ في نساء النبي أصلاً وإن كان الحكم عاماً.

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾.

٢ ـ أما قول المؤلف: «بأن الطلاق هو حق الرجل في الإسلام، مثلما هو عند اليهودية والنصرانية». فهو قول من لم يستوعب الأحكام الإسلامية استيعاباً كافياً».

لأن الزواج في الإسلام، هو عقد يجب أن تتوفر فيه علانية القبول وحرية الإرادة بين الطرفين، وما لم يصدر عن إرادتين حرتين بالغتين كاملتي الأهلية فإنه لا يتم ولا ينعقد، وإن انعقد فهو باطل وقابل للإلغاء.

وحرية الاختيار، والإرادة، عند المرأة، هي حرية مصونة بالقوانين التي تنظم الأحوال الشخصية أخذاً من الدستور الإسلامي.

وبموجب هذه الحرية تستطيع المرأة أن تفرض ما تشاء من الشروط التي تحفظ لها كرامتها ولياقتها الاجتماعية وأن تسجل ذلك كله في عقد الزواج عند انعقاده، ويكون لها قوة النفاذ كما لسائر العقود الرسمية[1].

---

(١) أنظر المادة ٨٧ ـ من قانون الأحوال الشخصية السوري أخذاً عن مذهب الإمام أبي حنيفة.

ومن بين هذه الشروط، شرط حق المرأة بتطليق نفسها إلى أن يصبح بائناً متى رغبت في ذلك ووجدت أن إستمرار الحياة الزوجية أصبحت مكابدة لا يستطاع احتمالها.

٣ ـ وكذلك كان مخطئاً جداً عندما قال: «إن الزواج العدل عند الإسلام هو أربعة»، لأنه لم يقرأ من القرآن شيئاً ـ فيما يتعلق بخصوص الزواج ـ على ما يبدو. ولو قرأه لوجد:

﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (٤/٣ ـ النساء).

ولو قرأه لوجد في ذات السورة:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾. (٤/١٢٩ ـ النساء).

ومجمل المعنى الإسلامي هنا هو:

إن خفتم في تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن فاقتصروا على واحدة ثم لا تلبث الآية ١٢٩ ـ أن تصرِّح بعدم الاستطاعة في «العدل بين النساء» حتى ولو حرص الرجل على ذلك. (والمقصود هنا هو العدل القلبي فلا يلام عليه الرجل).

وفي هذا يقول ابن عباس: إن وقع العدلُ بين النساء أياماً معدودات فلا بد من التفاوت في المحبة والاشتهاء والجماع. وقد رويت الأحاديث الكثيرة في التحذير من الميل غير المتساوي. وذلك كله، لكي يبتعد الناس عن التعدد، فقد روى أحمد وصاحب السنن عن النبي: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيام وأحد شقيه ساقط».

فمن هذه المعاني جملة:

نخرج بنتيجة، هي أن الإسلام لا يعتبر زواج الأربعة هو الزواج المثالي، العدل، بل يعتبره خلاف ذلك، ويجزم بأن الرجل لو حرص لن يستطيع تحقيق العدل بين زوجاته.

بعد هذا:

نستطيع أن نقول:

١ ـ لن يدلنا المؤلف على نص في الشرائع القديمة، يماثل النص الإسلامي في تخيير المرأة بتطليق نفسها.

ـ وإن كانت الشريعتان اليهودية والنصرانية ـ المسيحية، أباحتا تعدد الزوجات ـ كما قال[1]. فإن حق الخيار وحرية الإرادة، لم تكونا متوفرتين مثلما كانتا في الشريعة الإسلامية.

ـ ولن يدلنا المؤلف على مشاركة المرأة في الحياة العامة، عند الشريعتين السابقتين، بالقدر الذي كانت تتمتع به المرأة المسلمة.

٢ ـ طبعاً، نحن والمؤلف نلتقي على صعيد التاريخ في هذا البحث، لأنه يتعلق بوقائع وشرائع وأحداث وقعت منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً، لذلك ينبغي ألا تنسحب أحكامنا على الظرف الراهن الذي تداخلت فيه كثير من العوامل السياسية والاقتصادية. فجعلت المجتمعات الإسلامية، مجتمعات متخلفة.

ولسنا هنا، في صدد البحث، ودراسة الأسباب، التي أدت إلى هذا التخلف، وأقصت الفكر الإسلامي عن موقعه المتقدم الذي حافظ عليه أكثر من سبعة قرون.

....

....

ح ـ لحم الخنزير: قال المؤلف:

حرمته اليهودية، حتى اعتبرت لمسه نجاسة.

وكذلك النصرانية، ثم سار الإسلام على النهج النصراني في التقاليد وعلى الشريعة الموسوية في التحريم (ص ١٣٥).

يقدم المؤلف مؤيدات التحريم عند النصارى من أعمال الرسل: ٢١/٢٥ و ١٥/٢٠ و ١٥/٢٨ ـ ٢٩.

---

(١) ص ١٣٨ ـ من قس ونبي: عدد المصادر النصرانية واليهودية التي أباحت التعدد.

ونحن لن يفوتنا التنبيه إلى أن المؤلف، عندما يتحدث عن النصارى يقدم أدلته من المراجع المسيحية، مع أنه فرَّق تفريقاً عقائديّاً كاملاً بين المسيحية والنصرانية فأعمال الرسل التي استشهد بها على التحريم النصراني للحم الخنزير، هي مرجع مسيحي لا نصراني. ومع ذلك. . .

فهو غير دقيق في جلب الأدلة، وغير حريص على عرضها بحقيقتها، بل يقدمها محرَّفة حيناً ومجزَّأَةً حيناً. مثلما سلك في قراءته للقرآن.

ـ ففي الإصحاح ٢١/٢٥ من أعمال الرسل. لا توجد كلمة واحدة في جميع آيات الإصحاح ٢١ ـ عن تحريم لحم الخنزير.

والآية ٢٥ ـ المعتمدة منه: عبارة عن وعظٍ موجَّهٍ إلى المؤمنين كي يحافظوا على أنفسهم من الدم والمخنوق والزنا وما يذبح على الأصنام.

ـ وفي الإصحاح ١٥/٢٠ ـ ٢٨ ـ ٢٩ لا يوجد فيه أيضاً أكثر مما في الآية ٢٥ ـ من الإصحاح ٢١ ـ وهو المحافظة على النفس من نجاسات الأصنام والمخنوق والدم والزنا.

وإذ نبين هذا البيان.

فإننا نأمل من القارىء أن يعود إلى هذه الآيات في مصادرها ليلمس بيده مقدار جرأة المؤلف على نهب النصوص واغتيالها وإخضاع معانيها على مقاسات أهدافه، لا فرق بين أن تكون توراتية أو مسيحية أو إسلامية. الكل، يخضع عنده لعملية التقليم والتقويم وضغط المقاصد.

ثالثاً ـ ورابعاً ـ وخامساً

في الحسنات والصدقات ـ الجنة والنار ـ أمثال الإنجيل القرآنية

وردت هذه العناوين في الكتاب بفقرات مستقلة وتحت الأرقام، ثالثاً ـ رابعاً ـ خامساً ـ فاستغرقت خمسين صحيفة تقريباً. وهي كلها تنطلق من فكرة واحدة وتقوم على أساس واحد وتتجه نحو غايةٍ واحدة هي الغاية التي تكاد تتكرر في كل صحيفة من صحائف الكتاب.

وكيلا نرهق القارىء بالتكرار الذي يشدنا إليه المؤلف دوماً وَضَعْنَا هذه الفقرات تحت عنوان واحد لكي نقدم لها مناقشة واحدة مختصرة بما أمكن.

فالفكرة التي ما فتىء المؤلف يحفر لها أعماقاً وأخاديد في قناعات القراء هي أن الدين الإسلامي، عقيدةً، وفكراً، وعلماً، ومناهجَ سلوك.

وكذلك القرآن، دستورُ المسلمين ونبعُ قيمهم وأخلاقهم.

كلُّ هذا مأخوذٌ، تسلُّطاً واقتداراً، بالترجمة والمحاكاة، عن الإنجيل الأبيوني والمصادر المسيحية واليهودية.

لذلك:

وَضَعَتْ هذه الفكرةُ، عدداً من آيات القرآن مقابل الكثير من آياتِ التوراة والإنجيل وأعمال الرسل، في عملية مضاهاة، مستنتجة من كل ذلك تقديم الدليل اليقيني على صحة وثبوت النقل والترجمة.

وبما:

أن المؤلف، خسر لدينا مصداقية العالم النزيه، بسبب التحزُّب الذي لم يخل منه تفسيره لنص، أو شرحه لمصدر، أو نسخه لآية، أو دليل من أي مرجع، فقد عكفت على صحائفه الخمسين، بفقراتها الثلاثة. تفكيكاً ونقداً، وتدقيقاً، وعوداً بالنصوص إلى مصادرها، وتقديمها إلى القارىء، بحقيقة كلماتها وغاياتها وآثارها.

وقد تجاوزت، أسلوب الكاتب، ووقفت عند الخطوط العريضة من أفكاره ضناً بوقت القارىء.

١ ـ فالحسنات والصداقات، إذ تشكّل العمود الفقري للوجه الأخلاقي في الإسلام تشكّل لب العقائد الدينية جميعاً.

فمن أجلها قامت حروب الحسم والتصفية ضد الظالمين دفاعاً عن حقوق المظلومين، وهي حقوق إنسانية عامة أهمها:

الإنفاق، ودفع حالات العسر عن المعسرين، وإطعام الجياع، ومعاداة الغنى المقرون بالتسلط والاستغلال، واحتقار البخل حتى الوصول بصاحبه إلى النار وربط مصير الخلاص بمقاومة الأغنياء والإحسان إلى الفقراء.

جميعها، مبادىء: كما هي من صميم الإسلام، كذلك هي في صميم الأديان جميعاً... لأنها تشكّل وحدة الهدف في الدين الذي تتوحد فيه الديانات منذ تكونها لأول مرة. ولكنها كانت تختلف في وسائل الإيصال والتنفيذ من عصر إلى عصر (من دين إلى دين).

هذه الوحدة الغائيّة الطبيعية. قرأها المؤلف قراءة خاطئة.

إذ بدلاً من أن يراها من أوامر الله، لتحقيق الغاية الواحدة من الدين الواحد حصرها في الأبيونية: من حيث البداية والمنشأ والأصل.

وقصرها في الإسلام: على المصادرة والترجمة الحرفية.

فيقول: في ص ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ وما بعدها.

ـ «إن وجود أصلها الأبيوني، يشكل الدليل القاطع على انتماء محمد إلى جماعة الأبيونيين» ص ١٤٦.

ـ «وتحرك الدعوة الإسلامية بين الناس هو أسلوب المسيحية بعينه وهو أسلوب عمل على اتجاهين في وقت واحد».

أولهما : تكتيل الفئات الشعبية الفقيرة المسحوقة حول الدعوة التي بدت خشبة الخلاص والتحرر والكرامة، فهم الضعفاء الأرذلون الأذلة، كما كان يراهم الملأ الأعلى المناهضون.

وثانيهما : التكتل المعادي، الذي ظل يمارس أنواع الاضطهاد والأذى وكيد المكائد وتحزيب الأحزاب. وقد تجمع فيه أصحاب الجاه والثراء وتجار الرقيق الذين ذكرهم القرآن ووصفهم بأنهم الأعزة والملأ الأعلى.

ويتابع المؤلف حديثه عن صراع النقيضين في المجتمع منذ بدء الدعوة الإسلامية. فالأعزة الأغنياء، رأوا في الدعوة زلزالاً لمواقعهم وامتيازاتهم وتهديداً لثرواتهم، ومحواً لعقائدهم. وكل من يتعمق في التاريخ، لا يستطيع أن يرى «الحركة الدينية الأصلية» في الإسلام. بل يرى تحركاً سياسياً واقتصادياً لبس عباءة الدين فترة من الزمن، ثم ألقى بها بعيداً، بعد أن تحقق له ما أراد وورث الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والجنان التي كانوا بها فاكهين.

تكتل وتكتل مضاد، ظلَّ نيفاً وعقدين من الزمن، ممتطياً، صهوة الغضب، لابساً لأمة المعارك، ما ترجَّل عن جواده، ولا تخلَّع من درعه حتى استقرت قيادة المجتمع وحكمه وحكمته وتشريعه في قبضة التحرك الجديد.

٢ ـ والمعاد الأخير، بحاليه، نعيمه وجحيمه:

هو المقابل الجزائي لأعمال البر والإحسان، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره: ٩٩/٧ ـ ٨ الزلزلة.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾. سورة الليل ـ ٩٢/ الآيات ٥ ـ ١١ ١٤ ـ ١٨.

في ذلك اليوم تقوم الساعة ويمثل الجميع أمام الديان، وقد أُلزِم كلُّ امرىءٍ طائره في عنقه فتصدر الأحكام بالعدل، لا تغادر صغيرة مهما صغرت ولا كبيرة مهما كبرت، فهذا حملته أعماله إلى الجنة أبداً وذاك حملته أعماله إلى النار أبداً... ذلك كله موجود في القرآن ويشكِّل واحداً من أهم وأرسخ دعائمه.

ولكن المؤلف، يقرأه في القرآن، ويعود به إلى إنجيل الأبيونيين.

ـ فالساعة: زمانها ومكانها، وقيامها ومظاهرها، وحالة الهلع التي تنشرها. ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج).

ـ والجنة: بشكلها ومضمونها، وقيامها ومظاهرها، بمكانها وسكانها، بسعادتها الأبدية وطمأنينتها الخالدة.

ـ وجهنم. بجبروت عذابها، بلهيبها الذي لا يخمد، بزقومها وغسلنيها، بمعذبيها الخالدين مع العذاب.

ـ وأهل الأعراف: قائمون ينتظرون على السور. قصرت بهم سيئاتهم عن اللحاق بأهل الجنة وأمسكت بهم حسناتهم عن التردي في الجحيم.

ذلك كله، وجده المؤلف في القرآن.

فعرضه بأسلوبه الخاص، ولكنه قال: «إنه من صنع ورقة الذي أتقن كل شيء صنعاً» ص ـ ١٤٦ ـ وما بعدها.

٣ ـ وفي الأمثال القرآنية. يقول أبو موسى:

إن الإنجيل يظهر في كل مثل ويكمن وراء كل كلمة. ومن يتتبع أمثال القرآن يلمس لمس اليد عملية النقل الطريف الأنيق، وفي القرآن ما يدل على أنه أخذها من الإنجيل مباشرة، فهو القائل بكل وضوح ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ٤٨ / ٢٩﴾. (ص ـ ١٨١ ـ منه).

ويقول المؤلف بعد أن يقدم الأمثلة القرآنية ويقابلها بالأمثلة الإنجيلية:

«هذا قليل من كثير أوردناه على سبيل الحجة، ولم نعالج ما قدمناه معالجة درس وتمحيص واستخلاص عبر ولم نتوقف على كيفية اعتماد القرآن على الإنجيل ولا على نوعية القربى بينهما. جل همنا أن نقدم الدليل للمرة الألف على أن القرآن العربي هو قراءة ميسرة للكتاب الأعجمي وأن محمداً لم يكن يعرف لغةً أعجميةً، وعلى أن من علّمه، هو الخبير الذي كان يقرأ الكتاب من «قبل» وبينهما أكثر من صلة، وفي مقصدهما أن يكون للأميين كتاب كما للكتابيين». (ص ١٨٤ ـ ١٨٥).

وبعد رحلة الخمسين صحيفة يلخِّص المؤلف، نتيجة أبحاثه، فيقدمها إلى القارىء على أنها محصلة رافقها المنطق، والحياد والعلمانية من أول حرف فيها وهي: «بقي أن نعترف بحق الإنجيل على القرآن، وبحق من كان ينقل الإنجيل ويفصِّلُه على من كان يحضر النقل والتفصيل طيلة أربع وأربعين سنة من عمره» (ص ـ ١٨٧). إشارة منه إلى:

ـ أن من نقل الإنجيل الأبيوني وفصَّله هو ورقة بن نوفل.

ـ وأن من حضر النقل والتفصيل فاستمع وتلقى هو محمد.

وذلك منه أيضاً:

فقرة حكمية، مبرمة، يقدمها إلى الجميع، عنواناً للحقيقة، التي ينبغي الالتفاف من حولها والتصديق بها.

. . . .

إن من يقرأ، «سلسلة الحقيقة الصعبة» وبخاصة كتاب «قس ونبي» الذي كان أوسعها انتشاراً، وأشدها إثارة، ومن يقرأ في مقابلها ما كتبناه يرى أن وجهتي النظر مختلفتان، اختلافاً ليس مقدراً له أن يزول، لأنهما على خطين متوازيين لا يلتقيان.

ونؤكد، هنا، أن ردنا على أبي موسى، لم يهدف ولم يأمل في تحريك شعرة من قناعاته عن أصولها السلفية، حتى لو جلست الشمس عن يمين حجتنا وجلس القمر عن يسارها.

ولكننا، رددنا على ذلك التحدي الذي يصفع به أبو موسى، قناعة كل من يقرأ القرآن وينتمي إلى الإسلام.

فأبو موسى قدَّم إلى القراء ـ بأسلوب مسرحي ـ دين الإسلام وقرآنه على طبق من «نصرانيةٍ وإنجيلٍ يعترف هو بأنهما اندثرا قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرن من الزمن».. وما على قُرَّائه جميعاً إلا أن يمسكوا رؤوسهم بأيديهم خوفاً عليها من انفجار الغيظ، بعد أن ساروا معه حتى الآن مئتي صحيفة، وقرأوا أكثر من ستماية آية، فلم يجدوا في كل ما قرأوه عنده أي تعبير سليم، أو تفسير صحيح، أو مصداقية اقتباس.

ومع هذا الارتكاب العلمي، الذي رافقه منذ أن وضع عنواناً لكتابه، فإنه جريء جداً إلى حد القول:

«لا بأس عليه، إذا فهم القرآن وفسره على غير ما فهمه وفسره المسلمون وسواهم، فهو يختلف عنهم، في أنه أكثرهم إحاطةً بأبعاد القرآن وتعمقاً في تفسيره، أما غيره من القراء والدارسين والمفسرين فقد انحرفوا في الفهم والتأويل فظلموا الحق واغتالوا التاريخ. لذلك لا ضير من أن يستعيد قراءة القرآن ليدين قناعاتهم، بأدلة من كتابهم، لعلهم يهجرون طريق الضلال الذي ساروا عليه منذ أربعة عشر قرناً». (ص - ١٧٧ - ١٨١ - ١٨٦).

. . . .

تلك كانت خلاصة الأفكار التي أفرغت في خمسين صحيفة، سردتُها بأسلوب مختصر بعد أن نفضت عنها، ذلك الركام الممل من التكرار والحواشي، لكي تسهل مطاردته وتحليلها والرد عليها، وإسقاط وسائل التنكر عن وجهها.

فنحن كمثقفين، نحمل في رؤوسنا قناعات: إذا:؟

كيف ينبغي أن يكون موقفك وأنت ترى إلى شخص، يؤلف كتاباً، ثم يرفده بكتب غير هادف إلا إلى التجريح بما هو مقدسات لدى عدد من البشر يتجاوز المليار مقزِّماً بانِيَ تلك المقدسات، واصِفاً إياه بأنه واحد من القادة العسكريين الذين مروا في التاريخ مرور الأعاصير، ولكنه امتاز عليهم جميعاً بموهبة السطو المسلح على كل ما اكتنزته الأمم من ثقافة وعقائد وعلوم ونظم وتنظيم وفلسفة ومناهج وأخلاق فانتهبها، وادعاها لنفسه ثم دفن أدوات السطو ووسائل الجريمة تحت جلاميد التراب والصخر والقهر؟.

وبعد...؟

كيف يمكن تفسير التلاقي، والتشابه، بين بعض ما في القرآن وبعض ما في التوراة والإنجيل؟!

هنالك، في تلك المصادر، تتلاقى كثير من القواعد الأخلاقية. فهل هذا التلاقي، يشكِّل ـ كما قال المؤلف ـ دليلاً قطعياً على إلهية المصدر الإنجيلي

وبشرية المصدر القرآني؟ وهل يفهم منه أن محمداً، ادعى الوحي الإلهي ادعاءً، فيما هو ينهب كنوز الوحي الإنجيلي والتوراتي؟

سوف نستعرض الحكمة في التاريخ، بما أمكن من الاختصار، كيف بدأت وكيف كان مسيرها. فقد نعثر فيها على التلاقي والتشابه الذي يربط على الدوام ما تأخر بما تقدم.

ـ فمن قبل محمد بستماية عام، كان المسيح، ومن قبل المسيح بخمسماية عام كان سقراط ومن زمن بعيد، قبل سقراط، عكفت السماء على الأرض تزرع فيها بذور الهداية والخُلُقِ القويم.

لقد كانت السماء تطلق في أُذن الإنسان صوتاً، تختلف طبيعته عن الأصوات، وعن طبيعة الوعي الإنساني. إنه صوت «الإلهام».

بهذا انصوت تحدث سقراط إلى أقريطون وهو يمسك كأس السم في يده وقال:

«الموت يا أقريطون هو دفن الجسد أما الروح فهي إلى عالم يَسُرُّ الصَّالحين.

«إن دنيانا يا أقريطون ليست المنتهى. بل هي واحة رسمتها على الطريق رُبوبية لا تدعو إلا إلى الحق والخير.

«إنني لن أمكث طويلاً بعد مماتي يا أقريطون.

«إنني أمجد الأثينيين وأحبهم ولكن لأني أطيع الله أكثر مما أطيعهم سأواصل رسالتي.

«إنها الإشارة الإلهية تعاودني... إنها تأمرني بالعمل على معرفة الحق لأنه لا سبيل إلى العمل قبل معرفته».

ـ وفي سوريا، ومصر، والهند، والصين، وفارس: قبل سقراط بأكثر من خمسين قرناً كانت سفن الإلهام والهداية تمخر عباب الإنسانية، فتتعانق أشرعتها وتتكامل مسيراتها، في حركة متطورة شاءها الله أن تبقى ما بقي الإنسان.

هذا هو دليل التشابه والالتقاء.
بين ما سبق، وبين ما لحق.

إنه التقاء الحكمة بالحكمة لِجَامِعِ المصدر، والطبع، والغاية فالإيمان بعالم الغيب الذي «تنبثق عنه صور الحكمة قاطبة» هو الذي جعلها تتكلم بفهم واحد وتسعى إلى غاية واحدة، مع اختلاف اللغات والأجناس والزمان والمكان.

فالدين، كان على الدوام، مصدراً للأخلاق. والأخلاق، كانت على الدوام، مرآة لتطور الفكر الديني.

فهما أبداً في حالتي «التجاذب الإيجابي». تأثر وتأثير منهما على كليهما.

لقد بدأ الدين خطوته الأولى بترسيخ الاعتقاد في عالم الثواب والعقاب وخلق عقلانية الخوف من المصير. ومنذ ذلك الوقت صار هو الرقيب على سلوك الإنسان. ومنذ ذلك الوقت بدأ الإنسان بقبول ما يفرض عليه من أنماط الأخلاق وما يفرض على غرائزه وعواطفه من قيود. فهو بطبعه ليس رقيقاً طاهراً مطيعاً، وضميره لم يتكوّن إلا بعد سلسلة مديدة من التعاليم الرسولية التي اعتمدت عنصر الترغيب والترهيب والإيمان بالعالم الآخر.

وهو في مهمته الأبدية، يعتمد دوماً على «ثابتةٍ» لا تتبدل، يكررها، ويبسّطها، ويطوّر أساليب الإقناع بها، وهي:

إن عناية الله رافقت الإنسان منذ كونه الأول، فكانت تشرق في نفسه بصورة الإلهام الذي كان يحمله المُصْطَفَوْنَ، معلنين، ومعبرين عنه، بالأمثال والنصائح، وقواعد الأخلاق الفاضلة التي يحتاجها مجتمع الجماعة.

ثم صار الإلهام، وحياً صريحاً.

فكانت صحف الأنبياء والزبر الأولى، ثم جاءت الكتب.

وسوف نرى، فيما يلي من نماذج من ذلك الالتقاء الحميم، متدثراً بثوب من الرحمانية والروحانية، على غرار ما شاهدناه فيما بعد بالكتب السماوية الثلاثة (التوراة ـ الإنجيل ـ القرآن).

١ ـ مقدمة:

منذ ثمانية وعشرين قرناً قبل الميلاد أي قبل ثلاثة وعشرين قرناً قبل بوذا وسقر ر... نوشيبوس، ترك الحكيم الرباني المصري «بتاح حوتب» وصايا تحس

فيها روح الأنبياء. فمن ذلك الزمن السحيق خاطب ذلك الحكيم كل إنسان بهذه النصائح:

«تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم، واعلم أن السكوت أنفع من كثرة الكلام، وإذا كنت ذا سلطان، فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع».

«ألا ليت فيلسوفاً يحكم، ليبرِّدَ لظى الحريق الاجتماعي، يراعي كل الناس وقلبه خالٍ من الشر. أين هو اليوم يا ترى؟ هل هو نائم؟ إن قوته لا تُرى ولكنه موجود».

٢ ـ الإلهام في مصر والهند:

«وأمنحوتب» صاحب الأمثال التي إذا ما قرأتها بجانب أمثال سليمان لن يسعك إلا أن تقول: إن مصدر الوحي واحد في كليهما، على هذا البعد الزمني.

«أطعمَ الخبز لمن لا حقل له، واترك وراءك ذكراً طيباً يبقى على الدهر».

«خذ خبزك من بيدرك ولا تطمع في أرض غيرك. إن قدحاً من الحَبِّ يعطيكه الله لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان. الفقر في يد الله خير من الغنى في المخازن».

ـ وفي الهند قدم كريشنا إلى هذا العالم مثلما سيجيء المسيح بعد اثني عشر قرناً فتحققت فيه، مثلما سوف تتحقق في المسيح معاجز الله وكلماته.

لقد ولدته العذراء ديفاكي، بلا دنس وحملته من روح غامضة، وكانت ولادته، بعيداً، عن الأماكن المأهولة، وكان أول الساجدين له هو «هوننذا الراعي» و«بقرته». وقد استدل الحكماء إليه بالنجوم من أقاصي الهند إلى حيث يتمدد في أقماطه.

ومثلما تعمَّد المسيح في نهر الأردن، كان كريشنا قد تعمَّد قبله في نهر الغانج. وحيث مثلما سوف يعايش المسيح جماعة الخطَّائين، ومثله قبل توبة الزناة، وعلى يده صار إحياء الموتى وإبراء المرضى واستخراج الشياطين من الأجساد المسكونة وسار إلى الموت مثلما سار المسيح وأوكل مهمته الرسولية إلى تلامذته ومريديه فساروا بها ـ مثلما سوف يفعل الحواريون ـ إلى جهات الهند

الأربع ومات مصلوباً على شجرة. ودعا إلى تثليث الاعتقاد بالقوى الكونية الثلاثة الكبرى ورمز إليها بكلمة «ترِي مُورتي» وأشار إليها بصورة الأصابع الثلاثة الإبهام والسبابة والوسطى.[1]

ومن يود زيادة الاستعلام عن حكمة هذا الحكيم وأخباره. فليراجع المصادر اللاهوتية في الهند وليراجع بعض المترجمات عنها مثل: كتاب: «المسيح في مفهوم معاصر» لمؤلفه عصام الدين حفني ناصيف. وإذ ذاك، سوف يجد المتشابهات بالمئات، وقد بلغت حد التماثل والمحاكاة إلى درجة الحَذْوِ الدَّقيق، بالأقوال والتصرفات.

ـ وأسفار الڤيدا التي لم يُبقِ منها الزمن إلا على أربعة، وكل منها يتكوّن من مئات الأناشيد والترانيم.

وجميعها تتوجه إلى موجد الوجود، بأسلوب فطري طبيعي فيه دهشة الطفل إزاء ما يرى لأول مرة، ويرجّح أولوا الرأي من الوطنيين الهنود أن الإله كتب تلك الترانيم بيده منذ زمن لا يقل عن ستة آلاف سنة قبل المسيح. وإليك فقرات من ترنيمة الخلق الهائلة.

«لم يكن في الوجود موجود ولا عدم. فتلك السماء، الوضاءة لم تكن قد نشرت بردتها من الأعالي، ماذا كان الغطاء لكل شيء؟ ماذا كان الموئل والمخبأ؟ هل كانت المياه التي ليس لهُوَّتها قرار؟ لم يكن هناك موت ومع ذلك لم يكن ما يوصف بالخلود. ولم يكن من فاصل بين الليل والنهار. فالواحد الأحد لم يكن هناك سواه ولم يوجد سواه. كانت ظلمة، وكان كل شيء في البداية تحت ستارٍ من ظلامٍ عميق، محيط، بغير ضياء، والجرثومة التي لم تزل كامنة في اللحاء برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور ثم أضيف «الحب» إلى «الطبيعة» فكان الينبوع الجديد للعقل، الشعراء يدركون في أعماقهم وهم يتأملون هذه الرابطة بين ما خلق وما لم يخلق، فهل جاءت الشرارة من الأرض لتشمل كل شيء؟ وتتخلّل كل شيء؟ أم جاءت من السماء؟

---

(١) هذه الصورة موجودة في كتاب الديانة الكريشنية.

الطبيعة في الأسفل والقوة والإرادة في الأعلى.
من ذا يعلم السر الدفين؟
من أين جاءت هذه الكائنات؟
من ذا يعلم أنى جاء الوجود؟
إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم، سواءٌ أخلقه بإرادته أم صدر عنه وهو ساكن. إنه ربنا الأعلى في السماوات العلا هو وحده يعلم السر».

ـ وبعد أسفار الفيدا وفلسفتها الإلهية، بقرون عديدة ظهرت أسفار «اليوپانشاد»[1] التي قال عنها الفيلسوف الألماني شوپنهور:
«إنك لن تجد في الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك أكثر مما تفيدك وتعلو بك أسفار اليوپانشاد...».

«لقد كانت سلواي في حياتي وستكون سلواي بعد مماتي فلو استثنيت النتف التي خلفها «بتاح حوتب» المصري في الأخلاق، كانت أسفار اليوپانشاد أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر».

وتلك الأسفار تتألف من:
مئة وثماني محاورات قامت بين التلميذ السائل والمعلم المجيب، وكانت عناية الله هي التي تلهم التلميذ بالسؤال وتلهم المعلم بالجواب.

وإني مقتطع من تلك الأسفار مقطعين:
الأول : تقرأ فيه ما قرأه الناس فيما بعد، من الزهد والتصوف والقيم الأخلاقية في التوراة والإنجيل.
والثاني : تقرأ فيه ما سوف يجد الناس مثيله من التوحيد العميق في الكتب الثلاثة.

ففي المقطع الأول:
«سيدي ما غناء إشباع الرغبات في هذا الجسد المنتن المتحلل الذي يتألف

---

(١) اليوپانشاد: كلمة من مقطعين: يوپا ـ معناها بالقرب. وشاد: معناها يجلس. والمعنى الكامل: يجالس المعلم ويظل بقربه.

من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنيٍّ ودمٍ ومخاطٍ ورشحٍ أنفي وبرازٍ وبول وفساء وصفراء وبلغم؟..

«ما غناء إشباع الرّغبات في هذا الجسد الذي تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والرغبة والنفور والجوع والظمأ والعقم والمرض والموت؟ ألا ترى هذا العالم يتحلل بالفساد كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الخشائش وهذه الأشجار التي تنمو ثم تذوي.

«وإني لأذكر من كوارث العالم، جفاف المحيطات، وسقوط قمم الجبال، وانحراف النجم القطبي رغم ثباته، وطغيان البحر على الأرض.

«في هذا الضرب من تعاقب الوجود. ما غناء إشباع الرغبات ما دام الإنسان بعدما سيعود إلى هذه الأرض من جديد مرة بعد مرة؟

«إذا اقتلع إنسان بالتزهد شهوات النفس لم يعد فرداً جزئياً قائماً بذاته وأمكنه أن يتحد في نعيمٍ أسمى مع روح العالم. إنه اتحاد الجزء في الكل الذي انفصل عنه حيناً من الدهر. ومثلما تتلاشى الأنهار المتدفقة في البحر وتفقد أسماءها وأشكالها. فكذلك الرجل الحكيم إذا ما تحرر من اسمه وشكله يفنى في الشخص القدسي الذي هو فوق الجميع».

وفي المقطع الثاني: يقول براهما:

«إذا ظن القاتل المخضب بدماء قتيله أنه القاتل.

«وظن القتيل الذي لا يزال الخنجر في صدره أنه المقتول.

«فليسا يدريان شيئاً عما أصطنعه من الأساليب الخفية.

«فأنا السيف للقاتل وأنا الصدر للقتيل. البعيد والمنسي، عندي قريب ومعلوم والضوء والظل عندي سواء. إنهم يخطئون إذ يخرجوني من حسابهم فأنا الموجود في الزمان والمكان وإذا شكّوا في وجودي فأنا الشك كله، أنا كل شيء».

٣ ـ عند الكنعانيين والبابليين:

وفي القرن السابع قبل الميلاد وضع الحكيم الكنعاني «أحيقار» أمثاله التي التقت بأمثال أمنحوتب المصري والتي سوف تلتقي فيما بعد مع أمثال سليمان، وسفر الجامعة، وأمثال العهد الجديد:

«يا بني نقل الحجارة مع رجل كريم خيرٌ من شرب الخمر مع رجل لئيم.

«يا بني إذا أكل الغني الحية قالوا أكلها تطبُّباً وإذا أكلها الفقير قالوا أكلها جوعاً.

«يا بني لا تهذر كثيراً فتتفوه بكل ما يخطر على بالك، افرض حراسة شديدة على فمك، أغلق عينيك على ما تسمع وقلبك على ما تعلم فالكلمة طائر إذا أُفلت من القفص يعسر القبض عليه.

«يا بني ارم الحجارة على الكلب الذي يترك صاحبه ويتبعك.

«لماذا يعاند الحطبُ النار؟ واللحمُ السكين؟ والإنسان الملْك؟».

ـ وعند البابليين:

«أحسن إلى من يسيء إليك».

«الشعب بلا ملك كالقطيع بلا راعٍ».

فلنُعِد قراءة هاتين الحكمتين ولنقرأ بعدهما:

ـ في القرآن: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ فصلت ٤١/٣٤

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء ٤/٥٩

«كلكم راعٍ وكلٌ مسؤول عن رعيته». «المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً» أحاديث نبوية.

ـ وفي الإنجيل: إذا أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم. أحبوا مبغضيكم باركوا لاعنيكم، تصدقوا إلى من قطعكم».

«أتركوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، مجاناً أخذتم، مجاناً أُعطوا».

٤ ـ تفسير التشابه بين الملهمين ودعوات الأنبياء:

وفي الفترة التي تميزت بتَزامُنِ النجوم الباهرة في تاريخ الوحي والإلهام من قبله (ماهاڤيرا وبوذا ـ في الهند) و(لاوتسي وكونفوشيوس ـ في الصين) و(أرميا

وأشعيا الثاني ـ في اليهود) و (فلاسفة ما قبل سقراط ـ في اليونان) و (زاراداشت ـ في فارس).

من بين هؤلاء جميعاً، كان بوذا هو الأكثر شبهاً بالمسيح.

فوصاياه الخمسة هي أشد التزاماً وأضيق نطاقاً وأكثر عسراً من الوصايا العشر[1]. وتعاليمه التي تبدو كأنها تعاليم المسيح ـ وقد سبقت زمنه بعدة قرون ـ. فكيف نُفسر دهشتنا، ويزول عجبنا؟

من هذا التشابه والتلاقي الفكري والأخلاقي يقوم بعضه على أعقاب بعض إن لم نقتنع بأن المصدر هو واحد، وأن الغاية هي واحدة وأن الهدف هو واحد؟

إنها:

بلا شك عناية الله لم تنقطع.

لقد استمرت في إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق وموسىٰ ولم تبدأ بهم بل كانت من قبل تتلألأ في أقوال وأعمال تلك الخوالد البشرية وما تركته من الفكر والحكمة والوصايا.

«على المرء أن يزيل الشر بالخير». «الكراهية لا تزول بالكراهية بل بالحب». «النصر يولد المقت لأن المهزوم في شقاء إلى أن يثأر».

هذه الحكم انطلقت من حنجرة بوذا الذهبية، قبل انبجاثِ شقيقاتها من ينابيع الحكمة البابلية، وفي أقوال المسيح، بزمن ليس بالقصير.

فكيف يَصِحُّ أن نقول مثلما يقول أبو موسى:

إن من تأخر، نهب وسطا على من تقدم.

ألا يجدر بنا؟ أن نعيد هذا التشابه الذي يحذو بعضه بعضاً، على مسافات القرون، إلى الله، الذي خلق فسوّى؟ والذي قدّر فهدى؟

أمثلة...

هي اليسير من الكثير الذي تشابهت فيه التعاليم، فتكامل ما تقدم منها بما تأخر وتلاقيا في قاسم مشترك أعظم هو «الوحي الإلهي» الذي استوطن تلك القمم

---

(١) الوصايا هي: لا يقتلن أحد كائناً حياً (١) لا يأخذن أحد ما لم يُعطه (٢) لا يقولن أحد كذباً (٣) لا يشربن أحد مسكراً (٤) لا يقيمن أحد على دنس (٥).

من البشر فترة من الزمن احتاجتها الإنسانية، فنطقت بحكمته وصدعت بمشيئته بَدءاً من أول الحكماء حتى آخر الأنبياء.

وإلا؟ كيف نفسر ما صح قوله عن النبي عندما سئل عن عدد الأنبياء الذي نزل عليهم الوحي فقال:

«إن عدد الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وعدد الرسل ثلاثماية» وأضاف جمّ غفير..؟

كما أن القرآن عدَّد طرائق الوحي، فأفاد من هذا التعداد، إن الوحي هو عناية الله التي لا تنقطع عن مخلوقاته جميعاً، لم يقتصر على أصحاب الكتب من الأنبياء بل شمل الأحياء والأشياء.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (١٦/٦٨ النحل).

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (٩٩/٥ الزلزلة).

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ (٢١/١٢ - فصلت).

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٢٨/٧ - القصص).

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ (٢٠/٣٨ - طه).

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾(٤٢/٥١-الشورى)

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٢٣/٢٧ - المؤمنون).

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ (٥/١١١ - المائدة).

. . . .

. . . .

بعد هذه الجولة، في تاريخ الوحي والإلهام:

عدت إلى المؤلف.

لأمعن النظر والقراءة فيما قدمه من أمثال القرآن وأمثال الإنجيل وفي المقارنة التي أجراها، بينهما. فكانت بين يدي المحصِّلة الآتية:

١ ـ لم يستطع المؤلف أن يجد غير القليل من الأفكار تكررت في عدد من الآيات، فما زادت مع مكرراتها على المئة.

في حين:
ـ أن القرآن يقع في مئة وأربع عشرة سورة احتوت على /٦٢٦٠ ـ آية.
ـ والتوراة تقع في تسعة وثلاثين سفراً تضمنت /٩٢٩ ـ إصحاحاً.
ـ والإنجيل مع أعمال الرسل والرسائل والرؤيا يقع في سبعة وعشرين سفراً تتضمن /٢٦٠ ـ إصحاحاً.

أي: إن التشابه قليل جداً، إذا ما نسب إلى هذا الكم الكبير.

٢ ـ التشابه يقع دوماً، عند الحديث عن الثوابت على الزمن مثل «القوانين الكونية» و«الوجود بموجوداته» و«الخلق والخالق وبدء الكون» و«أحوال المعاد ـ الجنة والنار» و«حكمة الثواب والعقاب وحقيقتهما» و«أخبار الأمم والأنبياء والرسل وما لاقوه في مهماتهم من معارضة ومجابهة». تلك كلها، ثوابت، لا تتغير مع تعدد الأنبياء، لأنها حقائق من جهة ولأن موجدها، ومصدر الإنباء بها، هو واحد من جهة ثانية، فلا يحتمل وجود التناقض، والتهافت فيها. من رسالة إلى رسالة.

٣ ـ كذلك يقع التشابه حينما يأتي الحديث على بعض أنواع النشاط الإنساني الذي تحكمه قوانين بطيئة في التطور مثل «الطقوس الدينية» و«قواعد الأعراف والعادات» التي اكتسبت بمقتضى طبيعتها وبمرور الزمن موقعاً مستقرّاً في النفوس لا تصله عناصر التغيير والتطوير إلا في أوقات متباعدة وعلى أثر دعوات وحركات جذرية.

٤ ـ كذلك يجيء ـ على الأغلب ـ عندما يكون الموضوع متعلقاً بالأخلاق الاجتماعية وتهذيب النفوس.

هنا، على الدوام، كان يلتقي محمد بموسى والمسيح، ويلتقون جميعاً بالملهمين المستنيرين في تاريخ بناء الإنسان.

الإنسان، دوماً، كان هدفهم، تكريمه: لأن الله كرمه إذ منذ أن خلقه جعله خليفةً له وأسجد له الملائكة.

فكل من آمن بالله الخالق الواحد العظيم، حمل مع هـذا الإيمان شعـوراً بتعزيز كرامة الإنسان. هذا هو القاسم المشترك بين العظماء الربانيين.

ـ كان أخناتون منذ أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد يناجي الله بأناشيد التوحيد وها هي فقرات من أعظم قصائد التوحيد التي عرفها العالم.

«يا إلهي أنت جميل وعظيم ومتلألىء ومشرق على الكون.

«لقد صنعت الرياح الأربع ليتنفس منها كل مخلوق.

«لقد صنعت الغيطان لكي يكون للفقير فيها مثل حظ العظيم.

«لقد صنعت كل إنسان مثل غيره من الناس».

. . . .

ـ ومن سفوح الهملايا، كان بوذا يهتف:

«أيها الناس انبذوا الأنانية».

ـ وفي تلك العهود، كان صوت كونفوشيوس يجوب الصين، وصوته يرتفع مجلجلاً.

«إن هذه الفوضى التي تعم الدنيا هي الشيءُ الذي يحتاج إلى جهودي».

ـ وفي هذا الشرق الأدنى:

كان ثمة أنبياء. وكان أشعياء النبي لا ينفك عن الهدير الإلهي:

«ويل للذين يقضون أقضية الباطل ليصدوا الضعفاء ويسلبوا حقوق البائسين.

«من كال المياه بالكف وقاس السماوات بالشبر وكال بالكيل تراب الأرض؟

«من وزن الجبال بالقبان والآكام بالميزان؟

«من قاس روح الرب؟ ومن قدم إليه المشورة؟

«ويل للمستريحين في صهيون، أنتم المضطجعون على أسرة من العاج المتمددون على الفرش الآكلون الخراف والعجول، الشاربون كؤوس الخمر، كرهت أعيادكم حتى يجري الحق مثلما تجري المياه وحتى يصير الإحسان نهراً دائم الجريان».

ـ وتطل أمثال سليمان، مثل المسابر الإلهية، تسبر أغوار الحكمة، وتنشر كنوز المعرفة، وتضع قواعد السلوك القويم.

وما نظن أن مصدراً من مصادر الأولين توفر فيه هذا الشمول العظيم.

«فم الصديق ينبوع محبَّة وفم الشرير يغشاه ظلم».

«الصيت أفضل من الغنى، والنعمة أفضل من الذهب، والغني والفقير يتلاقيان عند الله الذي صنعهما».

«الغني يتسلَّط على الفقير والمقترض عبد للمقرض».

«محاباة الوجوه في الحكم ليست صالحة، من يقول للشرير أنت صالح سبَّته العامة ولعنه الشعب».

«أزل الشوائب من الفضة فيصير لديك الإناء الفضي. وأزل الأشرار من حاشية الملك فتثبت كرسيه بقوة العدل».

«جيل أسنانه سيوف وأضراسه سكاكين لأكل أموال المساكين».

«أربعة لا تحتملها الأرض: عبد إذا ملك، وشنيعة إذا تزوجت، وأحمقٌ إذا شبع، وأَمَةٌ ورثت سيدتها».

. . . .

٥ - ثم يفتح باب التاريخ الذي ظل مغلقاً قرابة أربعة عشر قرناً، ليدخل المسيح، عيسى بن مريم.

لم يأتِ لينقض، جاء ليتمم، ويجدد ويطوِّر ما بدأه الربانيون.

٦ - ويبقى الباب مفتوحاً، ينتظر آخر القمم الإنسانية محمداً.

هو أيضاً جاء بعد ستة قرون، ليتمم مكارم الأخلاق.

نظيران في الأهداف، وتوأمان في الفكر.

تشابها في الرسالة، وتكاملا في الغاية.

فهل كان ذلك التشابه والتكامل عفو المصادفة؟ أم كان واحدة من أثمار القانون الإلهي الذي يصنع الله بمقتضاه هذا الطراز الجليل؟

الإنسان. . . دوماً الإنسان هو الهدف عندهما.

- أولهما هاله تأليه المال في عصره، واحتكار الأرزاق، وانتشار الربا، واستغلال الفقراء، والتزلف إلى السلطان، وغيبوبة المشاعر الإنسانية وضياع تقوى الله من النفوس.

كان نصف العالم يرزح تحت حكم الرومان، وكان الاستبداد قد بلغ أقصى مراحل العنف والجور. فالجنود الرومان يصطادون مواطني المستعمرات بواسطة الكلاب لبيعهم في سوق الرقيق[1].

لقد نفخ من روحه العظيمة في جسد الحق «القتيل» فأوقد فيه شعلة الحياة وانتشرت أشعته السماوية فأضاءت ظلمات الأرض قاطبة. وظل صوته الرباني ينطلق من حناجر الحواريين:

«من له ثوبان فليعطِ من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا...»

- وثانيهما، وضع دستور الأُخُوَّة الآدمية، وصفع نزعات التعصب والتمييز والفروق الطبقية: «كلكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى...» حديث شريف.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات ٤٩/١٣.

في محطة الإنسان التقت الرسالتان:

- أنا ابن الإنسان: قال المسيح. لقد علم الجميع أن البشر هم عائلة الله وعلمهم كلمات الارتباط به في كل يوم.

«أبانا الذي في السماء ليتقدس اسمك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض».

- ومحمد ليس غير واحد من هذا الخلق الكثير:

«لست سيداً لأحد إنما أنا عبد الله ورسوله». «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

المسيح يرفض الإذعان لإرهاب الأحبار والكهنة. ويصرخ في وجوههم: «خلوا بيني وبين كلمة الله».

ومحمد يجيب مهدديه: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في

---

(١) كان يحدث ذلك في كورسيكا وبعض المستعمرات الرومانية الأخرى.

يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته إلى أن يظهرهُ الله أو أهلك دونه».

ما هي الكلمة التي لم يتخلّ المسيح عنها؟

ما هو الأمر الذي لم يتركه محمد؟

هل هما شيئان مختلفان؟ أم شيءٌ واحدٌ يُعبَّر عن الكلمة بالأمر ويعبر عن الأمر بالكلمة؟ متفقان في المعنى، مختلفان في المبنى؟

إنهما غاية واحدة.

هي تهذيب الإنسان. روحاً، وعقلاً، وجسداً.

لقد أرسلهما الله في مهمة واحدة، لم يزيدا فيها، ولم ينقصا منها. وهي هداية الإنسان وتطويره لكي يظل مستحقاً لما خصَّه الله به من تكريم وتعظيم.

فالإنسان هو الهدف، في الرسالات جميعها.

ومن أجله بَعَثَتْ السماءُ بالتتابع تلك الشواهق من الرجال، أنبياء ومنذرين ومعلمين، أبشاراً ذوي طبيعة من طبيعة البشر، وأوصاف من أوصافهم.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾. الاسراء ١٧/٩٥

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. التوبة ١٢٨/٩

أمرهما الله، أن يمنعا الناس من الافتتان، بشخصيهما، وذلك بالتأكيد الشديد على بشريتهما.

«لا تدعوني صالحاً لأنه ليس من صالح إلا الله في السماء» المسيح.

«لست سيداً لأحد إنما أنا عبد الله ورسوله وابن امرأة كانت تأكل القديد» محمد.

ومن هنا:

كان التشابه العظيم بين الرسالتين، في الهدف، والمرجعية.

فالله في رسالة المسيح محبة.

وأفضل الأعمال في رسالة محمد هو الحب في الله.

وماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه؟ المسيح.
﴿وقد أفلح من ذكَّاها وقد خاب من دسَّاها﴾. قرآن كريم.

واقرعوا يفتح لكم. المسيح.
﴿وادعوني أستجب لكم﴾ قرآن كريم.

ويقول المسيح:
من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.

ويقول محمد:
«والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بآخرين يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

. . . .

والآن: أستطيع أن أضع تلخيصاً للفكرة العامة كالآتي:

١ ـ ليس التشابه محصوراً في هذا العدد القليل من الآيات والأمثال في القرآن والتوراة والإنجيل. بل هو قائم في البُعد الرسولي بين جميع من عرفهم تاريخ الإصلاح من أول الملهمين حتى آخر الأنبياء والمرسلين.

لذلك كان التشابه بين مظاهر النبوة والحكمة، يدور على الدوام، ضمن الحقول الآتية:

أ ـ وضع الأسس الصحيحة، المرحلية، لعلاقة الإنسان بالله.
ب ـ وضع الأسس الصحيحة، المرحلية، لعلاقة الإنسان بالإنسان.
جـ ـ وكذلك لعلاقة الإنسان مع الموجودات في الطبيعة، من حيوان ونبات وجماد
د ـ الإخبار عن الأمم الغابرة والأنبياء السابقين.
هـ ـ الإخبار عن يوم المعاد، وحقيقة الثواب والعقاب.

٢ ـ تلك الحقول الخمسة، كانت على الدوام، فقرات الهيكل، لكل دعوة إصلاحية نبوية أو رسالية، لا تختلف إلا بما يقتضيه ظرف الزمان والمكان ومدارك الإنسان.

فما يُنتظَر أن تختلف، أو أن تتناسخ، فتبدو صوراً تتحاكى، لأنها تشكل

بمجموعها ومنذ بدء التكليف بها، حقائق أفرغها الله في قلوب من اصطفاهم، تدرجت صُعُداً. شمولاً واتساعاً، على سلم المراحل التي اجتازها الإنسان على درب الحياة.

. . . .

والجريدة، التي حشد فيها المؤلف آيات من القرآن في مواجهة آيات وأمثال من التوراة والإنجيل، ليست في جوهرها غير ما ذكرنا، ولا تختلف في المطلق. بل تختلف في الاتساع وطرق الإيصال؛ لأن الإنسان والمكان والزمان محكومون بقانون كوني، هو قانون التطور والتجدد.

ولقد دققت فيها جميعاً.

ـ فلم أجد فائدة، في السعي وراء تحليلها آية آية ومثلاً مثلاً، والدلالة على أوجه الخطأ التي تكتنف النتائج التي تحصلت عند المؤلف من جراء مقارناته ومقايساته.

ـ فاكتفيت من كل ذلك بتقديم تحليل أنموذجي لبعض فقرات المقايسة، وذلك لتقديم الدليل للمرة الألف[1] على الأسلوب المغلوط الذي اتبعه المؤلف في كتابه.

غير أني قبل تقديم هذا التحليل. أنبّه القارىء إلى علامات بارزة في هذا الفصل أكثر من سواه في الفصول الأخرى. وهي تتلخص بالآتي:

١ ـ إن الأساس الذي بنيت عليه سلسلة الحقيقة الصعبة، وبوجه خاص كتاب «قس ونبي» هو أن القرآن نسخة مترجمة عن الإنجيل الأبيوني قام بوضعه ورقة بن نوفل.

٢ ـ الإنجيل الأبيوني هو غير الإنجيل الذي يشكّل العهد الجديد، من الكتاب المقدس. ويختلف عنه اختلافاً جوهرياً في «العقيدة» و«الوقائع» و«الطقوس» وفي «تقييم الدين الإسلامي» و«العلاقة مع اليهودية».

---

(١) هذا التعبير للمؤلف، ولكنه أورده في غير موضعه، فكان حقاً أراد به باطلاً.

٣ ـ إن جميع ما في القرآن من أحكام في العقيدة، والعبادة، والشريعة والثواب والعقاب، والصدقات، وأعمال البر والإحسان، والكون والتكوين، مأخوذ عن الإنجيل الأبيوني.

٤ ـ والإنجيل الأبيوني، زال أثره، وغاب عن الأخبار والوجود، وفُقِد فقداناً تاماً قبل نزول القرآن بأكثر من مئة سنة.

٥ ـ ومع أن الاقتباس الإسلامي محصور ـ برأي المؤلف ـ في المصدر الأبيوني فإن المؤلف لا يقدم للمضاهاة مع القرآن، أية آيةٍ من الإنجيل المذكور ولا يقدم أي مرجع أبيوني.

بل قدم مراجعه، ووسائله من التوراة، والإنجيل (العهد الجديد) حتى بدا، كأنه هاجر، عن الأبيونية، ليستقر في المسيحية الرسمية كما سمَّاها.

وهو دوماً يصر على:

ـ أن الأبيونية والمسيحية عقيدتان مختلفتان.

ـ ولكن الأمثلة على الأبيونية لا يأتي بها إلا من المصادر المسيحية.

مفترضاً أن القارىء سوف لن يمارس شيئاً من الملاحظة ليدرك هذا التناقض، وهذا التضليل.

٦ ـ ومع هذا، فقد تعب المؤلف، من أسلوب التنكر فكشف شيئاً مما يخفيه وذلك في الصحيفة ١٦٣:

«لا أقول إن القرآن العربي نقل مباشرةً عن مارأفرام السرياني[٢] أو عن سواه ولا أقول إن محمداً كان مطَّلعاً على شوارد الجنة النصرانية وأوصافها كاملة. بل إن أفكار مارأفرام السرياني كانت شائعة في الكنيسة السريانية ومعروفة لدى جميع آبائها وكتَّابها. والصلة بين القرآن والكنيسة السريانية لم تكن فقط نتيجة جو عام عاش فيه محمد وأخذ عنه بل كانت بواسطة تعاليم ونصوص عرفها شفهياً وكتابةً على السواء وعرفها بواسطة معارفه الشخصية واحتكاكه المباشر ببعض مؤلفات السريان».

(٢) هو صاحب منظومة الفردوس «كان تابعاً للكنيسة السريانية ـ هو في القرن الرابع، وكان يلقب «بكنارة الروح القدس».

هذا طرحٌ ثالث:

يطرحه أبو موسى: وقد تأتي بعده طروح أخرى:

ـ فمحمد النبي العربي ظل منذ بداية الكتـاب حتى ثلثيه «أبيـوني الاعتقاد والدعوة والكتاب والتفكير».

ـ ولكنه يصبح في الفصل الخامس من أتباع المسيحية الرسمية ومقلداً لها وآخذاً منها جميع آياته وأمثاله.

ـ ثم هو الآن، تلميذ من تلاميذ الكنيسة السريانية ومؤلفاتها وتعاليمها التي كانت شائعة ومعروفة، حيث احتك بها احتكاكاً مباشراً واتصل بها اتصالاً حميماً نجم عنه القرآن.

تلك الانتماءات، المصيرية، العقائدية، أُسندت إلى شخص واحد في كتاب واحد لا تزيد صحائفه على نيف ومئتي صحيفة من الحجم المتوسط.

وإذن؟!

ـ فأين ذهب ورقة العالم الجليل، الحكيم الخبير؟ وأين ذهبت ترجمته عن الإنجيل الأبيوني؟

ـ وأين ذهبت مصادر الأبيونيين، التي كانت حتَّى عشرين صحيفة فقط مرجع العلم والفكر والدين الإسلامي؟

لن نحظى بجواب من المؤلف.

ولكننا، بعد كل هذا، نلفت نظر الجميع، مرة بعد مرة، إلى أن أقل ما يقال في تفسير هذا الاضطراب هو أنه دليل استخفاف المؤلف بعقل القارىء.

٧ ـ وفي الصحيفة ـ ١٦٢ ـ من الكتاب يقول:

«ويقوم على خدمة أصحاب الجنة وأزواجهم غلمان وولـدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، إن هذه الأوصـاف هي أوصاف الحـوريات نفسهـا ويخشى لهذا أن يكون للأبرار الذي لا يلذ لهم نكاح الإناث أو الذين لا يكفيهم ذلك أن يكون لهم حظ اللِّواط كمتعة مرغوبة في جنة القرآن».

لم يعد بين أيدينا موقف واحد أو رأي واحد للمؤلف.

فهل جنة القرآن في نظره، هي غير جنة مارأفرام؟ أم هي بأوصافها وسكانها، وغاياتها؟

فإن كانت غيرها، فهي إذن غير مأخوذة عنها ولا منسوخة منها وبالتالي، غير مقيدة بظروفها وقواعدها الأخلاقية.

وإن كانت هي هي فإن ما في جنة القرآن موجود في جنة السريان.

وبالتالي:

تكون خشية المؤلف وتحفظه الأخلاقي، مسحوبين على الجنان السابقة لجنة القرآن. ولكننا:

نبادر إلى تطمينه وتهدئة خشيته على أبرار القرآن، فندلُّه على التحظير الشرعي القاطع لهذه الممارسة ولكل ممارسة على خلاف الطبيعة.

وفي اليقين أن المؤلف يعلم، بأن عادة اللواط، ورثتها أمم كثيرة عن أهل سدوم وعمورة، الذين سبقوا في ممارستها.

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

الأعراف ٧/٨١

فالقرآن، دلَّ على أن هذه العادة، هي فاحشة، وأن قوم سدوم وعمورة سبقوا العالمين إلى ارتكابها.

وكرر ذلك في الآية ٢٨ ـ من سورة العنكبوت.

وفي الآية ٣٠ ـ من سورة الأحزاب.

وكيلا يقع الالتباس، في تحظيرها بين الذكور والذكور فقط، ورد النصُّ على تحظيرها بين الذكر والأنثى، لما يخشى من أن يمارسها الرجل على زوجته في الخلوة الشرعية فجاءت الآيات العديدة على تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(٣٣ ـ الأعراف و ١٥١ ـ الأنعام).

والمرأة التي اعتبرها القرآن، حرث للرجل[1] منع عليه إتيانها إلا من القبل.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢/٢٢٢ ـ البقرة).

وفي الإجماع عند المفسرين، أن الأمر، هو للإتيان من القبْل.

ومثل هذا الحكم الشرعي ورد في التوراة. بل وَرَدَ مَا هُوَ أكثر تعدداً في الحرمات. فليكن بعد هذا التطمين:

شيء من الإنصاف والموضوعية عند المؤلف، ولتهدأ خشيته، فلن تبيح جنة القرآن ما هو مجافٍ للأخلاق والذوق وخلاف الطبيعة.

ويكون المؤلف بعيداً عن المنطق إذا رأى في جنة القرآن، التي هي موئل الثواب الأبدي، مستوىً أخلاقياً، أدنى من المستوى الأخلاقي في هذه الدنيا التي تتحكم فيها الغرائز والشهوات.

٨ ـ قال المؤلف في الصحيفة ١٦٤ ـ:

«لفظة جهنم الواردة ٧٧ ـ مرة في القرآن تعني لغة «وادي ابن هنوم» الذي ورد ذكره في يشوع بن نون ١٨/١٦ وسفر الملوك ٢٣/١٠ ـ ١٢ وسفر إرميا ٣٢/٣٥ وهو الوادي الذي يحرق فيه الإله مولك ضحاياه من الوثنيين، فهو وادي القتل الذي تصير فيه جثث الشعب مأكلاً لطير السماء ولبهائم الأرض، وكما جاء في سفر إرميا ٧/٣١ ـ ٣٣. «وحيث جثث العصاة لأن دُودَهُم لا يموت ونارهم لا تُطفأ» أشعياء ٦٦/٢٤.

وقد استعملت اللفظة فيما بعد للدلالة على مقر الأموات في مكان تحت الأرض حيث الظلمة والنار والعذاب».

لدى تحليلنا لهذه الأقوال وبعد العودة إلى مصادرها وجدنا الآتي:

---

(١) الحرث موضع الولد.

أ ـ في اللغة، جهنم، جِهِنَّام. بكسر الجيم، معناها البئر البعيدة القعر. «وبئرٌ جهنَّمٌ» و«جهنَّامٌ» معناها، بعيدة القعر.

وقال الجوهري:

جهنم اسم من أسماء النار التي يعذب الله فيها عباده. وهو اسم، ملحق بالخماسي بتشديد الحرف الثالث منه، ولا يُعرَّف، ولا يؤنَّث. ويقال: هو لفظ فارسي معرَّب، وقال آخرون: هو اسم عربي لنار الآخرة، وذلك لبُعد قعرها ولم يُجرّ، ولم يؤنَّث، لثقل الجر والتأنيث كما لم يعرف لكليهما. وقيل: امتنع عن الصرف للتأنيث والعجمة لقول الأعشى: «ودعوا له جُهُنَّامٌ» بضم الميم، أما ابن خالويه فقال: هي عربية لقولهم: بئرٌ جِهِنَّامٌ، أي بعيدة القعر. (لسان العرب) فكلمة، جهنم، لا تعني في اللغة «وادي ابن هنوم» كما قال المؤلف.

ب ـ إن وادي ابن هِنُّوم كما ورد في «أشعياء» هو واحد من تخوم الأرض التي خرجت بالقرعة في نصيب سبط بني بنيامين حيث جاء في الإصحاح ١٨/١٦.

«ونزل التخمُ إلى أطراف الجبل الذي مقابل وادي ابن هنوم الذي في وادي الرفائيين شمالاً ونزل إلى وادي ابن هنوم إلى جانب اليبوسيين من الجنوب ونزل إلى عين روحل».

ـ وهو في الإصحاح ٧/٣١ ـ من إرميا: «وبنو مرتفعات «توفه» التي في وادي ابن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار الذي لم آمر به ولا صَعَدَ إلى قلبي لذلك ها هي أيامٌ تأتي يقول الرب ولا يسمى وادي ابن هنوم ولا توفه، بل وادي القتل، ويدفنون في «توفه» حتى لا يكون موضع، وتصير جثث هذا الشعب أكلاً لطيور السماء ولِوُحوش الأرض ولا مزعج».

فأين جهنم؟ التي أعدت لعذاب الكفار أبداً؟ وأين وادي ابن هنوم أو توفه الذي صار مقبرة لقتلى الحروب والمنازعات البشرية في الدنيا؟ ثم؟ أين وادي ابن هنوم؟ من النار الأبدية التي أعدَّها الله لإبليس وزبانيته، كما جاء في الإنجيل؟

تحليل نماذج من الآيات المتقابلة
بين القرآن: وبين التوراة والإنجيل

تحليل نماذج من الآيات المتقابلة
بين القرآن: وبين التوراة والإنجيل

١ ـ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ٦/١٦٠ ﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ١٨/٥٧ (القرآن).

يقول بطرس للمسيح: قد تركنا كل شيء فماذا يكون جزاؤنا؟ قال يسوع ينال مئة ضعف» (متّى: ١٩/٢٩).

٢ ـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ (١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧/٨٨ الغاشية).

«لأنّه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع» (متّى: ٢٤/٧ ـ ٨).

ففي المثال الأول: يوجد التقاء في الغاية وعلى الهدف بين الكتابين. وهو التصدُّق على الفقراء. وهذا المبدأ «مبدأ الحسنات والصدقات وأعمال البرّ والإحسان» يكاد يكون عنصراً جوهرياً في كل دعوة إلى الإصلاح الاجتماعي.

غير أن ما بين الأسلوبين من بُعْدِ التجانس، لا يسوّغ لأي ناقد اعتبار القرآن منسوخاً عن الإنجيل.

وفي المثال الثاني: يوجد خلاف حاد وحاسم بين النصين.

ففي النص القرآني يجري الحديث عن يوم الحساب، وعن حالة الانهيار واليأس والخزي، التي تسيطر على الكفار.

أما في المثال الإنجيلي فهو وصف لما يمكن أن يحدث في الدنيا من حروب بين الأمم، وما يتبع ذلك من مجاعات وأوبئة.

وفي الآية ٩ ـ وما يليها من الأنجيل دليل على خصوصية ودنيوية المكان والزمان (وحينئذٍ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي) حتى اصحاح ٢٤/الآية ٩.

٣ ـ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج ـ ٢٢/٢).

«وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام، وصلُّوا لكي لا يكون هربكم في شتاءٍ ولا سبت، لأنه يكون حينئذٍ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون» (متّى: ٢٤/٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢).

وفي هذا المثال، ينصب النص القرآني على وصف يوم الحشر، حيث تذهل المرضعة عن رضيعها، وتضع الحامل حملها، من الهول والناس يترنحون كأنهم سكارى. في حين أن النص الإنجيلي، لا يزال في ذات الإصحاح ٢٤ ـ يصف حالة دنيوية، تقع فيها حروب طاحنة، تضطر الناس إلى الفرار من بيوتهم ضناً بأرواحهم، ويدعوهم الرسول متّى إلى الصلاة حتى لا يكون يوم الاضطرار إلى الفرار، يوم سبت، أو يكون يوماً شتائياً ممطراً بارداً.

(وفي يوم السبت، يتجلى الحفاظ على الطقوس اليهودية عند الرسول متّى).

٤ ـ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢٦/٨٨ ـ ٨٩ ـ قرآن).

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٣٤/٣٥ ـ قرآن).

«لا يشبعون نفوسهم ولا يملأون أجوافهم، لأن الذهب والفضة معثرة لهم» (حزقيال ٧/١٩) «الويل لكم أيها الأغنياء لأنكم وثقتم بغناكم» (صَفَنْيَا ـ ١/١٨).

ففي القرآن:

ـ المثال الأول عن الذين كانوا يعتزون بأموالهم وأبنائهم فلم ينفعهم شيء. ولم يمنع عنهم عذابَ الله في الآخرة.

والمثال الثاني: هو أيضاً عن الذين يعتزون بأموالهم ولكن اعتزازهم هنا، هو

دنيوي، إذ كانوا يجابهون النبي بقولهم: لولا أن الله يحبنا لما أكثر أموالنا وأولادنا، ولذلك لن يعذبنا. فيرد عليهم القرآن: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ (٣٤/٣٧).

وفي «حزقيال» و«صَفَنْيَا» توعَّد بغضب الرب، الذي لن يفيد معه ولن ينقذ منه ما عند الأشرار من ذهب وفضة.

فالتشابه، هو في الموضوع، أي في المبدأ، وهو تذكير الناس بيوم المعاد الأخير حيث يكون الحساب.

هنا: لا ندري: لماذا قارن المؤلف بين القرآن، وأسفار التوراة مع أنه كان عقد العزم على مقارنة القرآن بالإنجيل.

٥ ـ ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (٢/ ٢٠). ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣٠/ ٢٤) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٠/ ٤٣ ـ قرآن).

«تحدث مجاعات هنا وهناك» (٢٤/ ٧).

لقد مرَّ معنا المثال الإنجيلي في رقم (٢).

وهو وصف لما يمكن أن يحصل من حروب بين الأمم تتبعها مجاعات. ويكاد يكون الإصحاح ٢٤ ـ بكامله من إنجيل متّى، يدور حول هذا الموضوع.

وبذلك:

لا تجوز المقابلة بين هذا المثال والآيات القرآنية، الثلاث. للاختلاف الكلي الواضح، في الموضوع، وفي أسلوب المعالجة.

ـ ففي الآية ٢/ ٢٠ ـ من البقرة. مثلٌ، على المنافقين.

وكانت الآيات السَّابقة لها ضربت مثالاً آخر: هو:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ • صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ • أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾.
البقرة ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩.

ففي هذه الآيات الأربع ، أمثلة على المنافقين، الذين لا يجدون بين أيديهم من النور ما يسيرون على هديه يوم القيامة فإذا أُعطِي الناس النور، أُعطي هؤلاء نوراً كأنه البرق، إذا أومض مشوا، وإذا انطفأ وقفوا أو تعثروا.

ـ وفي الآية ١٠/٤٣ ـ فيها الدليل على أن من لم يشرح الله صدره إلى الإيمان لن يستطيع النبي أن يهديه، لأن عمَى القلب، الذي هم فيه يحجبهم عن أنوار الهداية والإيمان.

ـ وفي الآية الثالثة ٣٠/٢٤ ـ دلالة على عظمة الله، التي أرسلت البرق آية ليتعظ بها الناس، فيه الخوف من بريقه الذي يخطف الأبصار، وفيه الطمع بما وراءه من المطر الذي يجلب الرزق.

ومجمل القول:
إن مقارنة هذه الآيات للاستدلال منها على واقع اقتباسها أو ترجمتها عن الآية الإنجيلية ٢٤/٧ هي مقارنة غير دقيقة وغير مدروسة.

٦ ـ وفي الصحيفة ١٥٧ ـ يتحدث المؤلف عن الجنة السريانية مستدلاً عليها من سفر زكريا الإصحاح ١٤ ـ الآية ٦ ـ وعلى سفر الرؤيا في الإصحاح ٧ ـ الآية ١٦ ويورد نص الآيتين كما يعتمد على سفر أشعياء: ٤٩/١٠:
ـ ١٤/٦ ـ زكريا: «في ذلك اليوم لا يكون نور بل قر وجليد».
ـ ٧/١٦ ـ سفر الرؤيا: «لن تلفحهم الشمس ولا السموم».
ـ ٤٩/١٠ ـ أشعياء: «لا يقع عليهم الحر ولا الشمس».

ليقول بعد ذلك:
إن الجنة القرآنية هي ذاتها الجنة السريانية، بما فيها من سكان، وما فيها من

أسباب السعادة والحبور الأبديين. فالمؤمنون الذين استحقوا جنة القرآن يقال لهم: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (٤٦/١٥). ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٤٩/٧) فيدخلونها ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ (٨١/٨٨) ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (٢٣/٧٥). ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (٢٤/٨٣) وسبب ذلك أنهم ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ (١٣/٧٦).

لذلك:

عدت إلى المصادر الأربعة لأتحقق من صحة المقايسة بينها. فوجدت فيها الحقائق التالية:

أ - إن المرجعين التوراتيين «سفر زكريا» و«سفر أشعياء» لا يتحدثان عن الجنة السريانة من قريب أو بعيد.. وكذلك الحال في «سفر الرؤيا» والأوصاف التي وردت في منظومة الفردوس السريانية، لا تلتقي مع ما جاء في هذه المراجع الثلاثة.

ب - الاستدلال بالآية ٦ - من الإصحاح ١٤ - من سفر زكريا، غير دقيق وذلك بقوة الأسباب الآتية:

- لا يوجد في الآية ٦ - عبارة (بل قر وجليد).

- الإصحاح ١٤ - بمجموعه يتحدث عن انتقام الرب من الشعوب التي تجندت ضد أورشليم فيحاربهم في يوم شديد، معروف لدى الرب لا يكون فيه نور، الدراري تنقبض. وبعد ذلك تعمر أورشليم بالأمن.

- وهذه حوادث دنيوية، وليست حوادث نعيم أبدي، بعد أن تزول الأرض فلا يبقى إلا الجنة للثواب والجحيم للعقاب.

جـ - الاستدلال بالآية ١٠ - من الإصحاح ٤٩ - من سفر أشعياء هو استدلال غير متوازن، وذلك:

- لأن أشعياء يتحدث عن الرب الذي وعدهم بتمليك أملاك البراري.

«وأجعلك عهداً للشعب لإقامة الأرض لتمليك أملاك البراري (٩) «قائلاً للأسرى اخرجوا، للذين في الظلام اظهروا، على الطرق يرعون «وفي كل الهضاب

مدى العمر، لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم «حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهمُ إلى ينابيع المياه يوردهم (١٠)».

ـ فهذه الآيات، تتحدث عن العمر. وذلك لا يكون في الجنة التي تلغى فيها الأعمار والآجال، بالحياة الأبدية.

ـ وتتحدث عن المراعي والهضاب، وليس ذلك في الجنة.

د ـ الاستدلال بسفر الرؤيا، غير متوازن أيضاً.

فالذين لن تقع عليهم الشمس ولا الحر، ليسوا أبناء الجنة، كما وصفت في القرآن بل هم الذين ختمهم الرب على جباههم، وهم اثنا عشر ألفاً من كل سبط من أسباط إسرائيل. هؤلاء مع الذي غسلوا ثيابهم بدماء الخروف، يقوم الخروف برعايتهم واقتيادهم إلى ينابيع مياه حية.

٧ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٢/٥٨ و ٦٠ ـ البقرة).

«أية قرية دخلتموها استخبروا عن الكريم فيها وأقيموا هناك لأن العامل يستحق طعامه وحين تدخلون البيت سلِّموا عليه فمضوا يدعون إلى التوبة» (متّى: ١٠/١١).

«أي بيت دخلتم سلِّموا وامكثوا تأكلون وتشربون مما لديهم لأن العامل يستحق أجرته وأية مدينة دخلتم وقبلوكم فكلوا مما يقرب إليكم وقولوا اقترب زمن التوبة» (لوقا: ١٠/٥).

قبل مناقشة المقارنة:

يجب التنبيه إلى التجاوز الذي قام به المؤلف على الآيات الإنجيلية:

ـ فالآية ١٠/١١ من إنجيل متّى هي غير ما أوردها المؤلف:

«وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق، وأقيموا هناك حتى تخرُجوا (١١) وحين تدخلون البيت سلِّموا عليه (١٢)».

أما عبارة العامل يستحق طعامه: فلم ترِد في الآية ١١ ـ

بل وردت في الآية (٩) و(١٠):

«لا تقتنوا ذهباً ولا فضةً ولا نحاساً في مناطقكم (٩) ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا لأن الفاعل مستحق طعامه (١٠)».

فالمؤلف، قطع، ولصق، حتى استخرج آية من ثلاثة آيات.

ـ وكذلك صنع في الآية ٥/ من الإصحاح ١٠ ـ من إنجيل لوقا.

فهي مقتصرة على الكلمات التالية:

«لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية ولا تسلموا على أحد في الطريق (٤) وأي بيت دخلتموه فقولوا أولاً سلامٌ لهذا البيت (٥)».

أما: عبارة «وأية مدينة دخلتم وقبلوكم فكلوا مما يقرب إليكم وقولوا اقترب زمن التوبة» فقد جمعها المؤلف، من بعض الآيتين (٨) و(١٠).

وكذلك عبارة «وأية مدينة دخلتموها فقبلوكم فكلوا واشربوا...».

و«اقترب زمن التوبة...».

و«الفاعل يستحق أجرته...».

هي عبارة عن مجموعة من الآيات، اقتطع منها كلمات، وجمعها كلها في آية واحدة ووهبها رقم ـ ٥ ـ.

ونحن لم نتتبع المؤلف، بهذه الشدة، إلا لأنه فقد عندنا مصداقية الاقتباس والاستهداء بالنصوص، فهو ـ كما قلت يقطع ويلصق ـ فتخرج من بين يديه مخلوقات عجيبة، كتمثال أبي الهول.

بعد هذا نعود إلى المقارنة بذاتها، ولذاتها، بين آيتي القرآن ٢/٥٨ ـ ٦٠ وبين الآيات من إنجيل متّى ولوقا. فنقول:

لو عاد المؤلف إلى مناسبة نزول الآية القرآنية لوجد أنها آية إخبارية نزلت للحديث عن بني إسرائيل عندما خرجوا من أرض مصر ورفضوا أمر الله لهم بدخول الأراضي المقدسة.

بينما الآيات الإنجيلية، هي آيات تعليمية، ليس فيها أي إخبار تاريخي. ولا يكفي للقول بالتشابه: وجود كلمة قرية في النصوص المتقابلة. لأن كل تجمع من

الناس أقاموا فيه المساكن والأبنية، يسمى قرية، وقد تطلق على المدينة. وفي الحديث «أُمِرْتُ بقرية تأكل القرى» أي بالمدينة المنورة التي يفتح الله على أيدي أهلها المدن. وفي الحديث أيضاً إن نبياً من الأنبياء أَمَرَ بقرية النمل فأُحرقت. (لسان العرب).

٨ - ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ (٢/٥٤ - البقرة).

«من أراد أن يخلص نفسه يقتلها» (متى: ١٦/٢٥) و (لوقا: ٩/٢٤) و (مرقس: ٨/٣٥).

وهنا أيضاً، حصل شيء من التشويه في سرد الآيات الإنجيلية.

فهي - في الأصل - متفقةً تقريباً، إلا في بعض الألفاظ. وكلها تتألف من آيتين في كل إنجيل:

«قال يسوع لتلاميذه إن أراد أحد منكم أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني (٢٤) فإن أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها (٢٥)» في (متى: ٢٤ و٢٥) وفي (لوقا: ٢٣ و٢٤) وفي (مرقس: ٣٤ و٣٥).

فالمؤلف، قدم من هاتين الآيتين اللتين تعالجان مسألة الامّحاء بالإيمان إلى درجة إهلاك النفس عن طريقة إماتة شهواتها، وحاجاتها المادية استغناء بالمسيح. نقول:

لقد قدم المؤلف من هذا «التصوف المطلق» عبارة مجزوءة شوهت معنى الآيتين، وتركت عليها ظلال الغموض.

على أية حال:

فإن الآيات الإنجيلية هي آيات تعليمية، هادفة إلى إنماء المناقبية الإنسانية والارتفاع بها عن مستويات المادة.

في حين أن الآية القرآنية نزلت فيمن عبدوا العجل من بني إسرائيل، الذي لم يقبل منهم أي مظهر من مظاهر التوبة، غير أن يقتلوا أنفسهم استغفاراً عن الإثم العظيم الذي ارتكبوه.

٩ - ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ (٩/ ٨٠ - القرآن).

«اغفر لهم... لا سبع مرات بل سبعين مرة سبع مرات» (١٨/ ٢١ - ٢٢ - متّى).

في الآية القرآنية تأكيد على أن المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار فالله لن يغفر لهم ولو استغفر لهم الرسول سبعين مرة.

وفي بعض المراجع: أن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في المبالغة، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. (ابن كثير).

أما الآية الإنجيلية فقد أكدت إمكانية الاستغفار والاستمرار بطلبه دون توقف إلى أن يُقبل.. وقد وردت هذه الآية بمناسبة سؤال بطرس للمسيح:

«قال بطرس يا رب كم مرة يخطىء أخي وأنا أغفر له هل إلى سبع مرات؟»

قال يسوع لا أقول لك سبع مرات بل سبعين مرة سبع مرات»

أي: ٧٠ × ٧ = ٤٩٠ مرة. وحتى عند هذا العدد لم يصرِّح بالتوقف عن الاستغفار ولم ينفِ إمكانية الحصول على الغفران.

- فمناسبة الآيتين مختلفةٌ كل منهما عن الثانية.
- والحكم الشرعي في كليهما مختلف بشكلٍ قاطع.
- والآية القرآنية تتحدث عن المنافق. في حين أن الآية الإنجيلية تتحدث عن الأخ المخطىء في حق أخيه.

١٠ - ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ (٥٨/ ٧ - القرآن).

«حينما اجتمع اثنان أو ثلاثة كنت هناك بينهم» (١٨/ ٢٠ - متّى).

وردت الآية القرآنية بصيغة العموم مُؤكدة أن الله موجود في كل مكان وحاضر في كل اجتماع حضوراً حقيقياً بحيث يدخل في ترتيب عدد الحاضرين المجتمعين. أما الآية الإنجيلية فليس فيها صفة العموم.

ولقد عدنا إليها في مرجعها فوجدنا أن المؤلف حذف منها كلمة حاسمة في تحديد معناها وبُعْدِهَا الشرعي. فهي في الإصحاح ـ ١٨ ـ من إنجيل متى:
«لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون وسطهم».

فأقدم المؤلف على حذف كلمة «باسمي» لكي تبقى لها صفة العموم وتصبح قريبة من النص القرآني.

١١ ـ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ • إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ (٤٩ / ٩ ـ الحجرات ـ القرآن).
«إذ خطِىء أخوك فاذهب إليه وإن لم يسمع فأخبر الكنيسة وإن لم يسمع للكنيسة فليكن عندك كالوثني» (متى: ١٨ / ١٥).

لا ندري كيف وجد المؤلف بين هذين النصين ما يسمح بالمقابلة بينهما. فهما مختلفان، في الشكل وفي الموضوع.

ـ العموم في الآية القرآنية (طائفتان) يقابله الخصوص في الآية الإنجيلية (أخوان).

ـ والتصرف الإنجيلي تجاه من لم يستمع إلى قول الكنيسة هو التقاطع معه واعتباره مثل الوثني.

أما في القرآن فالقتال أمر من الله ضد الفئة التي تبغي، وهو مستمر بلا توقف أو رحمة حتى تفيء إلى أمر الله. وفي ذلك، ضمانات لاستقرار المجتمع، لأن تهدئة الخلاف الكبير دون حسم نهائي، يجعل المجتمع هامداً في الظاهر وفي حالة غليان في الداخل، انتظاراً، للإنفجار من جديد.

١٢ ـ ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ

مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٥٧/١٢ ـ ١٥ ـ القرآن).

«قالت الجاهلات للعاقلات اعطينا من زيتكن، فأجابت العاقلات اذهبن وابتعن لكن زيتاً. . . دخلت المستعدات وأغلق الباب فجاء العريس وناداهن. الحق أقول لكن إني لا أعرفكن. وبقيت الجاهلات خارجاً هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (٢٥/١ ـ ١٣ ـ متى).

من التمعن في هذين النصين وجدنا:

أ ـ في الآيات الإنجيلية حوار بين الجاهلات والعاقلات، حيث عبأت الحكيمات مصابيحهن بالزيت، وأغفلت ذلك الجاهلات. في حين أن نور المؤمنين والمؤمنات في الآية القرآنية يسعى بين أيديهم لأنه حصيلة الأعمال الطيبة التي عملوها في حياتهم فلم يستحضروها مثل عاقلات الإنجيل من أجل مناسبة خاصة. ولكنها هي التي سعت إليهم، عملاً بما جاء به الوعد القرآني ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. الإسراء ١٧/١٣ ـ ١٤.

ب ـ الزيت المضيء في الإنجيل قابل للابتياع، وقد عادت الجاهلات لابتياعه واللحاق بالحكيمات، ولكن النور القرآني، هو القرض الذي أقرضه المؤمن إلى الله وهو الثمن الذي باع به نفسه إليه. فلا يقبل البيع ولا الشراء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم... ﴾. التوبة ٩/١١١

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. البقرة ٢/٢٤٥

جـ ـ الآية الواردة في خاتمة الآيات الإنجيلية (وهناك يكون البكاء وصرير الأسنان) لا علاقة لها بمناسبة الحكيمات والجاهلات ولا الزيت والمصابيح وموضعها ليس بين الآيات ١ ـ ١٣ من الإصحاح ٢٥ ـ بل هي في الآية ٣٠ ـ من الإصحاح المذكور. وقد وردت بمناسبة خاصة هي: «والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان».

ولكن المؤلف:

ألحق هذه الآية بالآيات ١ ـ ٣١ لكي يقيم شيئاً من التوافق بين ألفاظ تلك الآيات وألفاظ الآية القرآنية: الحديد ٥٧/١٥

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وهذا من أساليب الصيد والقنص، ونصب الشراك عوّدنا عليه المؤلف منذ بداية كتابه هذا وفي جميع كتبه الأخرى.

١٣ الآية - ﴿ ... ﴾ (٤٨/٢٩ ـ القرآن).

على هذه الآية بنى المؤلف، واحداً من أحكامه القاطعة فقال في الصحيفة ـ ١٨١ ـ في خاتمة مقارناته بين القرآن والإنجيل:

«وفي أي حال لا يمكن نسبة أمثال القرآن إلا إلى الإنجيل دون أي مصدر آخر. وفي القرآن ما يدل على أنه أخذها من الإنجيل مباشرة فهو القائل بوضوح ما بعده شك: **﴿ذلك مثلهم في الإنجيل﴾** (٤٨/٢٩).

ومن أجل بيان سوء القصد عند المؤلف أثبت نص الآية بكاملها:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾.

ـ فالآية تحدثت عن «محمد رسول الله والذين معه» فوصفت تراحمهم فيما بينهم وشدتهم على الكفار، ودلت على الشبه بين صدقهم العقائدي مع أمثالهم من المجاهدين السابقين الذين جاء ذكرهم في التوراة والإنجيل، وما ذلك إلا لأن الدّرب الذي يسير عليه المؤمنون المجاهدون، هو درب واحد في كل زمان، وهو درب الجهاد والتضحية. كما أن مزاياهم في المودة والتراحم وسمو الأخلاق، هي على نمط واحد لا يتغير.

ـ فالمثل، هنا، لتقرير التشابه في الصفات والأعمال، ولا علاقة له بالأمثال، التي تطلق في العادة لتقرير حكمة أو تثبيت عرف.

ـ والمثل، هو بين المؤمنين في الأزمنة الثلاثة، وليس ـ كما قال المؤلف ـ من أجل إزالة الشكوك فيما يتعلق بمصدر الأمثال القرآنية.

. . . .

د - خاتمة الفصل الخامس

لقد كانت الفقرات «ثالثاً - رابعاً - خامساً» من هذا الفصل أجرأ ما في الكتاب من السطو على الحقيقة، وانتهاب النصوص، والانحراف في التفسير.

ليس في آيات القرآن فحسب.

بل في التوراة والإنجيل وأعمال الرسل والأمثال، وكل ما يخطر على البال. كان هم المؤلف، أن يصطاد الأدلة، ويقْسِرهَا على الدخول إلى القفص الفكري الذي أطلق عليه اسم «قس ونبي».

فلم يحرم على قدميه بقعة من بقاع الله والأنبياء والمفسرين والمحدثين والمؤرخين وعلماء الأنساب.

الكل صالح للاستهلاك. فالمعدة، صممت على أن تظل طالبة للامتلاء وأن تظل دائماً على خواء. فكان هذا الكمُّ والتركيم بلا ضابط ولا هدى ولا كتاب منير.

مرة أخرى نهيب بالقارىء ألا يسترخص قناعته، عندما يقرأ «قس ونبي» أو أيّاً من هذه السلسلة. وليكن في متناول يديه وعينيه، الكتب المقدسة الثلاثة، وما يمكن أن يتوفر من شروحها، وتأريخها، وتحليلها.

لأن مؤسسة «أبي موسى» بنت مصنعاً للفكر الزعاف، تطلقه بين حين وحين، كتباً، كلٌّ منها، لا يقل خطراً وسطواً على العدل والرحمة، عن دفقات اللعاب القاتل، التي تقذفها الأفاعي.

سلسلة الحقيقة الصعبة؛ ينبغي على كل مفكر، ومتتبع أن يقرأها وأن يبدي فيها رأيه، لكي تصل إلى الأجيال القادمة مقرونة، بالنقد العلمي.

. . . .

﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾
ـ قرآن كريم ـ

«إن لصاحب الحق مقالاً»
حديث شريف

«ارم خبزك على وجه الماء فإنك تجده ولو بعد أيام كثيرة»
من سفر الجامعة

خاتمة الكتاب

تقع خاتمة الكتاب عند المؤلف في نيِّفٍ وعشرين صحيفة تتكون من المواضيع الأربعة الآتية:

- نجاح القس والنبي.
- فشل القرآن.
- محمديون أم قرآنيون.
- اسألوا أهل الذكر.

وهي:

مواضيع إنشائية، استرجع المؤلف فيها أفكاره السابقة بأسلوب تجمَّل بعض الشيء بالخيال.

ومع أنها:

لم تأت بالجديد ولا بالمفيد، وكيلا تبقى بمنأى عن الحساب، ولأنها تحمل الطابع العدواني، وتطلق مقذوفات التحدي للعلم والحقيقة، وجدنا من المفيد أن نتعقب المؤلف في بعضها.

أولاً ـ نجاح القس والنبي ـ

بالرغم من أن العنوان يجعل النجاح مشتركاً بين القس والنبي. وأن كلاً منهما شارك في تحقيقه، فقد جاء مضمون البحث بغير ذلك تماماً.

ففي المضمون: إن ورقة بن نوفل، هو الذي خطط منذ أول لحظة، وهو الذي أشرف، ودرَّب، وضع الشخصيات وأوكل إليها الأدوار، ورأى في عالم الغيب ما كان غائباً عن سواه من العالمين.

لقد كانت شخصية خديجة وأبي طالب، وأبي بكر وغيرهم إلى جانب محمد، أدواتٍ في يد مهندس الخطة ـ ليس إلا ـ.

كل أداة، تقوم بعمل، وتنشط في اتجاه. ثم إليه تصير الأمور.

لذلك:

لم يكن إشراك محمد مع القس في هذا العنوان، إلا لإيجاد عامل الانتباه والجذب لدى القراء. الذين سوف يلفت انتباههم اقتران اسم القس باسم النبي محمد، وتقدمه عليه، في «شركة الإسلام».

وبهذا يتحسن تسويق الكتاب، وينداح انتشاره انداياح بقعة الزيت على وجه الماء الراكد.

وإذن نحن مع المؤلف على موعد في هذه الفقرة، حول نجاح القس ورقة بن نوفل لوحده، خلافاً لما جاء في العنوان.

وذلك النجاح، لم يتحقق ـ كما رأى المؤلف ـ دفعة واحدة وفي زمن واحد ولكنه نجاحات عدَّة، تجمعت، فتشكلت منها دعوة الإسلام وقرآنه.

. . . .

النجاح الأول: (الزواج من خديجة):

لقد حدد المؤلف عناصر النجاح، في الصحائف من ١٨٣ ـ ١٩٥ وهي: «اختياره لمحمد» و«تزويجه من خديجة» و«تدريبه في غار حِراء على التأمل والتفكر بالله في خلوته» و«تعليمه التوراة والإنجيل» و«مناصرته في مهماته الصعبة» و«إعلان مسئوليته وتعيينه قسّاً على كنيسة مكة».

والمسئوليات التي أُلقيت على عاتق محمد من قبل ورقة لا تختلف عن مسئوليات أي قس في كنيسة الله وهي:

«تعليم ما تعلم من الكتاب والحكمة» و«تذكير الناس بقصص الأنبياء والأمم» و«تبشير المحسنين بالجنة وإنذار المنافقين بالنار» و«تأليف الناس وتوحيد الشيع والأحزاب النصرانية في أُمة واحدة» و«سن الشرائع الاجتماعية». و« صُنع الطقوس والفروض والعبادات والحدود» (ص ١٩٣ ـ ١٩٤).

ويضيف المؤلف:

«إن نجاح محمد في التنفيذ، وتحقيق المهمات التي كلف بها، كان من الأمور المتوقعة بدون شك، لأن القس الذي اعتاد على التخطيط، اعتاد على النجاح، فقد نجح من قبل في رسالته بين العرب ومع الحمس من قريش من الذين تحنثوا في غار حراء أمثال عبد المطلب وعبيدالله بن جحش وعبدالله بن جدعان وزيد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث وغيرهم. كما نجح في اختياره محمداً وقد عرفه منذ صغره وهو في بيت جده ودرَّبه على محبة الخلوة والصلاة وقراءة الكتب والتأمل بأخبار الأنبياء ومرَّسه على نجدة البائسين» (ص ١٩٤ ـ حرفياً).

وكان المؤلف من قبل، سرد، هذه الأقوال، وخصص لها كامل الفصل الثاني من كتابه، فخصصنا في مقابله فصلاً ثانياً من هذا الكتاب ناقشنا فيه جميع هذه المعاني، وبيّنا وجهة نظرنا، وأدلَّةَ شكُوكِنا فيها ورفْضِنَا لها.

وإننا، إذ نجابه هنا، هذه المواضيع تثار من جديد، نرى من المفيد تلخيص رأينا فيها، وهو لا يتعارض مع ما كنا قلنا سابقاً:

أ ـ إن الذي اختار محمداً، هو الله، فالوحي فجأه دون استعداد أو انتظار

بينما كان في خلوته بغار حراء. كما فوجئت خديجة بالوحي وهي أقرب الناس إلى أسرار النبي وخفاياه، وفوجىء به ورقة بن نوفل وأبو بكر الصدِّيق...

ب ـ إن الاختلاء في غار حراء، لا يخضع إلى تعليم أو تدريب، لأنه إلهام ينبجس نوره من الداخل فيضيء عقل المستنير وروحه؟

والخلاء لا يسمى خلاءً، ولا يوصف بوصفه، إلا إذا انقطع صاحبه عن الناس وانفرد بنفسه، ليتفكر في خلق الله وعظمة آياته.

وكنا من قبل:

أمسكنا بالمؤلف، وهو يعترف، بأن عناصر خلوة محمد، وما كان يتم فيها وما كان يقوم به خلالها، من الأمور التي لم ترد في أي مرجع تاريخي أو فقهي لذلك لم يدركها أحد.

فكيف بعد هذا استطاع أن يدخل إلى هذه الخلوة ويتعرف إلى ما فيها ويشرح أسرارها وخوافيها، وقد مضى هذا الزمن البعيد؟؟

سؤال استنكاري، يتضمن جوابه، وهو أن ما جاء به المؤلف من وصفٍ لخلوة محمد، ليس غير فرضيات وخيال إنشائي، يفتقر إلى الأدلة والقرائن.

جـ ـ والإعلانات العديدة، التي نسبها المؤلف إلى ورقة، وبمقتضاها وقفت الدعوة على قدميها، وانطلقت مغمورة بالثقة والاطمئنان لأن القس ورقة أكد لها دعمه وعزمه وتأييده.

تلك الإعلانات، ناقشناها في حينها. وبيّنا أنها تجافي المنطق بمقدار ما تجافي الحقيقة:

ـ فالنبي يعلن عن نفسه بوحي الله وأمره، وليس بوحيٍ أو أمرٍ من جانبٍ آخر.

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٥/ ٩٤).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٥/٦٧).

ـ فالله هو الذي أمر وأوحى. وهو الذي أنزل الرسالة، وكلَّف بالتبليغ «ووعد بحفظ النبي من كيد الكائدين».

د ـ قال المؤلف:

إن جميع ما قام به محمد، وما قدمه، من إبلاغ القرآن بما فيه من شريعة وأحكام وعبادات وأخبار وعلوم. وبما قام به من أعمال وما صدر عنه من أقوال ليس أكثر من المهمات التي تلقى على أي قس من قساوسة الكنيسة.

ومجمل القول: إن ما وضع على عاتق محمد، من مهمات النبوة والرسالة كان من صنع بشري، ولا علاقة للمصدر الإلهي به.

وحجة المؤلف في هذا:

«هي أنَّ الله لا يتدخل في أمور الناس، وبخاصة الأمور التشريعية والحياتية».

كيف؟ تكوَّن هذا الرأي عند المؤلف؟ وبخاصة؟ ما هو المستند الذي يعتمد عليه والذي أقصى بموجِبِهِ الله عن الأمور التشريعية والحياتية للناس؟

وهل كانت أهداف الرسالات، إلا أمور الناس التشريعية والحياتية، وتطويرها وضبط جوامحها، ورصد حركاتها، بما يؤمن استقرار وسعادة الآخرين؟

ـ ألم يقرأ في سفر الخروج الإصحاحات من ٢٩ ـ ٤٠.

ـ وسفر اللاويين بكامل إصحاحاته السبعة والعشرين التي جاءت آخرُ آيةٍ فيها لتعلن:

«هذه هي الوصايا التي أوحى بها الرب موسى إلى بني إسرائيل في جبل سيناء» (٢٧ / ٢٤).

ـ وسفر العدد بإصحاحاته الستة والعشرين التي تلخصت في آخر آية:

«هذه هي الوصايا والأحكام التي أوحى بها الرب إلى بني إسرائيل عن يدِ موسى في عربات مو آب أردن أريحاً».

ـ والفرائض التي أبلغها موسى في الإصحاحين الخامس والسادس من سفر التثنية. وتشريع الإقراض والإبراء والزراعة وتربية الماشية وملكيتها ودية القتلى وسواها في الإصحاحات ١٦ ـ ١٧ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ (تثنية).

ـ والوصايا والأحكام في الإصحاحين ١١ ـ ١٢ ـ تثنية،

ـ والآية الأولى من الإصحاح ٢٩ ـ تثنية التي لخصت مضمون السفر بقولها: «هذه هي كلمات العهد الذي أمر الرب موسى أن يقطعه مع بني إسرائيل في أرض مو آب فضلاً عن العهد الذي قطعه معهم في حوريب».

كيف التفت المؤلف عن ذلك؟ وسمح لله أن يتدخل هذا التدخل العريض في شئون الناس قبل أن يأتي محمد بألفي سنة تقريباً؟

أو؟!

كيف لم يستنكر تدخل الله المباشر، أحياناً عند الإسرائيليين، فيعلمهم أمور حياتهم، ويحارب معهم جنباً إلى جنب، ويتحاور معهم، ويتعارك مع أنبيائهم عراكاً جسدياً فلا يتحقق له النصر الكامل؟

كيف لم يستنكر في التوراة واستنكر في القرآن مع ما هو عليه أسلوب القرآن من سُمُوٍّ وجبروت ومناعة وإعجاز؟ وما يتّسم الحضور القرآني من إجلال الله عن التجسُّد وتنزهه عن الوصف والتمثيل؟!؟

هـ ـ وفي الفصل الأول، عندما قرأنا عند المؤلف «نصرانية القس ورقة» أفردنا لذلك العنوان عنواناً مماثلاً. تتبعنا فيه مقالات المؤلف التي زعمت بأن ورقة بن نوفل، هو الذي علم الحنيفية إلى الحمس من قريش وهو الذي دربهم على التخنث.

وأشرنا حينذاك إلى المراجع التاريخية التي اتفقت على أن عبد المطلب هو أول من تحنث من العرب متبعاً ملة جده إبراهيم. فهجر نجاسات الأصنام وذبائحها وقطع يد السارق ومنع الوأد وحَضَّ على القِرى وإطعام المساكين. فورقة بن نوفل، لم يقم بتعليم الخلوة إلى أحد لكي يقال فيه «لقد نجح في مهمته الأولى». والقرشيان النصرانيان عثمان بن الحويرث وعبيدالله بن جحش هما الوحيدان اللذان ثبت اعتناقهما للنصرانية، ولم يثبت أنهما تلقياها عن ورقة، ثم ـ وهذا ثابت أيضاً ـ مارساها في خارج الجزيرة العربية فأحدهما ـ كما مرَّ معنا ـ مارسها في الحبشة

وعاش ومات فيها والآخر مارسها في بـلاد الروم وعـاش ومات فيهـا، ونال لقب البطريق.

. . . .

النجاح الثاني: (ترجمة الأنجيل وتسميته قرآناً):

أما النجاح الثاني، فقد حققه القس، من خلال الخطوات التّالية:

أ ـ بنقل الإنجيل العبراني إلى اللغة العربية. لذلك سمي النقل «قرآنـاً» والقرآن، يعني «قراءة الكتاب العبراني بالعربية».

ب ـ جمع الكتب المتداولة بين أيدي الشيع النصرانية وأحزابها، في كتاب واحد كما شهد القرآن بذلك. . . ﴿**إنّ علينا جمعه وقرآنه**﴾ (١٥/٧٥).

أي: علينا أن نجمع كتب الأحزاب النصرانية، المتفرقة المختلفة في كتاب واحد.

جـ ـ هذا الكتاب الواحد، هو الذي قدم باسم القـرآن، لذلـك، كان هـو الكلمة السواء:

«٦٤/٣ و٢٢/٢٥ و١٦/٧١ و ٣٠/٢٨»

فلم يفرط القس في شيء منه بل جمعها كلها وأخذ بهـا جميعاً: ٣٨/٦.

وذلك لوجود كتب عديدة في زمن القس:

٤/١٥ و٤٥/٢٨ و٤/٤٤ و٣/٧٨ ـ ١٨٧ و٤/٥٥.

د ـ ولقد شهد كل من القس والنبي أن كتابهما مستنسخ من الكتب السابقة وذلك في الآيات:

٤٥/٢٩ و٨٧/١٨ و٢٦/١٩٢ ـ ١٩٦.

ويقول المؤلف بعد ذلك:

«بِتحقُّق هذا النجاح، تحققت أكبر نتيجة، من المخطط، وهي أن القرآن هو الترجمة المفصَّلة للكتاب العبراني، الـذي يسره القس بلسـان عربي تحـدى في بلاغته شعراء مكة. . وهو نجاح لم يتحقق مثيلُهُ في تاريخ الكنيسـة بالـرغم من

المحاولات العديدة التي قامت بها في تاريخها والتي كانت آخر محاولة فاشلة منها في حركة «تاسيان» بجمع الأناجيل الأربعة في إنجيل واحد سمَّاه «الدياتيسرون» وهذا النجاح، تكوَّن من عنصرين رئيسيين:

ـ الترجمة المفصَّلة للكتاب العبراني، كما نوَّهنا.

ـ نسخ الكتب السابقة، التي دخلت هي والصحف الأولى والمتفرقات المتداولة بين أحزاب بني إسرائيل، في الكتاب الواحد. (ص ـ ١٩٧).

. . . .

ففي هذه الأقوال، نبدي ملاحظاتنا كالآتي:

١ ـ كنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب ناقشنا مقولات المؤلف في القرآن وهي مقولات خمس: «القرآنَ هو القراءة العربية للكتاب العبراني» و«القرآن هو القراءة المفصَّلة للكتاب الأعجمي» و«القرآن هو القراءة الميسَّرة للكتاب العبراني» و«هو التذكرة للكتاب العبراني» و«هو القراءة المصدِّقة للكتاب العبراني».

وقدمنا ما أمكن تقديمه من الأدلة على خطأ هذه المقولات وبطلانها مما لا نرى معه من حاجة إلى التكرار.

على أن قول المؤلف: إن لفظة القرآن، وضعت عنواناً للكتاب الإسلامي، لكي تنبه الناس إلى أنه يعني «القراءة العربية للكتاب العبراني» هو الذي ينبغي حسمه، حسماً لغوياً، وتاريخياً، وتفسيرياً.

فبالرغم من أن المؤلف لم يوضح ماذا يقصد من كلمة «يعني».

هل قصد إلى المعنى اللغوي؟ للفظ القرآن؟

أم قصد إلى السبب الحقيقي الذي دعا إلى هذه التسمية لكتاب المسلمين؟

ذلك شأنه: ولن ننتظر منه تحديداً.

لأننا سوف نكشف الخطأ في المقولتين، ولا يهمنا ماذا يختار المؤلف منهما بعد ذلك.

ـ ففي اللغة: قال أبو إسحق: يسمَّى كتاب الله الذي أنزله على نبيه محمد (ص) كتاباً وقرآناً وفرقاناً. ومعنى القرآن هو الجمع، وسمي قرآناً لأنه يجمع

السور فيضمها إلى كتاب واحد. وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴾ أي: علينا جمعه وقراءته. وقرأت الشيء قرآناً جمعته وضممته بعضه إلى بعض. ومنه قولهم: «ما قرأت هذه الناقة جنيناً قط، أي لم يضطم رحمها على ولدٍ بعد»، و «قُرىء: هجان اللون لم تقرأ جنيناً».

وهذا المعنى اللغوي هو في ذات الوقت سبب تسمية الآيات التي نزلت على النبي قرآناً بعد جمعها في كتاب واحد من صدور الحُفَّاظ. كما سميت مُصحفاً لأنها جمعت الآيات من الصحف التي كانت قد دوّنت عليها.

أما عود المؤلف بأسباب «تسمية القرآن» إلى أن الأصل العبراني عندما نُقِلَ إلى العربية، وقُرىء باللسان العربي، سمي قرآناً. فهو قول خاطىء:

- لعدم قيام دليل تاريخي عليه من جهة.
- ولكونه مخالفاً للمنطق والواقع من جهة ثانية.

فنحن:

نقرأ بالعربية، التوراة العبرانية، والإنجيل الآرامي، ونكتبهما بالحرف العربي ومع ذلك لا نستطيع أن نسمي أيّاً منهما قرآناً، اعتماداً منا على نظرية المؤلف التي قامت على أن نقل الكتاب إلى العربية وقراءته باللسان العربي وتداوله في المكتبة العربية بالحرف العربي يجعل منه قرآناً.

إن هذا الطرح هو تخبط وتضليل يجافيان المنطق والمعقول ويتعارضان مع أبسط القواعد العلمية والتاريخية والاجتماعية.

٢ - ولقد تتبعت كتب التفسير مفتشاً عن معاني وأسباب نزول هذه الآية التي اعتمدتها نظرية المؤلف وهي: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴾ (١٣/٧٥) فلم أجد في أي منهما ما يلتقي مع المؤلف أو يقاربه.

وغنيٌّ عن البيان.

أن العرب في صدر الإسلام كان عندهم من إمكانيات فهم الكلام العربي القرآني، وكان عندهم من الإحساس بأصالة وعمق الحرف العربي، بالإضافة إلى

صدق الإيمان، ما يجعلهم مرجعاً في فهم أسباب ومعاني ومناسبة نزول الآيات. وهي إمكانيات، لم تتوفر لدى المؤلف بالتأكيد.

فهم كانوا قريبين من الجوّ القرآني وهو بعيد عنه.

وهم يتمتعون بالطبع الأصيل الذي لم تكن خالطته شوائب اللغات والعادات والثقافات، أما هو فليس كذلك من جميع الوجوه.

ولقد وجدت عند المفسرين اتفاقاً على الآتي:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة).

هذا تعليم من الله لرسوله في كيفية تلقي الوحي من الملاك. فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملاك في قراءته، فأمره الله أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن يبينه له ويوضحه.

فالحالة الأولى: هي جمعه في صدر الرسول.

والحالة الثانية: هي تلاوته.

والحالة الثالثة: هي تفسيره وإيضاح معانيه.

ولقد:

تكرر التوجيه الإلهي للنبي في كيفية تلقي الوحي بصمتٍ وهدوءٍ ليتحقق استيعابه، والإحاطة به حتى يتم تبليغه إلى الناس مثلما تلقاه:

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ (٢٠/١١٤ ـ طه).

لذلك ينبغي التأكيد على خطأ تعليل أبي موسى لافتقاره إلى المؤيد اللغوي والتاريخي والقرآني.

٣ ـ وفي الآيتين ٣/٦٤ و ٣٠/٢٨ وردت كلمة «سواء» قال المؤلف عنها: «هي إشارة إلى أن القرآن هو الكلمة السواء التي جمعت كل الكتب النصرانية

المتداولة». غير أن قراءة الأيتين، ومراجعة معانيهما اللغوية ومناسبتهما القرآنية، تعطيك غير هذا المعنى تماماً.

- فالآية: ٣/ ٦٤ - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هذه هي:

دعوة التوحيد التي أمر بها جميع الأنبياء، بدءاً من نوح حتى محمد. فهي الكلمة السواء التي طالب النبي أهل الكتاب أن يلتقوا معه عليها لأنها هي أساس العقائد التي جاء بها أنبياؤهم. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾. (٢١/ ٢٥).

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (١٦/ ٣٦).

وفي شرح البخاري:

إن قيصر الروم سأل أبا سفيان عن أوصاف النبي ونسبه وسيرته. ثم جيء بـ النبي فقرىء عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد:

فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنّما عليك إثم الأريسيين. وقل: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم...».

- والاية ٣٠/ ٢٨ -

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي:

هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله وأن يساويه فيه كشريك؟

كلا: وكذلك لا يقبل الله أن يشاركه أحد من خلقه وعبيده في ملكه وسلطانه»

- وكذلك الآيتان ١٦/٧١ و٢٢/٢٥. اللتان وردت فيهما كلمة سواء، وضع المؤلف يده عليهما، وصادرهما لدعم مقولته.

في حين:

- إن الآية ١٦/٧١ تعالج الفكرة التي وردت في الآية ٣٠/٢٨. وتفسيرها متفق عليه.

- والآية ٢٢/٢٥ تحدثت عن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس سواء. العاكف فيه والباد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

٤ - والخطأ أيضاً ترافق مع تفسير المؤلف للآية «ما فرطنا في الكتاب من شيء» ومما زاد الخطأ وضاعفه، تدعيمه بالآيات ٦/٣٨ و٣/٧٨ - ١٨٧ و٤/٤٤ - ٤٥ و١٥/٤ و٤٥/٢٨.

وذلك لأن جميع هذه الآيات، تنفر من التفسير الذي نسبه إليها المؤلف وهو:

إن القرآن جمع كل ما في الكتب النصرانية وتبناها ونسبها إلى نفسه فلم يفرط في شيء منها.

وفيما يلي أستعرض استعراضاً سريعاً، بشرح غير موسع، هذه الآيات، لتبيان خطأ الاستدلال بها من جانب المؤلف.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾. الانعام ٣٨.

أي إن تلك المخلوقات ما طار في السماء وما دبَّ على الأرض، وما غمرته مياه البحار إنما هي أمم ومجموعات مثلكم، يا بني آدم، صنفها الله بأسمائها وأوصافها ومصادر عيشها ومجال نشاطها، معلومة عنده، في كتاب لا ينسى شيئاً، فيه مستقرها ومستودعها، وإليه مآلها ومحشرها.

- ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا

هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣/٧٨).

نزلت هذه الآية: في اليهود الذين حرفوا وبدلوا ووضعوا وكانوا يقولون دوماً: هذا من عند الله.

ـ ٣/١٧٨ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾.

في هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب وحض لهم على إظهار ما كتموه وما رفعوه من كتبهم وخاصة تلك الآيات والنبوءات التي بشرت بالنبي محمد وذكرت اسمه وصفاته ومكان دعوته وعموده النسبي.

ـ ٤/٤٤ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾.

نزلت في اليهود الذين ضلوا، ونشروا الضلالة، وقاوموا الدعوة.

ـ ٤/٥٥ ـ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾.

نزلت في أسباط بني إسرائيل الذين آتاهم ملكاً عظيماً، فمنهم من آمن بالنبي محمد ومنهم من ضل وصدَّ ولكن الجزاء هو سعير جهنم.

ـ ١٥/٤ ـ ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾.

الكتاب، هنا هو الأجل. وهلاك كل قرية أو شخص لا يتم إلا بأجله المحتوم.

ـ ٤٥/٢٨ ـ ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

أي:

أي في يوم القيامة ترى كل أمة جاثية على ركبها، وقد دعيت إلى كتابها الذي هو سجل أعمالها ـ لكي تجازى بمقتضاه إن خيراً فثواب وإنه شرّاً فعقاب.

ولهذا جاء في القرآن:

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الجاثية ٤٥/٢٩.

أي يستحضر أعمالكم دون زيادة ولا نقصان.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾

ـ ٤٥/٢٩ ـ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: نأمر الحفظة بأن تكتب أعمالكم.

. . . .

تلك الآيات، التي أثبت فيها، كما زعم، أن القرآن وحدَّ الكتب النصرانية، وصار هو «الكلمة السواء» التي جمعت ما عند الأحزاب والشيع النصرانية وتبنَّت مضمونها فلم تغادر منها كبيرة ولا صغيرة.

ولقد تبين منها جميعاً:

أن المؤلف لم يحالفه الصواب في فهم أي منها.

ترى؟ ألم يقرأها المؤلف قبل اعتمادها كأدلة؟

وإن كان قد قرأها ألم يستعن بشروحها؟ وتفاسيرها؟ أم اكتفى بالفهم المباشر الذي تأثَّر بقناعاتٍ مسبقة؟

ألم يخطر في باله أن عدداً من الناس سوف لن يغمضوا العين ولا الضمير مثلما فعل هو؟ وسوف يعودون إلى تلك الآيات مثلما عدنا، قراءة وتفسيراً ولغة وتاريخاً؟

٥ ـ وفي الآيات:

«٤٥/٢٩ و ٨٧/١٨ و ٢٦/١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ ١٩٦».

أدلة قاطعة، في زعم أبي موسى، على استنساخ القرآن من الكتب اليهودية والنصرانية. ولكنه ـ على عادته دوماً ـ يشير إلى الآيات بالأرقام دون عرض

النصوص أو الإتيان بشيء من الشروح، فيستنبط من ظاهر اللفظ ما يريده هو دون الالتفات إلى سواه.

لهذا:

واجهنا منذ ابتداء الدراسة، مهمة صعبة، وهي عرض نصوص الآيات جميعها، بمناسباتها وتفاسيرها، دون ترك واحدة منها كيلا يكون في تركها حجة مع المؤلف علينا.

لذلك استعرض آيات هذه الفقرة بالأسلوب المماثل مع سواها.

ـ ٢٩/٤٥ ـ ورد شرحها في الفقرة السابقة وهي لا تسعف حجة المؤلف.

ـ ١٩٢/٢٦ ـ ١٩٦ ـ من سورة الشعراء:
﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

تصف هذه الآيات كيفية نزول القرآن على قلب النبي لكي يكون من المنذرين به والداعين إلى الهداية بموجبه، أنزله رب العالمين بواسطة الروح الأمين. وإنه بما تضمنه من أحكام موجود في كتب الأولين كما هي موجودة فيها صفات النبي، ونسبه، ودعوته، ومكان ظهوره.

ـ ١٨/٨٧ ـ ١٩ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾.

هاتان الآيتان وردتا في خاتمة سورة الأعلى التي تضمنت أحكاماً ووصايا وذلك للدلالة على أن ما في السورة من الأحكام والأوامر الوصايا المتعلقة بعبادة الله وتوحيده، هي التكليف الأول المستمر للأنبياء جميعاً، لذلك وجدت في الصحف الأولى ـ صحف إبراهيم وموسى.

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

ثم تأتي الآيتان الختام، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾

وقد اتفق المفسرون:

على أن مضمون كلام السورة، موجود بمعانيه منذ الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى. (ابن كثير).

وهذا الكلام ـ هو ما يتعلق بالمبدأ الإلهي، الذي جاءت به الرسالات والنبوات. وهو عبادة الله وتنزيهه عن الشرك وحقيقة يوم المعاد حيث تُجزى كل نفس بما تسعى.

. . . .

النجاح الثالث: (توصيد شيع النّصارى وتسميتها بالإسلام).

والنجاح الثالث، حققه القس ورقة أيضاً وذلك في توحيد الأحزاب والشيع النصرانية في دين واحد. وصهرها في أمة واحدة هما: دين الإسلام وأمة الإسلام.

لذلك: أطلق على الإسلام اسم، دين التوحيد.

وهذا المفهوم التوحيدي تجلّى في ثلاثة معانٍ رئيسية.

- توحيد أحزاب بني إسرائيل والنصارى في أمة واحدة سمّاها «الإسلام».
- توحيد الكتب النصرانية في قراءة واحدة سمّاها «القرآن».
- الاقتصار على عقيدة توحيد الله كأساس مطلق لتوحيد الكتب والأحزاب.

(ص ١٩٧).

ويقول المؤلف:

«يقر القرآن بتعدد الأمم واختلافاتها وتعدد انتماءاتها، ولعن بعضها بعضاً ـ. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (٣٨/٧). ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ (١٩/١٠). وسبب اختلافهم هو انتماء كل منهم إلى نبي. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ (٢١٣/٢). و﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ (٥/٤٠).

(ص ـ ١٩٨)

ويضيف:

«هذه المواقف المتضاربة حول كلام الله جعلت من بني إسرائيل أحزاباً وشيعاً وفرقاً لا عدَّ لها. فاعترف الإسلام بكثرتها وقيام خلافاتها.

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ ﴾ (١٩/٣٧ و٤٣/٦٥).

و﴿ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ ﴾ (١٣/٣٦).

و﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (٣٣/٣٥ و٣٠/٣٢).

وقد حذَّر القرآن من هذه الأحزاب. ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (٣٣/٢٢).

ثم يخشى محمد أن يكون انتمى إلى أحدها أو ساهم في إذكاء خلافاتها.

﴿ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴾ (٢٠/٩٤).

وينهي المؤلف تلك الفقرة بعباراتٍ مثيرة يقول فيها:

«ومن غريب الأمور في الدعوة إلى الإسلام أن محمداً والقس لم يَرُدَّا العَرَب عن إيمانهم السابق ولم يكفراهم بما يؤمنون. بل كان همهما أن ينضم الناس إلى الإسلام وأن يجتمعوا تحت رايته. ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ (٤٩/١٤).

فالقرآن لا يقصد من دعوته جعل الناس مؤمنين به بل أن ينضموا تحت لواء الإسلام، حينئذٍ تضمحلُّ الخلافات وينضوي الجميع تحت هوية واحدة هي هوية الإله الذي نادى به محمد. وعبرت عنه الآية:

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ (١٠/٩٠) ص - ٢٠١.

. . . .

اختصرنا بهذه الأسطر أفكار المؤلف التي بسطها في الصحائف من ١٩٧ - ٢٠١، ونحن لن نستطيع دفع مقولاتها، المتعددة البعيدة الهدف، ما دام يسندها إلى آيات القرآن، إلا إذا تبين بعد دراسة الآيات أنها لم تكن تعني ما قاله المؤلف. لذلك نبدأ بتحليلها وتحديد موقفنا من المؤلف على ضوء النتيجة.

أ ـ تعرضنا فيما سبق من فصول الكتاب إلى معاني التوحيد وأساسه التاريخي ومضمونه العقائدي وكذلك بحثنا في معنى الإسلام، من حيث لفظه في اللغة ومن حيث مدلوله في الاعتقاد.

وعدنا بالتوحيد إلى أصوله الأولى، مع أول نبي، ثم إلى إبراهيم الخليل، ثم إلى أن صار أساس الدعوة في كل نبوة أو رسالة.

ولقد أوردنا من القرآن عدداً من الآيات التي تكرر فيها التأكيد على أن التوحيد هو المبدأ الذي تلتقي عنده الأنبياء وتدعو إليه الأديان؛ حيث يعبد الله من دون إشراك ويتم التسليم إليه، ويكون الإسلام هو التسليم إلى الله.

فتوحيد الشيع النصرانية، هو جزء من هدف الإسلام الكبير، وليس كله. لأنه، توجّه إلى الناس جميعاً.. سواء أكانوا من أهل الكتاب، أم من سواهم ودعا الجميع إلى الوحدة تحت ظل الإسلام والقرآن.

لذلك كانت دعوته من البعد والعمق والاتساع، أشمل من أن تحدها «الأبيونية» أو «القيرنثية» أو «الكسائية» أو كلها مجتمعة، أو أحزاب بني إسرائيل المتشنجة. وهي تعلن أبعاد دعوته في الكثير من الآيات.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١٥٨/٧).
﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٨/٣).
﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٩/٤).
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (١٧٠/٤).
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (٥٤/١٨).

ب ـ ويورد المؤلف، آيات عديدة، لإثبات مقولاته:
«فيما يتعلق بتلاعن الأمم» و«نشوء الخلاف بين الناس بسبب الأنبياء» و«دعوة الإسلام إلى توحيد شيع النصارى وأحزاب بني إسرائيل فقط».

ولكنه يترافق مع الخطأ، في التفسير، ويتلازمان، فما يستطاع الفكاك بينهما. إذ ليس من الطبيعي، أبداً، أن لا تجد تفسيراً صحيحاً لأيّة آية أوردها المؤلف في

كتابه، وهي تقارب السبعماية وبذلك يغدو الاتهام بسوء القصد والإثارة، هو التفسير الوحيد المقبول.

وإلى القارىء بيان ذلك:

- الآية ٣٨/٧ - ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ لم تنزل هذه الآية للتحدث عن التلاعن بين الأمم في هذه الدنيا.

بل جاءت على لسان الباري، مخاطباً الأُمم المكذِّبة، وذلك يوم القيامة وبعد زوال الدنيا. فيقول لتلك الأُمم:

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٨/٧).

- الآية ١٩/١٠ - ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

أي - كما قال المفسرون وكما فهمها الناس منذ نزولها - إن الناس ظلوا أمة واحدة بمعنى «على دين واحد» طيلة الفترة ما بين آدم ونوح وهي عشرة قرون ثم صارت عبادة الأصنام، فصار الاختلاف في الاعتقاد. ولولا كلمة من الله سبقت ولا رادَّ لها، لقضى بينهم منذ الاختلاف. ولكن كلمته النافذة إنه لا يعذب إلا بعد قيام الحجة - هي التي أجلت العذاب إلى يوم الحساب. (ابن كثير - معتمداً على تفسير عبدالله بن عباس).

- والآية ٢١٣/٢ - ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ وهي بكاملها كالآتي:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

أورد المؤلف سبعَ كلمات فقط من الآية، لكي يبني مقولته، في أن الأنبياء

هم سبب الفرقة والاختلاف بين الناس.

ولو أورد الآية بالكامل، لما خرج بهذا التفسير العجيب، وهذا الفهم السيء الذي لا يقره عليه أحد، من الناس.

ولو ظل مصراً على نظريته، لكان عليه ـ وهو لن يستطيع ـ أن يقدم الأدلة على أن الأنبياء، كانوا مصدر التفرقة في التاريخ. وأن تاريخ الإنسان كان يستطيع الاستغناء عنهم.

ـ الآية ٥/٤٠ ـ ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ ﴾.

وهذه أيضاً: اقتطع أولها، وأغفل آخرها، لكي يستطيع أن يقول بما تبقى منها: إن القرآن تحدَّث عن سبب اختلاف الأُمم، وهو تعدد الأنبياء حيث همَّت كل أمة برسولهم وجادلوا بالباطل.

ولكن قراءة الآية بكاملها، تبين معانيها المتكاملة وتؤكد عكس ما فهمه منها المؤلف:

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾.

ففي كلمات الآيتين معانٍ تتكامل وتتداعى فيما بينها. لتؤكد على مجموعة مترابطة من الحقائق هي: إنه لا يجادل بالباطل، ولا يدفع الحق بعد البرهان عليه بالآيات البينات إلا الذين كفروا وجحدوا الله وبراهينه. ولكن الله يخفف عن النبي إذ يخبره بأن له أُسوة بمن سلف من الأنبياء منذ نوح حيث حرصت كل أُمة على قتل نبيِّها وجادل أبناؤها بالباطل، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

ـ والآيتان ١٩/٣٧ و٤٣/٦٥ ـ ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾. إنما أشارتا إلى فرق النصارى. وليس إلى أحزاب بني إسرائيل ـ كما قال المؤلف في الصحيفة ١٩٩ ـ[1] ولقد مر تفسير هاتين الآيتين سابقاً.

(١) في التفسير: إن الأحزاب في الآية ٣٧ ـ من سورة مريم هم أهل الكتاب جميعاً. واختلافهم في عيسى ابن مريم حول بيان أمره. وفي الآية ٦٥ ـ من الزخرف: هم فرق النصارى الذين اختلفوا في المسيح. (ابن كثير ـ والجلالين).

ـ الآية ٣٦/١٣ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ... بَعْضَهُۥ ﴾ أي، بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى ينكرون بعض القرآن ويؤمنون ببعض. والآية هي:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾.

ـ ٢٢/٣٣ ـ ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

نزلت هذه الآية مع الآية السابقة لها (٢١) لتتكامل معانيهما، وذلك في يوم الأحزاب حينما رأى المسلمون مصابرة النبي، فكانت لهم فيه الأسوة الحسنة، حيث كان وعدهم بالابتلاء بهم ثم النصر عليهم فقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (تتمة الآية ٢٢ ـ).

أما الآية السابقة، التي كملت بها معاني الآية ٢٢ ـ فهي:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١/٣٣).

ـ ٩٤/٢٠ ـ ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل...﴾.

لقد ذكرنا مناسبة الآية وظرفها التاريخي وسببها وكل ذلك لا يلتقي مع قول المؤلف في أنها تفيد عن خشية محمد من أن يكون تسبب في إذكاء خلافات الأحزاب. فالآية ـ نزلت على لسان موسى عندما حضر من جبل حوريب بعد غيابه عن قومه فوجدهم تحت ضلالة السامري، فألقى باللوم على أخيه هرون قائلاً:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾.

وامتدت يداه فأمسك بيمناه برأس هرون (شعر رأسه) وأمسك بيسراه بلحيته فصرخ هارون متظلماً، متوجعاً وقال:

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

ـ ١٤/٤٩ ـ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾.

فهم المؤلف، مقصد الآية، فهماً غير صحيح، وغير مستساغ. إذ اعتبر بالاستناد إليها أن الإسلام شيء والإيمان شيء آخر. وأن ورقة ومحمد لم يتطلبا من التابعين إيماناً بل تطلبا إسلاماً. وإيمان الإسلام، هو الإيمان الإسرائيلي دون سواه ـ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كما صرحا بذلك في القرآن بالآية ١٠/٩٠ ـ.

غير أن الذين عاصروا نزول القرآن، فهموا هذه الآية، فهماً كافياً بالاستناد إلى السليقة اللغوية، وإلى قربهم من النبي الذي كان يوضح لهم جميع ما يشكل عليهم:

ولم يثبت في أي مرجع، أن الدعوة فرّقت بين الإسلام والإيمان.

﴿فالدين هو الإسلام﴾ ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾.

والصحيح الثابت في هذه الآية هو: ما رواه سعيد بن جبير عن مجاهد وما رواه قتادة. من أنها نزلت لمعالجة قضية خاصة وهي:

إن بني أسد بن خزيمة ادعوا وصولهم إلى مقام الإيمان فنزلت الآية تعليماً لهم وتأديباً، بأنهم لم يصلوا إليه بعد، ولكنهم لم يكونوا منافقين. إذ لو كانوا كذلك لعُنِّفوا وفُضِحُوا وإنّما قيل لهم تأديباً. أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ـ ١٠/٩٠ ـ ﴿لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل...﴾.

لقد ذكرنا مناسبتها، سابقاً.

فهي لم تنزل على النبي لإفهامه، بأن رسالته ليست رسالة سماوية وأن ما يدعو إليه ليس شيئاً. بل الحقيقة الدينية والرسولية هي عند اليهود.

فالآية: ليست على لسان النبي. ولا في زمانه. ولكنها صدرت عن فرعون عندما أخفق في اصطياد بني إسرائيل الهاربين فقال وقد أدركه الغرق وأشرف على الموت: آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين وذلك لكي تناله رحمة الله وتنجيه من الغرق.

ولكن كلمة الله نفذت في حقه. فدس جبريل حمأة البحر في جوفه وقال له: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٩٠ - يونس).

ونجَّاه الله ببدنه، لكي يكون آية. فقذفه البحر ميتاً، سليماً من وحوشه. لقوله تعالى:
﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ (١٠/٩٢ - يونس).

والحقيقة، التي سواها وهمٌ وباطل:
هي إنه لا جدال بين الأديان على أنه لا إله إلا الله، هو الذي عبده المؤمنون ودعا إليه الأنبياء من عهد آدم وهو الذي دعا إليه نوح وإبراهيم وأبناؤه وموسى وعيسى ومحمد. ولم يقع خلاف في الأديان إلا في الشرائع التي وجب أن تأتي متسايرة مع الزمن والتطور لا سابقة ولا متخلفة.

ولكن طريقة المؤلف في عرض هذه الآية وسردها هي طريقة غير سليمة،
- لأنه ألغى المناسبة والتاريخ.
- وألغى المصدر.
- ثم نسبها إلى القرآن، وجَعل منها إقراراً صادراً عن القرآن بأن الحق ليس فيه، بل هو عند بني إسرائيل وفي كتبهم.

ثانياً ـ فشل القرآن

أ ـ مقدمة تمهيدية:

يبدو أن جاذبية الصناعةالبديعية هي التي بررت هذا العنوان.

فالعنوان السابق «نجاح القس والنبي» دفع إلى هذا العنوان. وذلك لكي تكون مفاجأة، ويبرز غير ما هو متوقع لدى القارىء.

ذلك أن الذي قرأ عند المؤلف، تلك الصحائف التي امتلأت بالجهود الكثيفة لإبراز مراحل ومظاهر النجاح الذي حققته دعوة القس ومحمد. والتي كان من أهمها

وأبرزها ترجمة الإنجيل إلى قراءة عربية سمَّاها قرآناً.

هذا القارىء.

سوف تدركه عناصر الدهشة والارتباك إذ ينقله المؤلف فوراً إلى عكس ما قرأه إذ هنا: الفشل الذريع وقد كان حتى بضعة أسطر سابقة «نجاحاً تاريخياً أخفق تاريخ الكنيسة الطويل في صناعة شبيه له».

لقد بدأ المؤلف هذا العنوان:

بعبارات قصيرة مثيرة، ليستحث الناس إلى الإسراع واستطلاع الخبر فقال:

«لحق بالنجاح الكبير، فشل كبير، وأسرع الفشل كما أسرع النجاح، وما لم يكن متوقعاً وبالحسبان وقع وكان» (ص ٢٠٢ ـ السطران ١ ـ ٢).

ولكن كيف وقع؟ وكيف كان؟

في تقديرنا، أنه لم يقع ولم يكن.

وفي تقديرنا، أن عنصر الإثارة، كان العامل الأساسي لوضع هذا العنوان. لأن نسبة الفشل إلى القرآن وهو الصرح الإنساني الفكري العظيم، أمر يدعو إلى الاستغراب، ويدفع إلى الاستفسار، إذ سوف تنطلق الأسئلة، ولكن؟ كيف كان ذلك؟؟ وبهذا يتحقق هدف المؤلف، وهو استدراج عدد كبير إلى قراءة كتابه. إنه مجرد تشويق سينمائي، أو عناوين صحفية جذابة. ليس لها رصيد في العمق.

وكل قارىء، سوف يصطدم بالمفاجأة مثلما اصطدمت، عندما يقرأ البحث حتى آخر كلمة فيه، فلا يجد، شيئاً يتعلق بفشل القرآن.

فلا تعداد، لنواحي الفشل، ولا دلالة، ولا تحديد.

البحث كله اتهام قذفه المؤلف في وجه عثمان. وكان الله في عون «عثمان» على هذا الوجدان.

لقد قدم المؤلف، طَبَقاً طافحاً بآيات القرآن، مستدلاً منها جميعاً على أن عثما خالف النبي وخالف القرآن. فهجر قرآن ورقة ومحمد، الذي هو قرآن المسلمين، ورفع ووضع وغيَّر وبدَّل حتى كان قرآنُه، مُصْحَفَ عثمان. وعثمان فيما ذهب إليه:

كان محكوماً بظروف الفتح، وعواطف الفاتحين، تجاه الفئات المهزومة التي عاندت وعارضت سياسة الغزاة وقاومت توسعهم. فكان لا بد من أن تدوَّن هذه العواطف لتخلد في نفوس الناس خلود كتابهم، ويستقر بها الانقسام إلى الأبد.

. . . .

إن بحث المؤلف تحت هذا العنوان، سار على مسارين:

أولهما - النصارى في قرآن محمد، هم غير النصارى في مصحف عثمان.

الثاني - إن دوافع التغيير في القرآن أوجدتها ظروف الفتح والانتصار السياسي.

وقد قدَّم - كما قلنا - لتأييد أفكاره طبقاً طافحاً بالآيات القرآنية لكل مسار. . .

فقط:

آيتان من سورة الفتح، هما الآية ١٩ و ٢٠ - قدمهما المؤلف للتدليل بهما على انحراف المسيرة الإسلامية جملةً وخروجها عن المبدأ العظيم الذي تجمَّلت به في عهدها الأول. وهو: مبدأ الجهاد في سبيل الله.

فالجهاد لم يعد كما كان «ابتداءً» مصابرة واستشهاداً في سبيل الله، بل صار في سبيل المغانم. وهاتان الآيتان تتحدثنا - في رأيه - عن هذا التعليل والتحول بوضوح شديد:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

وبالتمعُّن في هاتين الآيتين. نجد فيهما وعداً بالمغانم الكثيرة.

ولكن المغانم جاءت بعد عطيتين، إلهيتين هما في المراتب الأولى من العطاء الإسلامي.

- فقد وهبهم الله السَّكينة، وملأ بها قلوبهم.

- وأثابهم الفتح القريب.

وهذان، هما أول نتيجة من نتائج الجهاد، أما المغانم المادية فهي المحصلة الأخيرة للنصر على الأعداء، ولكنها ليست الجهاد ولا الدافع الأساسي له.

ولو شاء أبو موسى، لاعتمد على موهبته الإحصائية في القرآن، ولكانت تكشفت أمامه الحقائق الآتية:

أ ـ إن هاتين الآيتين نزلتا بعد النصر في «خيبر» ثم تلاه صلح الحديبية، الذي به ﴿**كفَّ الله عنهم أيدي النّاس**﴾.

فالآيتان نزلتا في ظرف معيَّن، ولم تنزلا لتقرير تحول جديد في المسيرة الإسلامية.

ب ـ بعد هاتين الآيتين نزلت الآيات العديدة في الجهاد. وكلها لم يرد فيها شيء عن المغانم المادية.

ـ فبالجهاد باع المؤمنون أنفسهم وأموالهم إلى الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (١١١/٩ ـ التوبة).

فالفوز العظيم، ليس في المغانم المادية والدنيوية بل بالجنة التي اشترى المسلمون حُظُوظَهم فيها، بنفوسهم وأموالهم.

والآيات: ١٩/٩ و١٤٢/٢ و٧٢/٨ و٧٥/٨ و٢٠/٩ و١٥/٤٩ و١١/١١ و٥٤/٥ و٤١/٩ و٧٨/٢٢.

كلها:

آيات، ذكرت في الجهاد، ولم تجعل لقاءه أي مغنم، فقط هو في سبيل الله. وأيضاً: ثوابه في الجنة.

ترى؟!

لماذا تركز اهتمام المؤلف على الآيتين ١٩ ـ ٢٠ من سورة الفتح؟
ولماذا فصلهما عن الآية ١٨؟
ولماذا أغفل مناسبتهما؟
ولماذا لم ينظر إلى جميع آيات الجهاد الصريحة في القرآن والمحددة لطبيعته ودوافعه؟

إن احترامنا لوقت القارىء، هو الذي فرض، أن نَدُلَّ على آيات الجهاد، دلالة، دون إيراد لِنصُوصها ويمكن لأي كان أن يتحقق مما ذكرناه بمجرد القراءة المباشرة العابرة لها.

بعد هذا: وليس من باب التفاضل والمنافسة نقول:
لو التفت المؤلف، لوجد في مكتبه ـ على مطال يده ـ أسفار التوراة التي ينزل فيها الله عن عرشه السماوي، لينفخ في الأسباط روح الحقد والدم والتدمير والإبادة والاستيلاء على كل شيء.

ترى! هل كان ذلك من خلفاء موسى، وكثير منهم أنبياء ـ كفراناً بالله، وانحرافاً عن رسالة موسى؟ أم أن تلقِّي المسلمين للغنائم هو وحده الانحراف وهجران روحانية الرسالة؟

ثم يقول المؤلف:

«عودوا إلى الصحائف من ١١٢ ـ ١١٧ من الكتاب. فهناك قدمنا كثيراً من الأدلة الدامغة على أن النصارى في قرآن النبي هم المسلمون، قبل أن يصبح العرب مسلمين. وهم قدوة النبي ومثاله يتقرب منهم وينتسب إليهم ويستشهد بهم ويجلّ رهبانهم ويؤمن بإلههم ويؤيدهم في رسالتهم ـ ص ٢٠٣».

لقد كنا ناقشنا أقوال المؤلف، في تلك الصحائف، وهي بعنوان الدين القيِّم لذلك لن نعود إليها، بل سنظل معه هنا. ونكتفي بشأنها، أن نطلب من القارىء أن يعود إلى ما كتبناه عنها، وسوف يجد بعد القراءة والقراءة المضادة أن النبي محمداً، لم يؤمِن بالمسيح مثلما آمن النصارى، ولم يؤيدهم في رسالتهم ولم ينتسب إليهم ولم يتقرب منهم إلا في حدود الدعوة إلى الإسلام مع سواهم ولم يكن له قدوة غير

جده إبراهيم الخليل الذي اتبع ملته، فهو وأبناؤه قدوة النبي، وهم آباء الإسلام وإليهم ينتمي كل مسلم.

. . . .

البحث الأول ـ النصارى

ب ـ النّصارى في قرآن النبي:

قبل مناقشة، مقولات المؤلف في القرآن لا بد من تذكير القارىء بأن تعبير «النصارى» هو التعبير الوحيد الذي كان يطلق على أتباع عيسى قاطبة، وهذا التعبير، رافقهم منذ بدء دعوة المسيح، وقد اشتق من أحد مصدرين: إما نسبته إلى مدينة الناصرة لتي منها عيسى الناصري وإما لأنهم استجابوا له عندما قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله.

كما لا بد من لفت انتباه القارىء إلى أن تعبير «المسيحيين» لم يطلق على أتباع عيسى في أي عهد من العهود القديمة، وبخاصة إبان الدعوة الإسلامية لأن:

كلمة المسيح هي صفة لعيسى بن مريم، وهي تعريبٌ عن العبرانية لكلمة «مشِّيحاً» وقد أُطلقت على عيسى، إما لأنه كان يمسح بيده على المرضى فينالون الشفاء وإما لأنه كان سائحاً يمسح الأرض. وإما لأن المسيح هو الصدِّيق.

ثم:

لن تجد في أناجيل العهد الجديد أن يسوع، سمّى نفسه أو وصف نفسه بأنه المسيح. بل تكرر ذكره مئات المرات فيها باسم «يسوع».

لذلك:

بات من الممكن إدراك سبب خلو القرآن من تعبير «المسيحيين».

كما بات من الممكن إدراك السبب:

ـ الذي لا ينادي عليه القرآن إلا باسم عيسى ابن مريم:

٨٧/٢ و٢/٢٥٣ و٣/٥٢ ـ ٥٥ ـ ٥٩ و٤/١٥٧ و٥/١١٠ ـ ١١٢ ـ ١١٤ و٥/١١٦.

ـ ولا يناديه «بالمسيح» مفرداً، بل تأتي مركبة مع عيسى:
(٣/٥٤ و٤/١٥٧ ـ ١٧١) (ابن كثير ـ الجلالين).

بعد هذا:

أعود إلى قراءة الآيات التي دلَّ عليها المؤلف، لتأييد مقولته في نصارى قرآن النبي. وهي مجموعتان من الآيات.

الأولى : وُصف فيها النصارى بأنهم حقيقة المسلمين وقدوتهم وهي:
٦/٩٠ و٧/١٥٧ و١٠/٩٤ و١٦/٤٣ و٢١/٧ و٢٠/١٣٥.

الثانية : وُصف فيها سلوك النصارى بأنهم العابدون السائحون الراكعون وهي:
٩/١١٢ و٤٨/٢٩ و٥/٥٥ و٣/١١٧ و١٧/١٠٧ و٥/٨٢.

قراءة الآيات الأولى ـ آيات الحقيقة القدوة:

ـ ٦/٩٠ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾.

أولئك: إنه ضمير الجمع فلمن يعود؟ ومن هو المقصود؟ إن الكلمات الستة هذه التي اقتطعها أبو موسى من الآية، لا تفيد أن المقصود بالضمير هم النصارى وأن هداهم هو القدوة الواجبة على النبي وتابعيه.

ـ الآية ٩٠ ـ من الأنعام هي جزءٌ من الإخبار عن إبراهيم، حيث بدأت الأخبار تترابط مع بعضها لتنتهي في الآية ٩٠ ـ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ • وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ • وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ • وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ • ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ • أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا

بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

أولئك:

الذين كلف النبي أن يهتدي بهداهم وأن يقتدي بقدوتهم، هم الأنبياء والرسل الذين عددتهم الآيات.

وليس النصارى، كما جاء في مزاعم المؤلف.

- ١٥٩/٧ - ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾.

- ٩٤/١٠ - ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

لقد مرَّ معنا تفسير هاتين الآيتين في بحث «الدين القيِّم».

ففي الأولى إشارة إلى جماعة قليلة من اليهود الذين أسلموا وأصبحوا هداةً ومنهم عبدالله بن سلام وصحبه.

وفي الثانية إعلام إلى النبي بأن الإخبار عنه في الكتب السابقة. يعرفها كل من كان يقرأ تلك الكتب. فإن كان يشك في شيء فليسأل عن هذه الحقائق ممَّن يقرأون الكتاب. وقد تواتر عن النبي أنه قال عن نزول هذه الآية: «لا أشك ولا أسأل».

- ٤٣/١٦ - ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

- ٧/٢١ - هي تكرار للآية ٤٣/١٦ - بذات الألفاظ.

مرَّ تفسيرهما، حيث نزلتا في التنديد بمن استنكر أن يكون النبي بطبيعته البشرية قد نزلت عليه الرسالة واختير للنبوة، وكان ينبغي أن يكون ملاكاً لا بشراً، فدحض القرآن هذه الحجة بتحدِّيهم أن يسألوا أهل الديانات هل كان الرُّسُل الذين أتوهم، ملائكة أم رجالاً بشراً؟

- ١٣٥/٢٠ - ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

ليس لهذه الآية علاقة بالنصارى والهداية والاقتداء.

قراءة الآيات الثانية ـ آيات وصف النصارى:

ـ ١١٢/٩ ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

ولكن؟ من هم هؤلاء الذي أغدقت عليهم الآية تلك الأوصاف الكريمة؟

قال: أبو موسى: إنهم النصارى. الذين أمر النبي محمد بالاقتداء بهم. وهذه الأوصاف هي أوصافهم الحقيقية، أثبتها القرآن لهم. ولكن الآية ١١٢ ـ

مرتبطة بالآية ١١١ ـ من ذات السورة.

فهما متكاملتان، أولاهما حددت فئة من النّاس وذكرت ما أُنيط بها من عظائم الأمور. والثانية، وصفت هذه الفئة بتلك الأوصاف.

فمن تكون هذه الفئة؟.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ (٩/١١١).

هؤلاء:

الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله، يقاتلون في سبيله حتى الاستشهاد هم الذين تعددت أوصافهم السامية في الآية ١١٢ ـ

وليس، فئة النصارى أو أية فئة أخرى.

بل هي مخصصة للذين باعوا أنفسهم لله.

ـ ٤٨ / ٢٩ ـ ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ ﴾.

هذه الآية صريحة في ظاهر كلماتها، إنها تتحدّث عن النبي محمد وأصحابه وإنهم يتراحمون فيما بينهم، وأشداء على الكافرين، وهم الراكعون الساجدون لا يبتغون غير رضوان الله وفضله وهم على مثال من آمنوا في التوراة والإنجيل.. فلا علاقة لهذه الآية بالنصارى.

ـ ٥ / ٥٥ ـ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾.

في بعض الروايات أنها نزلت في علي بن أبي طالب عندما أعطى خاتمه للسائل فيما هو راكع يصلي. (ابن كثير).

- ١١٣/٣ - ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾.

أجمعت كتب التفسير على أن هذه الآية نزلت في عبدالله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وسواهم من أهل الكتاب الذين أسلموا وحَسُنَ إسلامهم فهم ليسوا سواء مع أهل ملتهم السابقة الذين لم يسلموا. (ابن كثير - والجلالين).

- ١٠٧/١٧ - ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾.

أي: الذين أُوتوا العلم من الكتب السابقة يعرفون أنه الحق لذلك يخرون سجداً، عندما يُتلى، تعظيماً له وإيماناً به.

- ٨٢/٥ - ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

لقد مرَّ معنا، ما اتفقت عليه جميع الروايات، من أن هذه الآية، نزلت في النجاشي وأصحابه الذين فاضت عيونهم من الدمع عندما سمعوا ما نزل في القرآن عن مريم وابنها عيسى، فأسلموا. وفي الحديث الشريف: روي عن النبي (ص) أنه خرج بالناس إلى خارج المدينة وصلى بهم على النجاشي عندما سمع بنبأ موته: وقال لهم: هذا أخٌ لكم مات في الحبشة فصلوا عليه.

جـ - النصارى في مصحف عثمان:

سُمِّيَ الكتاب «قرآناً» اشتقاقاً من فعل «قرأ» أو «قرن» وكلاهما يعني الجمع أو الضم. لذلك سميت حالة جمع السور في كتاب واحد «قرآناً».

أما «المصحف» فالكلمة مشتقة من فعل «صحف» ويلفظ بضم الميم وبكسرها ويعني الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين كأنه أُصحِفَ. قال

الأزهري: إنما سُمِّيَ مصحفاً لأنه أُصحف أي جُعل جامعاً للصحف المكتوبة.

وقد أُطلقت هذه التسمية على كتاب الله إثر عملية «التصحيف» أي جمعه من الصحف التي كان قد دُوِّن عليها، بأمر الرسول وتوجيهه، أسماءُ السور وموضع الآيات في كل سورة.

وكانت الصحف آنذاك تُستدرك من «الرقاع ـ جلد أو كاغد أو ورق» و«اللخاف ـ حجارة رقيقة بيضاء» و«العُسُب ـ جريدة النخل» و«الأكتاف ـ عظام أكتاف الجمال» و«الأقتاب ـ الأخشاب التي توضع على ظهر البعير» و«قطع الأديم ـ الجلد».

وكنا في المقدمة ذكرنا كيفية وأسباب جمع المصحف في أيام عثمان، دون أن يُقَابَلَ ذلك بِرَدَّةِ فعل أو احتجاج من قبل أحد، خاصة، وقد كانت المدينة المنورة تَغصُّ بالشخصيات الجليلة من الصحابة والقراء والحفظة، وكلهم أصوليون إلى حد الاستشهاد. وكلهم راقبوا وحضروا، والبعض منهم شارك، في عملية التصحيف التي اقتصرت على الجمع في كتاب واحد.

ذلك كله، متفق عليه كوقائع مادية ثابتة، وَرَدَ التفصيلُ فيها ضمن عدد كبير من المراجع، ذكرناها في المقدمة وهي:

«الإتقان للسيوطي» و«البرهان في علوم القرآن» و«مباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح» و«البخاري ـ شرح الكرماني» و«الطبري» و«الزنجاني».
وكنا لفتنا النظر إلى أن ما ذكرناه في المقدمة، وما نعيد التذكير به هنا، كان أبو موسى نفسه، قد ذكره واعتمده وعدَّد ذات المصادر عليه، في كتابه «عالم المعجزات» بالصحيفة ١٨٢ ـ وهو أحد كتب سلسلة الحقيقة الصعبة.

وبالرغم:
من الوضوح التاريخي لأسباب وجود تسميتين للكتاب الإسلامي (القرآن والمصحف) وكذلك برغم الوضوح اللغوي. وبرغم أن المؤلف كان قد تبنى هذه الأصول في «عالم المعجزات». فإنه في كتابه هذا يتخذ موقفاً مختلفاً. فهو يقول:

إن عند المسلمين كتابين مختلفين أحدهما هو القرآن والآخر هو مصحف

عثمان، ففي هذا المصحف وضع عثمان ما لم يكون موجوداً في القرآن ورفع منه كثيراً ممّا هو في جملة أحكامه وبدّل أسماء السور ومواقعها ومواضع الآيات منها. وبذلك اختلف اختلافاً كبيراً عن القرآن الحقيقي الذي ترجمه ورقة عن الإنجيل وحفظه محمد وبلّغه إلى الناس.

وكان لهذا الاختلاف تأثير كبير على مسيرة الإسلام.

وأهم وجوه هذا التأثير ما تعلق بالنصارى الذين كانوا قدوة محمد، فصاروا في مصحف عثمان كفرة ومنافقين. (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٨).

نعم:

إن من يقرأ القرآن بإمعان، يرى أن ترتيب الآيات في السور، وترتيب السور في الكتاب لم يراع فيه زمان النزول.

فالكثير من الآيات المدنية وضعت في سور مكية. والكثير من الآيات المكية وضعت في سور مدنية، كما إن الموضوع قد نجِدُه موزعاً في أكثر من مكان وفي أكثر من سورة، وقد يتكرر في عدة سور. كذلك لا تعبِّر أسماء السور دوماً عن مضامينها، بحيث لا يصح اعتبار أسماء السور بمثابة عناوين تدل عليها.

هذا هو الواقع، بلا خلاف عليه. ولكن؟؟؟

إن كان ثابتاً بعشرات المراجع، التي لم تُنقَضْ بمرجع آخر. أن تسمية السورة وترتيب الآيات في أمكنتها من كل سورة هو عمل توقيفي أي:

هو وقف على رسول الله الذي كان يقول إثر نزول الآيات: ضعوا هذه الآية في المكان كذا من السورة كذا.

وإن كان الصحابة والقراء والحفظة ـ ومنهم العدد الكبير الذي لا يجامل في دينه ـ ومنهم أيضاً كتبة الوحي الذين نسخوا ألفاظه مثلما لفظها نبيهم.

نقول:

إذا كان أي من هؤلاء جميعاً لم يجادل ولم يعترض على مصحف عثمان ومن بينهم، بل في مقدمتهم علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، الذين قال النبي

عن أولهم إنه باب مدينة العلم، ودعا للثاني بقوله: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، فكان أفقه أهل زمانه.

هؤلاء، ما كان من الممكن أن يسكتوا على قرآنهم، يرفع منه ويوضع فيه وتتبدل أحكامه، ويتغير هيكله، دون أن يقوموا بعملٍ ما. أو يتركوا احتجاجاً أو تصحيحاً أو توضيحاً.

إن قول المؤلف ـ بعد الثوابت التاريخية، والمنطقية ـ باختلاف المصحف عن القرآن أو بوجود كتابين عند المسلمين، يغدو قولاً جزافاً يفتقر إلى مقومات وجوده.

لقد تم تدوين القرآن على الصحف، وجمعه في مصحف واحد، خلال فترة زمنية قصيرة لا تسمح «بالاستغفال» أو «النسيان».

فالصحف، كتبت أولاً تحت سمع النبي وبأمره وإرشاده. ووضعت الآيات في مواضعها من السور بتوجيهه ودلالته. وقد حفظت لدى الموثوقين في دينهم وأخلاقهم، ثم جمعت في عهد عثمان بعد أقل من ربع قرن على تدوينها الرسولي. لذلك يكون احتمال النسيان أو التغيير فيها احتمالاً ضعيفاً.

إن القرآن مرَّ، في فترة جوفاء من الزمن، فصلت ما بين نزوله منجماً على النبي وما بين جمعه في مصحف. وهذه الفترة هي أقل من ربع قرن. وكان كل من التوراة والإنجيل مرَّ في هذه الفترة.

ولكن القياس بين الفترتين يجب أن يظل دوماً مع الفارق.

وإليك البيان:

١ ـ في التوراة، تحكمت ظروف التشتت والأسر والتشرد.

ففي كتب التاريخ التي تحدثت عن التوراة ورصد حركاتها. وتاريخ جمعها وكيفيته، اتفاق على ما يلي:

ـ منذ أن بدأ الشعب الإسرائيلي يرتد عن عبادة يهوه وينضم إلى عبادة الآلهة الأجنبية، ازدادت خشية الكهنة من هذه الظاهرة المتزايدة. فأخذوا يتساءلون: ألم يَأنُ لهم أن يقفوا وقفةً قويةً يمنعون بها تدهور العقيدة القومية؟

ومما زاد في سوء الأمور بنظرهم، أن الأنبياء من بني إسرائيل، ولا حصر

لهم - يعزون إلى يهوه ما يجيش في صدروهم من عواطف وتصورات فيبثونها بين الشعب على أنها شريعة يهوه وإرادته.

- فاعتزم الكهنة أن يصنعوا رسالة من الله، يبلِّغونها إلى الشعب على صورة سُننٍ إلهية تبعث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية. واستعانوا بالملك «يوشيا» الذي استجاب إلى مطلبهم فقام بحركة خلق وتجديد لليهودية - حيث حطم المذابح التي كان سليمان قد بناها للآلهة (مولـك) و(ملكوم) و(عشتـروث) وأبعد كهنـة الأصنام الذين يوقدون الشموع للبعل والشمس والقمر والمنازل الفلكية.

- وبعد أن قتل يوشيا في معركة مجدو التي نشبت بينه وبين الفرعون ببضع سنين انتصر نبوخذ نصَّر البابلي، واستولى على «يهوذا» وجعلها ولاية تابعة لبابل. وعندما حاول صدقيا التمرد عليه والاستعانة بالمصريين عاد نبوخذ نصَّر فاستـولى على أورشليم، وأحرقها وهدَّم الهيكل وقتل أبناء صدقيا أمام عينيه، ثم ثمل عينيه بعدها وأسر سكان أورشليم وأقصاهم إلى بابل... وقد خلَّد أحد شعراء اليهودية فيما بعد ذكرى هذه القافلة البائسة في أغنية من أروع أغاني المحزونين في العالم.

«على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون.

«في وسط الصفصاف علقنا أعوادنا، لأن من سَبَوْنا طلبـوا منا أن نغنِّيهم، والذين عذبونا أرادوا منا أن نطربهم.

«وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله في بلد غريب.

«ولئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يميني حِذقها وليلتصق لساني بسقف حلقي إن لم تكوني لدي خيراً من أفراحي».

- وفي عام ٤٤٤ ق. م أي بعد تسعة قرون من موت موسى - ولم تكن التوراة قد كتبت - دعا عزرا (الكاهن العالم) إلى اجتماع عام لليهود وشرع يقرأ عليهم هو وزملاؤه اللاويون سفر شريعة موسى. ثم انتهى الاجتماع «بالقَسَم» من الجميع على التقيد بما في هذا السِّفر من وصايا وأحكام.

- ولكن؟

كيف جمعت التـوراة - التورة (تعني في العبـرية الهـدى والإرشاد)؟ وكيف

أصبحت في الكتاب الذي يُشَكِّل العهد القديم من الكتاب المقدس؟
لا أحد يعرف بالضبط.

والمؤرخون أغفلوا ذلك، إما جهلاً منهم أو تجاهلاً.
غير أن ما هو متفق عليه، عند عدد منهم هو:
- أن التوراة لم تكن عند أول عملية جمعٍ لها تضم غير الأسفار الخمسة الأولى التي كان اليونانيون يطلقون عليها اسم «البنتاتوش».

- أما ما زاد عن ذلك فقد كتب في أوقات متلاحقة. وكانت أساطير الجزيرة وعقائدها معيناً لا ينضب لواضعي التوراة. فمن هذه البلاد دوّنت قصص الخلق والغواية والطوفان. وهي قصص يعود عهدها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح.

(قصة الحضارة مجلد ١ - ٢ - ص ٣٦٠ وما بعدها للمؤرخ وول ديورانت)
هذا بعض ما في المراجع عن حركة التوراة عبر التاريخ.

لذلك لم يكن لوثر[١] ظالماً ولا بعيداً عن المنطق عندما قال:
«ألم يكتفِ اليهود، مصاصو الدماء، أنهم حرَّفوا الكتاب من الدفة إلى الدفة[٢]؟»

. . . .

١ - أما تدوين الإنجيل فقد كنا تحدثنا عن مسيرته التاريخية في الموضوع الخامس من الفصل الأول «مهمة القس» مما يغني عن التكرار.

. . . .

لذلك، وبعد أن نأخذ بعين الاعتبار، مسيرة الكتابين في التاريخ وبعد إجراء المقارنة بين الفترة الجوفاء التي فصلت تاريخ انتهاء نزول القرآن وتاريخ جمعه

---

(١) لوثر هو أحد أعمدة رؤساء الدين المسيحي، مؤسس الحركة الإصلاحية في الكنيسة تحت اسم (البروتستانت - أي الاحتجاج) ٢٠٠ - محمد في الكتاب المقدس للبروفيسور عبد الأحد داود: ص ٨ - طبعة سنة ١٩٨٥م.

وتصحيفه. وبين الفترة التي فصلت ما بين الوجود الديني لكل من التوراة والإنجيل وتاريخ تدوينهما وجمعهما في كتاب.

يمكن القول:

ـ يسهل الافتراض بأن الكثير مما احتوته التوراة ليس كلام الله إلى موسى، كما يسهل أيضاً قبول فكرة الرفع من التوراة والوضع فيها، وهذا ما ورد في القرآن.

ـ إن الأناجيل الأربعة، ليست كلام المسيح، ولا كلام الله، ولكنها روايات التلامذة، عما كان لا يزال يتذكره كلٌّ منهم من أقوال وأعمال المسيح، عندما كتب إنجيله.

وبمقتضى هذا الواقع، فإنه يسهل الافتراض بأن بعضاً أو أكثر من بعض، مما قاله المسيح أو فعله لم يرد ذكره في الأخبار الرسولية، بسبب النسيان.

ـ إن الفترة الزمنية القصيرة الفاصلة بين جمع القرآن ونزوله ووجود من حفظوه وسمعوه وكتبوه أحياء مع مدوناتهم عندما جمع، يسهِّل الافتراض بأن ما جمع في المصحف بأيام عثمان، هو القرآن.

ولا كتاب، ولا قرآن سواه يتعارض معه.

بعد ذلك:

ينبغي أن أعود إلى الجزء الأهم من المناقشة. وهو الجزء المتعلِّق بالقرآن فالمؤلف، قدم من القرآن، نماذج من الآيات. دلَّ بها على الأمور الآتية:

ـ مصحف عثمان اتهم النصارى بالكفر والنفاق.

ـ واتِّهمهم بالغلو في المسيح.

ـ وندَّد برهبان النصارى.

ـ ونظر إلى اليهود والنصارى نظرة متساوية.

. . . .

آيات التكفير والاتهام بالنفاق:

٩/٦٦ و ٧٣/٩: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

تكررت ذات الألفاظ في الآيتين.

وهما لا تذكران النصارى بالتعيين. بل تشيران إلى كل المنافقين والكفّار بلا استثناء. وفي التحليل اللغوي لكلمة المنافقين يتبين منها أنها تتضمن معنى إسلامياً خاصّاً.

فالمنافق هو الذي يظهر إيمانه ويستر كفره. وهذا التعريف ينطبق على أشخاص وليس على فئات أو شِيَعٍ.

ففي حديث حنظلة أنه نافق أي كان يظهر الزهد أمام النبي ويرغب في الدنيا بغيابه.. وفي الحديث الشريف «أكثر منافقي أمتي قراؤها».

ثم صار النفاق يوصف به الرياء.

والأصل اللغوي لهذه الكلمة من «النافقاء» أي اليربوع الذي يدخل نافقاءه ـ دهليزه، فإذا طُلب قصَّعَ أي خرج من الوجه الثاني من القاصعاء. ولذلك غلب إطلاق هذه الكلمة على المسلم المرائي، يدخل في الإسلام من باب ويخرج منه من باب آخر. وبالتالي لا تطلق على غير المسلم في العادة. (لسان العرب).

لذلك: لا يقبل قول المؤلف، في تخصيص الكفر والنفاق بالنصارى بموجب الآيتين المذكورتين.

هـ ـ آيات الغلو في المسيح:

هي الآيات: ٢/١١٦ و٤/١٧١ و١٠/٦٨ و٦/١٠١ و١٧/١١١ و١٨/٤ و١٩/٣٥ و١٩/٨٨ـ٨٩ـ ٩٠ـ ٩١ـ ٩٢ و٢١/٢٦ و٢٣/٩١ و٢٥/٢ و٣٩/٤ و٤٣/٨١ و٧٢/٣ و١١٢/٣.

جميع هذه الآيات تتحدث عن عبادةِ الله، وتنزيهه عن الزوجة والولد والعدد

لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد.

وتعتبر:

كل من يعتقد في اللهِ خلاف ذلك هو مشرك فيه بالربوبية.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢٣/٩١).

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ (٤/١٧١).

هذه الأحكام القاطعة المانعة الجازمة الحازمة، تتكرر في الآيات جميعها. فهي تنزِّه اللهِ، وتُكفِّر من يجعل له شريكاً في الربوبية أو المُلك. وهي أحكام عامة لا يختص بها فردٌ أو شعبٌ ولا ينجو منها، إلا من عصم نفسه وروحه بتنزيه الله وتوحيده.

لذلك:

كان كل من آمن ولا يزال يؤمن بألوهية المسيح مع الله أو بنوته منه. ينطبق عليه ما جاء في هذه الآيات، سواء أكان نصرانياً أم مسيحياً (بالتعريف الذي أطلقه المؤلف أم من أي سنخ ديني آخر).

ولذلك:

يكون فهم ما في الآيات على أنها اتهام للنصارى دون سواهم، اتهاماً غير صحيح.

و ـ آيات التنديد برهبان النصارى:

لم يرد في القرآن تنديد خاص برهبان الأبيونيين وذلك لسببين:

أولهما : إن الأبيونية، فكراً ومفكرين، وكِتَاباً ومعتنقين، اندثرت منذ القرن الخامس.

الثاني : لم يكن معروفاً لأتباع عيسى عامة، غير اسم «النصارى» والآيات التي اعتمدها المؤلف، هي بذاتها تعطي الدليل:

ـ ٩/ ٣٠ ـ ٣٤ ـ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ • اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ـ ٥٧/ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ • ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

هذه الآيات:

لم تخصص الأبيونيين، ولا أية شيعةٍ من شِيَعِ النصارى. بل وردت في التنديد بأحبار اليهود ورهبان النصارى.

والرهبنة التي اشتقت من فعل «رهب» أي «خاف وخشي» من الله، لم ترد في أقوال المسيح ولا في أقوال الرسل، ولكنها ظهرت لأول مرة في الشرق على يد مؤسسها الناسك «أنطونيوس الكبير» الذي ولد في مصر سنة ٢٥١ ـ ميلادية من عائلة غنية، ورث عنها مالاً عظيماً، ولكن نفسه عافت المال وتعلق بقول المسيح في

إنجيل متّى. «إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك ووزعها على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني».

ثم انتقلت الرهبنة إلى الغرب بواسطة وَصْفٍ قام به القديس أثناسيوس لحياة القديس أنطونيوس الكبير.

لذلك وبما، أن المجال يضيق عن التوسع في تاريخ الرهبنة وكيفية انتشارها نكتفي بالكلمات العابرة التي ألقينا فيها شيئاً من الضوء على الأصل التاريخي للرهبانية. وفي ذات الوقت صار بالإمكان فهم المغزى البعيد من الآية القرآنية ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء مرضاة الله فما رعوها حق رعايتها﴾.

ـ أما الابتداع فهو واضح -لأنها ظهرت باجتهاد شخصي بعد المسيح بقرنين ونصف من الزمن.

ـ وأما أنها كانت ابتغاء مرضاة الله، فمما لا شك فيه أنها كانت في بدايتها نقية خالصة لوجه الله وطلب مرضاته.

ـ وأما أنهم لم يراعوها حق رعايتها. فذلك ظهر في تصرف الرهبان الدنيوي وامتلاكهم للأموال والعقارات وتجملهم بمظاهر الدنيا ومبالغتهم في بسط سلطانهم الديني بحيث صاروا يبيعون بيوتاً في الجنة للقطيع البسيط المؤمن الذي كان يغدق عليهم الأرزاق والأموال بلا حساب، حتى أصبحوا أمراء حقيقيين ولكن بأثواب كهنوتية (أمراء الكنيسة).

وصارت مواقعهم الروحية ذات سلطة إلهية، يستطيعون بواسطتها أن يسمعوا الاعتراف بالذنوب وأن يغفروها لمن يرضيهم، وذلك محصور بالله، وحده. لذلك جاءت الآية ـ ٩/٣١ تصفهم فتقول:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

. . . .

ز ـ آيات النظرة المساوية بين اليهود والنصارى:

ـ ٢/ ١٢٠ ـ ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٤٠ ـ من البقرة.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ • وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ • قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ • فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ • أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

ـ ٢/ ١١٣ ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

ـ ٣/ ٦٧ ـ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

تلك الآيات: نزلت في مناسبات، كان يلتقي فيها اليهود والنصارى في موقف يتطلب رداً واحداً على المناسبة فيكون جواباً على قوليهما، وموقفيهما.

ـ لقد احتج كل من اليهود والنصارى بإبراهيم وادعاه كل منهم، فجاءت الآية ٣/ ٦٥ ـ ٦٣:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

ففي الآيتين لوم وتأنيب لكليهما، واستخفاف بمداركهما العقلية، إذ كيف يكون يهودياً وهذه التسمية والصفة، لم تنشأ إلا بعد التوراة. وإبراهيم قبل وجود التوراة بزمن بعيد. وكذلك الحال مع الإنجيل.

ـ وعندما تهاتر اليهود والنصارى وتكافروا ونفى كل منهما أن يكون الآخر على شيء دعاهم القرآن إلى التمعن بالكتاب الذي يقرأونه فسيجدون أنهم على ضلال. ولكن الله يحكم بينهم يوم القيامة.

ـ وعندما قال: «عبدالله بن صوريا ـ اليهودي الأعور» للنبي (ص): ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدِ. قالت النصارى مثل ذلك القول فنزلت الآية ١٢٠ ـ من سورة البقرة ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾.

وهكذا اتضح:

إن الآيات التي اعتمدها المؤلف، لم تتفق معه في أي طرح من طروحاته وبخاصة ما كان منها يتعلق بالنظرة الإسلامية المساوية للنصارى واليهود. فاليهود أُفردوا في عدد كبير من آيات القرآن، تصريحاً وتلميحاً. ووصفوا بشتى الصفات التي تميزهم بالكفر والضلال.

﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ (٤١/٢) و﴿ هُمْ ٱلظَّٰلِمِينَ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ (٦/٩٨ و٢/١٢٤ و٢/١٩٣ ـ ٢٥٨) و﴿ هم سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ (٤١/٥) و﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (٤٦/٤) و﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (٧١/٣) و﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٩٩/٣).

أما النصارى:

ـ فلم يوصفوا بهذه الأوصاف.

ـ ولم يؤخذ عليهم غير الغلو بالمسيح وأمه. وابتداع الرهبانية ثم الانحراف عن غاياتها الأولى.

ثالثاً ورابعاً
قرآنيون أم محمديون ـ واسألوا أهل الذكر

بقي من «قس ونبي» هذان الموضوعان، صاغهما أبو موسى بأسلوب إنشائي طغت فيه العاطفة والخيال على الموضوعية والعلم.

عبارات متوهجة، وألفاظ من يحموم. فما تدري وأنت تقرؤها، هل سُكِنَ أبو موسى أم لبس قميصاً آخر؟

وهل يستطيع ناقد أن يجلس على مائدة علمية واحدة مع من يقول لمسلمي هذا الكوكب، إنما أنتم في دخيلة مشاعركم الدينية، لا تؤمنون بهذا القرآن لأنه مصحف عثمان. أما قرآنكم الحقيقي، قرآن ورقة ومحمد، الذي يمثل قناعتكم، وعقيدتكم، فقد أُبعد عنكم، وأُبعدتم عنه؟.

كيف يمكن أن تقيم حواراً، بينك وبين من يزعم ـ مؤكداً ـ أن حالة العداء والغيرة العمياء بين مكة والمدينة هي التي أفشلت القرآن والإسلام ودحرتهما أمام قرآنٍ وأسلامٍ صنعتهما ظرُوف الدعوة وحروب الفتح وعواطف الغزاة الفاتحين؟؟

كيف؟؟

والمدينتان توأمان، سياسيان ودينيان مقدسان؟ عند الجميع.

في مكة بيت إبراهيم ومحرابه وموطن إسماعيل ومقره، وفيها هبط الوحي على محمد وفيها الحجون حيث مدافن الأحناف من بني هاشم وقريش.

ويثرب، نوَّرها الله بالنبي، فيها أول مسجد بُنِيَ في الإسلام، وفيها قبر النبي، وهي عاصمة الراشدين، وبين أحضانها أرض البقيع حيث يرقد الصحابة وكبار التابعين، ومنها انطلقت بعوث الفتح فاجتازت حدود الجزيرة ونشرت دعوة الإسلام فوق بقاع الدنيا كلها؟

كيف يمكن لأي باحث مطلّع منصف أن يضع مثل هذا الطرح الفكري موضع الحوار والمناقشة؟

ولو كان من مستلزمات التأليف على المؤلف، كاتباً أم ناقداً، أن يستعرض عضلات بيانه ومفاتن عباراته، لقبلنا من أبي موسى هذا الأسلوب الذي اعتمد فيه على الألفاظ الكروية، التي تتصل فيها البدايات بالنهايات دون ضابط. ولكنه تقدم إلينا، بصفته، باحثاً عالماً، سيطر عليه هاجس الحق، فما يبغي سواه ولا يمنعه عائق عن بلوغ مناه، وهو فيما سوف يقدمه مؤمن بما يقول ويكتب، مدقِّق فيه، متتبع أمين في مصادره وعلينا أن نكون مطمئنين إلى ما سوف يقدمه إلينا هو الحقيقة بقدسها وطهرها وصدقها.

لذلك:

وقبل أن أناقش هذا البحث. لن يفوتني، القول: بأن موضوع «قرآنيون أم محمديون يستحق الثناء من حيث الإنشاء اللغوي والصياغة البيانية والخيال المجنح الـي لا يقر له قرار.

ولكنه في علم النقد، على ضوء ما أعطتنا إياه حقائق التاريخ والجغرافيا ومقدسات الأمم، لا يستحق من ذلك الثناء شيئاً.

اسألوا أهل الذكر؟... اسألوا أهل الذكر...

عنوان مقطوع من الحجر الصلد. لا أقولها استخفافاً. ولكن الصحائف الخمس التي تخصصت له، انتهت عباراتها، دون أن تتحدث بكلمة عن أهل الذكر. مما ترك العنوان، وحيداً، يتيم الأهل كافةً، بلا جذور يقوم عليها أو عُمُدٍ يستند إليها.

وبدلاً؟ من أهل الذكر.

تحدث عن البادية والبدوي.. طبعاً ليس بحديث الودود الوديع ولكنه الهادف إلى التنكيل والتشهير والتحقير.

فالمقصود بالبدوي ـ هنا ـ هو المسلم العربي.

والمقصود بالبادية، تلك المنطقة الجغرافية التي احتضنت الإسلام.

والمؤلف في صياغته الإنشائية:

أباح لنفسه أن يطلق أفكاره على شكل عبارات نارية. وأن يوجهها إلى المَقَاتِل في جسد الدعوة الإسلامية.

١ ـ قال:

«إن الطبيعة التي يعيش فيها البدوي جعلته مخلوقاً مسكوناً بالخوف الأبدي، وقد قوى الإسلام فيه هذا الخوف، فليس من المسلمين الطيبين من لا يخاف. وخوف البدوي هو على الله أن لا يكون إلهاً لذلك يحوطه بنعوت التعظيم تثبيتاً لمركزه كلما ذكر اسمه وهو للمحافظة عليه أسكنه بعيداً عن الأذى في السماء السابعة».

هذه العبارات التي لعب فيها الخيال حتى داخَ مدحوضةٌ بالآتي:

أ ـ من الثوابت التي اتفق عليها جميع من كتبوا عن البدو والبادية أن أول ما يميز البدوي عن الحضري هي الشجاعة واعتياد المخاطر. والشجاعة، لغةً وعلماً وعملاً، هي نقيض الخوف، فلا يلتقيان في صدرٍ واحد.

هذا كان شأن العربي البدوي في الجاهلية. حينما لم يكن لديه تصوُّر عن حياة أبدية وراء هذه الحياة. أما بعد أن سكنت في صدره عقيدةُ الثواب والعقاب والمعاد الأخير، فقد تضاعفت شجاعته حتى باع نفسه وماله إلى تلك العقيدة:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً، في التوراة والإنجيل والقرآن...﴾.

لذلك روى التاريخ عشرات المئات عن أولئك البدو الذين كان واحدهم يقذف بنفسه في أتون الحرب فيتلقى الموت بقلبٍ تطهَّر من الخوف وصدرٍ صفا من التردد والشك وهو يقول كلماته الأخيرة: **﴿وعجلت إليك ربِّ لترضى...﴾**.

ب ـ وكيف يخاف على الله وممن يكون خوفه عليه؟

فالله هو القوي، وكل ما سواه ضعيف. والقوي لا يخشى عليه من الضعيف.

والله هو الخالق البديع، وكل ما سواه مخلوق. ولا يخشى على خالق من مخلوقاته.

إن من أعقد المهمات:
أن يُفرَضَ عليك إثباتُ البديهيات. وأعقَدُ منها أن تُناقِش وتردَّ على من يعكس البديهيات في أطروحاته.

فهل كان المسيح خائفاً على أبيه عندما، كان يتحدث عن مملكته في السماء. وهل كان شاكاً أو مرتاباً؟

إن الله، هو السمو المطلق ولفظ السماوات، مشتق من سموه.

وهو الذي أخبر عن السماوات السبع، أنبياءه، من موسى إلى عيسى إلى محمد. فالبدوي العربي لم يسكن الله في السماء السابعة خوفاً عليه من الاغتيال أو الأذى بل قال عقيدته فيه، ما قال عن نفسه:

إنه غني عن العالمين، وإنه محيط بكل شيء، وإن كرسيه وسع السماوات والأرض. وكرسيه هي علمه، في مفهوم قرّاء القرآن.

٢ ـ قال المؤلف:
ذلك الخوف، ذلك الإيمان طمأن المسلمين البدو وغمرهم بالارتياح البليد الذي أعفي من أعباء التطور وتكاليف الحضارة.

«فلأجل هذا الارتياح التام غزت البادية شعوب تضطرب فيها الحقيقة فأدخلت عليها الاضطراب فكنت ترى منذ القديم سياسة الرومان وآثار الأحباش وسيطرة الفرس وعلم بني آرام وفلسفة اليونان وتكنولوجيا الشرق والغرب واختراعات شعوب الأرض. كلها غزت البادية والبدو إلى هذا الغزو مرتاحون مطمئنون متعلقون بالسماء، ولا شيء مثل السماء يتعلق التائهون بعمدها، وليس كجبريل يثبِّت النبوة بعُمُدِ السماء ويثبِّت الكتاب بالأزل ويثبت الشريعة بالأبد وإلى الأبد».

عجيب هذا المؤلف:
لقد فقد السيطرة على قلمه.. فلم يعد باحثاً يزن العبارة بميزان العلم والموضوعية، بل تحول إلى خطيب في ساحة مكتظة بالناس.

لقد أعفاه صخب الجمهور وضوضاؤه وفوضاه ولاَتَجَانُسُهُ، من الربط المنطقي بين المقدمات والنتائج، ومن دقة الأحكام، واكتفى بالعبارات التي تنداح بين الجمهور صهيلاً ودوياً وزئيراً.

أ ـ إن البادية لم تكن قبل الإسلام مستعمرة لأية جهة أجنبية. وسوف يتعب المؤلف كثيراً في البحث، فلن يجد في التاريخ عكس هذه المقولة.

أما بعد الإسلام فقد نشرت عباءتها على المسكونة المعروفة آنذاك وأرست إلى جانب الملك والسلطان، منارات العرفان والإيمان.

ب ـ بنو آرام ـ كما اتفق أكثر المؤرخين ـ كانوا واحدة من الموجات البشرية التي قذف بها رحم البادية إلى سوريا، فكانت لهم حضارة، لم يقتصر تأثيرها على البدو والبادية بل عمَّ بلاد الشام وفارس. وكانت اللغة السائدة التي كان يتكلم بها أحبار اليهود كما تكلم بها المسيح. وبها خاطب أباه في السماء «إيليا إيليا لماذا شبقتني، كان يمكن أن تنزع عني هذه الكأس ولكن إرادتك لا إرادتي».

جـ ـ والأحباش الذين قدموا غزاةً، على «فيل أبرهه» دمَّر تهم البادية وجعلَتْ كيْدَهُم في تضليل وانقضت عليهم طيرٌ أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل حتى جعلتهم كعصف مأكول.

د ـ وثقافة الفرس والرومان واليونان والهند والصين، لم تدخل إلى البادية مستعمرة فاتحة، بل تقدمت إلى هؤلاء البدو باستحياء المهزوم. فأخذ البدو منها وأعطوا وتأثروا وأثروا فكانت تلك الثقافة العربية وذلك المجد العلمي الذي تربَّع فوقه أرهاط الفكر والفلسفة أمثال الكندي والفارابي والمعري والخوارزمي وابن الهيثم وابن سينا وابن رشد وغيرهم الكثير.

هـ ـ والتكنولوجيا؟

ما هي علاقتها هنا؟ إنها ابنة هذا القرن ونحن نتحدث عن أحداث القرون الخوالي؟ إنها ابنة الطبيعة وقوانين المادة. فيما نحن نتكلم عما وراء الطبيعة والمادة؟

و ـ والتعلق بالسماء. هو الأساس الذي قامت وتقوم عليه جميع الديانات وحركات الإصلاح التي دعا إليها الملهمون والأنبياء.

وما ندري؟ لأن أبا موسى نسي أن يخبرنا، كيف يمكن أن نتصور ديناً لا يرتبط بالله والسماء والكتاب ولا يؤمن بالأنبياء؟
إن أبا موسى لم يَدُرْ في خَلَدِهِ هذا التصور.
ولكنه يرى التعلق السماوي عيباً وتخلفاً عند البدو المسلمين.

وفضلاً وتقدماً وتطوراً عند غيرهم.

حتى أتباع بوذا وكرشنا وكونفوشيوس، لا يراهم أبو موسى متخلفين ولا يستنكرهم أو يستخف بعقولهم وعقائدهم.

لقد نسي أبو موسى، نفسه تماماً، في البحثين الأخيرين. فأعفى قلمه من مشاعر الحرج العلمي والتاريخي، وبدا في استهتاره بقناعات الناس وثوابتهم الأخلاقية، يشبه الأطفال الذين لا يجدون حرجاً في قضاء حاجتهم على السجادة أمام الضيوف.

ولكن؟؟

لم يكن لنا أن نتكلم بهذا الأسلوب لو لم يدفعنا المؤلف إليه دفعاً. فهو لا يختلف كثيراً عن القذف بالحجارة.

ولنعد إلى القرآن في مواجهةٍ ختاميَّةٍ لمن قال ويقول: إنه من تأليف ورقة بن نوفل ومحمد بن عبدالله، لنقول له:

أ ـ عندما نقرأ الأحاديث النبوية نرى فيها فطرة الإنسان وضعفه ومهابته وخشوعه أمام الله. فنقرأ القرآن فنحسُّ الذات الجبروتية الآمرة الحليمة العليمة المحيطة بكل شيء، والتي بدأ منها الخلق وإليها الخلق يعود.
فكيف صار هذا الاختلاف النوعي في التعبير، لو كان المصدر واحداً؟

ب ـ ينظر القرآن إلى الكون نظرة شمول واحتواء، في جميع نواحي الحياة والفكر والعبادات والشرائع والمعاملات والعلم والتاريخ والأنباء، وقد وضع لكل

منها أحكامها الراسخة، مما أزال قلق الإنسان، وأمكنه البحث فيها عن تساؤلاته منذ أربعة عشر قرناً حتى الآن.

وهذا الكمّ الكبير المتعدّد الجوانب، المتنوع الجواهر، لم يكن ولن يكون في مقدور فردٍ أن يضعه بهذا الإتقان والإحكام، وبهذه المدة من الزمان. بل: إن لجاناً من الاختصاصيين والعلماء. لعاجزون عن إنجاز مثيله مهما امتد بهم العمر. وقد تحدى القرآن في الناس جميعاً فكرة صنع المثيل:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١٧ /٨٨ ـ الإسراء).

جـ ـ في القرآن إعجاز علمي حين يصف أو يتحدث عن الكون والحياة والرياضيات والطب وعلم الأجنَّة والخَلق والموت والنوم وغيرها.

ومنذ منتصف هذا القرن بدأت البيوتات العلمية تلتقي نظرياتها وتجاربها وأبحاثها مع ما أودعه الله في القرآن.

ـ كيف عرف كروية الأرض؟ ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (٣٠ ـ النازعات).

ـ كيف عرف حركتها؟ ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ (٨٨ ـ النمل).

ـ كيف عرف توسع الكون باستمرار؟ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾؟ (٤٠ ـ الذاريات).

(في أواخر أربعينيات هذا القرن نشر آينشتاين مع مجموعة من العلماء بحثاً تضمَّن اكتشافهم لواقع توسع الكون عما كان عليه).

ـ كيف عرف أن كمية الأوكسجين في الهواء تنقص كلما ارتفع الإنسان في الجو وتسبب ضيق الصدر وصعوبة التنفس؟

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (١٢٥ ـ الأنعام).

ـ كيف عرف أن الشمس والقمر يسبحان في الفضاء إلى ما لانهاية؟

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (٤٠ ـ سورة يس).

أين موقع ورقة بن نوفل؟ أو الراهب بحيري؟ أو الراهب عيصا؟ من هذا الإعجاز؟

أين هم؟ متّحِدَيْنِ أو مُنْفَرِدين ـ وكانوا قد ماتوا ـ عندما كان يلقى السؤالُ على رسول الله فينزل الجواب على الفور حاملاً الحلَّ والحكم وأسلوب التنفيد والأدلة وكيفية الرد على الفكر المضاد؟

كله في أسلوب واحد لم تتغير قوة تعبيره وعمقه وصدقه وشموله، بل ظل قمة القمم البيانية، في المباني والمعاني.

وبعد...

فلأختم هذا المطاف مع «قس ونبي» بأمثال من سليمان الحكيم كان جديراً بأبي موسى أن يقف عندها ويتبصّر بها.

«الحكمة لا تنادي والفهم لا يصرخ بأعلى صوته».
«فم الصّديق ينبوع حكمة وفم الشرير يغشاه ظلم».
«الحجر ثقيل والرمل ثقيل وعلم الجاهل أثقل منهما».

و...
بالحكمة الصينية:
«كان لي صديق يتاجر بالرمل فأفلس عندما هبّت الرياح».

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الكتاب المقدس ـ العهد القديم والعهد الجديد.
٣ ـ تفسير ابن كثير.
٤ ـ تفسير الجلالين.
٥ ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي أجزاء تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٧.
٦ ـ الاتقان في علوم القرآن ـ تفسير القمي.
٧ ـ تهذيب التهذيب.
٨ ـ الطبري.
٩ ـ نهج الإسلام عدد ٤٢٠.
١٠ ـ محمد في الكتاب المقدس للبروفيسور عبد الأحد داوود ـ ترجمة فهمي شمار مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق ـ طبعة ٢ ـ دار الضياء للنشر والتوزيع ـ ١٩٨٥ م.
١١ ـ صحيح البخاري.
١٢ ـ صحيح مسلم.
١٣ ـ مباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ

بيروت ١٩٦٥ م.
١٤ ـ تاريخ الكنيسة طبعة ٩٦٤ ـ ترجمة الكسندروس ـ مطران حمص وتوابعها.
١٥ ـ لسان العرب. دار لسان العرب، بيروت ـ طبعة أولى ـ د. ت: إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي.
١٦ ـ المقاييس.
١٧ ـ تاج العروس.
١٨ ـ تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار ـ للأزرقي ـ جزءان.
١٩ ـ الإمتاع لابن الجوزي.
٢٠ ـ سيرة ابن هشام ـ تقديم طه عبد الرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥ م.
٢١ ـ السيرة المكية.
٢٢ ـ السيرة الحلبية.
٢٣ ـ الحيوان ـ للجاحظ.
٢٤ ـ توينبي.
٢٥ ـ قصة الحضارة لوول ديورانت ـ الطبعة الخامسة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر في جامعة الدول العربية.
٢٦ ـ الأغاني.
٢٧ ـ طبقات ابن سعد.
٢٨ ـ المعارف لابن قتيبة الدينوري.
٢٩ ـ تاريخ الله لجورجي كنعان ـ منشورات الندوة الكنعانية ـ طبعة ١٩٩٠ م.
٣٠ ـ روائع البيان «محمد علي الصابوني» ص ١٢٩ وما بعدها.
٣١ ـ تاريخ اليعقوبي ـ ٢٨/١٠.
٣٢ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي ـ ١٠ ـ أجزاء ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ مكتبة النهضة. بغداد ـ ١٩٤٨ م ـ ١٩٧٣ م.
٣٣ ـ المسعودي ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ دار الأندلس ١٩٧٣م.

الفهرست